لاروز

«من المهم القول إن إردريتش تعدُّ واحدة
من أفضل الكتّاب الأمريكيين الذين لا يزالون
أحياء، وإن لاروز عمل رائع»

غارديان

لاروز

روايــة

لويس إردريتش

ترجمة: مروان سعد الدين

Qindeel | قـنـديل

LaRoSE

LOUISE ERDRICH

لاروز

لويز إردريتش

ترجمة: مروان سعد الدين

© 2019 Qindeel Printing, Publishing & Distribution

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

موافقة «**المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-10- 01-9753128 تاريخ 2019/2/7

ISBN: 978 - 9948 - 38 - 859 - 3

Published by Corsair 2017
Copyright © 2016 by Louise Erdrich

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص. ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 2019

الطبعة الأولى: نيسان / إبريل 2019 م – 1440 هـ

المحتويات

إهداء
9

شكر وتقدير
11

مقدمة المترجم
13

بيتان
1999 ـ 2000
15

خذا كل شيء

1967 ـ 1970
257

ولفريد ولاروز
307

1000 حالة وفاة
20002 ـ 20003
333

التجمّع
565

إهداء

إلى بيرشا

ومن أجل كل لاروز

شكر وتقدير

ذكرت ريتا غورنو إردريتش، والدتي، أن أسرة من قبيلة أوجيبوا قد سمحت لوالدين يعانيان من خسارة ابنهما بتبنّي ولدها، فعل مؤقت يحاكي حُكماً قديماً. شكراً لكِ يا أمي. شكراً لك يا أبي، رالف إردريتش من أجل خمسة وثلاثين عاماً من التدريب في الحرس الوطني. شكراً لكِ يا بيرشا لقيامك بتعليم الأوجيبوا إلى جيل جديد من لاروز، ولك يا بالاس لقراءتك المتأنية وسرورك الدائم، وآزا (انظر في الأسفل)، وكيزه، ونينايكيزيكزك، وامرأة السماء لإصلاحهم عالمنا بهدوء. شكراً لكم ريتشارد ستاملمان، ود. سانديب باتل، وجيمس وكريستا بوتسفورد، وبرندا تشايلد، وديفيد جيزينسكي، وبرستون مكبرايد، وجين أوه، وتيري كارتن محرّر كتابي، وترنت دفي مدقّق نسختي.

انتسب جدّي باتريك غورنو، من الأنيشينابه، إلى المدرسة الداخلية الهندية في فورت توتن والمدرسة الهندية في وابتون. طوال حياته، كتب بخط يده الجميل والمتقن.

ذكرت ريتا غورنو إردريتش، والدتي، أن أسرة من قبيلة أوجيبوا قد سمحت لوالدين يعانيان من خسارة ابنهما بتبنّي ولدها، فعل مؤقت يحاكي حُكماً قديماً. شكراً لكِ يا أمي. شكراً لك يا أبي، رالف إردريتش من أجل خمسة وثلاثين عاماً من التدريب في الحرس الوطني. شكراً لكِ يا بيرشا لقيامك بتعليم الأوجيبوا إلى جيل جديد من لاروز، ولك يا بالاس لقراءتك المتأنية وسرورك الدائم، وآزا (انظر في الأسفل)، وكيزه، ونينايكيزيكزك، وامرأة السماء لإصلاحهم عالمنا بهدوء. شكراً لكم ريتشارد ستاملمان، ود. سانديب باتل، وجيمس وكريستا بوتسفورد، وبرندا تشايلد، وديفيد جيزينسكي، وبرستون مكبرايد، وجين أوه، وتيري كارتن محرّر كتابي، وترنت دفي مدقّق نسختي.

انتسب جدّي باتريك غورنو، من الأنيشينابه، إلى المدرسة الداخلية الهندية في فورت توتن والمدرسة الهندية في وابتون. طوال حياته، كتب بخط يده الجميل والمتقن. استخدمت آزا إردريتش كتاباته في المدرسة الداخلية حين صمّمت غلاف هذا الكتاب. ربطتنا جميعاً بذلك الفعل مع جدّتها الكبرى وخالتها، جدّتنا لاروز الأصلية.

مقدمة المترجم

في هـذه الروايـة الرائعـة تسـتخدم الكاتبـة مهاراتهـا فـي السـرد لتقديـم حكايـة معاصـرة حول حادثـة مأسـاوية، والحاجة إلـى تحقيـق العدالـة بطريقـة مـا، مـع الحفـاظ فـي الوقـت نفسـه علـى تقاليـد راسـخة وعتيقـة فـي ثقافـة الأمريكييـن الأصلييـن. تقـدم لمحـة عمّـا يتعلّمـه أبنـاء الهنـود مـن آبائهـم.

أسـرتان تربطهمـا وشـائج قرابـة وصداقـة، وتتشـاطران مـا يتيسـر لهمـا، ويلعـب أولادهمـا معـاً دائمـاً. الزوجتـان أختـان غيـر شـقيقتين، والزوجـان صديقـان مقرّبـان. يطلـق أحدهمـا النـار علـى ابـن الآخـر بالخطـأ، ويقـرّر مـع زوجتـه منـح ابنهمـا للأسـرة الأخـرى تعويضـاً لهـم عـن فقـدان فلـذة كبدهـم.

ينتقـل لاروز بيـن الأسـرتين، ويصيـر بمـرور الأعـوام صلـة الوصـل بينهمـا، ويبـدأ الألـم المشـترك يخفـت أخيـراً. ثـم يتدخّـل رجـل يرغـب فـي الانتقـام ويبـدأ بإثـارة المتاعـب والشـكوك بشـأن طريقـة مـوت الفتـى، مـا يهـدّد السـلم الهـشّ بيـن الأسـرتين.

لاروز رواية عن مرارة الفقد، والمطالبة بالإنصاف، وجبر الخواطر، ومشاعر الأسى والغضب، والإحساس بالذنب، والرغبة في الانتقام. في الوقت نفسه، تقدّم لنا مثالاً عمّا ينبغي أن تكون عليه التضحية، والتعويض، والتسامح، والشهامة.

تفيض شخصيات لاروز بمشاعر متناقضة في آنٍ معاً، وتقدم حبكة عن العلاقة بين الانتقام والعدالة، والأسى الكامن في النفس والظاهر على الوجوه، والتعاطف الذي يحتاج إليه كل الناس، ولكنهم لا يحصلون عليه إلا نادراً.

مروان سعد الدين

31/12/2018

بيتان

2000 – 1999

الباب

انتظر لاندرو حيث تتشعّب حدود المحميّة على نحو غير واضحٍ للعيان عند مجموعة أشجار في أجمة كثيفة: كرز برّي، حور، سنديان. قال إنه لم يكن يشرب، ولم يظهر دليل على ذلك لاحقاً. كان لاندرو كاثوليكياً ورعاً وملتزماً أيضاً بالطرق التقليدية، رجلاً قد يقتل ظبياً، شخصاً يشكر الربَّ بالإنجليزية، ويحرق التبغ من أجل إله آخر ويتضرّع إليه بلغة قبيلة أوجيبوا. كان متزوجاً من امرأة أكثر تديناً منه، وقد أنجبا أبناء، ويحاولان تأمين معيشة كريمة لهم. كان جاره بيتر رافيتش يمتلك مزرعة كبيرة مكوّنة من قطعٍ صغيرةٍ متجاورة من الأرض، التي جرى توزيعها سابقاً على الهنود، ويزرع حقول الذرة، والصويا، ويجمع القش عند الحافة الغربية لها. اعتاد بيتر ولاندرو وزوجتاهما، وهما أختان غير شقيقتين، على تبادل أغراض بينهم: بيض مقابل ذخيرة، جولات بالتناوب إلى البلدة، ثياب أطفال، بطاطا مقابل طحين، ذلك النوع من الأشياء. لعب

أبناؤهما معاً على الرغم من أنهم يذهبون إلى مدرستين مختلفتين. حدث ذلك عام 1999، وقد تكلم رافيتش عن الألفية، وقيامه بتجهيز مصدر بديل للطاقة، وشراء برنامج خاص للحاسوب، وتخزين مواد أساسية، وحتى ملء خزّان وقود قديم مدفون بجانب حظيرته. ظنَّ رافيتش أن شيئاً ما سيحدث، ولكن ليس ما جرى فعلاً.

كان لاندرو قد تتبّع آثار الظبي كل الصيف، متحيّناً فرصة النيل منه، إلى ما بعد الانتهاء من حصاد الذرة. سيمنح جزءاً منه إلى آل رافيتش، كالعادة. اعتاد الحيوان القيامَ بأشياء معينة، وقد بدا أنه يشعر بالأمان على ذلك الدرب. كان ينتظر ويراقب المكان كل أصيل، من ثم سيخرج من مخبئه قبل الغسق، ويجتاز حدود المحمية ليرعى على حدود حقول رافيتش. جاء آنذاك، على الطريق المعتاد، وتوقف ليشم الروائح التي تصل إليه، ولكن لاندرو كان بعكس اتجاه الريح. استدار الظبي لينظر إلى حقل ذرة آل رافيتش، ما منح لاندرو تسديدة مثالية. كان بارعاً، فقد بدأ صيد طرائد صغيرة مع جدّه بعمر السابعة، وأطلق الرصاصة بثقة كبيرة. ابتعد الظبي عن المكان، وأدرك أنه قد أصاب شيئاً مختلفاً، كانت هناك غشاوة في اللحظة التي ضغط فيها على الزناد. عندما مشى نحو البقعة ليتوثّق من الأمر ونظر إلى الأسفل، عرف أنه قد قتل ابن جاره الصغير.

لم يلمس لاندرو جثة الفتى، وإنما ألقى بندقيته وركض عبر الأحراج إلى باب منزل رافيتش الريفي، بنافذته

الكبيرة، وشرفته المرتفعة قليلاً. عندما فتحت نولا الباب ورأت لاندرو يحاول أن ينطق اسم ابنها، جثت على ركبتيها وأشارت إلى الطابق الأعلى، حيث يوجد، لكن لم يكن هناك. لقد توثّقت من الأمر توّاً ولم تعثر عليه، وكانت على وشك الخروج للبحث عنه حين سمعت صوت إطلاق النار. حاولت البقاء على يديها وركبتيها، ثم سمعت لاندرو على الهاتف، يخبر عامل المقسم بما قد جرى. ألقى لاندرو سمّاعة الهاتف حين حاولت الاندفاع إلى الخارج، ووضع ذراعيه حولها. ضربته وخدشته في محاولة لتحرير نفسها، وكانت لا تزال تقاومه حين وصلت الشرطة القبَلية وفريق الطوارئ. لم تقوَ على الخروج من الباب، ولكن رأت آنذاك المسعفين يهرولون مسرعين عبر الحقل. تمايلت سيارة الإسعاف ببطء خلفهم، على الدرب العشبي نحو الأجمة.

صرخت بأبشع الألفاظ بحق لاندرو؛ شتائم لا يمكن أن تتذكرها. كان أفرادٌ من الشرطة القبلية هناك، أشخاص تعرفهم. صاحت: أعدموه، أعدموا هذا الحقير. عندما وصل بيتر وتكلم معها، فهمت ما جرى، لقد حاول المسعفون ولكن لم يكن بوسعهم فعل شيء، كما شرح زوجها. تحرّكت شفتاه، لكن لم تُسمع الكلمات. فكّرت أنه يبدو هادئاً جداً، رزيناً تماماً، في حين تزاحمت الأفكار في رأسها. أرادت من زوجها أن يضرب لاندرو بالهراوة حتى الموت، من دون أي تردّد. على الرغم من أنها كانت امرأة ضئيلة الحجم وصغيرة القد، ولم تؤذِ أحداً أبداً في حياتها،

إلا أنها أرادت إراقة الدماء. لقد استيقظت ابنتها البالغة عشرة أعوام مريضةً ذلك الصباح؛ لهذا بقيت في البيت ولم تذهب إلى المدرسة. نزلت على الدرج، لا تزال تشعر بالحمّى، واقتربت من الغرفة. لم تكن والدتها تحب أن تثير الفوضى مع شقيقها، وأن يكدّسا الدمى في أكوام، ويخرجاها كلها من صندوق الألعاب. بهدوء، أخرجت الابنة الدمى من الصندوق ووضعتها هنا وهناك. شاهدتها أمها وجثت فجأة على ركبتيها، وأبعدت الألعاب عنها. تكلمت بقسوة مع ابنتها. هل يمكن ألا تُحدثي فوضى؟ هل هناك جزء منك يمكن ألا يُحدث فوضى؟! بدأت الصراخ مجدداً حين أعادت الدمى إلى مكانها. أخرجت الابنة الألعاب مرة أخرى. أغلقت الأم صندوق الدمى بعنف. عندما كانت والدتها تجثو على الأرض وتلتقط الألعاب، أشاحت الابنة بنظرها بعيداً عنها وتكلمت بصوتٍ مرتفعٍ لتشوّش على كلماتها.

كان اسم الابنة ماجي، تيمناً بخالتها الكبرى ماجي بيس، وبشرتها شاحبة وشعرها بنيّ بلون الكستناء استقرَّ على كتفيها في جعدة رقيقة. كان شعر دستي أشقر أصهب، مثل لون الظبي، ويرتدي قميصاً بنياً فاتحاً قصير الردنين. جرت الواقعة في موسم الصيد، على الرغم من أن ذلك لم يكن أمراً ذا شأن عند طرف المحمية حيث أطلق لاندرو النار على الظبي.

شعر القائم بعمل قائد الشرطة القبلية زاك بيس، ومسؤولة الطب الشرعي في المقاطعة، وهي ممرضة

متقاعدة تبلغ من العمر اثنين وثمانين عاماً وتدعى جورجي مايتي، بالإرهاق. في اليوم السابق، وقع حادث تصادم وجهاً لوجه عند 2:30 صباحاً بعد إغلاق المشارب، لم يكن أيٌّ من المتوفين في السيارتين يضع حزام الأمان. كان القاضي الشرعي في الولاية موجوداً في المنطقة، وقد توقف في المحميّة لإنجاز بعض الأعمال المكتبية. كان زاك لا يزال يعمل على تلك القضية حين وردت المكالمة بشأن دستي. توقف قليلاً ليضع رأسه على الطاولة قبل أن يتصل بجورجي، التي ستقنع المحقّق بالبقاء بضع ساعات إضافية وفحص الطفل حتى تستطيع الأسرة البدء فوراً بمراسم الجنازة. اضطر زاك إلى الاتصال بإيمالاين، فقد ترعرعا معاً لأنهما قريبان. حاول حبس دموعه، فهو لا يزال يافعاً جداً على وظيفته تلك، وعطوفٌ جداً ليكون شرطياً قبلياً، وقال إنه سيزورها لاحقاً. عرفت إيمالاين عن الحادثة أثناء وجود أبنائها في المدرسة، وقرّرت الذهاب إلى البيت لتكون باستقبالهم.

اقتربت إيمالاين من الباب وراقبت أولادها الأكبر سناً يترجلون من الحافلة. مشوا نحو البيت يطأطئون رؤوسهم، ويضربون الأعشاب بأيديهم أثناء تجاوزهم القناة، فعرفت أنهم قد سمعوا النبأ أيضاً. هوليس، الذي عاش معهم منذ صغره، وسنو، وجوزيت، وويلارد. لا أحد آخر في المحمية يحمل اسم ويلارد، الذي لم يختر لقباً بعد، ولهذا يعدُّ كوتشي. خرج لاروز، ابنها الأصغر سناً، ومشى ببطء للقائهم آنذاك، وهو بمثل عمر ابن نولا. لقد حملتا

في الوقت نفسه، ولكن إيمالاين ذهبت إلى مستشفى الرعاية الصحية الخاصة بالهنود. انقضت ثلاثة أشهر قبل أن ترى طفل نولا. اعتاد الطفلان، القريبان، على اللعب معاً، في حين تولّت إيمالاين تحضير الشطائر، وتسخين حساء اللحم من أجلهما.

قالت سنو وهي تراقبها بهدوء: «ماذا سيحدث الآن؟».

امتلأ وجه إيمالاين بالدموع مجدداً، وتغضّن جبينها. عندما كانت تجثو للصلاة، وجدت نفسها تضرب رأسها على الأرض، بدا أن الخوف يرشَح منها في كل اتجاه.

قالت: «لا أعرف. سأذهب إلى الشرطة القبلية واجلسي مع أبيك. كانت تلك...».

كادت إيمالاين تقول حادثة فظيعة، ولكنها وضعت يديها فوق فمها، وسالت الدموع على وجنتيها وبلّلت ياقتها؛ لأنه لم يكن هناك شيء يمكن قوله عمّا جرى - أمر لا يمكن الحديث عنه - ولم تعرف إيمالاين كيف ستتمكن هي أو لاندرو، أو أي شخص، خاصة نولا، من المضي قدماً في الحياة بعد ذلك.

انقضى يوم كامل، دقيقة بعد أخرى. جاء زاك، وجلس على الأريكة، ومرّر يده عبر شعره الكث.

قال: «راقبيه. يجب أن تراقبيه يا إيمالاين».

ظنّت في ذلك الوقت أنه يعني أن لاندرو قد يفكّر في الانتحار، وهزّت رأسها. كان لاندرو بارّاً بأسرته ويهتم إلى

حد الهوس بزبائنه. عمل مساعد معالج فيزيائي، وتدرّب ليكون فني غسيل كُلى، من ثم تولّى العناية بكبار السن في مستشفى الرعاية الصحية الهندية، وحظي بثقة الجميع هناك. كان مسؤولاً عن أوتي وزوجته باب. عندما اتصلت برجل عجوز لطيف يدعى أوان، وهو شخص مصاب بمرض عضال، وأخبرت ابنته بأن لاندرو لن يأتي ذلك اليوم، قالت الابنة إنها ستأخذ إجازة من العمل وتعتني بوالدها حتى يعود إلى ممارسة عمله. أحبَّ والدها لعب الورق مع لاندرو، ولكن نبرة الابنة دلَّت على أنها لم تتفاجأ بالأمر. ربما كانت إيمالاين تشعر بالارتياب، أعصابها متعبة، لكن شعرت بأن ابنة أوان تردّدت قبل أن تقول الشيء نفسه تقريباً مثل زاك: «ينبغي أن تُبقي عينيك عليه». قالت إيمالاين في قرارة نفسها إن ذلك يُعزى إلى محبتهما للاندرو، ولكن عرفت لاحقاً أن ذلك جزء فقط مما يدور حولها.

انتهى التحقيق القصير، وليالي الأرق، بسرعة قبل أن يتم إطلاق سراح لاندرو. أخذ زاك المفتاح من إيمالاين ووضع البندقية في صندوق السيارة. خرج لاندرو من مخفر الشرطة، ورافقته إيمالاين إلى القسّ مباشرة.

أمسك الأب ترافيس وزنياك أيديهما وابتهل إلى الرب. لم يظن أنه سيجد الكلمات الملائمة، ولكنها جاءت من تلقاء نفسها. خرجت المفردات طبعاً غير مفهومة، قضاؤه، لا يمكن الإحاطة به، قدره. لقد تدرّب أعواماً طويلة قبل

أن يصير قساً. كان الأب ترافيس من مشاة البحرية، أو لا يزال بالأحرى: رقم التسجيل 8/ 1، 24 مايو. لقد نجا من تفجير الثكنة في 1983 في بيروت، لبنان. توجد ندوب عميقة على عنقه، تلتفّ مثل حلقات عشوائية، وهي تميّزه من الخارج، ولكن آثارها تمتد إلى داخله أيضاً.

أغلق عينيه، وشدَّ على أيديهما، وبدا أنه قد أُصيب بدوار. كان قد تعب من الابتهال إلى الرب بشأن ضحايا حادث السيارة، وتعب من إضافة «ضع حزام الأمان» في نهاية كل عظة، وتعب من كل تلك الوفيات الكثيرة الباكرة، وجهّز نفسه للسقوط على الأرض. تساءل، كما يفعل كل يوم، كيف يمكنه مواصلة تلك المزاعم أمام الناس الذين يحبهم؟ حاول أن يجعل قلبه ينعم بالسكينة. يبكي مع أولئك الذين يبكون. حرقت الدموع وجنتي إيمالاين. حاول الاثنان بفارغ الصبر إبقاء الدموع بعيداً عن وجهيهما أثناء تبادل أطراف الحديث، وقد احتاجا إلى مناديل لفعل ذلك. كان لدى الأب ترافيس مناديل وبكرة من المناشف الورقية، وقد مزّق قطعاً منها من أجلهما. كان قد فعل الشيء نفسه قبل يومين من أجل بيتر، وليس نولا، التي جفّفت الكراهية دموعها.

سألت إيمالاين آنذاك: «ماذا ينبغي أن نفعل؟ كيف يمكن أن تمضي الحياة قدماً؟».

بدأ لاندرو تمتمة التراتيم، وعيناه مغلقتان. ألقت إيمالاين نظرة عليه، وأخذت مسبحة من الأب ترافيس

وتابعت الابتهال معه. لم يبكِ الأب ترافيس، ولكن عينيه المرهقتين بدتا حمراوين وجفناه شاحبين، وقد تدلّت الخرزات من قبضته. كانت يداه قويتين وخشنتين؛ لأنه ينقل الصخور ويحتطب من الأجمة، ويقوم بعدّة أعمال يدوية، يجعله ذلك يشعر بالارتياح. توجد كومة كبيرة من الحطب خلف الكنيسة الآن. كان في السادسة والأربعين من العمر عالق هناك، ويشعر بأنه أكثر قوة، وفهماً للحياة، وحزناً من قبل. علّم الفنون القتالية لمراهقي فريق الرب، وأدّى بعض تدريبات مشاة البحرية معهم، أو بنفسه فقط. كانت هناك أثقال مرتّبة بعناية خلف الطاولة، ومقعد خشبي طويل خلف ستارة قارئ القدّاس. جلس لاندرو صامتاً بعد أن انتهوا من ذلك. كان الأب ترافيس حاضراً في كل محطات حياة لاندرو، الأعوام التي قضاها في المدرسة الداخلية، والكويت، من ثم سنوات الطيش وتناول الشراب، والعودة إلى الرشد عبر التداوي التقليدي، وتلك الحادثة آنذاك.

لقد رأى الأب ترافيس، أثناء الأعوام التي قضاها في المحمية، أشخاصاً كثيرين يبذلون أفضل ما لديهم، ولكن يواجهون أسوأ الظروف أحياناً. مدَّ لاندرو يده وأمسك ذراع القس، في حين ضمّت إيمالاين لاندرو. تمتموا جولة أخرى من الترانيم الكنسية «السلام عليك يا مريم» معاً، وجعلتهم الإعادة يشعرون بالسكينة مجدداً. عندما توقفوا قبل أن يغادرا المكان، انتاب الأب ترافيس إحساسٌ بأن هناك شيئاً يودّان السؤال عنه.

جاء لاندرو وإيمالاين آيرون إلى الجنازة، وجلسا في المقعد الخلفي قرب الباب الجانبي، قبل أن يُنقل النعش الأبيض الصغير على الممر.

كانت إيمالاين امرأة نحيلة، ورقيقة القدّ، ويمكن رؤية عظامها وركبتيها البارزتين بوضوح، في حين أن أنفها معقوف قليلاً، وعينيها جاحظتان وخضراوان داكنتان. كانت عينا ابنتها جوزيت مثل عينيها، في حين تشبه أعين سنو، وكوتشي، ولاروز عيني أبيهم البنية الداكنة. ورث أبناؤها لون بشرتهم البني الداكن عن والدهم. كانت أماً حنوناً، وقد فهم لاندرو بعد ولادة أطفالهما أنه سيتراجع إلى المرتبة الثانية، وأنه سيستعيد يوماً ما، إن عاش طويلاً، المكانة الأولى في قلبها مجدداً. أبقت يدها على ساقه أثناء رحلتهما إلى البيت بعد رؤية القس، وأمسكته بقوة حين ارتعش. في الممر المؤدي إلى المنزل أوقف السيارة في مكانها، ولكن من دون أن يطفئ المحرك. كشف ضوء خافت وجهيهما.

قال: «لا يمكنني العودة إلى البيت الآن».

رمقته بنظرة قلق. فكّر لاندرو بها حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها؛ إيمالاين بيس، وكيف بدا مظهرها في بداية سنواتهما، وأنها إذا ابتسمت فهذا يعني القيام بأشياء جنونية معاً. كان يكبرها بستة أعوام. قاما ببعض الأمور الجامحة آنذاك، وقد أقرّا بذلك، ولكن لم ينته الأمر تماماً بعد. كانا يعانيان معاً، وينبغي أن يتخلّصا من تلك المشاعر المحبطة واحدة بعد أخرى. عرفت فوراً ما يفكّر فيه.

قالت: «لا يمكنني إرغامك على دخول البيت. لا يمكنني منعك ممّا تريد أن تفعله».

لكن مالت نحوه، وأمسكت وجهه بيديها، ووضعت جبينها على جبينه. أغلقا أعينهما، كأن أفكارهما يمكن أن تندمج في فكرة واحدة. ثم خرجت من السيارة.

قاد لاندرو السيارة خارج المحميّة إلى هوبدانس، وتوقف عند نافذة متجر بيع مشروبات. اشترى قارورة، ووضع الكيس على المقعد بجانبه. تابع القيادة على الطرق الخلفية حتى لم يعد يرى أضواء، ثم أوقف المركبة، وأطفأ المحرك. جلس ساعة تقريباً والقارورة إلى جانبه، ثم أمسكها ومشى نحو الحقل الجليدي. عصفت الريح حول رأسه، فاستلقى هناك، وحاول إبعاد صورة دستي عنه إلى السماء. بذل مجهوداً كبيراً أثناء محاولته العودة بالوقت إلى الخلف، وتمنّى لو أنه قد لقي حتفه قبل أن يذهب إلى الغابة. لكن في كل مرة أغلق عينيه فيها رأى الفتى ممدداً على الأوراق. كانت الأرض جافة، والنجوم تشع في الأعلى، وأضواء طائراتٍ وأقمارٍ اصطناعيةٍ تومض فوقه. ظهر القمر، بلونٍ أبيض ساطع، ثم أغلقت السحب ستارتها، وغطّت كل شيء.

نهض بعد عدة ساعات وقاد السيارة إلى البيت. ظهر ضوء خافت من نافذة غرفة نومهما. كانت إيمالاين لا تزال مستيقظة، تحدّق إلى السقف. عندما سمعت المركبة تتحرّك على الحصى الجافّة، أغلقت عينيها، ونامت، ثم

استيقظت قبل الأولاد. خرجت من المنزل ووجدته في الخيمة التقليدية مكوّراً ومتدثّراً بالقماش، والقارورة لا تزال في كيسها. طرفت عيناه حين رآها.

قالت: «يا إلهي. أيها الغراب العجوز، ستؤذي نفسك بهذه الطريقة».

وضعت القارورة في زاوية الخيمة، ثم دخلت البيت وأخرجت الأولاد إلى الحافلة. ارتدت ثياباً دافئة وساعدت لاروز على فعل الشيء نفسه، وأخذت كيس نوم إلى الخارج من أجل زوجها. بدأ يشعر بالدفء، في حين أشعلت مع لاروز ناراً، وألقت عليها تبغاً أخرجته من جراب خاص، ووضعت حجارة صمّاء فيها، ما جعلها تستعر. أخرجا الدلو والمغرفة النحاسيين، والبطانيات الأخرى، والأدوية، وكل ما يحتاجون إليه. ساعد لاروز في كل ذلك؛ لأنه يعرف كيف تتم الأمور. كان آخر العنقود والابن المفضّل لدى لاندرو، الذي توخّى الحرص دائماً بشأن عدم إظهار ذلك للآخرين. عندما جثم لاروز القرفصاء بجدّية كبيرة على ساقيه النحيلتين لكن القويتين لترتيب غليوني والديه والحزمة الصغيرة من الأدوية، بدأ الإعياء يظهر على وجه لاندرو الكبير ببطء. نظر إلى الأسفل، وبعيداً، وإلى كل مكان حوله، وبدا مكتئباً تماماً من الهموم التي أثقلت أفكاره. عندما رأته إيمالاين ينظر بتلك الطريقة، أمسكت القارورة وأراقتها على الأرض بينهما. عندما تدفق السائل إلى الأرض، غنّت أغنية قديمة عن ابن عرس يدعى

كوينغوا-آغي، الذي يساعد أرواح المثقلين بالهموم. عندما فرغت القارورة، رفعت بصرها إلى لاندرو، ونظرت إليه بثبات، فبدا غريباً وحائراً. راودتها أفكارٌ خاصة بها في ذلك الوقت تحديداً، وفهمت أفكاره. توقفت، وحدّقت بقوة إلى النار، والأرض، من ثم همست: «لا». حاولت أن تغادر المكان، لكنها لم تستطع، وتبلّل وجهها بالدموع حين واصلت العمل.

* * *

جعلا النار تستعر، ووضعا فيها ثماني، أربع، ثماني حجارة. أمضيا وقتاً أطول من المعتاد في تسخين الصخور الصغيرة في النار، وفتح قطع القماش المشمّع والأبواب وإغلاقها، وجلب الأحجار. لكن كان ذلك كل ما ينبغي عليهما فعله، وكل ما يمكنهما القيام به، على كل حال، باستثناء أن يشربا حتى الثمالة، وهو شيء لم يكونا سيفعلانه آنذاك. لقد تجاوزا تلك المرحلة، في ذلك الوقت على الأقل.

غنّت إيمالاين أغاني للاستفادة من الأدوية، ودعوة أرواح المانيدوغ والأديزوكانغ للحضور. أنشد لاندرو أغاني من أجل الحيوانات والرياح التي تهب في كل اتجاه. عندما بات الجو مثقلاً بالحرارة ومشبعاً بالبخار، ابتعد لاروز نحو الحافة، ورفع حافة الغطاء القماشي، وتنفّس الهواء البارد. نام، وبات يرى الأغاني في أحلامه. أنشد والداه للكائنات التي قد طلبا منها الحضور لمساعدتهما، وغنّيا لأسلافهما،

أولئك الذين طوى النسيان أسماءهم منذ وقت طويل. كان الأمر أكثر تعقيداً بالنسبة إلى الأشخاص الذين تذكّرا أسماءهم، التي تبدأ بكلمة الراحل مع مَن قضى نحبه، أو موجود في عالم الأرواح. أمسك لاندرو وإيمالاين أيدي بعضهما البعض بقوة من أجل هؤلاء الناس، وألقيا أدويتهما بين الجمار المتوهجة، من ثم أطلقا صرخات حادّة.

قالت إيمالاين: «لا». همهمت وكشفت أسنانها. «سأقتلك أولاً، لا».

هدّأ من روعها، وتحدّث معها، وابتهل من أجلها، ما جعلها تشعر بالاطمئنان. لقد رقصا رقصة الشمس معاً، وتكلما عمّا قد سمعاه حين وقعا مغشياً عليهما، وما قد رأياه حين صاما على جرف صخري. لقد خرج ابنهما من الغيوم متسائلاً عن سبب ارتدائه ثياب فتى آخر، وشاهدا لاروز يطفو فوق الأرض. كان قد وضع يده على صدريهما وهمس: «سوف تعيشان». عرفا ما ينبغي فعله وفقاً لتلك الرؤيا آنذاك.

انهارت إيمالاين تدريجياً، وتوقفت أنفاسها، وتكوّرت نحو ابنها. لقد امتنعا عن إطلاق اسم لاروز على أحد أولادهما حتى وُلد ابنهما الأخير. كان اسماً يدل على البراءة والقوة في الوقت عينه، وحمله المعالجون التقليديون في الأسرة سابقاً. قرّرا عدم استخدامه، ولكن بدا أن لاروز قد جاء إلى هذه الدنيا حاملاً ذلك الاسم.

كان هناك لاروز في كل جيل من أسرة إيمالاين طوال أكثر من مئة عام. تشعّبت أسرتاهما في وقت ما من تلك

الفترة، وقد حملت أم إيمالاين وجدّتها اسم لاروز. ينتسب كل لاروز من تلك الأجيال إلى كليهما، وقد عرفا القصص والتاريخ المرتبط بكل واحدٍ منهم.

* * *

واصلت مينك إحداث جلبة خارج المركز التجاري في منطقة أوجيبوا المعزولة في عام 1839. أرادت شراء بعض الحليب، والشراب، ومزيج من السوائل المقطّرة الخام، وفلفل أحمر، وتبغ. كانت قد صرخت وزعقت من أجل الحصول على برميل صغير من قبل. أثارت الضوضاء حنق التاجر، ولكن ماكينون لم يكن ليضربها من أجل أن يرغمها على الصمت. كانت مينك من أسرة منعزلة تشتهر بالعنف وإتقان أفرادها العلاج التقليدي، والابنة الجميلة لشينغوبي، صائد الحيوانات ذات الفراء. كانت أيضاً الزوجة الجميلة لماشكيغ، حتى شوّه وجهها وطعن أشقاءها الأصغر سناً منها حتى الموت. جثمت ابنتها اليافعة معها على البطانية المتسخة بالدهون، وبدا أنها تحاول التواري عن الأنظار. داخل المركز كان ولفريد روبرتس، الموظف لدى ماكينون، قد لفّ رأسه بفرو ثعلب لمنع الصوت من الوصول إلى أذنيه، وثبّت يديه المتيبستين تحت ذقنه. كتب بخط أنيق مائل ثلاثة أشياء بين السطور. كانوا يخشون دائماً نفاد الورق في ذلك المكان البعيد في الغابة.

كان ولفريد قد ترك أسرته في بورتسموث، نيو هامبشاير؛ لأنه الأصغر سناً بين إخوته الأربعة ولا يوجد شاغر له في

عمل الأسرة ـ مخبز. كانت والدته ابنة مدرّس، وقد تولّت تعليمه بنفسها. اشتاق إليها، وافتقد كتبه، لم يكن قد أخذ إلا اثنين فقط حين تم إرساله للعمل مع ماكينون: معجم جيب وكتاب كسنوفون الموسوم حملة عسكرية، الذي امتلكه جدّه سابقاً، ولم تكن والدته تعرف أنه يحتوي أوصافاً بذيئة. كان في السابعة عشرة فقط من عمره.

أزعجه الصراخ، على الرغم من فراء الثعلب على رأسه. حاول أن ينظّف المكان حول الموقد، ورمى كومة من بقايا الطعام إلى الكلاب في الخارج. عندما دخل مجدداً، سمع جلبة واكتشف أن مينك وابنتها تحاولان إبعاد الكلاب. لم يعد بمقدوره تحمّل كل تلك الضوضاء.

قال ماكينون: «لا تخرجوا إلى هناك. أمنعكم من ذلك. سنتخلّص من المتاعب إذا قتلتهما الكلاب ونهشتهما».

انتصرت المرأتان في ذلك القتال أخيراً، ولكن الضجيج تواصل في الظلام.

بدأت مينك الصراخ مجدداً قبل شروق الشمس، وبدا عويلها الحاد أعلى من السابق. شعر الرجال بالتعب وبوخزٍ في أعينهم. ركلها ماكينون بقوة، أو ركل إحداهما، حين مرَّ بجانبهما. بات صوتها أجشّ بعد ظهر ذلك اليوم، ما جعله أكثر إزعاجاً فقط. ظنَّ ولفريد أن شيئاً فيه قد تغيّر، إذ إنه لم يفهم اللغة جيداً.

قال ماكينون: «تريد المرأة العجوز القاسية أن تبيعني ابنتها».

كان صوت مينك مزعجاً ـ كلماتها بذيئة ـ وهي تصف الأمور التي يمكن للفتاة القيام بها إذا قدّم ماكينون لهما بعض الحليب فقط. وجّهت صرخاتها بكامل قوتها نحو الباب المغلق. كان صيد الأسماك وتنظيفها جزءاً من عمل ولفريد إذا طلب ماكينون منه ذلك. خرج الشاب من المكان واتجه نحو النهر، حيث توجد حفرة مفتوحة في الجليد. أدرك أن الوضع سيئ، ورسم بيده صليباً فوق صدره. لم يكن كاثوليكياً حقاً، ولكنها إشارة رمزية في منطقة يقطنها يسوعيون. عندما عاد كانت مينك قد اختفت، في حين لا تزال الفتاة داخل المركز، متكوّرة في الزاوية تحت بطانية جديدة، تحني رأسها إلى الأسفل وهادئة تماماً؛ كأنها ميتة.

قال ماكينون: «لم يكن بمقدوري تحمّل الأمر دقيقة أخرى».

* * *

نام لاروز تلك الليلة بين أمه وأبيه. تذكّر تلك الأمسية والتي بعدها، لكنه لم يتذكّر ما حدث بينهما.

أحرقا البندقية، وطمرا الذخيرة. قرّرا في اليوم الآتي أن يسلكا الدرب نفسه الذي سار عليه الظبي. كانت شجيرات العليق البري كثيفة في الأرض بين المنزلين، في مساحةٍ نشب فيها حريق نتيجة برقٍ أصاب سنديانة. تغلغلت الحرارة تحت لحاء الشجرة، وانتقلت من الفروع والأغصان نزولاً إلى الجذور، حتى لم يعد بمقدور الشجرة تحمّلها، ما أدّى إلى احتراقها. كانت النيران التي

وصلت إلى الجذور قد قتلت الشجيرات الأصغر حجماً بالقرب منها أيضاً، ولكن الوابل أخمد الحريق بعد ذلك.

ترعرعت والدة إيمالاين على بُعد ميل تقريباً من موقع تلك الشجرة. في الأيام الخوالي، عمل الناس على حماية الأرض بنزع أوتاد المساحة منها، وقد اختفى أحد عمّال مسح الأراضي آنذاك. على الرغم من تفتيش البحيرة العميقة وسط المنطقة، فإنه لم يتم العثور على جثته أبداً. ورث كثير من أحفاد أفراد القبائل قطعاً صغيرة من الأرض، ولكن لم يحظَ أي شخصٍ منهم بمساحة كافية لبناء منزل عليها. بقيت الأراضي برّية ومقسّمة، باستثناء 160 فداناً هي الحصة الأصلية الخاصة بوالدة إيمالاين، التي انتقلت ملكيتها بأكملها إلى ابنتها. كانت تلك الأحراج لا تزال تعدُّ مكاناً خاصاً، وقلّة من الناس تصيد فيها إلى جانب لاندرو وبيتر.

كانت الأشجار زاهية الألوان، والسمّاق قرمزياً، والبتولا صفراء فاقعة. حمل لاندرو ابنه لاروز أحياناً، في حين عهد به إلى إيمالاين في أحيان أخرى. لم يتحدثا أو يجيبا عن لاروز بالكلمات، وإنما احتضناه بقوة، وداعبا شعره، وقبّلاه بشفاه جافة مرتعشة.

شاهدتهما نولا يجتازان الساحة مع الفتى.

«ماذا يفعلون هنا؟ ماذا، ماذا، لماذا هم هنا؟ لماذا يجلبون ...».

ركضت من المطبخ نحو بيتر ودفعته في صدره. كان صباحاً هادئاً، ولكن ذلك انتهى. طلبت منه أن يطردهما من أرضهما، وقال لها إنه سيفعل ذلك. وضع يده على كتفها، ولكنها ابتعدت عنه بعنف. بدا أن الثقب الأسود بينهما قد اتسع إلى ما لا نهاية آنذاك. لم يكن قد عثر على القعر بعد، وشعر بالخوف عليها مما تعانيه، ولكن لم يكن من شيمه أن يغضب حين يفتح الباب ـ لم يكن الغضب شيئاً هاماً ـ إلى جانب أنه ولاندرو صديقان، أو صديقان أفضل من الأختين غير الشقيقتين، ولا تزال جذوة تلك الصداقة تتقد داخله. كان لاندرو وإيمالاين يصطحبان معهما ابنهما، الذي لا يشبه دستي أبداً ولكن يشبهه تماماً مثل أي فتى في الخامسة من عمره، ذلك الفضول، وتلك الثقة، وذلك الأمل.

وضع لاندرو الطفل على الأرض ببطء، وسأل إن كان بمقدورهم الدخول.

قالت نولا: «لا».

لكن بيتر فتح الباب. رفع لاروز بصره فوراً إلى بيتر، ثم حدّق بتوقٍ إلى غرفة المعيشة.

«أين دستي؟».

كان وجه بيتر متورماً، وعلامات الإرهاق بادية عليه، ولكنه استطاع أن يرد بأن دستي لم يعد موجوداً.

استدار لاروز جانبياً وبدت عليه خيبة الأمل، ثم أشار

إلـى صنـدوق الدمـى عنـد الزاويـة، وقـال: «هـل يمكـن أن ألعـب؟».

لـم يكـن لـدى نـولا كلمـات ملائمـة. جلسـت بتثاقـل وراقبـت لاروز، بملـل أولاً ثـم بافتنـان، يُخـرج دميـة بعـد أخـرى ويلعـب بهـا بجدّيـة ومتعـة، ويتعامـل مـع كل غـرض بحـرص شـديد.

شـاهدت ماجـي، المنسـية، كل شـيء مـن أعلـى السـلالم. كان كلا الطفليـن قـد وُلـد فـي أول الخريـف، وقـد أبقـت كل أم طفلهـا فـي المنـزل، بعـد أن شـعرت بأنـه صغيـر جداً علـى المدرسـة. عندمـا كان الصبيَّـان يلعبـان معـاً، تصيـر ماجـي زعيمـة عليهمـا، وتجعلهمـا يؤديـان دور الخـادم فـي حـال أدّت دور الملـك، أو كلبيـن إن أدّت دور ملكـة الحيوانـات. لـم تكـن تعـرف مـا تفعلـه آنـذاك، لا فـي اللعـب فقـط وإنمـا فـي حياتهـا العاديـة أيضـاً. لـم يكونـوا يرغبـون فـي عودتهـا إلـى المدرسـة فـي ذلـك الوقـت. إذا بكـت، سـتبكي أمهـا بصـوتٍ أعلـى منهـا. إذا لـم تبـكِ، سـتقول والدتهـا إنهـا حيـوان صغيـر لا يبالـي بـأي شـيء. جعلهـا ذلـك تراقـب لاروز مـن الدرجـات المغطّـاة بالسـجاد أثنـاء لعبـه بدمـى دسـتي.

راقبـت ماجـي مـا يجـري، ونظـرت بحـدّة إليـه، وأمسـكت أعمـدة السـلالم مثـل قضبـان سـجن. لـم يكـن دسـتي هنـاك ليدافـع عـن ألعابـه، ويشـاركها مـع آخريـن إن أراد ذلـك فقـط، ويكـون مسـؤولاً عـن الديناصـور البرتقالـي، وسـيارة هـت ويلـز والشـاحنات المصغّـرة المفضّلـة لديـه. أرادت أن تندفـع

نحـو الأسـفل وترمـي تلـك الأغـراض فـي كل مـكان، وأن تـركل لاروز. لكـن كانـت تواجـه مشكلة آنـذاك لسـخريتها مـن معلّمتهـا، ويُفتـرض أن تبقـى محتجـزة فـي غرفتهـا.

كان لانـدرو وإيمالايـن آيـرون لا يـزالان واقفيـن عنـد البـاب. لـم يطلـب أحـدٌ منهمـا الدخـول.

قال بيتر: «ماذا تريدان؟».

كان يسأل دائماً عمّا يستطيع فعله لمساعدة الزائر، ولكن نـولا فقـط لاحظـت أن فظاظتـه هـي الطريقـة التـي يعبّـر بهـا عـن الإحسـاس بأسـى شـديد، وعـدم ارتياحـه للمشـاعر التـي تنتابه.

«ماذا تريدان؟».

أجابا ببساطة: «ابننا سيكون ابنكما الآن».

وضـع لانـدرو الحقيبـة الصغيـرة علـى الأرضيـة. كانـت إيمالايـن ترتعـش بشـدّة. وضعـت الحقيبـة الأخـرى أرضـاً فـي المدخـل وأشـاحت بصرهـا بعيـداً.

أخبـراه مجـدداً بمـا يعنيـاه بقولهمـا ابننـا سـيكون ابنكمـا، وكـرّرا ذلـك أيضـاً.

فغر بيتر فاه دهشاً، وحدّق بهما غير مصدّق لما يسمع.

قال: «لا، لم أسمع بشيء من هذا القبيل أبداً».

قـال لانـدرو: «إنـه العـرف القديـم». تكلـم بسـرعة كبيـرة، ونطـق الكلمـات مـرة أخـرى. كان هنـاك المزيد بشـأن قرارهما، ولكـن لـم يسـتطع مواصلـة الحديـث.

نظرت إيمالاين إلى أختها غير الشقيقة، التي تكرهها. كتمت أي صوت قد يصدر عنها، ورفعت بصرها إلى الأعلى فرأت ماجي جاثمة على السلالم. أدهشها وجه الفتاة الجميل الغاضب، وفكّرت أنها يجب أن تخرج من ذلك المكان. تقدّمت خطوة إلى الأمام بحركة مفاجئة، ووضعت يدها على رأس ابنها وقبّلته. ربت لاروز على وجهها، مستغرقاً في اللعب.

قال، مقلّداً أشقاءه الأكبر سناً: «لاحقاً يا أمي».

قال بيتر مجدداً، وهو يهزُّ رأسه: «لا، لا. هذا غير ممكن، خذا ...».

نظر إلى نولا ورأى أن وجهها قد انفرجت أساريره. كان اللطف بادياً عليها، والجشع أيضاً؛ شعور بالتملّك جعلها تميل على نحو ملتوٍ نحو الفتى.

البوابة

حضّـرت نـولا الحسـاء مـع اقتـراب المسـاء، ووضعـت العشـاء علـى الطاولـة، وفعلـت كل شـيء بعنايـة كبيـرة. شـعرت بخـواءٍ بعـد كل خطـوة مـن ذلـك الروتيـن، واضطـرت إلـى اسـتدعاء أفكارهـا مجـدداً، والعثـور علـى الأطبـاق الخزفيـة، والزبـدة، وتقطيـع الخبـز. غـرف لاروز الحسـاء بالملعقـة بعنايـة وبـطء، ودهـن شـريحة الخبـز بالزبـدة بطريقـة غيـر متقنـة. فكّـرت نـولا أنـه يلتـزم بـآداب المائـدة. كان وجـوده مريحـاً للأعصـاب ومثيـراً لهـا فـي الوقـت نفسـه، وبـدا أنـه دسـتي ونقيضـه علـى حـدٍّ سـواء. شـعر بيتـر بالحيـرة والضيـق، أو بالصدمـة كمـا ظـن، وقـال فـي قـرارة نفسـه: «مـا أزال فـي حـال صدمـة». حظـي الفتـى باهتمامـه؛ لأنـه أظهـر هـدوءاً وثقـة بالنفـس، واهتمامـاً بمـا يجـري حولـه، ولكـن عندمـا شـعر بيتـر بأنـه يسـتجيب لتلـك الصفـات، انتابتـه وخـزة إحسـاسٍ بعـدم الـولاء. أخبـر نفسـه بـأن دسـتي لـن يهتـم بذلـك، أو لا يسـتطيع أصـلاً. أدرك أيضـاً أن نـولا تسـمح لنفسـها بتلقـي المسـاعدة

بطريقة ما، ولكن من دون أن يعرف إن كانت قد قبلت تلك الهبة التي لا تُوصف بأنها شيء جميل، أو ظنّت أن غياب الفتى سيجفّف بمرور الوقت قوام الحياة في قلب لاندرو.

قالت نولا: «خذه إلى الحمّام».

«ثم ...».

«أعرف».

نظرا إلى بعضهما، يستوضحان. قرّر كلاهما أنهما لن يجعلاه ينام في سرير دستي. أضف إلى ذلك أن لاروز قد سأل مرتين عن أمه، وقَبِل تفسيرهما لغيابها. في المرة الثالثة، على كل حال، طأطأ رأسه وأجهش بالبكاء، والصراخ؛ لأنه لم يبتعد أبداً عن أمه من قبل. بدا واضحاً أنه حائر ومرتبك. داعبت ماجي شعره، وقدّمت له ألعاباً، وصرفت انتباهه عن ذلك الأمر، وجعلته يهدأ. نامت في سرير جدّتها القديم المزخرف، الذي منحها مساحة كبيرة للحركة. قالت نولا: «لا يمكنني التعامل معها الآن». أحضر بيتر الحقيبة والكيس القماشي الخاص بدمى الحيوانات والألعاب إلى غرفة ماجي، وأخبر الفتاة بأنه سيبيت هناك. ساعد بيتر لاروز في تنظيف أسنانه اللبنية الصغيرة، ثم خلع الفتى ثيابه وارتدى ملابس النوم. كان أكثر نحولاً من دستي، لكنه مشدود القامة، وشعر ناصيته كثيف، ولون بشرته أدكن قليلاً من ماجي. ساعده بيتر في الاستلقاء على السرير، ووقفت ماجي غير واثقة بما ينبغي أن تفعله، في حين تدلّى ثوب نومها القطني الأبيض على شكل

جرسٍ حول كاحليها. سحبت البطانية عن السرير وآوت إلى الفراش. قبّل بيتر كليهما، وتمتم شيئاً، ثم أطفأ الضوء. عندما أغلق الباب، شعر بأنه يكاد يفقد صوابه، لكن الحزن بدا مختلفاً آنذاك، فقد اختلط الأسى بمشاعر أخرى.

ضغط لاروز الدمية الطرية التي بحوزته بالطريقة التي يلعب بها شقيقه الأكبر بشخصيات الأبطال الخارقين البلاستيكية. كانت إيمالاين قد صنعت تلك الدمية له، وقد زال الفراء الناعم من بعض البقع عليها، في حين جحظت إحدى العينين المصنوعتين من زرّين. كانت قد دفعت بعض أعشاب التيفا عبر الجهة الخلفية حين تمزّقت وخاطتها مجدداً، في حين تحوّل لسانها الأحمر المصنوع من اللباد إلى شريط رفيع فقط. في البداية، كانت القشعريرة التي يكبتها لاروز ضعيفة جداً، ولم تظهر على جسده، ولكن سرعان ما بدأ يهتز بعد ذلك نتيجة نوبات من الارتعاش، التي ترافقت مع دموع أيضاً. استلقت ماجي بجانبه على السرير، بعد أن شعرت بمرارة معاناته، إلا أن محنتها جعلت قلبها أكثر قسوة.

التفّت حول نفسها ودفعت لاروز إلى حافة الفراش، فوقع إلى الأرض، متشبثاً بالملاءة معه. شدّتها ماجي نحوها مجدداً، في حين أُصيب لاروز بالحازوقة على الأرض.

قالت: «لماذا تبكي أيها الصغير؟».

بدأ لاروز ينشج، ببطء وبصوتٍ عميق. شعرت ماجي بشيء أسود يمور في داخلها.

«هل تريد ما-مي؟ ما-مي؟ لقد ذهبت. تركتك وأبوك هنا لتكون أخاً لي مثل دستي. لكن أنا لا أريدك».

عندما قالت ماجي ذلك، أحسّت بأن السواد يتحوّل إلى ماء. نزلت عن السرير لترى لاروز، ووجدته متكوّراً على نفسه في الزاوية، مع دميته المحشوة الرثّة، ملتزماً الصمت. لمست ظهره، واكتشفت أنه بارد ومتيبس. أخرجت كيس التخييم خاصتها ووضعته فوق كليهما. كوّرت نفسها حوله، في محاولة لمنحه بعض الدفء.

همست بخوف: «أنا أريدك حقاً».

باتت تلك الليلة مجرد ذكرى بالنسبة إلى لاروز بعد عدة أعوام. تذكّرها فعلاً، وبقيت أثيرة لديه، بوصفها أول ليلة يقضيها مع ماجي. تذكّر الثوب القطني الدافئ وجسدها المتكوّر حوله، وصدّق أنهما قد باتا أخاً وأختاً بعد أن ناما في الغرفة نفسها. نسي أنها قد أسقطته عن السرير، ونسي أنها قد نطقت تلك الكلمات.

* * *

حدّق ولفريد إلى جسد الفتاة المكوّر والمغطّى بالبطانية. لطالما كان ماكينون رجلاً صادقاً، وشخصاً منصفاً، بالنسبة إلى تاجر، ولم يُظهر إطلاقاً ما يدل على أنه فاسد أخلاقياً خارج نطاق المألوف، لم يكن بيع الشراب إلى الهنود مسموحاً قانوناً. لم يستطع ولفريد أن يفهم ما قد جرى، لذا خرج للصيد مجدداً. عندما عاد مع

كمية أخرى من السمك الأبيض. كان ذهنه صافياً، حسم أمره بأن ماكينون مخلّص، وقد أنقذ الفتاة من مينك، وجنّبها أن تصير أمَةً في مكان آخر. كسّر ولفريد بعض الحطب وأشعل ناراً صغيرة للطهي بجانب المركز، من ثم قام بشواء سمكة كاملة، وقدّمها إلى ماكينون، الذي أكلها مع خبزٍ يابسٍ من الأسبوع السابق. كان ولفريد سيخبز بعض الخبز غداً. عندما عاد إلى الحجرة وجد الفتاة حيث تركها من قبل. لم تتحرّك أو تفزع، وبدا واضحاً أن ماكينون لم يلمسها.

وضع ولفريد طبقاً من الخبز والسمك على الأرضية الترابية حيث يمكنها الوصول إليه. التهمت كل شيء، ولهثت لاستنشاق الهواء. وضع كوزاً من الماء قربها، فتجرّعت كل ما فيه دفعة واحدة، وقرقرت حنجرتها مثل طفل صغير حين أفرغت الكوب تماماً.

بعد أن تناول ماكينون طعامه استلقى على سريره المغطّى بفرو الدب، حيث اعتاد أن يشرب حتى ينام. نظّف ولفريد الحجرة، ثم سخّن دلواً من الماء وجثم قرب الفتاة. بلّل رقعة قماشية ومسح وجهها بها. عندما أزال الأوساخ الجافة عنها، اكتشف معالم وجهها، واحداً بعد آخر، ولاحظ أنها جذابة جداً. كانت شفتاها صغيرتين وممتلئتين، وعيناها جميلتين، في حين أن حاجبيها مقوّسان على نحو مثالي. عندما بان وجهها، حدّق إليها بفزع، فقد بدت فاتنة. هل كان ماكينون يدري وهل عرف أن ركلته قد جعلت الفتاة

تفقد إحدى أسنانها الحادّة؟ وأنها تركت كدمة سوداء على وجنتها الرقيقة مثل بتلة زهرة؟

همس ولفريد: «جيميكاوادیز». كان يعرف الكلمة التي تصف مظهرها.

مدَّ يده بحرص إلى زاوية الحجرة لجلب ما يريده، ثم مزج بعض الطين. أمسك ذقنها ودهن بعناية شديدة وجهها بالوحل مجدداً، مخفياً خط حاجبيها المدهش، وتناسق عينيها وأنفها المثالي، وقوس شفتيها الرائع. كانت طفلة بريئة تبلغ من العمر إحدى عشرة سنة فقط.

* * *

قالت نولا: «ناما على الأرض في الليلة السابقة، وقد طلبت من ماجي أن تمتنع عن ذلك، وقلت لها إنني سأجهّز لها فراشاً إن أرادت النوم هناك، ولكنها ردّت بوقاحة. قلت: «حسناً، أنت معاقبة في غرفتك، وليس مسموحاً لك الخروج منها». إنه يبكي مجدداً، ولا أعرف ما أفعله».

طقطقت أصابعها. كان وجهها نحيلاً ومتعباً، وجسدها ضعيفاً. لقد أبلت حسناً طوال الأسبوع، ولكنها العطلة آنذاك، وستبقى ماجي في البيت كل اليوم.

قال بيتر: «دعيها تخرج».

قالت نولا بغضب: «أووه، هي في الخارج أساساً، من دون أن تكترث لي. إنها تتناول الفطور».

«لماذا لا تدعينهما يلعبان معاً؟ سيكونان سعيدين».

كان بيتر ونولا قد اتفقا على أن يؤيدا قرارات بعضهما البعض فيما يتعلّق بشؤون الأولاد. لكن الرياح لم تكن تجري كما تشتهي السفن، كما ظنَّ بيتر. بعد عدّة دقائق، رأى نولا تدفع رأس ماجي حتى وصل إلى طبق الشوفان الذي تتناوله، لكن الفتاة قاومت. عندما شاهدت نولا بيتر، أبعدت يدها عن عنق ماجي؛ كأن شيئاً لم يكن.

تنفّست ماجي بصعوبة، وحدّقت إلى الشوفان. كان مجمّداً، ولم تكن والدتها تسمح لها بتناول زبيب أو سكر بني لأن نخوراً قد تصيب أسنانها. رفعت بصرها إلى والدها، الذي جلس على الكرسي وغَرف معظم الشوفان إلى طبقه من خلف ظهر نولا. تظاهر بأنه يأكل، في حين رفعت ماجي ملعقتها. ملأ ملعقته أولاً ووضع الشوفان في فمه، ورسم تعبير مهرج حزين على وجهه. فعلت ماجي الشيء نفسه. وجّها بصرهما إلى نولا مثل كلبين قلقين، وكذلك فعل لاروز، على الرغم من أنه لم يكن يعرف ما يجري. قالت نولا لبيتر، من دون أن تستدير: «أوقف هذه المهزلة».

أمسك بيتر ملعقته، وحدّق بقوة إلى ظهرها.

ظنَّ بيتر أن زوجته ستبدأ التعافي حين يُحلُّ ذلك الأمر، وفكّر في إعادة لاروز إلى بيته. لكن أراد أن تخبره نولا بهذا. عوضاً عن ذلك، تبين أنها قد وضعت خططاً مختلفة.

قالت وقد ترقرقت دموع في عينيها: «سأحضّر كعكة له، مع شموع، كما يحدث في عيد ميلاده. سأضعها مراراً وأجعله ينفخ فيها. يمكن أن يتمنّى مئة أمنية».

استدارت مرة أخرى. كان الطبيب قد وصف لها بعض حبوب الكلونوبين، التي ينبغي أن تتناولها أحياناً. فكّرت أنها ستحضّر كعكة من أجل لاروز كل يوم، إذا توقف فقط عن البكاء، وتعلّق بي كما فعل دستي، وبات ابني حقاً؛ الابن الوحيد الذي سأحظى به يوماً. كانت الضغينة الممزوجة بالعناد قد منعت نولا من أن تخبر بيتر بأن طمثها قد انقطع بعد وقت قصير من ولادة دستي، وأن الطبيب لم يستطع تحديد السبب. لم يلحظ بيتر التغيير، ولكنها كانت كتومة دائماً بشأن جسدها. لم تخبر أحداً باستثناء إيمالاين، وكم بدا غريباً آنذاك أن تأتمنها على ذلك السر! خفق قلبها بقوة. ظنّت نولا أن ذلك قد جعلها تجلب لاروز إليها؛ لأن إيمالاين تعرف.

كانت أختها غير الشقيقة تفهمها جيداً، لذا ستحاول نولا الابتعاد عنها، خوفاً منها، ومن أجل أن تحصّن نفسها ضد إيمالاين.

* * *

خرج بيتر أخيراً لرؤية لاندرو. كان بمقدوره المشي؛ لأن المسافة لا تتجاوز نصف ميل. توجد هوبدانس غرباً، والمحمية وبلدتها شرقاً وشمالاً، وجماعة بلوتو الصغيرة جنوباً، التي لا تزال لديها مدرسة خاصة بها. كانت ماجي تذهب إليها، وسيرسلان لاروز معها إن بات ذلك الوضع دائماً. قاد بيتر السيارة إلى ممر آل آيرون الخالي، وأطفأ المحرك. كان المنزل الرمادي الصغير غارقاً في العتمة. برزت شرفة خشبية لم ينتهِ بناؤها بعد من الجانب، في

حين أُزيلت قطع القماش المشمّع عن الأعمدة المائلة للخيمة التقليدية في الخلف. شاهد طبقاً لتغذية الطيور مصنوعاً من قدرٍ مخصّص للحليب، وصندوقاً مملوءاً بمعلّبات فارغة في الممر، وبعض الدمى المتناثرة في الساحة. لم يكن الكلب الذي يتجول في أرجاء المكان موجوداً. ظنَّ أن آل آيرون قد ذهبوا لزيارة أقربائهم في كندا، أو إلى العرّاف راندال، المعالج التقليدي، من أجل إقامة مراسم أسرية. كان يعرف من صداقته مع لاندرو أن قومهم سينظّمون شعائر دينية من أجلهم، لكنه لم يتذكر الاسم الذي يطلقونه عليها. لم يكن بيتر مهتماً كثيراً بالأمور التقليدية مثل لاندرو، ولكنهما قاما بصيد الأسماك والحيوانات معاً. كان بيتر يعرف مدى حرص لاندرو، وبدا مستحيلاً أن يرتكب مثل ذلك الخطأ. ترك بيتر سيارته في الممر ومشى إلى خلف بيت لاندرو، متجهاً إلى الغابة.

سلك درباً سيأخذه إلى البقعة حيث مات دستي. في طريقه إلى هناك، رأى ذلك الكلب، شعره قصير، وجلده بلون الصدأ، جاثماً في مكانه؛ كأنه ينتظره. كان رأسه متحفّزاً، وأذناه مرتفعتين حين خرج من الأجمة. حدّق الكلب إليه بإمعان، فتوقف بيتر مندهشاً من هدوئه وطريقة نظره إليه. اختفى الكلب حين تقدم خطوة نحوه، لكنه لم يسمع أي صوت؛ كأن الغابة قد ابتلعت الحيوان.

عصفت الريح وهطلت أمطار غزيرة في الليلة السابقة

ما أدى إلى سقوط معظم الأوراق، التي لمعت على الأرض، وكوّنت طبقة فوق أخرى من ألوانٍ مختلفة. سطع ضوء الصباح على البتولا البيضاء، وبدا أنها تتوهّج تقريباً. عندما مرَّ عبر مجموعة من أشجار السنديان، بات الجو داكناً. وقف أخيراً حيث وقف لاندرو، قبالة المكان الذي توقف فيه الظبي بالتأكيد، ورأى بينهما مباشرة شجرة التسلّق التي قد أخبرته ماجي عنها. لم تكن لدى بيتر أي فكرة عن أن أبناءه يلعبون في هذا المكان من الأحراج البعيد جداً عن البيت. لكن الشجرة بدت مغرية جداً لهم بجذعها المنخفض وفروعها المتدلّية. كان أحد أغصانها ذابلاً. سار حولها، ومرّر يده برفق على أوراقها الحادّة مثل الإبر، ثم تعثّر في قطعة الأرض تحت فرع الشجرة ذاك ما جعله يجثو على ركبتيه. وضع يده على المكان، وبدت الأرض ممهّدة هناك. استلقى بيتر على ظهره، ورفع بصره إلى الأعلى، وفكّر أن دستي قد تسلّق الشجرة قبل موته بقليل - كان جالساً على أحد أغصانها. لقد رأى الظبي الكبير في الأسفل، وسقط عنها فجأة حين أطلق لاندرو النار. كان بيتر قد قرأ إفادة لاندرو، وعرف أن كل ما قاله ينسجم مع ذلك السيناريو.

استلقى آنذاك في المكان الذي تسرّبت فيه حياة دستي إلى الأرض، وأغلق عينيه، وأصغى إلى الأصوات في الغابة حوله. سمع قرقفاً، وخازن بندق بعيداً، وغراباً نعق في مكان ما. سمع صوته، يصرخ بقوة، ثم حركة وحفيف أغصان وأوراق، وأزيز أوراق السنديان إبرية الشكل. شمَّ

رائحة الأعشاب العطرية، والتبغ، والعنبية، والقرابين. كان لاندرو قد جاء إلى ذلك المكان أيضاً.

* * *

كان لاندرو يفعل آنذاك ما اعتاد القيام به كل أسبوعين، أي مساعدة والدة إيمالاين. كانت المعلّمة المفضّلة لديه قبل أن تصير حماته. في الواقع، لقد أنقذته بالطريقة التي تنقذ بها الناس دائماً. لم تكن على قائمة زبائنه، ولكن قدّم لها يد العون بأي حال. وصل إلى شقتها في دار المسنين، وهو بناء آجرّي ضخم على شكل طائر الرعد، يمكن رؤية الجسم ينظر إلى الأسفل من على متن طائرة. عاشت والدة إيمالاين في الذيل، ولم يكن أحد يدعوها الجدّة، أو العمّة، أو الخالة. كان اسمها الأول لاروز، ولكن لا أحد يناديها به أيضاً، وإنما بلقبها حين كانت معلّمة؛ أي السيدة بيس.

كانت أجيالٌ من التلاميذ قد أحبّت تلك المعلّمة، ولا ترى فيها أي شائبة، لكن السيدة بيس قالت إنها ليست مثالية أبداً. كان ماضيها مريباً، كما أحبّت أن تقول، على الرغم من أنها بقيت في النهاية مخلصة لذكرى والد إيمالاين، بيلي بيس. نالت التقدير حين حاولت إلقاء نفسها في قبره، على الرغم من أن الجثمان قد أُحرق في الواقع، إلا أن لا أحد يتذكّر هذا. كان بيلي بيس والد نولا أيضاً، ولا أحد يعرف حقاً عدد الزوجات اللواتي اقترن بهنّ، أو ما كان يجري في مجمّعه الخاص بالشعائر الدينية

قبل عقود. لا يزال أبناء بيلي، وأحفاده الآن، يظهرون من وقت إلى آخر، وتتم إضافتهم عادة إلى السجلات القبلية.

كانت السيدة بيس امرأة جميلة، وحزينة المظهر، ذات شعر أملس بني وطويل. بات شعرها أملس أبيض وطويلاً آنذاك، ولا تزال جميلة، وسعيدة كما يبدو. لم تكن تقص أو تعقص شعرها مثل معظم صديقاتها، وإنما تجدله في ضفائر صغيرة، أو تلفّه على شكل حلقة أحياناً. كانت ترتدي زوجاً مختلفاً من أقراط الخرز كل يوم، وتختار الألوان بنفسها ـ أزرق فاتحاً مع برتقالي في يوم معين. لقد اعتادت تلك الهواية، وتدخين السيجار الطويل والرفيع، بعد أن تركت التدريس وعادت إلى المحمية. لم تعد تدخّن سيجاراً آنذاك إلا نادراً، وقالت إن الخرز قد ساعدها على الإقلاع عنه. كانت عدستها المكبّرة موجودة على الطاولة؛ لأن نظرها بات ضعيفاً. عندما رفعت بصرها إلى لاندرو، منحتها نظارتها السميكة منظراً غريباً من عالم آخر، ما زاد في ألقها.

دخل لاندرو حين أومأت له بذلك، ثم احتضنته. بقيا واجمين أثناء العناق، ثم تراجع كل منهما خطوة إلى الخلف. مدّت السيدة بيس يديها، مع إبقاء راحتي كفّيها إلى الأعلى.

خلع نعليه عند الباب، ورأى أنها تغلي الماء لتحضير الشاي. لوّح لاندرو بسمّاعة الطبيب وجهاز ضغط الدم أمامها، ولكنها طلبت منه أن يبعد تلك الأجهزة عنها؛ لأنها

تشعر أنها بخير. كان يوجد في الدار آلة لغسيل السجاد، ونصف شقتها، المغطى تماماً بقماش أصفر باهت، يحتاج إلى عناية لاندرو. ترك الآلة وقدر الحساء خارج الباب آنذاك. على الرغم من أنها كانت لا تزال تتعرّض إلى نوباتٍ أحياناً، فإن ألم لاروز المبرّح زال تقريباً بعد وفاة بيلي بيس. بدا أن ألم الأعصاب، والشقيقة، وهشاشة العظام، ومشكلات في الفقرات الشوكية، والذئبة (مرض جلدي)، وعرق النسا، وسرطان العظام، ومتلازمة وهم الأطراف (الشعور بأن الطرف المبتور لا يزال موجوداً) قد ظهرت ثم اختفت تماماً. كان ملفها الطبي بسماكة قدم. عرفت، طبعاً، لماذا لم يتركها الألم في ذلك الوقت، ولماذا لم تعد تشعر به إلا نادراً. كان بيلي قاسياً، وأنانياً، وذكياً في الوقت عينه، وبدا حبه عبئاً لا يختلف عن الكراهية أبداً. شعرت أحياناً بأن سخريته لا تزال تتسلّل إليها من عالم الأرواح. ظنَّ الناس أنها مخلصة لذكراه؛ لأنها أبدت عشقها لبيلي بيس على نحو مُذلٍّ لها. تركتهم يقولون ما يريدون. في الواقع، لقد علّمها ما ينبغي أن تعرفه عن الرجال، ولم تكن بحاجة إلى أي إرشادات بهذا الشأن.

شعر لاندرو بالحزن، وصدّق بوصفه رجلاً تلك القصة المأساوية من المعلّمة المتيّمة بزوجها، واقتنع بأنها تُظهر شجاعتها للعالم. لاحظ بقلق آنذاك أن وجهها متغضّن، وخاوٍ من أي تعبير، وأنها تحاول أن ترتاح في كرسيها المائل إلى الخلف. كانت تفكّر ملياً على الأرجح فيما قد فعله.

قالـت: «لا تقلـق بشـأني. سـينقضي وقـت طويـل قبـل أن تستقر الأمـور، هـه؟ أنـت رجـل صالـح؛ لأنـك تأتـي إلـى هنـا وتسـاعدني فـي وقـتٍ مثـل هـذا».

قـال: «لا يمكننـي الجلـوس مكتـوف اليديـن»، وحـاول أن يجعلهـا تتنـاول حبّـة منـوّم أو اثنتيـن.

«إنها تجعلني أشعر بالدوار».

حدّقـت إليـه بعينيـن حائرتيـن عبـر عدسـتيها الزجاجيتيـن السـميكتين.

سـأل: «هـل ترغبيـن فـي أن أغسـل سـجادك؟»، وعـدَّ مـا قالـه سـخيفاً أو حتـى مثيـراً للشـفقة. لكنهـا لـم تجـد حرجـاً فـي ذلـك.

أجابت: «يبدو ما يخرج منها مدهشاً فعلاً. باشر العمل».

شرب الشاي، وأدخل الآلة.

أزاح لانـدرو الكرسـي المائـل، وعلبـة المجـلات، والتلفـاز وطاولتـه عـن السـجادة. وضـع مـاءً فـي الخـزّان، ومزجـه مـع بعـض الصابـون، مـن ثـم بـدأ العمـل. أصـدرت الآلـة أصـوات خريـر وبقبقـة، وحرّكهـا إلـى الأمـام والخلـف. كان الصـوت خافتـاً ومنوّمـاً، مـا جعـل السـيدة بيـس تغلـق عينيهـا، مبتهجـة ومبتسـمة. عندمـا انتهـى، فتحـت عينيهـا بقـوة ونهضـت لتتوثـق مـن حـواف السـجادة الرطبـة. أبعـد الآلـة عـن المكـان، وجلـس لتنـاول كعكـة التـوت وشـرب القهـوة التـي قـد وضعتهـا أمامـه. ردّت علـى مكالمـة هاتفيـة، وقالـت إنهـا يجـب أن تسـاعد إلـكا

بقطرات العين. طقطق نعلاها على طول الردهة.

ذهب لاندرو إلى الحمّام حين أُغلق الباب. ألقى نظرة على خزانة أدويتها كما يفعل دائماً، ليتوثق من وجود علاجها وصلاحيته. كان اثنان منها سينفدان قريباً؛ لذا وضع لاندرو القارورتين على الطاولة. عندما عادت، قال إنه سينزل إلى صيدلية المستشفى ويملأهما مجدداً.

قالت: «ألقِ نظرة قبل أن تذهب».

فتحت لاروز خزانتها. كان فيها شهادات، وتقارير مدرسية قديمة، وقصاصات قصائد، وأكوام من رسائل عتيقة، موجّهة إلى لاروز الأولى. سمّتها إيمالاين المجتمع التاريخي. كانت صورها في ألبوماتٍ آنذاك على الأقل، بعد أن رتّبتها سنو. أخرجت السيدة بيس علبة معدنية دائرية سوداء كبيرة وقديمة من رفّ منخفض. كان غطاؤها مطلياً بثلاث ورود باهتة آنذاك. أهداها الناس أشياء تحمل وروداً بسبب اسمها، وربما يصح الشيء نفسه عن والدتها؛ لأن تلك العلبة بدت عتيقة جداً. احتفظت السيدة بيس بأوراق من كل حجم فيها، أقوال مأثورة، وصحف، وصور، وقصص عن كلاب، وأوراق بخط يدها. استرجع لاندرو ذكريات عن إيمالاين أثناء طفولتها حين رأى نسق كتابتها، وشكل اسمها.

قال: «نظرة إلى ماذا؟».

أعطته القصيدة، نسخة من «الذي لا يُقهر». كانت أجيال من تلاميذها قد حفظتها.

قالت: «احتفظ بها».

قـال: «لا أزال أحفظهـا عـن ظهـر قلـب. إنهـا عـن قسـوة الظـروف، صحيـح؟».

قالت: «قسوة الظروف».

نظـر إلـى قطعـة مـن ورق الكتابـة مـن ماركـة بيغ تشـيف، ورأى أن عليهـا كتابـة بخـط يـده، ولكـن لـم يتذكـر أنـه قـد كتبهـا. كان مكـرّراً عليهـا عبـارة لـن أهـرب بعيـداً.

قالـت: «جعلتك تكتب عشـرة صفحات مثلهـا، ولكـن لـم أحتفـظ إلا بهـذه».

وضعـت يدهـا الصغيـرة والنحيلـة علـى كتفـه، وانتشـر الـدفء فـوراً مـن أصابعهـا.

قـال: «لـن أهـرب بعيـداً». جلسـا معـاً يمسـكان أيـدي بعضهمـا البعـض علـى الأريكـة.

قبـل أن يغـادر، قـدّم لانـدرو القارورتيـن البلاسـتيكيتين إلـى السيدة بيس، التي قـرأت رقـم هاتـف الصيدليـة بصـوتٍ عـال. أعـادت القارورتيـن إلـى لانـدرو ليضعهمـا فـي خزانـة الأدويـة. عرفـت أن جُـلَّ اهتمامـه ينصـبُّ عليهمـا؛ لأنـه لـم يكـن قـد توثّـق مـن أيٍّ مـن الأدويـة الأخـرى منذ بعـض الوقت آنـذاك. كانـت تحـرص علـى معرفـة عـدد الحبـوب فـي قواريرهـا، بخـلاف كثيـر من صديقاتهـا، وأدركـت أن كبـار السـن مصـدر سـهل للمعلومـات.

احتـاج لانـدرو إلـى الشـاحنة الصغيـرة لنقـل أعمـدة الخيمـة

مخروطية الشكل، ورزم القش، أو الانتقال في الأيام الممطرة، أو من أجل أن يكون رجلاً فحسب. لكنه جعل إيمالاين تقود الشاحنة إلى العمل؛ لأن ذلك أكثر أماناً، في حين استقل الكورولا الرائعة ـ السيارة التي لا تتعطّل. كانا قد ورثا الكورولا حين انتقلت والدة إيمالاين إلى دار المسنين. لم تتعطّل السيارة أبداً، أو تتطلّب أكثر من الصيانة المعتادة، التي يستطيع لاندرو إنجازها بنفسه. بدا أنه يمكن الاعتماد على تلك المركبة مقارنة بسياراتٍ أخرى قد قادها في حياته. كان لونها رمادياً فاتحاً، والمقاعد بالية، والتنجيد مهترئ. لم يكن بمقدور لاندرو أن يدفع مقعد السائق مسافة كافية إلى الخلف لتلائم ساقيه الطويلتين، ولكنه أحبَّ قيادتها، خاصة بعد أول هطول للثلج، حين ركّب إطارات الجليد، فقد استمتع بالسير على الطرقات الخلفية لزيارة زبائنه.

عاش أوتي بلوم، المصاب بداء السكّري، مع زوجته بابتيست على بعد عدة أميال خارج البلدة في قطعة أرض جميلة بجانب البحيرة. لم ترغب باب في أن ينتقل زوجها إلى مركز إعادة التأهيل، لذا كان لاندرو يذهب إلى هناك من أجل معالجته فيزيائياً، ومساعدته في الذهاب إلى الحمّام والمرحاض، وعدِّ الحبوب، وإعطائه الحقن، وإطعامه، ونتف شعر أنفه وأذنيه، وقصّ أظافره، وتدليكه، وتبادل بعض الأقاويل مع الاثنين. كان ينقل أوتي إلى مركز غسيل الكلى، ويبقى معه حتى تنتهي جلسة علاجه.

فتحت بابتيست الباب حين نقر لاندرو بإصبعه عليه.

قالت: «لم أعرف إن كنت ستأتي».

قال لاندرو: «الحياة لا تتوقف، حتى من أجل ما فعلته». عندما سمعته باب يتكلم بتلك الطريقة، ويتصرّف بجدّية، شعرت بارتياح. صاحت نحو الغرفة الأخرى: «لقد جاء يا أوتي!».

بقيت مكانها، على الرغم من أنها كانت تتركهما عادة لتتولّى شؤون بيتها أثناء عمل لاندرو مع أوتي. عرف لاندرو أنهما كانا يناقشان وضعه، وأن باب بقيت حتى تستطيع إبلاغ أقربائها عن الطريقة التي يتصرّف بها. ما هي العلامات التي ظهرت عليه؟ قالت إيمالاين إن عودته إلى العمل ستكون صعبة، وإن القصة سترافقه باقي حياته. سيعيش في الحكاية، ولن يتمكن من تغييرها، ولن يكون بمقدور حتى لاروز تغييرها، كما أقرّت.

لكن لاندرو عرف أن ذلك ليس صحيحاً تماماً، فقد غيّر لاروز القصة.

قال أوتي: «أوه، أنا سعيد برؤيتك هنا». انفرجت أسارير وجهه البريء الأسمر، المرهق من المعاناة. كان أوتي مصارعاً قوياً في السابق، ولم تجعله الأيام أكثر ليناً. ترهّل جسده، وبات مثل دهن فقمة. كان معظم أفراد أسرته قد ماتوا بسرعة أكبر بسبب مضاعفات داء السكري.

«كنت أقول لباب إن الحياة لا تتوقف».

قال أوتي: «لا تتوقف حتى تنتهي. لقد تمكنت من

استخدام المرحاض بنفسي قبل عدة أيام، وكدت أسقط عن المقعد الصغير».

قالت باب: «يا إلهي يا أوتي!».

قال لاندرو، وهو يدفع كرسي أوتي المتحرّك في الردهة الصغيرة: «لنفعل ذلك».

كانت القبيلة قد طلبت بناء حمامٍ للمعوقين، ولكن أوتي حصل على مقعد حمّام. بعد أن ساعد لاندرو أوتي في الجلوس على الكرسي، فرك ظهره وغسله بالماء. فُتح الباب قليلاً، ودخلت ذراع باب عبره حاملة ثياباً نظيفة. عندما خرجا إلى المطبخ، وجدا فطائر توت مع شراب القيقب. استطاع لاندرو تمييز طعم البيض المجفّف كيميائياً والمُحَلّي الاصطناعي الطاغي على الفاكهة. كان العصير جيداً.

«إذاً، كيف يتعامل الجميع مع الأمر؟». تراجعت باب عن الطاولة قليلاً. كانت امرأة صغيرة القد، لكن قوية البنية، ولا تزال تشعر بالغيرة من نساء أخريات، وتحاول إبعادهن عن أوتي. كانت تضع زينةً طوال الوقت من أجله، وظلّ عينين بلون مختلف في كل يوم من الأسبوع، وتحديداً الأرغواني في يوم الأربعاء، وتربط شعرها إلى الخلف بقطعة قماشية، في حين تترك غُرّتها كثيفة فوق حاجبيها الرفيعين والمشذّبين. كانت أظافرها مطلية بلون وردي فاتح ولامع. نقرت بإصبعها على شفتيها.

«ربما ينبغي ألا أقول شيئاً، وأن أُبقي فمي مغلقاً».

قال لاندرو: «لا».

كانت إيمالاين قريبتها.

قال: «أنتِ من الأسرة».

قالت باب: «إيمالاين قوية فعلاً».

قال لاندرو: «قوية حقاً». بدأ يسمع طنيناً في رأسه. «أريد فتح حساب ادّخار، كما تعرفان؟ عندما تتحسّن حالهم، وتتعافى أسرتانا مما قد جرى».

أومأ باب وأوتي بحذر؛ كأنه قد يُطلب منهما المساهمة في ذلك.

قالت باب: «يقوم الجميع بفتح حسابات ادّخار الآن».

قال أوتي: «سأفعل ذلك أيضاً. أعرف أن هذا وقت حزن، ولكن عندما أرحل، أريد أن يتم تحويل مدّخراتي إلى سيدات المحمية. أحب بالتأكيد ما تقوم به باب حين ترتدي ثيابها وتتبرّج من أجلي. أودُّ رؤية بعض السيدات الأخريات يفعلن ذلك وينتعلن أحذية عالية حين يمشين. يجعلني هذا أشعر بإثارة كبيرة».

أمسكت باب يد أوتي بيديها.

«لا تحتاج إلى أي حساب ادّخار يا عزيزي؛ لأنك لن تموت».

قال أوتي: «باستثناء عضو بعد آخر».

قال لاندرو: «أكره السكّري».

قالت باب: «يجب أن يكون جاهزاً من أجل موعده. ينبغي أن تجري اختبار السكر».

قال أوتي: «لقد فعلت هذا».

لم يقل لاندرو إنه قد اختبر سكر أوتي حين شمَّ رائحة الفطائر، فقد عرف أن الكربوهيدرات سترفع نسبته في دم أوتي بغض النظر عن مقدار المحلّيات الاصطناعية التي ستستخدمها باب. ظنَّ أحياناً أنهم قد يصابون بالهلوسة نتيجة تناول تلك المحلّيات. ركب لاندرو مع أوتي في السيارة بعد أن وضع الكرسي المتحرّك في الصندوق، وأدرك أنه قد غادر من دون أن يجيب حقاً عن سؤال باب بشأن طريقة تعاملهم مع الأمر. لقد قاطع أوتي ذلك الاستفسار بحديثه عن المدّخرات والموت والكعوب العالية.

قال لأوتي: «شكراً».

«على ماذا؟».

«لم أعرف ما أقوله لباب عن طريقة تعاملنا مع الأمر. ما نزال في تلك المرحلة التي نستيقظ فيها، ونتذكّر ما حدث، ونرغب في العودة إلى النوم».

«أفترض أنك لن تخرج للصيد مرة أخرى».

«أحرقت بندقيتي. حسناً، ماذا سيفيد ذلك؟».

قال أوتي: «لن يفيد ذلك أحداً. من سيجلب لأبنائك البروتين الذي يحتاجون إليه ليكبروا ويصيروا أقوياء؟».

قال لاندرو: «سنضع شِراكاً، ونقلي بعض الأسماك».

قال أوتي: «سأضع ذلك على قائمة حميتي. سأمنحك بعض الحبوب إن أردت».

لم يرد لاندرو.

تابع أوتي: «لكن سأفتقد إلى لحم الظباء الذي كنت تجلبه لنا. أظنُّ أنه شيء لا تتغلّب عليه أبداً. ستستمر معاناتك».

قال لاندرو: «دائماً وأبداً. ربما أقايضك لاحقاً، فأنا لا أحتاج تلك الأشياء».

لكنه كان بحاجة إليها فعلاً، أكثر من أي وقت مضى.

* * *

كان المطعم الصغير في محطة وقود وايتي يبيع أجنحة وقوانص مقلية، وبيتزا، وفطائر ساخنة. رأى روميو بويات لاندرو يقود سيارته إلى المحطة ويركنها خلفها على الأعشاب. كان روميو رجلاً نحيلاً، وعيناه متقاربتين وثاقبتين، ومشيته عرجاء، ويبقي ذراعه اليمنى بجانب جسده دائماً؛ لأنها قد تعرّضت إلى عدّة كسور وجرى تجبيرها معاً، إضافة إلى ساقه اليمنى. على الرغم من هذا، بقي قادراً على التحرّك بسرعة. ظنَّ روميو أن لاندرو يود البقاء في الداخل وتناول غدائه هناك، فأمسك الخرطوم

والوعـاء البلاسـتيكي الأحمـر الفاقـع المضـاد الحريـق، ثـم سـار متمايـلاً، لكـن بنشـاط، إلـى سـيارة لانـدرو وبـدأ العمـل باستخدام أدواتـه. كان روميو ماهـراً في ذلـك العمـل المألوف لـه، وسـرعان مـا بـدأ الوقـود يتدفـق مـن خزان سيارة لانـدرو، عبـر أنبـوب مطاطـي، إلـى الصفيحـة.

خـرج لانـدرو مـن المتجـر حامـلاً علبـة مـن الكرتـون المقـوّى. طرفت عيناه حيـن رأى روميـو، ولكـن لـم يتعـرّف إلـى زميـل دراسـته القديـم. تعـزى أسـباب الكراهيـة بينهمـا إلـى حادثـة قاسـية أثنـاء طفولتهمـا، فقـد توقـف الاثنـان عـن التحـدّث إلـى بعضهمـا البعـض فـي المدرسـة الداخليـة. حـاول روميـو فـي إحـدى المـرات قتـل لانـدرو أثنـاء نومـه. حـدث ذلـك فـي بدايـة العشـرينيات مـن عمريهمـا، فـي ليلـةٍ احتفـظ فيهـا لانـدرو بمبلـغ كبيـر مـن المـال معـه. يعدُّ المـال العامـل الرئيـس للفسـاد، لـذا يشـعر روميـو بالسـوء؛ لأن لانـدرو لا يثـق بـه بسـبب محاولـة الطعـن تلـك. لـم يكـن روميـو يحـاول، فـي ذلـك الوقـت علـى الأقـل، اسـتهداف حيـاة زميـل دراسـته القديـم.

لقـد رضـي روميـو، نظريـاً علـى الأقـل، بالأمـر الواقـع بعـد أن سـرق لانـدرو حبّـه الأول؛ إيمالايـن، التـي ربمـا لـم تكـن تشـعر بمـودّة تجاهـه بـأي حـال. وافـق روميـو بمـرارة علـى تبنّـي لانـدرو وإيمالايـن لابنـه هوليـس، وعنايتهمـا الكبيـرة بـه، وأخبـر نفسـه بأنهمـا يبليـان حسـناً معـه؛ لأنـه يحتـل المرتبـة الأولـى لديهمـا. أدرك أن عليـه الإقـرار بأنهمـا ينفقـان عليـه

مبالغ كبيرة. كان ما يشغل بال روميو تلك الأيام، على كل حال، هو رغبته في مشاركة لاندرو بعضاً مما لديه. كان لاندرو مختصاً بالرعاية الشخصية ومعروفاً في المستشفى، ويمكنه بالتأكيد الحصول على بعض مسكّنات الألم. لماذا لا يجعل صديقه القديم أكثر سعادة؟ ويجعله يتخلّص من آلامه؟ نعم، كان روميو يحصل على وصفة خاصة به، ولكن ليس أوكسي-كونتين تحديداً، وقد اضطر أحياناً إلى بيع حبوبه الأقل تأثيراً ليدفع ثمن تلك الحبوب الجيدة، مثل فنتانيل، التي حاول شراء كمية منها في إحدى المرات.

مشى لاندرو إلى سيارته.

قال روميو وهو ينظر إلى الوقود يتدفّق عبر الأنبوب: «حسناً، حسناً، لم أرك منذ وقت طويل».

تأثّر لاندرو، بطريقة حزينة، حين وجد زميل دراسته القديم يسرق وقوده. كان قد قرّر منذ وقت طويل ألا يرد على أي شيء يفعله روميو أو أي شخص آخر نتيجة المعاناة التي قد تعرّض لها. لم يقل شيئاً، باستثناء أنه يجب أن يذهب؛ لأن أصابع الموزاريلا الساخنة ستبرد.

قال روميو وقد بدا عليه الاشمئزاز: «أصابع موزاريلا».

قال لاندرو: «من أجل الأولاد».

قال روميو، كأنه قد سمع شيئاً حكيماً ومفاجئاً: «أووّوه». أمال رأسه إلى الخلف، وعبس بتركيز، ورفع الخرطوم ببطء.

«هـل لديـك شـيء مـن أجلـي يـا صديقـي القديـم؟». نقـر طـرف الأنبـوب بعنايـة علـى الخـزّان مـن الداخـل، ثـم ثبّـت الغطاء على الوعـاء البلاسـتيكي، وأغلـق بإحـكام غطاء خزّان الوقـود فـي سيارة لانـدرو.

قال لاندرو: «لا».

قال روميو: «حسناً، انتهى عملي هنا».

أمسـك وعـاء الوقـود الأحمـر، ولـوّح بيـده مودّعـاً، والانزعـاج بـادٍ علـى محيـاه، ثـم تقـدّم نحـو الطريـق الـذي سـيعيده إلـى سـيارته وخزّانـه الفـارغ.

صرخ من فوق كتفه: «انقل تحياتي إلى إيمالاين».

رمقـه لانـدرو بنظـرة جانبيـة حـادّة، ووضـع أصابـع الموزاريـلا علـى سـقف السـيارة. عندمـا هـمَّ بالركـوب، بـدأ يتذكـر مـا جـرى مـن الطريقـة التي قـد ودّعـه روميو بهـا. كانـت هنـاك أشياء كثيـرة يسترجعها مـن الذاكـرة، ولكن السكين التي قـد طعـن روميـو بهـا سـاعده، ثـم ذراعـه، تركـت ندبـة ظاهـرة للعيـان. المثير للدهشـة أن لانـدرو كان يتقلّب في نومـه ويمـدُّ يـده ليحـكَّ أنفـه حيـن أصابـه روميـو. تسـاءل لانـدرو عمّـا حـدث آنـذاك، ونسـي العلبـة علـى سـقف مركبتـه، وتجـاوز روميو الـذي كان يمـلأ خزّانـه بالوقـود. عندمـا انعطـف لانـدرو عنـد الزاويـة، انزلقـت أصابـع الموزاريـلا عـن السـيارة بزاويـة حـادّة وانتقلـت إلـى سـقف سـيارة روميـو. عندمـا لـم يعـد الخـزّان فارغـاً، مـدَّ روميـو يـده إلـى العلبـة، وأخـرج إحـدى

أصابع الموزاريلا، وقضم لقمة واحدة فقط ـ باتت باردة وطعمها شبيهاً بالمطاط آنذاك. قاد سيارته إلى المطعم واشتكى من ذلك. قالت الفتاة خلف النضد: «سأسخّنها من أجلك». قال روميو: «أفضّل أن أستعيد نقودي».

❋ ❋ ❋

بعد انقضاء الأسابيع الأولى، حاول لاروز التوقف عن البكاء، قرب نولا على الأقل. أطلعته ماجي على الحقائق مجدداً، وسبب وجوده هناك. كان والداه قد أخبراه بذلك، ولكنه لم يفهم تماماً ما يجري. أراد أن يسمع الأمر مراراً وتكراراً.

قالت ماجي: «لا تعرف حتى ما يعنيه الموت».

قال لاروز: «أنك لا تتحرّك».

قالت ماجي: «أنك لا تتنفّس».

«التنفس حركة!».

قالت ماجي: «اسمع، لنخرج من هنا وسأقتل شيئاً لأبيّن لك».

«ماذا ستقتلين؟».

نظرا إلى الخارج عبر النافذة.

قالت ماجي، وهي تشير بيدها: «ذلك الكلب».

كان عند حافة الساحة، يستلقي متكاسلاً تحت الشمس، وهو الكلب نفسه الذي تربّيه أسرة لاروز. لم يقل إنه قد

عرفه، ولكن قال فعلاً: «يبدو أنكِ شريرة. لا أحد يذهب ويقتل كلباً من دون سبب».

قالت ماجي: «خرج والدك وقتل شقيقي من دون سبب».

«مجرد حادثة».

قالت ماجي: «لا فرق بين الأمرين».

ترقرقت دموعٌ في عيني لاروز، ثم ظهرت دموعٌ في عيني ماجي أيضاً. غمرها شعور بائس بالحزن. كان دستي قد جاء إليها في حلمٍ وعرض عليها دمية على شكل كلب بدت، كما تذكّرت آنذاك، مثل ذلك الكلب البرتقالي في الخارج. استدارت لتتوثّق من الحيوان، ولكن لم تره. خطرت لها فكرة، وقرّرت أن تحصل على شيء من لاروز، وأن تجعله يساعدها.

«لا بأس أيها الأحمق الصغير».

«لا تقولي هذا عني».

«لن أنعتك بالأحمق إذا بدّلت مزاج أمي من النكد، كما هي الآن، إلى اللطف. إذا استطعت فعل هذا، أظن أنهم سينتجون برنامجاً تلفزيونياً عنك».

«ماذا ينبغي أن أفعل؟».

«اجعلها لطيفة».

أومأ لاروز. أخبرته ماجي بأن يسألها إن كانت بحاجة إلى فرك قدمها، ولكن لاروز بدا مرتبكاً.

أرشدته ماجي: «افعل أي شيء تطلب منك القيام به. وتناول الكعك الذي تحضّره، وعانقها أيضاً».

انتظر لاروز أن تطلب منه نولا القيام بشيء ما. في وقت لاحق ذلك اليوم، قالت نولا إن لاروز ينبغي أن يناديها أمي.

«حسناً يا أمي».

«هل تريد أن تعانقني؟».

فعل ذلك أيضاً.

داعبت نولا شعره، ونظرت إلى عينيه. انتفخ وجهها وبات أحمر اللون، كأنها تكاد تصرخ.

سألت: «ما هو طعامك المفضّل؟».

«الكعك؟».

قالت إنها ستحضّر كعكات كثيرة له. عندما وضع لاروز ذراعيه حول عنقها، شعر بعظامها تبرز من تحت جلدها.

قال لنولا: «أنت نحيلة جداً».

قالت نولا: «يمكن أن تتحسّس هيكلي العظمي».

سأل بحرص: «هل أنت سيدة عيد القدّيسين؟».

قالت: «لا، لست كذلك. كانت أمي ساحرة، ولكن لا أريد أن أكون مثل أمي».

وضع لاروز رأسه على صدرها ليتوثّق من أن قلبها يخفق. شعر بعظم ترقوتها على صدغه.

فكّر أنها نحيلة، وناتئة العظام. لقد سمع أباه يمازح أمه قائلاً: «أنتِ تصيرين نحيلة!». كان قد سمع جدّته تقول هذا عن شقيقته سنو. «لا ينبغي أن تصيري نحيلة جداً، مثل أمك».

جاء إلى عالم مليء بنساء نحيلات. كانت حتى ماجي نحيلة بساقيها الرفيعتين. لم يقل ذلك لأحد، أو يقل إن ماجي وصفت أمها بالنكدة. أوقفه شيء ما، ولم يعرف لماذا لا يقول فحسب كل ما يدور في ذهنه كما اعتاد سابقاً. بدا أن فمه قد زُوّد بمصفاة صغيرة لا تمرّر إلا الكلمات الجميلة.

* * *

رأى لاروز والدته الحقيقية في متجر البقالة، فركض نحو إيمالاين، واحتضنا بعضهما بقوة. شاهد روميو ما جرى مصادفة أثناء وقوفه في قسم اللحوم، رافعاً سلّته إلى صدره. ظهر على وجهه تعبير لا علاقة له بالشخص الخطر وعديم الأخلاق، كما بات يعدُّ نفسه آنذاك. استعاد روميو رباطة جأشه، وركّز بصره على ما يقوم به، وتظاهر بفحص قطع الهمبرغر الرخيص.

كان لاروز برفقة بيتر، الذي لم يتدخّل. تشبّثت إيمالاين بابنها بعض الوقت، وشمّت شعره. نظرت إلى بيتر، وعندما أومأ تركت لاروز يتعلّق بعربة التسوّق. مشت في المخزن معه، يتحدّثان معاً. بدا الأمر كأن قلباً ميتاً قد نبض بالحياة مجدداً، ولكن لم يكن بمقدورها مواصلة التبضّع إلى الأبد. ساعدها بيتر في حمل بقالتها إلى الخارج، ثم اصطحبت

لاروز إلى سيارة آل رافيتش. ركب لاروز من دون أن يبكي، ووضع حزام الأمان في المقعد الخلفي. جعلتها شجاعته وصمته تشعر بغصّة في حلقها. عندما انطلقا مبتعدين، لوّح بيده نحو إيمالاين. بدا أنه يعوم مبتعداً عنها على طوف من عيدان هشّة. أو هل كان ذلك حلماً؟ كل صباح، كانت تعوم عائدة إلى وعيها على ذلك الطوف المتهالك نفسه، وتشكّك بما قد فعلاه عدّة مرات كل يوم.

لم تستطع الذهاب إلى البيت بعد رؤية لاروز. ظنّت أنها ينبغي أن تذهب لرؤية والدتها، ولكن وجدت نفسها في طريقها إلى الكنيسة عوضاً عن ذلك. ظنّت مجدداً أنها قد تستطيع الصلاة هناك، لتشعر بالسكينة، ولكن مشت إلى خلف دار العبادة بدلاً من هذا. ظنّت أنها قد تجد الأب ترافيس هناك، ولكن لم يكن في أيٍّ من مكاتب الكنيسة أو مسكن القس - بيت صغير وبسيط. بدأت تشعر بعدم الارتياح نتيجة بحثها عنه بتلك الطريقة، ثم رأته من بعيد، يعمل على جرّافة بوبكات صغيرة بجانب البحيرة، ويحاول جاهداً شق درب هناك. كان يعتمر قبعة قماشية بنية رخوة تتدلّى خلف أذنيه، اللتين تبرزان من جانبيها، ما جعله يبدو سخيفاً، ولكن بدا صعباً أن يبدو الأب ترافيس سخيفاً فعلاً. كان جلده قد تيبّس من تعرّضه للريح، وظهر فيه بعض النمش، وبدت بشرته من النوع الأشقر المحمر التقليدي الحسّاس للشمس. كانت وجنتاه ناتئتين، وقاسيتين تقريباً، في حين يحظى بذقن نجم سينمائي. عندما صار مظهره مزعجاً للناس، نتيجة كبره في السن، بات الآخرون يتحمّلونه بسهولة أكبر، خاصة بعد أن برزت ندوبٌ على حنجرته. كانت

عينا الأب ترافيس تتقدان دفئاً حين يبتسم، والتجاعيد حولهما تبرزان على نحو لطيف إلى الخارج، ويمكن أن تُظهرا صفات أخرى مناقضة ـ كآبة، وشحوب، وربما وعيد – ولكن طبعاً لم يعد ذلك الجندي المغوار آنذاك.

أطفأ محرّك الجرّافة الصغيرة حين رأى إيمالاين ونزل منها. اعتادت على رؤيته بثوبه الكهنوتي؛ لأن الأب ترافيس يرتديه معظم الوقت، فهو يحب أن يبقى مرتاحاً. كان بمقدوره ارتداؤه فوق قميص من دون ردنين وسروال عادي. أحبَّ كبار السن رؤيته مرتدياً واحداً منها، وقد أحبَّ الشبان ذلك أيضاً بعد ماتريكس. لكن كان يرتدي جينزاً قديماً، وقميصاً قطنياً مقلّماً، وسترة قماشية بنية آنذاك.

ابتسمت إيمالاين له، مندهشة من مظهره.

نظر إلى أرجاء الساحة، ليتوثّق من وجود أحدٍ في الجوار. كان ذلك الشيء ـ التوثّق ـ كما فكّر لاحقاً، يريح باله حقاً. بقيت ذاكرته متوارية عن أفكاره طوال أيام، حتى تذكّر أن ينظر من فوق كتف إيمالاين ليتوثّق من عدم وجود شخص يراقبهما.

وضعا أيديهما في جيوبهما ومشيا على الدرب الترابي الذي يمهّده عبر الغابة. تجاوزا سكّة الحديد والحاجز المرتفع قبل أن تستطيع قول أي شيء.

قالت: «لم أرغب أن أعطيهم لاروز».

«لماذا فعلت ذلك؟».

الشمس تتلألأ على مياه بحيرة خضراء في يوم مشمس - كانت عيناها بذلك اللون.

قالت: «بدا أنها الطريقة الوحيدة، فهي أختي بالمحصلة. ظننت أنها ستسمح لي برؤيته، وقضاء وقت معه. ولكن لا. لهذا أريد استعادته. لقد رأيته للتو، وسيظن أنني لا أحبه».

كان الأب ترافيس لا يزال مندهشاً مما فعلاه، وقد استرجع ذكرياته حين قاما بزيارته بعد إطلاق سراح لاندرو مباشرة - أرادا إبلاغه شيئاً ما آنذاك. لقد سمع عن حالات تبنٍّ مماثلة في أعوام سابقة، حين أدّت أوبئة أو عمليات قتل إلى انفراط عقد بعض الأسر، في حين تركت أخرى على حالها. بدا ذلك نوعاً قديماً من العدالة، وحكاية متكاملة الأركان، حكاية تثير اهتمامه. تذكّر القصّة التي جعلته يصير قساً، والقصة التي تجعله لا يترك عمله ذاك. كان الأب ترافيس يعمل على إعراب العهد القديم في المساء، بين أوقات عرض أفلام الحركة والتشويق.

كاد يقول: «منحت ماري طفلها إلى العالم» حين نظر إلى إيمالاين. بدا الأمر منطقياً؛ لأنها كانت ترتدي سترة زرقاء فاتحة تفتقر قلنسوتها إلى بطانة الفرو، ما جعلها تغطّي رأسها بطريقة ذكّرته بصور مريم العذراء. كان شعرها، المتباعد في المنتصف، متناثراً تحت قبعتها الزرقاء بخصلات ناعمة.

قال الأب ترافيس: «حاولتِ أن تفعلي شيئاً صالحاً. سيفهم لاروز ذلك، وسيعود إليكِ».

توقفت إيمالاين ونظرت إليه عن كثب.

«أنت واثق؟».

قال: «أنا واثق»، ثم لم يتمالك نفسه، وأضاف: «لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ وَلاَ خَلِيقَةَ أُخْرَى تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَكما».

نظرت إيمالاين إليه؛ كأنه مجنون.

إنه اقتباسٌ من الكتاب المقدّس.

نظر إلى الأسفل نحو الدرب الممهّد. كان يقتبس من سِفر رومية مثل شخص مغرور...

قالت، وقد كست عيناها غشاوة: «لاروز يافع. هم ينسون إن لم تكن معهم كل يوم».

فكّر الأب ترافيس أن لا أحد يستطيع نسيانك. أزعجته الفكرة العفوية، وأرغم نفسه على التكلم بتروٍّ.

«اسمعي، يمكنك استعادة لاروز في أي وقت. كل ما عليك فعله هو قول إنك تريدين إعادته، سيكون على بيتر ونولا الإصغاء. إذا لم يفعلا، يمكنك الذهاب إلى الخدمات الاجتماعية. أنت أمه».

قالت: «الخدمات الاجتماعية، هه! هل سمعت يوماً بريز أومرتا؟».

ضحك الأب ترافيس فجأة.

«أنا أعمل مع الخدمات الاجتماعية أصلاً. مركز إدارة الأزمات جزء من الخدمات الاجتماعية. سيكون عليَّ أن أتواصل مع نفسي».

قال الأب ترافيس: «ما الخطأ في ذلك؟».

هزّت رأسها، وأشاحت بصرها بعيداً حين تكلمت.

«هل تعني أنني لم أدرك أن ذلك سيحدث؟ لم أعرف أنه سيكون بهذه الصعوبة؟ لا أفهم لماذا لا يمكننا احتماله على الرغم من أن التاريخ والتقاليد، وكل تلك الأمور، تؤيد ما فعلناه؟».

فركت وجهها بيديها؛ كأنها تحاول التخلّص من شيء آخر.

«نعم، لم أكن على سجيتي آنذاك. وهناك نولا أيضاً. إنها تغضب من ماجي، كما أظن. ماذا إن عاملت لاروز بتلك الطريقة؟».

التزم الأب ترافيس الصمت. كان لا يزال يسمع اعترافاتٍ من أفرادٍ آنذاك، ويعرف بشأن حدّة مزاج نولا.

عندما سارا عائدين إلى سيارتها، منعه إحساس لم يعرفه من الإدلاء بالتعليق الارتجالي المعتاد، لإنهاء الحديث في الموضوع. بقي صامتاً؛ لأنه لم يرغب في أن يخسر الثقة التي بدت واضحة في طريقة حديثها معه. ركبت إيمالاين السيارة، ثم سحبت قلنسوتها إلى الخلف وأنزلت نافذتها، ورفعت بصرها إلى وجهه. كان توقها إلى ابنها واضحاً تماماً، وشعر بأنه يضغط عليه، فأغلق عينيه.

لاحظت إيمالاين حين أغلق عينيه أنه يبدو رجلاً عادياً، وأن بشرته قد أرهقها الطقس وشفتيه متشقّقتان.

نظرت بعيداً وشغّلت محرك السيارة. تداخلت أفكارها المحزنة حين انطلقت مبتعدة عن المكان، وتذكّرت أنها ضحكت حتى تشنّجت معدتها حين تحدّثت جوزيت وسنو عن القس.

قالت إحداهما: «لا يستطيع غضّ بصره».

«عيناه الشغوفتان».

أبدت جوزيت وسنو اهتماماً كبيراً بالدمى الآلية؛ الشخصيات الخرافية في الأفلام. كان لديهما مسجّل فيديو قديم من سلسلة متاجر راديو شاك في غرفتهما، وتشتريان أفلاماً قديمة من ساحات بيع منزلية وعروض تخفيضات لتشغيلها بواسطته. تضمّنت مجموعتهما ويستورلد، وروبوكاب، وبلاك هول. اعتادتا الذهاب إلى متاجر الفيديو في مواسم التنزيلات على أمل الحصول على فيلمهما المفضّل «بليد رَنر». اقتنتا رسوماً للدمى الآلية والشخصيات الخرافية، رقيقة، ومثالية، وينتابها شعور ما، ربما مثل الأب ترافيس.

«عيناه مثل عيني شخص مستنسخ!».

«مستحيل أن يكون الأب ترافيس مستنسخاً يا باتي!».

ردّدتا معاً: «لقد رأيت أشياء لن تصدّقوها أيها الناس. سفن هجومية على كتف أوريون. شاهدت أشعة سي تومض في الظلام قرب بوابة تانهاوزر».

انخفض صوتهما إلى همسات مرهقة.

«ستضيع كل تلك اللحظات في وقت ما. مثل الدموع في المطر. حان وقت الموت».

طأطأتا رأسيهما، وصرخت إيمالاين: «توقفا عن هذا!». عبست آنذاك؛ لأنها انزعجت مثل أي أم من رؤية ابنتيها تتظاهران بالموت.

كانت سنو وجوزيت فتاتا آل آيرون، أو البتولتان الحديديتان، ملكتي الكرة الطائرة في المدرسة الإعدادية، وأفضل صديقتين أختين، اللتين تؤتمنان على أسرار بعضهما، وتسديان النصح إلى شقيقيهما. تميّزت علاقتهما بأمهما بالتوتّر، وبأبيهما باللين. كان بمقدورهما العمل على الخرز والخياطة طوال ساعات مع جدّتهما. بدا أن سنو ستصير أطول قامة، وأضخم جسداً، ولكنها واجهت مشكلة في التركيز على دراستها، وقد أحبّها الفتيان على أنها صديقة لهم فقط. كانت في الصف الثامن. لاحظ الجميع أن جوزيت ستكون الأذكى، وأنها تهتم بوزنها، ولكن لا تشعر برغبة تجاه الفتيان، الذين تعدّهم أصدقاء لها فقط. كانت في الصف السابع.

أوصل لاندرو ابنتيه إلى هوبدانس لتتسوّقا وقاد سيارته إلى منزل أوتي ليقلّه إلى جلسة غسيل الكُلى. ذهبت الفتاتان مباشرة إلى متجر مستحضرات التجميل، ودخلتا المكان وهما تنفخان بخاراً بارداً من فميهما. سألتهما موظفةٌ ذات شعر أملس مصبوغ باللون الأحمر، وتضع نظارة متصلة بسلسلة، إن كان بمقدورها مساعدتهما.

قالت جوزيت: «لا، شكراً، ولا تلاحقينا من فضلك؛ لأن معنا مال ولن نسرق شيئاً».

خفضت المرأة ذقنها نحو رقبتها وبقيت على تلك الوضعية الغريبة حين استدارتا وابتعدتا نحو صندوق الدفع.

قالت سنو: «لم يكن ينبغي عليك قول هذا».

قالت جوزيت، برقّة زائفة: «قد أكون دفاعية أكثر من اللازم». يوجد محل هدايا بجوار متجر التجميل، مملوء أزهاراً اصطناعية وحُلياً مزخرفة لا تحبها أمهما، بخلافهما. دخلتا المكان، وأعجبتهما كل الدمى الخزفية، والأوراق اللامعة، والحجارة المنقوش عليها كلمات مثل: حلم، وحب، وحياة.

قالت جوزيت: «لماذا لا ينقشون «رمية»؟ كيف يعقل أن ليس لديهم واحدة مكتوب عليها «رمية»؟».

قالت سنو: «لن يأتيك الإلهام الآن، أليس كذلك؟».

«هذا ليس إلهاماً، وإنما أمر سخيف».

«أووووه!». لعقت سنو إصبعها ورسمت شكلاً في الهواء ... حروف «مفردات».

عادتا إلى القسم الآخر. كانت هناك مجموعة صغيرة من مكاشط الزجاج الأمامي وكشّافات الطوارئ، التي ربما تثير اهتمام والدهما.

قالت جوزيت: «هناك أشياء أفضل في متجر الأدوات».

«دعينا نختبر بعض العطور من أجل أمي».

«لا، غسول شعر».

«اجلبي ذلك، وسأحضر العطر».

كانت كل العطور الجيدة في صندوق مغلق تحت النضد الزجاجي، الذي تستقر عليه يدي السيدة ذات النظارة.

قالت جوزيت: «تباً، سنضطر إلى التعامل معها الآن».

قالت سنو: «أنا الطيبة، وسأتولّى الحديث».

حرّكت جوزيت عينيها وظهر تعبير «حقاً!» على وجهها.

مشت سنو إلى الموظفة وابتسمت: «كيف حالك اليوم؟». كانت نبرتها لطيفة. «نبحث عن هدية عيد ميلاد جميلة لأمنا، وهي امرأة مميزة جداً». تنهّدت سنو. «هي تعمل بجد! ماذا تقترحين؟».

ارتدّت نظرة المرأة الثاقبة عن جوزيت، التي كانت منحنية فوق الزجاج، تشاهد ما يوجد تحته. تحرّكت يد المرأة بين العلب المرصّعة بالحلي، وقوارير العطر، وأخرجت عينة من عطر جان ناتي.

قالت جوزيت: «فوّاح جداً».

أشارت سنو إلى جوفان موسك.

«هذا لا يشبه الرائحة التي تحبّها أمي. إنها أكثر، لا أدري، وضوحاً».

«ربما تشارلي، أو بلو جينز؟».

«عادي جداً».

استغرقتا في تأمل المجموعة، مقطّبتي الجبين.

قالـت سـنو للسـيدة خلـف النضـد: «أريـد الحصـول علـى شـيء مميـز. معـي نقـود كسـبتها مـن عملـي. ربمـا شـيء مـن مصمّـم أو نجـم سـينمائي».

عرضت المرأة علبة وايت دياموندز من إليزابيث تايلور.

قالت المرأة، بإعجاب: «العطر رقم واحد في أمريكا».

سألت جوزيت: «من هي إليزابيث تايلور؟».

«حقاً، كليوباترا؟».

كانـت كلتاهمـا قـد تأمّلـت غـلاف شـريط الفيديـو فـي قسـم تأجيـر الأفـلام.

«إضافة إلى أصدقاء مع مايكل جاكسون؟».

شـمّت جوزيـت فتحـة القـارورة: «أوه، نعـم، رائـع. أحـب هـذا».

كانـت القـارورة موجـودة فـي علبـة ورديـة داكنـة، ومزخرفـة بزهـرة ذهبيـة نافـرة.

«لكـن أمـي قـد لا تحـب هـذه الرائحـة. أعنـي أنهـا تشـم جيـداً».

«ستكون ملائمة لأولد سبايس، عطر أبي».

«هل سيكون وايلد موسك ملائماً؟».

«ربما ويند سونغ».

«جدّتي تضع هذا العطر».

أخرجت المرأة خلف النضد علبة أنيقة مخبأة خلف العلب الأخرى. كان لونها قرنفلياً فاتحاً، وهو أحد تلك الألوان الغريبة التي تبدو مكلفة، مع شريط رمادي داكن. كانت القارورة بحجم اليد تماماً. رشّت المرأة بعض العطر على منديل كلينكس، ولوّحت به أمام أنفيهما. انتظرت قليلاً، وبدا الأريج عطراً وجافاً، ويتكوّن من عرق سوس خفيف، وقليل من رائحة التراب وأشجار مقطوعة حديثاً؟ حشائش متنوعة؛ عشبة نادرة في غابة نادرة. لا شيء كثيباً، أو فوّاحاً، وإنما رائحة أخرى أيضاً.

قالت السيدة: «يظن معظم الناس أن هذه الرائحة بسيطة جداً. إنه لا يشبه أي عطر آخر، ولا أحد يشتريه. ليس لدينا إلا هذه القارورة».

نظرت سنو إلى جوزيت بعينين متسعتين. شمّت جوزيت الرائحة مجدداً.

قالت سنو: «أتمنى أن يكون الأمر على هذه الحال».

قالت جوزيت وهي تضع القارورة على النضد: «مميز جداً. لا بد أنها غالية الثمن».

قالت المرأة: «إنها مكلفة قليلاً، نعم». بدت محرجة من السعر. أضافت: «أنا أعمل هنا فقط، ولا أمتلك المتجر».

قالت سنو: «نعم، هذا مكلف جداً. كنت أدّخر، ولكن... حسناً».

«يمكن أن يستخدمه رجل أو امرأة. أو سافيج».

قالت جوزيت، بنبرة فرنسية مفخّمة: «أوو سوفاج. ينبغي أن نأخذها». استدارت نحو سنو، وعيناها تلمعان.

«شمّي!».

قالت سنو: «هذا ما نريده».

كان لدى جوزيت مال إضافي تخبئه في مكان صغير في محفظتها. أخرجته آنذاك، ما جعل سنو تعانقها بانفعال.

أجهشتا بالبكاء هناك تماماً أمام البائعة؛ لأن كلتيهما أدركت الأمر: فيه أثرٌ منه. بدا أريج العطر مثل رائحة شعر لاروز النظيف في يوم خريفي بارد حين يعود إلى البيت، وتنحني إيمالاين فوقه.

اعتادت أن تقول: «أوووه، رائحتك جميلة. إنها تشبه رائحة الجو في الخارج».

غادرت جوزيت وسنو متجر التجميل، وتحدّثتا عن الرائحة في الخارج، وقرّرتا أن تتواصلا تخاطرياً، كما يحدث في اجتماع الساحرات.

«أو ربما كان قومنا يتمتعون بتلك القوى قبل مجيء الرجل الأبيض».

قالت سنو: «نعم، وكنا نعيش خمسَ مئة عام».

«سمعت في الواقع شخصاً يقول هذا».

«وأنا أيضاً، وأنه يمكننا تغيير الطقس».

«أصدّق ذلك فعلاً».

قالت سنو: «رائع، لنفعل هذا الآن».

قالت جوزيت: «كان يجب أن يسمونني صيف. كل ما يمكنك فعله هو جعل الثلج يهطل».

بدا الجو عاصفاً. كانتا تسيران نحو المكان الذي ستلتقيان فيه والدهما، الذي وافق على أن يقلّهما بالسيارة بعد أن يوصل أوتي إلى البيت. كانتا ستجلسان في محطة قطار الأنفاق، وربما تتناولان شريحة من لحم الديك الرومي مع جبنة أمريكية، على رغيف من الخبز الكامل من أجل الحفاظ على نضارة بشرتيهما، مع الخس، والطماطم، والمخلّل، وصلصة البصل الحلو. ستفعلان ذلك بالتأكيد؛ لأنهما تشعران بالجوع أكثر من المعتاد، ولديهما مال كافٍ لتلك الشطيرة إذا شربتا الماء معها فقط.

قالت جوزيت: «هذا أفضل لنا؛ لأننا نحب سبرايت».

قالت سنو بكآبة: «علّمونا هذا في صف الصحة. علبة واحدة في اليوم قد تصيبك بالسكري».

لم يكن لاندرو يشتري الصودا أبداً؛ لأنه لا يريد أن يخسر أبناؤه أقدامهم. عندما قال ذلك، نظروا إليه بأعين نصف مغمضة وقالوا: «نعم يا أبي». كانوا يتناولون الشراب المحظور في وايتي. انتظرتا والدهما آنذاك، وحدّقتا إلى

الأسفل نحو غلافي شطيرتيهما، وشعرتا بالدهشة.

«أكلتُها بسرعة كبيرة».

تجشأت جوزيت: «كيف حدث هذا؟».

«قطع وبلع. ماذا الآن؟».

«نحن مفلستان، لذا سنشرب مياهاً صحية».

«وننتظر أبي».

نظرتا إلى عيني بعضهما. لم يكن أحدٌ في المدرسة مميزاً جداً، وكل شخص فيها قد واجه شيئاً مريعاً في وقت ما في أسرته. كان الجميع يشعر بالحزن على الجميع، عادةً، أو يقولون أشياء فظيعة، أو قد تتلقين عقاباً قاسياً إذا كنتِ فتاة. لم تكن هناك كلمات ملائمة لوصف ما قد جرى، ولكن إحدى صديقاتها أهدت سنو قرطين وهي تعرف أنها ستقول إنه لا يوجد وصف ملائم لذلك. لم تكن هناك عبارات جيدة تقولانها لأبيهما أيضاً، أو على الأقل عبارات ترغبان بقولها. في السيارة، ربما ستلتزمان الصمت، أو ستسألان عن أوتي أو أوان أو مريض آخر، أو قد تقولان شيئاً عاماً عن دراستهما. ستتفاديان إبداء مشاعرهما الحقيقية؛ لأن ذلك قد يثير فجأة مواجع متوارية في أبيهما، الذي سيتحلّى بجدّية كبيرة؛ كما لو أنه يقوم بطقسٍ ما. عندما تسمح لأفكار ومشاعر دفينة داخلك بالخروج إلى العلن، سيشرع أشخاص آخرون بالتضرّع والغناء لمساعدتك. لكن الفتاتان اتفقتا على أنهما لن

تتركا ذلك النوع من الطاقة يتسرّب من أبيهما في الوقت الذي بدأت فيه الأمور تعود إلى نصابها. عندما اقترب منهما بالكورولا، تواصلتا بالأعين. كانت جوزيت ستتولّى الحديث؛ لأنها بارعة في مناقشة موضوعات مثل قصّة الشعر، ومدّخرات السيارة، وتجهيز نوافذ المنزل للشتاء باستخدام قطع بلاستيكية. وإذا بدا أنه قد يغيّر اتجاهه نحو الجنوب، يمكن أن تطلب منه دائماً أن يخبرها مجدداً عن المشكلة التي قد تنتج عن شرب الصودا.

* * *

بقي بيتر مشغولاً آنذاك بمشكلة الألفية، واستطاع التفكير في شيء ما غير دستي أثناء الاستعداد لذلك. في طريقه إلى مزرعة فليت، وبّخ نفسه لأنه لم يكن قد اشترى دجاجاً حياً في الربيع السابق. كان يخطّط لتحويل إحدى المباني الإضافية القديمة إلى قن دجاج، وقد وافقت نولا على ذلك على الرغم من أنها لا تحبّذ فكرة تربية الحيوانات. لم يكن قد اقتنى دجاجاً من قبل، وكل ما فعله هو إطعام الكلب الذي قد رآه في الغابة. فكّر بيتر أنه قد يكون كلب ماشية، وسيكون مفيداً في حراسة المنزل. ربما كان بمقدوره إنقاذ دستي، من يدري؟ عرف أن ذلك غير منطقي، ولكنه اشترى طعاماً للكلب على أي حال. ابتاع بيتر أيضاً سبعة أكياس من الذرة المجفّفة وكشّافاً يدوياً. قاد سيارته إلى البيت ونقل مشترياته الجديدة إلى الغرفة في القبو، حيث خزّن آنذاك ست علب محكمة الإغلاق

من طحين القمح سعة كل منها عشرة غالونات، ومسحوق حليب، وزيتاً، وعدساً مجفّفاً، وفاصولياء، ولحماً مقدّداً.

كان قد اشترى جمّادة، ووصلها بمولد كهربائي، وابتاع مولّداً احتياطياً، وفرناً يعمل على الحطب، واقتطع حطباً ساعةً كل يوم بعد العمل. حافظ على تركيزه الذهني بتلك الطريقة، مثل قسٍّ تماماً. كان والأب ترافيس يحتطبان ليحافظا على هدوئهما، على بعد أميال من بعضهما، ويحاولا التخلص من أحزانهما. كان لدى بيتر مَرَشَّح للماء، لكنه اشترى واحداً آخر ليشعر بالاطمئنان فقط. في العام السابق، جهّز بئراً جديدة، ووصلها بمولّد احتياطي آخر، وقد اشترى أحذية يمكن أن تكفي الأطفال عامين قادمين، إضافة إلى تفاح، وإجاص، ومشمش، وخوخ، وتوت برّي مجفف. وضع كميات إضافية من الماء في أوعية بلاستيكية سعة خمسة غالونات، وكدّس بطانيات جديدة في ذلك المكان. هناك السلاح أيضاً، بندقية وذخيرة في صندوق خشبي. لقد أطلق النار مرتين على ذئاب لإبعادها عن المدخل، ومرة على ظبي، في حين لم تصب رصاصته أسداً. كان المفتاح معلّقاً في أعلى الصندوق البالغ ارتفاعه سبع أقدام. شعر برغبة في اختبار القفل، وعلب الذخيرة. كان قد خزّن مسدساً للشعلات الضوئية، ومكوّناتٍ لصنع الكعك، وسكراً، ولفائف تبغ، ومشروبات مختلفة. عرف أن بمقدوره مقايضتها بأشياء سيحتاجون إليها، لقد نسي شيئاً بالتأكيد.

في الواقع لقد نسي الفائدة العالية لاستخدام بطاقته الائتمانية. كان يعمل ساعات إضافية آنذاك لتغطية الحد الأدنى من النفقات، وقد أخبر نفسه في كل مرة أضاف فيها ثمن كيس آخر من الفطائر أو معولٍ إلى حساب البطاقة أن شركات الائتمان ستواجه فوضى عارمة نتيجة الارتباك الناتج عن احتساب 2000 على أنه 1900، وأن هناك احتمالاً كبيراً لفقدان تلك البيانات. ظنَّ أن شركات بطاقات الائتمان ستختفي، وأن النظام المصرفي سيتعطّل، وأن العالم سيعود إلى التبادل بالقطع الذهبية، ولن تكون هناك هواتف، أو أجهزة تلفاز، أو شركات طاقة، أو سيارات باستثناء المركبات القديمة التي تفتقر إلى المحرّكات المزوّدة بحواسب، أو أنابيب غاز، أو حركة جوية، أو أقمار اصطناعية. سيتواصل عبر اللاسلكي، وقد حصل على رخصة هاوٍ في استخدامه منذ أعوام. كان قد أجرى محادثات مكثّفة في ليالي شهر ديسمبر مع معارفه في كل أرجاء العالم، وهو يستيقظ كل صباح، ويدوّن مادة أخرى على قائمته.

في عطلات نهاية الأسبوع، اصطحب ماجي ولاروز معه لشراء رزمة ورق، ومجموعة مغلّفات، وأقلام رصاص، وأقلام حبر جاف، وطوابع. هل سيكون نظام البريد الأرضي قديم الطراز فاعلاً؟ على الأرجح، كما قال معارفه. بدت غرفة التخزين ممتلئة عن آخرها، ولكن نولا لم تلحظ ذلك بسبب انشغالها بتحضير تلك الفطائر.

فكّر بيتر أن بمقدور هؤلاء الأولاد العيش شهوراً على تلك الفطائر البائتة. وضعت نولا طبقة سميكة من السكر الناعم فوق الفطائر، والكعك، والمعجّنات، ثم زيّنت كل واحدة منها باسم لاروز أو ماجي. لم يعد حتى الأطفال يأكلونها آنذاك. لقد أنقذ الكعكات وخزّنها في المرأب البارد. عندما تم ترميم المدرسة الثانوية المحلية، حصل على أشياء يمكنه الاستفادة منها. كان النظر إلى مجموعة الخزائن المعدنية يجعله يبتسم تقريباً؛ لأنه يدرك وجود كعكة فاتحة اللون خلف كل باب مرقّم، على الرفّ العلوي الصغير.

* * *

لم يكن الوالدان يرغبان في ذلك، ولكن وقت عيد الميلاد حان بالنسبة إلى الأسرتين. استيقظت نولا قبل أسبوع من اليوم الخامس والعشرين، وأحسّت بأن قلبها قطعة من الرصاص. كان ثقيلاً جداً في صدرها، وينبض بوهن، في حين تقترب المناسبة من دون أن تعيرها أي اهتمام. لكنه عيد الميلاد. تقلّبت في السرير ووكزت بيتر، شعرت باستياءٍ من قدرته على النوم.

قالت: «الشجرة. إنه اليوم المنشود. يجب أن نزيّن شجرة عيد الميلاد».

فتح بيتر عينيه، اللامعتين والجميلتين والزرقاوين، اللتين لم تنتقل مورثاتهما إلى أي شخص غيره. كان الفتى يشبههما معاً، ويحمل أجمل الملامح من كليهما، ويعدُّ مزيجاً منهما، ما أثار دهشتهما. كانت الصور المؤطّرة ما تزال

موجودة فوق خزانة الثياب، ودستي لا يزال يجري تحت أشعة الشمس، ويتخذ وضعية الرجل العنكبوت، ويلعب في بركة ضحلة مع ماجي، ويقف معهم أمام شجرة عيد الميلاد الأخير. استمدّت نولا الراحة من الصور، ولكن أغلقت عينيها آنذاك حتى لا ترى الشبه مع بيتر. لإلهاء نفسها، بدأت الهمهمة، وركّزت أفكارها على ابنتها. بدا التفكير بماجي معقّداً، إذ إنه اتصف بالمحبة أحياناً، وبالغضب العارم في أحيان أخرى. كانت ماجي تشبه جدّتها البولندية الصارمة والكتومة، أو خالتها تشيبوا الفظّة والمخادعة، بعينيها الذهبيتين القاسيتين، اللتين تسودّان عند الغضب، وبتلك التكشيرة الصغيرة المقوّسة والمدهشة.

تشجّع بيتر من همهمة نولا الخافتة، وهو شيء قد اعتادت فعله سابقاً. مدَّ يده وداعب أصابعها. «ربما؟».

قالت: «لا أستطيع». على الرغم من هذا، واظب على الطلب منها صراحةً أو بلمسةٍ منه.

«سأرافق الأطفال إلى الخارج».

كان لديه منشار كهربائي، أو ثلاثة في الواقع، وكلها كبيرة وقوية، وملائمة أكثر من اللازم لقطع شجرة الميلاد. لم يكن يحتاج إلا لمنشار يدوي صغير.

قالت، جالسة في الغرفة الباردة: «في الواقع، يمكننا استخدام المنشار اليدوي ذي المقبض الأحمر. سيعمل كلانا على قطع الشجرة المثالية». تخيّل ذلك وشعر بالدهشة من

أن يكـون ذلـك ممكنـاً فعـلاً. لكـن بـدا أن بمقـدوره النهـوض عـن السـرير، والقيـام بمـا قـد فعلـه فـي السـنة السـابقة مـع فتًـى قـد ارتـدى آنـذاك سترة الأميـرة ديزنـي الورديـة الفاتحـة الخاصـة بماجـي؛ لأن سـترته كانـت فـي الغسـيل. بـدا دسـتي واثقـاً جـداً بنفسـه، وعندمـا سـخرت ماجـي منـه ووصفتـه «أختـي الصغيـرة»، زمَّ شـفتيه وتجاهلهـا تمامـاً مـا جعلهـا تضحـك. كانـت ضحكتهـا مثـل رنيـن أجـراس صغيـرة.

فكّـر بيتـر أن كل شـيء قـد تغيـر آنـذاك. تحوّلـت ضحكتهـا إلـى تهكّـم، وعويـل، وسلسـلة مـن صرخـات الغضـب، ونوبـة انفعـال. لـم يكـن غريبـاً أن تضحـك آنـذاك وسـط كل ذلـك الحـزن.

*

رأى لانـدرو الثلاثـة يتفحّصـون أشـجار الراتينـغ الصغيـرة، بعيـداً فـي الغابـة وعلـى طبقـة رقيقـة مـن الثلـج. تراجـع إلـى الخلـف، فقـد كان يتوثّـق مـن الأفخـاخ، ولا يبحـث عـن شـجرة. لكـن تذكّـر الأمـر حيـن رآهـم.

قالت إيمالاين: «حسناً، نعم. ينبغي أن نفعل هذا».

قالت سنو: «أريد شجرة مع أضواء بيضاء».

قالـت جوزيـت: «لنُخـرج الأضـواء الملوّنـة؛ لأن البيضـاء مملـة جـداً».

قالـت سـنو: «يعجبنـي التناسـق. كل شـيء آخـر فـي هـذا المنـزل فوضـوي».

قالت إيمالاين: «ماذا؟».

«لا أقصد الإساءة يا أمي، ولكن شجرة بأضواء بيضاء فقط ستكون جميلة جداً».

قالت إيمالاين: «لنقطع شجرتين إذاً».

«حقاً؟ هل تعنين هذا حقاً؟».

«صغيرتان».

انتصبت شجرتان صغيرتان في زاوية غرفة المعيشة بحلول نهاية اليوم، وقد تولّت كل أخت تزيين واحدة منها. كانت تلك أول مرة لا تبذل فيها إيمالاين أي جهد إطلاقاً، تنافست الشقيقتان في ذلك. صنعتا زخارف من قصاصات لامعة، وشرائط، وبعض رموز الهنود الحمر، وقطعٍ من ألعاب لاروز. لم تكونا قد غلّفتا هدايا بورق خاصٍ من قبل، لذا استخدمتا مجلات، وصحفاً ملونة، وأكياس تسوّق. توقف كل شيء في مرحلة ما، وبدأت الفتاتان البكاء. رمش كوتشي بعينيه وحدّق إليهما، ثم خرج من المكان، في حين لجأ هوليس إلى غرفة الفتيان. ذهب لاندرو إلى العمل باكراً، في حين بقيت إيمالاين بمفردها تطهو قدراً من اليخنة. حدث كل ذلك بسبب لاروز.

كان ذلك الشيء تحديداً يحدث كل أسبوع، أو منذ شرح لاندرو وإيمالاين للأطفال الآخرين ما قد فعلاه.

في غرفة الصبيان، وصل هوليس فراشه الهوائي القابل للنفخ بمقبس كهربائي، وضغط على زر التشغيل. حجب

الأزيز الحاد أصواتهم دقيقة أو اثنتين. عندما بات الفراش منتفخاً ومريحاً، استلقى عليه وأغلق عينيه.

لا شيء. ساد الصمت.

عرف هوليس أن والده الحقيقي، روميو، قد تخلّى عنه لكل من إيمالاين ولاندرو في وقت قريب من عيد الميلاد. كان في الخامسة، وربما السادسة من عمره، مثل لاروز. لقد نام في سرير مؤقت بعض الوقت، ولكنه أحبَّ ذلك الفراش القابل للنفخ. عرف أيضاً أنه قد وُلد في أحد المنازل، لا المستشفى. كانت ذكرياته عن أعوامه الأولى مزيجاً من النوم تحت طاولاتٍ عند أقدام الناس، أو في سرير الكلب مع الحيوان نفسه، أو مع أطفال آخرين في أحد فصول الشتاء، وجميعهم يرتدون ستراتٍ فرائيةٍ في السرير. كان يشم رائحة جلد متسخ ومتعرّق، مع أعشاب متعفّنة وشعرٍ قذرٍ، التي ما تزال تزكم أنفه. خرجت تلك الرائحة من بعض الناس، وبعض الأطفال، وقد حاول جاهداً الابتعاد عنهم. بات يغتسل كل يوم آنذاك، ويغسل ثيابه، ويحب رائحة كي الملابس. ضايقته الفتيات، ولكنهن أحببنه أيضاً. لم تكن نظافته، أو امتلاك سرير خاصٍ به، أمراً بديهياً، لذا لا، لم يتدخّل في قضية لاروز تلك. ابتعد عن المشهد ليبقى على بر الأمان، ولكنهم بدؤوا الجدال مجدداً، ووصلت أصواتهم إلى مسامعه.

«إذاً ستتخلّين عني إذا قتلتِ شخصاً ما يا أمي؟».

كانت تلك جوزيت تصرخ.

تقدّمت سنو خطوة إلى الأمام ولطمت جوزيت، التي ردّت بالمثل. ألقت إيمالاين الملعقة وضربت الاثنتين، لم تكن قد لطمت أطفالها أبداً، أو أي طفل آخر، قبل تلك اللحظة. حدث كل ذلك بسرعة كبيرة، مثل مشهد صوّره المهرجون الثلاثة. شرعت إيمالاين في النحيب، وبدأت جوزيت البكاء، ثم سنو. احتضنت الفتيات الثلاث بعضهن.

بكت إيمالاين: «ليت يدي انقطعت. لم أضربكما أيتها الفتاتان أبداً من قبل».

ناحت سنو: «ليت أيدينا انقطعت معاً».

شرحت جوزيت وسنو: «سيكون على اثنتين منا أن تقفا معاً إن أردنا تحضير الخبز المقلي، كما تعرفين، حتى تستخدم كل واحدة يدها الباقية. تك، تك».

ضحكت إيمالاين وهي تبكي: «تك، تك. هذا مثير للشفقة».

عادوا ببطء، واحداً بعد آخر، إلى قدر اليخنة الذي تحرّكه إيمالاين بحزن. كان هوليس قد غفا قليلاً في قيلولة قصيرة، في حين غلّف كوتشي أشياء صغيرة قد سرقها قبل شهور من شقيقتيه ليقدّم لكلٍّ منهما شيئاً في عيد الميلاد، وعلّق تلك العلب على الأغصان. عاد لاندرو إلى المنزل حاملاً كيسي هيفتي أسودين مملوءين قفازات، وقبعات، وأحذية، وسترات جديدة. كان الأب ترافيس قد انتقاها من مخزن الأبرشية قبل أن يضع أي شخص آخر يده على تلك

الهبـات. خـرج هوليـس مـن غرفـة النـوم وسـاعده فـي حمـل الكيسـين إلـى المنـزل وفـرز الهدايـا. حـاول أن يكـون مرحـاً، لكنـه لـم يسـتطع ذلـك؛ لأنـه اعتـاد إظهـار مشـاعر الكآبـة لا الفـرح فـي الأعيـاد، ولكنـه منـح الفتاتيـن سـبباً لتتحدثـا معـه.

قالـت الفتاتـان لهوليـس: «توقـف عـن إظهـار الوجـه القبيـح. تحـلّ بـروح عيـد الميـلاد، ولا تخبـر لاروز بـأن بابـا نويـل غيـر موجـود».

قالت جوزيت: «إذا رأيته».

تراجعت سنو.

قـال هوليـس: «سـأجده». لـم يكـن يرغـب بـأن يكـون لـه يـد فـي ذلـك، ولكـن الكلمـات خرجـت منـه. «سـأخبره بـأن بابـا نويـل قـادم».

لـم يكـن هوليـس وسـيماً تمامـاً، بأنفـه الكبيـر، ومزاجـه التهكّمـي والمتقلّـب، ولكنـه بـدا أكثـر جاذبيـة مـن شـخص مليـح حقـاً. كان شـعره مصفّفـاً، وتتدلّـى خصلـة منـه بأناقـة علـى جبينـه.

ردَّ شعره إلى الجانب براحة كفّه.

قالـت جوزيـت حيـن شـاهدته يـردُّ شـعره بتلـك الطريقـة: «يحـق لـك أن تفخـر بنفسـك».

رفعـت حاجبهـا حيـن تحدثـت إليـه، وبـدت تلـك إشـارة غيـر مقصـودة جعلتـه يحـدّق إليهـا بافتنـان حيـن اسـتدارت مبتعـدة.

كانت الفتاتان قد قرّرتا تقديم أوو سوفاج إلى أمهما في نهاية الأمسية. لم تثقا بهوليس أو ويلارد، أو حتى والدهما، وخشيتا أن يقوم أحدهم بتحطيم القارورة بقدميه. كانت تلك هي طبيعة العيش مع الفتيان، فهم يدوسون على الأشياء، وحتى الهدايا. كانت فتيات أوجيبوا يتعلّمن ـ على نحو تقليدي وبأثر رجعي آنذاك ـ ألا يدسن على الأشياء منذ سن مبكرة، خاصة أغراض الصبيان. أبلغتهما إغناشيا ثندر، صديقة جدّتهما والعجوز التي علّمتهما كل التقاليد، بأن قوتهما أقل من قوة الفتيان. قالت جوزيت إنها طريقة أخرى للسيطرة على الإناث، وقد وافقتها سنو جزئياً على ذلك. لم يبدُ أي تعبير على وجه إيمالاين، وعلى الرغم من أن نساء آيرون قد لا يعرفن تلك القاعدة مئة بالمئة، إلا أنهن لا يستطعن إرغام أنفسهن على تجاهلها تماماً.

كانت الفتاتان قد اشترتا أدوات غريبة لشقيقيهما ووالدهما. ابتاعت جوزيت وسنو منديلاً ملوناً أول مرة في حياتهما. غلّفتا العلب بحرص بورق أحمر شفّاف، ووضعتا علبة والدتهما على أحد الرفوف، وقد تركت العقدة اللامعة التي اشترتاها للهدية أثراً أحمر برّاقاً على أيديهما.

قالت سنو: «ماذا سنفعل بهدايا لاروز؟».

دفعتا الأشياء الموجودة على الطاولة الكبيرة إلى الجانب ـ الخرز، وأغطية المرطبانات، والصحف، والكتب المدرسية ـ وبدأتا تناول اليخنة من طبقيهما. أرادت جوزيت الذهاب إلى منزل آل رافيتش وتقديم الهدايا إلى لاروز. قالت سنو إنها لن تستطيع تحمّل

الخالة نولا؛ لأنها نيّقة. طأطأ كوتشي رأسه وتناول طعامه بصمت. نظر هوليس إليه، وطأطأ رأسه أيضاً. راقبتهما إيمالاين حتى استدارا إليها.

سأل كوتشي: «هل صنعت حذاء لاروز؟». بقي الأخ الأصغر في الأسرة حتى ولادة لاروز. كانت نبرة صوته تدلُّ على الفزع، في حين اغرورقت عيناه بالدموع.

في كل عام تصنع إيمالاين لكل واحدٍ منهم حذاءً جديداً من جلد الموظ المدخّن، المبطّن بقطعٍ من بطانية قديمة، وتزيّن الكاحلين أحياناً بفراء الأرنب. كانت تفعل ذلك أثناء زيارة والدتها، أو في المنزل حين تشاهد أحد برامجها التلفزيونية المفضّلة، أو تجلس مع أبنائها إلى الطاولة لتتوثّق من أنهم قد أنهوا فروضهم الدراسية. أظهرت براعة في عملها ذاك، وقد اشترى الناس طلبيات خاصة منها، ووصل سعر أحذيتها أحياناً إلى مئتين أو ثلاثِ مئة دولار. كانت الأسرة تفخر بعملها، ولا ينتعل أفرادها إلا الأحذية التي صنعتها لهم داخل المنزل، حتى هوليس، الذي تبدو قدماه جميلتين فيها، وتبقى دافئة أيضاً. كان لدى كل واحدٍ منهم علبة من تلك الأحذية، وقد حصلوا على زوجٍ منها كل عام.

قالت إيمالاين: «لقد صنعتها».

* * *

أخبر لاندرو صديقه راندال، الذي يبني خيماً تقليدية، ويعلّم ثقافة وتاريخ أوجيبوا، وطريقة سلخ جلد الظبي في

المدرسة الثانوية القبلية، بأن إيمالاين صنعت خفّين من أجل لاروز. كان راندال قد حضر احتفالاً أقامه مسنّون درس معهم - معالجون تقليديون. قال إن لاندرو مُبتلى بعفاريت، وعلى الرغم من أن راندال لا يخاف منها فإنه يحترمها.

قال لاندرو: «لا بد أنه شيء قد حدث لي حين كنت طفلاً، ولكن لا أتذكّره».

قال راندال: «هذا ما يظنّه الجميع؛ كأنك إذا تذكّرت فجأة ما حدث، سيكون بمقدورك التخلّص من العفريت. لكن الأمر أكثر تعقيداً من ذلك كثيراً».

كان راندال مختصاً بالتخلّص من العفاريت، إضافة إلى معالجة العاهات الجسدية، وحالات الخلع، والأمراض، والإدمان، ومشاعر الإحباط الناجمة عن كونهم الناجين الوحيدين من قوم يتمتعون بتاريخ معقّد. ما الذي ينطوي عليه ذلك التاريخ؟ ما نوع المعرفة؟ من كانوا؟ أين هم الآن؟ لماذا يثيرون كل ذلك الاهتمام في كل مكان يذهبون إليه؟

كانا قد أجريا تمارين الإحماء، وجلبا الصخور إلى الخيمة التقليدية، ويجلسان آنذاك داخلها وهما يرتديان سروالين قصيرين فضفاضين فقط. شدَّ لاندرو القماش المشمّع إلى الأسفل وأغلق عليهما المكان في الداخل. وضع راندال كميات صغيرة من التبغ، والمريمية، وخشب الأرز، ومسحوق جذر جاف على الحجارة المتّقدة. عندما بات الجو مثقلاً بالأريج، رشَّ أربع مغارف من الماء، فتغلغل البخار الحار إلى رئتيهما على نحو مؤلم. بعد أن

تضرّعـا، فتـح رانـدال بـاب الخيمـة، وأمسـك المـذراة وأدخـل عشـرة أحجـار أخـرى.

قـال: «لا بـأس، سنباشـر المرحلـة الثانيـة. جهّـز منشـفتك حتـى لا تصـاب بحـرق». أغلـق البـاب، ولـم يعـرف لانـدرو عـدد مغـارف المـاء التـي سـكبها رانـدال علـى الحجـارة. أُصيـب بـدوار، ووضـع المنشـفة علـى وجهـه، مـن ثـم اسـتلقى علـى الأرض. تمتـم رانـدال تعويـذة طويلـة إلـى الأرواح فـي أنيشـينابيموين، التـي بالـكاد فهمهـا لانـدرو. قـال رانـدال بعـد ذلـك: «جينيتـام»، التـي تعنـي أنـه قـد حـان دور لانـدرو ليتكلـم آنـذاك. لكـن كل مـا اسـتطاع لانـدرو قولـه هـو: «تكرهنـي أسـرتي؛ لأننـي تخلّيـت عـن لاروز».

أمعن راندال التفكير في هذا.

قـال أخيـراً: «فعلـت الصـواب، وسـيدركون هـذا. هـل تتذكّـر كل مـا قالـه الكبـار؟ هـم يعرفـون التاريـخ. مـن قتـل والـدة مينـك، ومـاذا يمكنهـا أن تفعـل؟ مـن ثـم ابنتهـا، وحفيدتهـا، ووالـدة إيمالايـن. حـاول الشـر أن يتملّكهـم، ولكنهـم قاومـوا العفاريـت، وتفوقـوا عليهـا ذكاء». قـال رانـدال إن النـاس ظنّـوا فـي السـابق أن مـا يفعلـه المعالجـون التقليديـون مجـرد سـحر، ولكنـه لـم يكـن كذلـك. بـات أمـراً خـارج نطـاق الفهـم اليـوم، ولكـن ليـس سـحراً.

قـال رانـدال: «يسـتطيع لاروز فعـل هـذه الأشـياء أيضـاً؛ لأنـه تعـوّد عليهـا. هـو أقـوى ممـا تظـن. هـل تتذكّـر أنهـم قالـوا إنـه سـراب؟».

«أعرف أنهم أطلقوا عليه اسم سراب».

«هذا صحيح».

«يعرف السراب كيف يحلم بمكان وجود الحيوانات، وكيف يغادر جسده أثناء غشية ويزور أقرباء بعيدين. لقد عرف تاجرٌ يدعى جورج نلسون أشخاصاً آخرين يمكنهم فعل الشيء نفسه، وكتب عن هذا في القرن الثامن عشر».

تكلم لاندرو على نحو متقطّع: «ماذا إن كان الزعماء عصبة من كبار السن العاديين، وليسوا أكثر ذكاء من أي شخص منا، وماذا إن ...؟».

قال راندال: «هم كبار وعاديون فعلاً. ولكنهم أشخاص تعلّموا من الأكبر منهم سناً، أليس كذلك؟ لقد تضوّرنا جوعاً في إحدى السنين حين تخلّى كبار السن عن تخزين مؤنهم. مات ذلك الجيل من أجلنا، هه؟ لهذا ننتقل شمالاً، ونقبل نصائحهم إذا بدت ملائمة لنا».

«ولكن ربما لا يعرفون؟».

«توقف عن طرح هذه الأسئلة الغبية. ستؤذي دماغك إذا فكّرت بهذه الطريقة. دعني أسألك شيئاً. كيف كان مظهر ذلك الفتى دستي على أي حال؟».

«لا تسألني عن ذلك».

«ليس شيئاً هامشياً في معاناتك يا صديقي. كيف كان شكله؟ من هو أفضل من يعرف ذلك الفتى، من أسرتك؟».

أجاب لاندرو أخيراً: «لاروز».

«إذا ماذا كان لاروز يعرف عنه؟».

«فتى مرح، ويحب ألعاب المغامرات. كان لدى الاثنين كومة من الدمى المطابقة لشخصيات الرسوم المتحرّكة، ويشعران بالفرح إذا أصغيت إليهما أثناء كلامهما عمّا قد فعلاه. دستي ...».

«نعم، قل اسمه، ولكن استخدم لقب عالم الأرواح. قل الراحل».

«أحبَّ الراحل دستي الرسم، وقد برع فيه. لدينا بعض الرسومات التي أنجزها لنا».

«عن ماذا؟».

«حصان، كلب، الرجل العنكبوت».

كان لاندرو يبكي بنشيج وشهقات. تركه راندال على تلك الحال بعض الوقت.

«لا تبكِ أكثر من هذا، إلا من أجل ذلك الفتى. لا تبكِ أكثر من هذا من أجل ألمك. استفد من طاقة البكاء تلك لما فيه مصلحة أسرتك، وفعل الخير من أجل الراحل دستي. عندما أسمعك تبكي، أسمع بكاءك لما فعلته، ولكن يجب أن تتوقف عن هذا الآن. هل كنت في مكانٍ مرتفعٍ حين أطلقتَ النار عليه؟».

طقطق الدواء التقليدي. «لا».

«هل كنت في مكان مرتفع؟».

«لا».

«هل كنت في مكان مرتفع؟».

«لا».

«سنترك قومنا يتولون أمر هذا الهراء. لا ينبغي أن نفعل شيئاً. أطرح عليك السؤال لهذا السبب». التزم راندال الصمت وقتاً طويلاً.

قال راندال: «أنت صياد ماهر، وتسدّد بدقّة كبيرة. يعرف الجميع أنك تتوخّى الحرص، وتصطاد طعامك كل عام. لهذا طرحت عليك هذا السؤال».

قال لاندرو: « حسناً».

«لستُ مقتنعاً تماماً».

قال لاندرو: «حسناً».

«هل أقلعت عن الشراب؟».

قال لاندرو: «نعم».

«الأدوية؟».

«نعم».

«حسناً، ينبغي أن تثق بأنك قد فعلت الصواب فيما يخص لاروز».

قال لاندرو: «ماذا عن إيمالاين؟».

«نو لا شقيقتها».

قال لاندرو: «أختها غير الشقيقة».

قال راندال: «الأخت أخت مهما فعلت».

«إيمالاين لا تحب أختها».

«هل تقول هي ذلك؟».

«أعرف هذا، ونو لا لا تتحمّل إيمالاين أيضاً؛ لذا لا يمكننا رؤية لاروز. أظن أننا افترضنا أنها ستعيده إلينا؛ لأن الصَّبييْن اعتادا على اللعب معاً».

قال راندال: «امنحهم بعض الوقت ليعتادوا على الوضع. الباب! أوه، نسيت أنه لا يوجد بوّاب. الباب! سأفعل ذلك بنفسي». حرّك راندال القماش إلى الجانب، من ثم جلب مزيداً من الحجارة وألقاها من طرف المذراة.

«أليس هذا كثيراً؟». كان لاندرو قد انتشى آنذاك.

قال راندال: «هاها، إنها حفلة. سأغليك حياً».

لم يشعر لاندرو بالسكينة حتى بعد أن وضعه راندال في ذلك المكان المفعم بالبخار الحار، وإنما ازداد الأمر سوءاً بالنسبة إليه. اشتاق إلى ذراعي لاروز تحتضنانه، وألقى باللوم على نفسه؛ لأنه كان الابن المفضّل لديه. بدأ يأخذ كوتشي إلى أماكن مختلفة، ويرافقه إلى كل موقع يذهب إليه، ويبقي ذلك الابن الوحيد قريباً منه. كان كوتشي صبياً جادّاً ونكداً، وصعب المراس أيضاً، ومزعجاً جداً

في الواقع. لكن لم يعرف أحد بذلك؛ لأنه يلتزم الصمت معظم الأحيان.

سأل لاندرو مرة: «لماذا هذا الصمت؟».

«لماذا أتكلم في حين أن جوزيت تتكلم طوال الوقت؟».

كانت لديه وجهة نظر.

كانت إيمالاين لا تزال تفكر فيما قاله الأب ترافيس. إذا أرادت ذلك، نعم، يمكنها استعادة ابنها. لن تلجأ إلى النظام؛ لأن أي شيء قد يحدث مع ملفات العمل الاجتماعي، التي تتطلّب تعبئة نماذج مكوّنة من ثلاث نسخ. لكن بدلاً من الإقدام على تلك الخطوة، والمضيّ قدماً بذلك الاتجاه، فكّرت دائماً بمأساة نولا، ومسؤولية زوجها عن وفاة دستي، ما جعلها تفعل شيئاً آخر. بدأت وضع مبالغ نقدية صغيرة من أجل لاروز في حساب توفير في الشهور القليلة الماضية، وأبرزت حبها له بخياطة لحاف أخذته إلى منزل رافيتش. أعطت إيمالاين اللحاف إلى نولا، التي شكرتها عند الباب، وطوت الغطاء، ووضعته على أعلى رفّ في إحدى الخزائن. لم تستطع إيمالاين منع نفسها من تحضير حساء خاص وخبز مقلي لابنها المفضّل كل بضعة أسابيع، ووضعهما عند عتبة باب نولا أو حتى بين يديها، على أمل أن يتذوّق لاروز محبتها فيه. كانت نولا ترميه فوراً. عادت إيمالاين مع الخفّين الجديدين قبل عيد الميلاد مباشرة، وتركتهما مغلّفين وقد كُتب اسم لاروز عليهما. وضعت نولا الخفّين في علبة بلاستيكية، وتركتهما في ذلك

الصندوق الصغير. توجّست خيفة منهما؛ لأن رائحة الجلد المدخّن فيهما تدلُّ على قوة الإبداع.

جلبت إيمالاين هدايا في تلك المناسبات، ولاحظت أن أختها غير الشقيقة تدرك من يتولى زمام الأمور. عندما فتحت نولا الباب، تلاشت ابتسامتها فوراً، وتشابكت يداها وابتعدتا عن بعضهما بعصبية أحياناً قبل أن تقبل الطعام منها. أخفت عبارة «شكراً لك»، التي اعتادت قولها بارتياب، يأس جعل إيمالاين تستدير مبتعدة عن المكان. في السيارة، وضعت يدها في جيبها ولمست قصاصة ورقية مكتوباً عليها «يمكن أن تستعيديه».

لم تستطع مغادرة المكان في أحد الأيام قبل حلول أول عيد ميلاد من دون لاروز، بعد أن وضعت الطعام هناك. خرجت إيمالاين من الشاحنة الصغيرة، وعادت إلى المنزل. ربما سأتكلم إلى نولا؟ ألمح لاروز؟ دقّت على الباب، ولكن نولا لم ترد. قرعت إيمالاين بقوة أكبر، ثم طرقت حتى آلمتها مفاصلها. عرفت أن نولا في مكان ما في المنزل مع ابنها، متظاهرة أن إيمالاين ليست مَن يدقّ على الباب.

داخل المنزل، سمع لاروز صوت أمه وعرف رائحة الحساء الذي لن يتذوّقه. تابعت نولا قراءة «حيث تكون الأشياء البرّية»، حتى توقف الطرق. كان صوت نولا أجشّ وخافتاً.

قالت نولا: «وكان لا يزال ساخناً»، وأغلقت الكتاب. «هل ينبغي أن أقرأه مجدداً؟».

قال لاروز بصوت واهن: «لا بأس». غمرته نوبة غامضة من حزن مرهق. أغلق عينيه وغطَّ في النوم.

قالت إيمالاين وهي تدخل من باب بيتها بعد وقوفها خارج منزل آل رافيتش وطرقها على بابهم: «هل هناك مورثة للحقد؟».

رمقت سنو جوزيت بنظرة، فقالت جوزيت: «هل قالت أمي ذلك حقاً؟».

تابعت إيمالاين: «لأنها إذا كانت موجودة، ستكون أختي قد حصلت عليها من أمها المعروفة بحقدها الأسود».

حدّقت الفتاتان بإيمالاين، وعبستا في محاولة لرفض طريقة والدتهما في الكلام.

«كان اسمها مارن، وقد قتلت زوجها ونجت من العقوبة. كان زعيم إحدى الفرق الدينية طبعاً».

«توقفي!».

رفعت الفتاتان أيديهما.

قال جوزيت: «كلام جنوني يا أمي».

قالت إيمالاين: «هذا صحيح».

«حسناً يا أمي، لكن هل يمكن أن نذكّرك أنك تتكلمين عن جدّتنا؟». أومأت جوزيت وسنو بقوة.

«ما تقولينه غريب جداً يا أمي. أعني أن تكوني حقودة شيء، وأن تقتلي زوجك شيء آخر تماماً. لا نريد سماع هذا».

قالت إيمالاين: «إذا كنتما لا ترغبان في سماع الحقيقة، فماذا تريدان إذاً؟».

قالت جوزيت: «نريد أن نعيش حياة طبيعية».

قالت سنو: «خالية من المفاجآت، باستثناء الأمور الجيدة».

«ميلودراما؟ هذا منفّر».

«كلمات منتقاة من المعجم!».

ضربت الفتاتان أيديهما.

قالت إيمالاين: «لا بأس، أقبل بهذا».

* * *

تكلم ماكينون إلى الفتاة بلغتها، في حين حاولت إخفاء وجهها الملطّخ بالطين.

قال وهو يفتح يديه: «كل ما فعلته هو أنني سألتها عن اسمها، ولكنها رفضت أن تقوله لي. أسند إليها بعض الأعمال يا روبرتس، فأنا أكره تلك الكتلة من اللحم عند الزاوية».

جعلها ولفريد تساعده في تقطيع الحطب، ولكن حركاتها كشفت جمال أطرافها. علّمها طريقة تحضير الخبز، ولكن ضوء النار انعكس على وجهها، والحرارة أذابت بعض الطين عنه. أعاد وضع الوحل عليها وحاول تعليمها الكتابة. رسمت الأحرف بسهولة، ولكن الكتابة

كشـفت يدهـا البديعـة. أخيـراً ـ اقترحـت ذلـك بنفسـها ـ خرجـت الفتـاة لتثبيـت الأفخـاخ. أوضحـت مـا تريـده بجـلاء، وخطّطـت لشـراء حريتهـا مـن ماكينـون ببيـع الفـراء. قالـت إنـه لـم يدفـع مبلغـاً كبيـراً مقابلهـا، وإن الأمـر لـن يسـتغرق وقتـاً طويـلاً.

فهمـت تمامـاً لمـاذا وضـع ولفريـد السـخام علـى وجههـا، لـذا حدّبـت ظهرهـا ولـوت فمهـا، وتركـت شـعرها أشـعث وأخفـت معالـم وجههـا. تعلّمـت كتابـة حـرف جديـد كل يـوم، ثـم كلمـات، وعبـارات، وبـدأت اسـتخدامها فـي حديثهـا.

فكّـر ولفريـد أنهـا ذكيـة بالتأكيـد بالنسـبة إلـى همجيـة فظّـة، وأنهـا ستسـتولي علـى عملـه قريبـاً جـداً، هاهاهـا. لـم يكـن هنـاك أحـد يمـزح معـه باسـتثناء نفسـه.

* * *

ردَّ الأب ترافيس على الهاتف، وأمال كرسيه إلى الخلف. لـم يقل شيئاً حين سمع اسم الأسقف الجديد للأبرشية.

«ليس مفاجئاً».

«سـيتخذ الأسـقف الجديـد فلوريـان سـورينو موقفـاً متشـدّداً مـن القضايـا الخلافيـة، كانـت تلـك ولايـة حمـراء (تصـوّت للجمهوريـين). عمـل الأب ترافيـس فـي منطقـة زرقـاء، والمحميـات فيهـا نقـاط أو بقـع زرقـاء، وتصـوّت للديمقراطيين. كان الجمهـوري الوحيـد الـذي قـد يخطـر علـى بالـه، إضافـة لـه، هـو روميـو بويـات. بوجـود أسـقف جديـد،

قد يتحوّل الأب ترافيس إلى دومنيكي متحرّر، ما يجعل رجل الدين الأعلى مرتبة يرغب في معاقبة ذلك القس بإرساله إلى إحدى المحميات، أو إجراء تغيير جذري، هناك تغييرات جذرية تجري حالياً في كل مكان. كان يحب جمعية القدّيس بيوس العاشر، ويفتقد القدّاس اللاتيني، ولكن جُلَّ اهتمامهم يركّز على إقامة شعائر القدّاس الروماني. على كل حال، كانت القضايا الأخرى ـ مثل الإجهاض على سبيل المثال ـ تجعله يشعر بقشعريرة. لقد علّمه والده أن أمور النساء تبقى شأناً خاصاً بالنساء. برز احتمال آخر آنذاك، لا تزال السلطات الكنسية تحاول التعامل مع مشكلات قساوستها.

كان التخلّص من آخر واحدٍ منهم صعباً.

قد يتم نقله إلى مكان آخر، أو ربما يستقبل فجأة قساً آخر أعلى مرتبة ويتمتع بسلطة أكبر منه، ويضطر إلى تنفيذ أوامره. قد يأتيه مساعد يسكن معه في المنزل، قس مريض يعاني اكتئاباً شديداً. أو يتم تعيين مجموعة كاملة من الراهبات فجأة في الدير، الذي تديره آنذاك مجموعة تطوّعية من الأشخاص العاديين، ويُستخدم على أنه مأوى ومركز اجتماعات.

أو قد لا يحدث شيء أحياناً ببساطة. يمكن أن يتحلّى بالأمل دائماً. رفع بصره إلى سقف مكتبه ورأى الجص المشقّق. كان هناك خط أزرق باهت على السقف بدا مثل كشط قام به النجّار. ذلك اللون، كأنه قد فتح باباً أزرق في ذهنه.

شدَّ الأب ترافيس معطفه حوله بإحكام ومشى نحو الثلج اللامع. كان ذلك وقت سلام مقدّساً. أحبَّ عيد الميلاد وقدّاس منتصف الليل. كان وهج الشموع يضفي ألقاً روحانياً على قسمات وجوه الناس، الذين يدفعونه إلى الجنون. اعتاد أن يقول في عظته: «لقد تناهى الليل واقترب النهار، إذاً فلنطرح أعمال الظلمة، ونمسك أسلحة النور». ثم ظهر ذلك الباب الأزرق. لم يكن هناك ما يدعو للخجل، أو الإحساس بأنه ينقض عهده، أو ينتهك خصوصية لاندرو أو حرمته، أو أي شيء آخر. يمكن أن يكون سعيداً بأفكاره، أليس كذلك؟ بغض النظر عمّا يقوله متّى؟ ليس إنجيله المفضّل بأي حال. رفرف جناحان أبيضان، فنظر حوله وقد تملّكه إحساس غريب بالسعادة، ورأى ضياء ساطعاً يهبط من الأعلى.

* * *

أنفقت نولا على عيد الميلاد بسخاء، ولكن ذلك لم ينفع بشيء. كان رصاصٌ ذائبٌ يتسرّب من الكتلة في صدرها إلى عروقها، ويوقف دورتها الدموية ببطء. بدأت تشعر ببرد شديد في قدميها ويديها، وتنتابها نوبات قشعريرة، وتجلس بجانب موقد الحطب، وتشرب الشاي الساخن طوال اليوم. كان النهوض عن السرير أو الكرسي، أو تغيير مكانها، صعباً مثل تحريك قطعة أثاث. لم تكن تسترخي إلا حين تحتضن لاروز في حجرها بعد ظهر كل يوم حتى ينام. كان الفتى يغطُّ في نوم عميق، في حين

تشعر نولا بشيء جميل يتسلّل منه إليها. لم تكن تتحرّك إلا لتهزّه قليلاً من أجل أن يستأنف نومه إذا تقلّب. عندما كان يستيقظ، تتردّد في تركه يبتعد عنها، ثم تنشغل بواجباتها المنزلية وتُظهر للأولاد أنها موجودة هناك فعلاً، وأن الأمور على ما يرام. لم يكن بمقدورها أن تخدع بيتر، ولكنه كان مشغولاً في الأسبوع بعد عيد الميلاد بما سيحدث عشية رأس السنة. لقد خطّط لكل شيء، وعندما حلّت الليلة بدأ تطبيق خطّته.

31 ديسمبر 1999. وضع بيتر حطباً كافياً في صندوق غرفة المعيشة لإبقاء الموقد متقداً طوال الليل، بدا واثقاً أن الشبكة الكهربائية التي تديرها الحواسب ستتوقف عن العمل. ملأ قواريرَ بمياه الشرب، ودلاءً من أجل استخدامها في المرحاض، ثم أوقف تدفّق الماء إلى المنزل تحسباً لتجمّد الأنابيب. وضع فُرشاً في غرفة المعيشة في الطابق الأرضي، حيث سيشعر الجميع بالدفء لقربهم من موقد الحطب. كان قد اشترى أكياس نوم محكمة العزل وصامدة لدرجات حرارةٍ تحت الصفر، ظناً منه أنهم قد يضطرون إلى استخدامها كل الشتاء، وابتاع كيس نوم مزدوجاً على أمل أن يستخدمه مع نولا، إضافة إلى مساند سميكة. وضع كل تلك الأشياء على الأرضية، في حين جلب الأولاد وسائدهم من الأعلى. احتضن لاروز دميته. كان هناك طعام، ومذياع يعمل على المدخرات، وحاسوب لمشاهدة ما سيحدث في منتصف الليل، وورق لعب. حضّرت نولا الفُشار وضحكت على كل ما فعله لاروز. بدت مسرورة،

وقـد كانـت كذلـك فعـلاً؛ لأنـه إذا انتهـى العالـم، سـينتهي كل شـيء معـه. لـم تكـن سـتضطر إلـى الحفـاظ علـى تلـك المظاهـر لتشعر بتحسّـن، ولـن تكـون مسـؤولة عـن أي فوضـى قـد تحـدث آنـذاك. لعـب بيتـر وماجـي غـو فيـش، وكريـزي نايتـس، وهارتـس، فـي حيـن قـرأت نـولا بصـوت خافـت وعاطفـي كتابـاً بعـد آخـر مـن أجـل لاروز.

أخيـراً، استلقى الأطفـال في أكياس النـوم الناعمـة والدافئة، واستسـلموا للكـرى. أشـعل بيتـر شـموعاً، وأخـرج قـارورة مـن شـراب فـوّار، وأذكـى النـار. سـكب السـائل الرغـوي الأصفـر ببـطء فـي كأس نـولا أولاً، ثـم فـي كأسـه، ورفعـا كأسـيهما بصمـت. أبعـدت نـولا خصـلات شـعرها الأشـقر والأجعـد عـن وجههـا. عندمـا تنـاولا الشـراب نظـرا إلـى عينـي بعضهمـا وشـاهدا الغريبيـن القاطنيـن آنـذاك فـي الجسـدين اللذيـن أنجبـا ابنهمـا معـاً.

قالت نولا: «أتساءل من تكون الآن؟».

قال بيتر: «هذا أنا، الشخص القديم نفسه».

«لا، لست كذلك. لن نكون على حالنا أبداً».

تجـرّع بيتـر شـرابه: «لا بـأس. لـن نكـون علـى حالنـا أبـداً. لكـن هـذا لا يعنـي أن نغيّـر، كمـا تعرفيـن، علاقتنـا مـع بعضنـا البعـض. لا أزال أحبـك».

علقت كلماته هناك في السكون.

قالـت أخيـراً وهـي ترغـم صوتهـا علـى إظهـار الاقتنـاع

بذلـك: «لا أزال أحبّـك أيضـاً». ارتشـفت قليـلاً مـن شـرابها، ثـم تجرّعـت الباقـي فجـأة. «المزيـد!». رفعـت نـولا كأسـها، ضاحكـة. «بالمحصلـة، مـاذا سـينفعنا إن بقينـا علـى حالنـا أو لا؟ إنهـا نهايـة العالـم! لنسـتمتع بفنـاء الدنيـا».

كان وجههـا مشـرقاً وبشوشـاً. أبـرزت ابتسـامتها المقوّسـة الجميلـة، فبانـت أسـنانها الصغيـرة، الشـبيهة باللؤلـؤ. كان يقول دائمـاً إن ابتسـامتها تمـلأ الغرفـة سـعادة، كان ذلـك صحيحـاً؛ لأنهـا عندمـا تتحمّـس تصيـر أكثـر حيويـة، كمـا يحـدث مـع الأشـخاص الرائعيـن حيـن يطلقـون العنـان لأنفسـهم فجـأة. هـم يرفعـون معنويـات الآخريـن بقـوة المفاجـأة. مـلأ بيتـر كأسـها، ثـم أشـار إلـى الأعلـى. نهضـت بـدلال مـن كيـس النـوم، شـعثاء وحافيـة. صعـدا علـى الـدرج بهـدوء معـاً، وأوصـدا بـاب غرفـة نومهمـا .

همـس بيتـر بعـد بعـض الوقـت: «لـم يكـن يفتـرض أن نفعـل هـذا». سـأل حيـن لـم تجـب: «هـل أنـتِ بخيـر؟». أزَّ صمـتٌ كئيـبٌ فـي الغرفـة. قـال: «حسـناً، آسـف أن الأمـر لـم يجـرِ كمـا نريـد، لكنني مسـرور لأنـك هنـا. أحبّـك كثيـراً، وقـد يكـون بمقدورنـا القيـام بذلـك، ربمـا يمكننـا إنجـاب طفـل آخـر يـا نـولا. لـم نتكلـم عـن ذلـك، ولـن يحـل أحـد محـل دسـتي، أو محـل لاروز، الـذي أحبّـه أيضـاً. لـن يغيّـر ذلـك مـا جـرى، ولكـنّ طفـلاً قـد يجعلـك تشـعرين بشـيء مـا، شـيء قـد يسـاعدك، وحتـى يجعلـك سـعيدة».

قالت نولا: «أشعر بالبرد. أكره طريقتك تلك».

لـم يقـل شـيئاً. وضعـت رأسـها علـى صـدره، وسـرعان ما باتـت أنفاسـها بطيئـة ومنتظمـة. تركهـا فـي الأعلـى بعـد أن نامت. في الأسفل، شدَّ الأغطية بحنان حول أعناق الأطفال النائميـن. جعلـه شـيء مـا يرفـع بصـره عنهـم، ورأى الكلـب البني علـى الشرفة يراقـب مـا يجري في الداخـل عبر البـاب الزجاجـي. كان السـماح للكلـب بالدخـول أمـراً بسـيطاً جـداً، فـي ليلـة الليالـي تلـك. فتـح البـاب، ودخـل الكلـب مرتعشـاً مـن الاهتمـام الـذي حظـي بـه. انخفضـت أذنـاه المتورّدتـان قليـلاً، ولكـن بـدا أنـه يجهـد نفسـه ليفهـم معنـى ذلـك.

قـال بيتـر: «أنـت ...». لـم يكـن بمقـدوره أن يتحـدث إلـى كلبه مثل أي كلـب عـادي. «أنـت لست كلبـاً عاديـاً. لا بـد أنـك جائـع. لدينـا دجاج، ولكـن لا عظـام مـن أجلـك».

نظر إلـى الأسـفل نحـو الكلـب، الـذي جلس مترقّبـاً؛ كأنـه مـدرّب علـى ذلـك.

قـال بيتـر: «العظـام تتكسّـر»، وأمـال الكلـب رأسـه، كأنـه يفهـم ذلـك.

قال بيتر: «يمكن أن تختنق».

أبقـى الكلـب عينيـه البنيتيـن علـى يـدي بيتـر حيـن نـزع اللحـم عـن عظـام الدجاجـة. عندمـا وضـع بيتـر طبـق اللحـم علـى الأرض، اندفـع الكلـب إلـى الأمـام فرحـاً، وابتلـع الطعـام فـي ثـلاث لقمـات كبيـرة. ذهـب الحيـوان بعـد ذلـك إلـى الأطفـال مباشـرة، ووقـف فـوق ماجـي، ثـم لاروز، سـاكناً

تماماً، باستثناء أنفه الذي بدأ الشم وكسب ما يبدو لنا معرفة خارقة عمّا قد فعله الأولاد، وأكلوه، ولمسوه في الأسابيع الماضية. شعر الكلب بالرضا ولوّح بذيله في الهواء، ثم تجوّل بنشاط في أرجاء الغرفة وشمَّ كل غرض فيها؛ كأنه يتذكّر رائحتها. عندما انتهى من الجرد، وجد لنفسه مكاناً للنوم عند أقدام الأطفال. بدا أنه مخلوق من كل أنواع الكلاب الأخرى، رأس أسمر، وكفّان صغيرتان، وفراء كستنائي اللون، وبقع داكنة، وحاجبان قد يكونان لإنسان لا حيوان. حكَّ بيتر ظهره، فابتسم الكلب، ثم أصدر صوتاً يدل على سعادة كبيرة؛ صوتَ قوقأة غير معتاد، ونام مستمتعاً بالدفء المريح.

عدّل بيتر أكياس نوم الأولاد مجدداً واستدار مبتعداً عنهم. ثم سكب لنفسه كأساً من الشراب مثل رجل جائع قد انتظر وجبته وقتاً طويلاً، وجلس أمام الحاسوب. كانت الليلة تكاد تنتصف آنذاك فانتظر حتى تجاوز الوقت منتصف الليل. جلس ساعات بعد ذلك يتصفّح الإنترنت. ظهر 1900 على بعض الساعات الرقمية في فرنسا، وتعطّلت دوائر كهربائية أو اضطربت في بعض المناطق، لكن لم يدبَّ الذعر في القلوب. في مرحلة ما، بدا أنه قد وضع رأسه على صدره واستغرق بالنوم. كان الفجر كئيباً، وهادئاً، ومثقلاً بالديون.

الممر

أطالت ابنة مينك التفكير على الثلج المتموّج، الذي يمتد إلى ما لا نهاية. سأشعل ناراً بنفسي؛ لأن تشيموكومان كريه الرائحة لن يسمح لي بالاقتراب من ناره في الليل. ثم يمكن أن أتخلّص من القمل الموجود في ثيابي وبطانيتي. سينتقل قمله إليّ مجدداً إذا أقدم على فعل تشيموكومان النتن القديم الذي يفعله آنذاك. رأت نفسها ترفع السكين من حزامه وتغرزه بين أضلاعه.

كان الرجل الآخر، الشاب، لطيفاً لكنه لا يستطيع فعل شيء. لم يفهم ما كان تشيموكومان العجوز المخادع يفعله. بدا أن مقاومتها تمنح ذلك الحقير قوة إضافية، وقد عرف تماماً كيف يثبّتها بسرعة، ويجعلها عديمة الحيلة.

كانت الطيور صامتة، والثلج يسقط عن الأشجار في ذلك اليوم. لقد فركت جسدها بالثلج حتى صار أحمر اللون، واستلقت هناك، تتمنّى الموت. حاولت ألا تتحرّك، ولكن البرد طعن قلبها بخنجر جليدي، فبدأت ترتعش

بشدّة. جاء شخص من العالم الآخر، وبدا ذلك المخلوق أزرق شاحباً من دون أن يكون له شكل محدّد. اعتنى بها، ونفخ القمل عنها، ولفّها ببطانية جديدة، قائلاً: «استدعني حين يحدث هذا وستعيشين».

* * *

قالت نولا: «رائحة هذا الكلب كريهة».

قال بيتر: «سأغسله بعد قليل. إنها رائحة طبيعية نوعاً ما».

نظر الكلب إلى نولا بمحبة، وأحنى رأسه لها مرتين، ثم مدَّ أنفه متردداً نحو ركبتها.

قالت نولا للكلب: «لا تفعل». حدّقت إلى عينيه المستفسرتين، فجلس الكلب على مؤخرته مندهشاً.

قالت نولا مجدداً: «رائحتك كريهة».

كشّر الكلب لاهثاً، منتبهاً إلى كل كلمة منها.

لقد تجوّل في الخارج وقاتل. كان بيتر قد سمع كلاباً أخرى تنبح وتزمجر في الأحراج. كوّنت كلاب من المحمية مجموعة في الشتاء قبل بضعة أعوام، وطاردت ظبياً وقتلته ببطء. أطلق عليها النار وقتلها في أرضه. عاد ذلك الكلب بندبة في أنفه، وذيل ممزّق، وعين مصابة.

شرحت: «ستبقى تلك العين حمراء دائماً».

قال: «يحب هذا الكلب الحياة. سأربطه، وأبقيه في الساحة».

«هل ستجعله عقيماً؟».

لم يرد بيتر.

«ربمـا أكل مفرقعـة ناريـة، انظـر أحـد جانبـي شـفته متـورّم تمامـاً!».

قـال بيتـر، وهـو يفـرك جسـد الكلـب مـا جعلـه يهمهـم سـعادة: «حسـناً، هنـاك قصـة خلفـه. لقـد جـاء مـن مـكان مـا». أغلـق الكلـب عينيـه مسـروراً، وكشـفت شـفته الممزقـة أسـناناً حـادّة. ضحـك بيتـر، وقـال: «سـيزمجر هـذا الكلـب حتـى آخـر حياتـه، ولكـن عينيـه مرحتـان، حتـى الحمـراء منهمـا».

قالت نولا: «لن نحتفظ به».

قال بيتر: «يجب أن نفعل هذا».

تلـوّى وجـه نـولا وغـادرت الغرفـة، وتبعتهـا عينـا الكلـب الضعيـف والتائـه.

داعـب بيتـر أذنـي وعنـق الكلـب، وهمـس: «مرحبـاً، أنـت تعـرف شـيئاً مـا! اعلـم أنـك تعـرف شـيئاً. مـاذا سـتخبرني؟».

عندمـا فـرك بيتـر جسـد الكلـب، سـرحت أفـكاره فـي مـكان مـا. اسـترخى ذهنـه، ولـم يشـعر بانزعـاج مـن الكلمـات التـي تكوّنـت فـي الهـدوء اللاحـق.

قـال الكلـب فـي عقـل بيتـر: «رأيـت دسـتي ذلـك اليـوم. أحمـل قطعـة مـن روحـه فـي داخلـي».

وضـع بيتـر جبينـه الكبيـر الـذي سـفعته الشـمس علـى جبهـة الكلب.

«أنا لست مجنوناً، أليس كذلك؟».

قال الكلب: «لا. هذه أشياء قد يفكّر فيها رجل عادي».

* * *

هبّت ريح جنوبية في منتصف فبراير وأذابت الثلج، وجعلت الأبواب والنوافذ تقعقع في الدفء. كان لاندرو خارج سيارته مرتدياً قميصاً من دون ردنين يزوّد الكورولا بالوقود ولم يلحظ أن بيتر قد جاء إلى متجر وايتني. عندما خرج بيتر حاملاً بعض علب الجعة الباردة، تقابلا وجهاً لوجه. استدار لاندرو بعيداً عنه، عابساً من الأرقام المرتفعة بسرعة على المؤشر.

«أعرف». صار بيتر بجانبه فجأة. «دفعت ثلاثين دولاراً لملء الخزّان».

لم يكن الاثنان قد تكلما منذ أحضر لاندرو ابنه إلى منزل رافيتش. أومأ لاندرو وقال شيئاً عاماً.

قال بيتر: «أخذت نولا الأولاد إلى مينوت. سيبيتون هناك، وسأبقى وحدي الليلة».

سأل إن كان لاندرو يرغب في زيارته.

قال لاندرو: «بالتأكيد». لم يكن يفكّر في الجعة آنذاك، ولكنها خطرت بباله بعد ذلك أثناء قيادة السيارة مسافة عشرة أميال إلى حافة المحمية، ثم إلى منزل رافيتش. كان لا يزال يفكّر في الشرب حتى الثمالة كل يوم، لكنه قد اعتاد ذلك النمط من التفكير من دون أن ينفّذ شيئاً. خرج صوت طقطقة من الحصى تحت العجلات على ممر آل رافيتش. بدا أن

الثلج قد كسا النباتات دائمة الخضرة بطبقة من الجليد الرقيق عند أساسات المنزل. عندما رأى لاندرو النوافذ المعتمة، شعر بغصّة في حلقه، وكاد يقود سيارته مبتعداً عن المكان. لكنه شاهد بيتر في المدخل هناك يشير إليه.

خرج لاندرو ببطء من السيارة، ولوّح بيتر له بالدخول عبر الباب. كان الكلب الذي تطعمه أسرتاهما واقفاً خلف بيتر، وقد عرف لاندرو واستدار مبتعداً عنهما بعد أن رمقهما بنظرة غريبة. على الرغم من أن الكلب كان يعيش هناك آنذاك، فإن البيت لم تكن فيه أي رائحة. عرف أن نولا ستشعل شمعة عطرة إذا شمّت رائحة غير مرغوب فيها. لم يكن منزلها يعبق بروائح مرتبطة بعادات البشر، ولم يسبق له أن شمَّ رائحة ثياب قديمة، أو طعام بائت، أو حتى طهوها أثناء قيامها بتحضيره؛ لأنها تشغّل مروحة تشفط الروائح عبر السقف. لكن لاندرو تذكّر أنه لم يشم رائحة أي شيء آخر أيضاً.

ترك نعليه عند الباب، ومشى في أرجاء غرفة المعيشة المكسوّة بالسجاد، وجلس مع بيتر بين القطع القديمة الملمّعة. كانت حجرة الجلوس مفصولة عن المطبخ بنضد طويل على شكل جزيرة. من دون أن يتذكّر، أو ربما لأنه تذكّر جيداً، ذهب بيتر إلى المطبخ وفتح الثلاجة، ثم أزال غطاء علبة جعة باردة. جلس إلى الطاولة هناك، ودعا لاندرو إلى القيام بالشيء نفسه، ففعل. لم يرَ لاندرو نفسه من الخارج بالطريقة التي يرى بها أفكاره عادة. كان قد

طاف بطريقة ما حول أفكاره في تلك اللحظة، ثم جلس وشرع في تناول الشراب. عندما فعل ذلك، تشرّب دماغه المسامي الفعل، ثم المادة على مستوى خليوي.

قال بيتر وهو ينظر إلى الطاولة: «شكراً».

قال لاندرو وهو ينظر إلى العلبة: «شكراً».

تركا شعوراً جيّاشاً يغمرهما. بدآ الحديث عن أشياء عامة، مثل الناس الذين يعمل لاندرو معهم وأزمة المدرسة الداخلية التي تتوّلى إيمالاين إدارتها وتعليم صفوف فيها أيضاً، والمزرعة، وعمل بيتر في بيع الخشب ولدى سينكس، والأعمال الإضافية التي قام بها بيتر من أجل تسديد الفواتير، ويمكن أن يستمر بها من أجل دعم المزرعة. أنهى كل منهما علبة جعة وبدأ تناول واحدة ثانية. عرف لاندرو أنه سيشعر بدوار بعد الرابعة أو الخامسة، وأدرك أنه لن يكون هناك مجال للتراجع آنذاك. حاول أن يرتشف من تلك العلبة بهدوء، لكن حضور ابنه الغائب كان يسعّر ناراً داخله، ويرنُّ جرساً في ذهنه. كان أول شعور انتابه هو ألم الإحساس المرافق لذلك، ولكن سرعان ما تلاشى مع الجعة الثانية. رفع لاندرو يده العريضة إلى الأعلى، ولمس وجنته. لم يكن وجهه مشوّهاً من ندوب بثور قديمة وإنما نتيجة إصابته بالجدري، الذي كاد يقتله حين كان صغيراً. حاول أن يشغل ذهنه عمّا يتطور بينهما.

قال لاندرو: «ينبغي أن أتوثّق من حصوله على ذلك اللقاح الجديد المضاد للجدري، الذي أصابني بهذا».

كان بصـر بيتـر ثابتـاً علـى وجـه لانـدرو. أدّت نوبـات حنـق نـولا إلـى التخفيـف مـن حـدّة غضبـه، وبـدا أنـه قـد نـزع فتيـل أزمـةٍ معهـا نتيجـة التزامـه الهـدوء. شـعر بـأن أي إزعـاج منـه سيثير غضبهـا، وأن الألـم الكبيـر المفاجـئ بيـن ضلوعـه محيّـر فعـلاً. لـم يعرفـه أو يرغـب فـي ذلـك.

«جدري، هه؟».

«نعم».

«ظننـت أن وجهـك قـد تعـرّض إلـى رشـقة خـردق مـن قبـل أحمـق يحمـل سـلاحاً».

اندهـش بيتـر مـن سـماع مـا قـد خـرج مـن فمـه. شـعر بأنـه سـيفقد أعصابـه، فنهـض مـن مكانـه، وأخـرج الكلـب مـن المنـزل، وانتـزع علبـة جعـة أخـرى مـن الغـلاف البلاسـتيكي. قـرّر أنـه سـعيد لأنـه تحـدّث فـي ذلـك الموضـوع. لـمَ لا؟ كيـف سـيتقبّل لانـدرو الأمـر؟

غـاص عميقـاً فـي أفـكاره، مصطحبـاً الكلمـات معـه، وحابسـاً أنفاسـه أثنـاء ذلـك. أغلـق لانـدرو عينيـه، وفتـح يـده. صفـع بيتـر علبـة علـى راحـة كفّـه، ووقـف هنـاك ينزُّ عدائيـة. فتـح لانـدرو عينيـه فجـأة، ثـم نهـض مـن مكانـه ورفـع بسـرعة العلبـة إلـى صـدغ بيتـر ـ لا لتكـون سـلاحاً ـ ولكـن الأخيـر لـم يكـن موجـوداً هنـاك. كان قـد انخفـض ووجّـه ضربـة إلـى لانـدرو، وحـاول تثبيتـه، لكـن لانـدرو رفـع ركبتيـه مـا اضطـر بيتـر إلـى الانحنـاء لتسـديد لكمـة، ومنـح ذلـك لانـدرو فرصـة

ليمسكه من رأسه، وجذبه نحوه. قلبا الطاولة أثناء عراكهما، ووقف كل منهما عند أحد طرفيها، فاغراً فمه، ومغلقاً عينيه خجلاً، ولاهثاً.

قال بيتر: «لا بأس، انسَ الجعة».

كان الكلب ينبح في الخارج.

قال لاندرو: «أنت تعرفني جيداً».

قال بيتر وهو يرفع الطاولة: «نعم. تباً!».

سحب لاندرو كرسياً وجلس عليه، ووضع رأسه بين يديه.

قال: «افعلها، واضربني كما تشاء».

«أتمنّى ذلك».

كان الألم لا يزال يعتصر فؤاد بيتر، ولكنه بدا مألوفاً آنذاك. «يمكن أن أجعل حياتك جحيماً. يمكن أن أتربّص بك وأقتلك. يمكن أن أنال منك بطريقة ما، لكن هذا لن يمنحني ما أريده. دستي. أحلم به كل ليلة».

«حتى بوجود لاروز هنا؟».

«أحلم به، وأشعر بالذنب؛ لأنني أحب ابنك».

استرخى لاندرو عند سماع ابنك، ونظر إلى بيتر.

قال لاندرو: «سأضحّي بحياتي من أجل إعادة دستي إليك. لاروز هو حياتي، وقد فعلت أفضل ما بوسعي».

أعادا ترتيب الكراسي، والطاولة، وجلسا مجدداً، يومئان إلى بعضهما، ولكن لم يشرب أي منهما جعة أخرى. وضع بيتر يده على وجهه، وأمال كرسيه إلى الخلف، ثم عدّل جلسته ونظر مباشرة إلى لاندرو.

قال بحرص: «هناك أسئلة تحتاج إلى أجوبة بشأن ما جرى».

قال لاندرو: «لنطرح الأسئلة لاحقاً».

أشاح بصره بعيداً، ببطء. بدا شارد الذهن، ومثقلاً بالهموم فجأة. كان ينتظر شيئاً شرعياً؛ تبنّياً قانونياً. نهض ومشى إلى الباب، وأدرك أنه يجب أن ينتظر مزيداً من الوقت.

* * *

ابتسمت السيدة بيس حين نظرت إلى السجاد، الذي لا تزال تفوح منه رائحة مادة كيميائية عطرة. شعرت بأنها تطفو في كرسيها المخملي الرمادي، وأن أزهاراً تتفتّح عند قدميها. أمسكت العلبة في حجرها. كان نصف عام تقريباً قد انقضى من دون أن تتعرّض للضرب، ولكن خصمها لا يزال يتسلّل إليها. أرّقها بيلي مثل موجة، على الرغم من أنها قد حاولت مقاومته. وصل مفعول الفنتانل إلى ذروته آنذاك، وبدأ الألم الذي يعتصر جسدها العجوز المنهك من قلبها إلى أحشائها يرخي قبضته عنها، على مضض. لم يكن يحب أن يفلتها من يده، ولكنها تحرّرت أخيراً، واسترخى جسدها مع كل نفس مريح. كان بمقدور السيدة

بيس أن ترى من خلال بابها شبه الشفّاف الساحة المغطّاة بالثلج، وشجرة التفاح كثيرة العقد والوشيج المتشابك، وصولاً إلى الحقل المتطاول والمقبرة المجاورة.

بدأ الناس وضع قطع من المرج الأخضر المقاوم للشمس إلى جانب تذكارات أخرى تركوها على قبور أحبائهم. ثبتّت السيدة بيس وإيمالاين بعض الفوانيس في الأرضية في شهر أغسطس. كانت الفتاة التي كادت تقتلها أثناء الولادة مدفونة هناك، إلى جانب أمها أيضاً. يمكن رؤية حجر أبيض يحمل خربشات باهتة. كان كثير من أقربائها وأصدقائها، أشخاص تحبّهم، مدفونين في التلة العالية. بدا لها أن دور الموتى ستتلألأ بلون أبيض تحت الثلج بعد ساعة.

تركها الألم إلى عالم الأحلام. جاءت أمها لزيارتها، وصعدت على التلة مرتدية ذلك المعطف الرقيق القديم والمهترئ. لم تطرق الباب، وإنما دخلت عبره وجلست هناك، وخلعت حذاءها المطاطي المزيّن بقطع من المخمل. تكوّرت على الأريكة مع البطانية وردية اللون، وقالت: «كل شيء هادئ، كل شيء جميل».

قالت السيدة بيس: «أعرف. لكن كان يفترض أن يكون ذلك اللون الوردي أدكن. لقد أخطأتُ في استخدام المقدار الصحيح للصبغة».

«كان لديّ في مدرسة فورت توتن الداخلية فستان بهذا اللون مزخرف بقماش قطني أبيض وأزرق. حسناً، ليس الفستان، الذي كان رمادياً مثل كل الفساتين، وإنما الوشاح

فقـط. كان ينبغـي علينـا أحيانـاً ارتـداء وشـاح أو وضـع قطعـة قمـاش ملوّنـة علـى شـعرنا، فـي المناسـبات الخاصـة فقـط. بالمحصلـة، كنـا تحـت سـلطة الجيـش، وننتقـل مـن ثكنـة عسـكرية إلـى مدرسـة صناعيـة».

قالـت السـيدة بيـس: «لا أزال أفكّـر فيـك كل يـوم. لا أزال أحتفـظ ببعـض الصـور، ولكـن أتذكّـر صـورك كلهـا. لقـد نظـرت إليـك كثيـراً».

ارتعشت أمها في البطانية.

«هل يمكن أن تزيدي حرارة الغرفة؟».

«حسناً، شاهدي فحسب!».

كان لـدى لاروز أداة طويلـة لفتـح المعلّبـات، وقد اسـتخدمتها لتدويـر القـرص علـى الجدار. صاحـت أمهـا ابتهاجاً.

«سيصير المكان دافئاً قريباً جداً!».

«سأحضّر لك الشاي».

«لا يسـمحون لنـا بتنـاول الشـاي. لدينـا حليـب، ولبـن، وعصيـدة. مـاذا يتبقـى بعـد اسـتخراج كل القشـدة، هـه؟ نشـرب ذلـك. يـرنُّ الجـرس، وكل شـيء هنـا مرتبـط بالأجـراس، ونفعل كل شـيء وفقـاً لرنينهـا. ستسـمعينها طـوال الوقـت قريبـاً جـداً».

«لا أزال أسمعها».

«تطنُّ في رأسك، هه؟».

«مثل يوم العيد».

«بوركتِ يا ابنتي. أشعر بتلك الحرارة الآن، والبرد يتراجع عن عظامي، كما يفعل دائماً. في السنة الأولى، أخذوا بطانيتي؛ غطائي الصغير الدافئ المصنوع من فراء الأرانب. أخذوا سترتي المبطّنة بالفرو، وفستاني التقليدي، وكل الثياب الأخرى، إضافة إلى قرطيَّ وقلادتي، ودميتي. لا تزال مدفونة في صندوق التذكارات، هه؟ باعوا الأشياء التي أرسلتها أسرتنا معنا على أنها تذكارات، وقايضوها، ولا يسع المرء إلا أن يتساءل عن السبب».

«ماذا فعلوا!».

«أعرف! مع كل الضفائر التي حصلوا عليها من فتيان وفتيات آخرين طوال تلك السنين».

«كان هناك مئات الأولاد من كل الأماكن، وفيها فورت بيرثولد، لذا حصلت على مئات الضفائر في تلك الأعوام الأولى. إلى أين ذهبت كل تلك الجدائل؟».

«إلى فُرُشِنا؟ هل تظنين أننا ننام على شعرنا؟».

«أو يمكن أن تتذكّري الرائحة إذا حرقوا شعرنا».

«لكن من دون شعرنا، سنفقد قوتنا ونموت».

قالت السيدة بيس: «انظري إلى هذه الصورة. صفوف من الأطفال، الذين يرتدون ثياباً رثّة ويحدّقون مكتئبين إلى مبنى كبير».

«انظري إلى هؤلاء الأطفال الصغار. ضحّى هؤلاء الأولاد من أجل الباقين منا، كما أرى. يبدون ذليلين في ثياب بالية».

«اكتسبت هذه الصور شهرة كبيرة. يستخدمونها لإثبات أن بمقدورنا أن نكون بشراً».

«الحكومة؟ سيعملون على إبادتنا إذاً. ذلك الساحر أوز، صحيح؟ لديك قصاصة عنه».

أخرجت لاروز أجزاء وقصاصات من ورق الصحف.

«إليك».

أبردين ساتردي بايونير، 1888

بقلم: فرانك بوم

... لقد أهلكنا طبقة نبلاء الهنود الحمر، والقلائل الباقون هم مجموعة من الجبناء المنتحبين الذين يلعقون اليد التي تضربهم بقسوة. البيض أسياد القارة الأمريكية، في قانون الفتح وعدالة الحضارة، وستحظى مستعمرات التخوم بأفضل حماية لها عند القضاء التام على القلّة الباقية من الهنود. لماذا لا تكون هناك إبادة؟ لقد حطّمنا كبرياءهم، وجعلنا روحهم المعنوية في الحضيض، وقضينا على رجولتهم، وبات من الأفضل أن يموتوا على أن يعيشوا على تلك الحال في بؤس وشقاء.

1891

بقلم: فرانك بوم

... تعتمد سلامتنا على إبادة الهنود تماماً. بعد أن ظلمناهم قروناً، صار من الأفضل، من أجل حماية حضارتنا، أن نتبع ذلك بجور آخر ونجتث تلك المخلوقات غير المتمدّنة، التي لا يمكن مهادنتها، عن وجه الأرض.

قالــت السـيدة بيـس: «أوه، حســناً، مــا زلنــا هنــا. إنهــا معجــزة».

قالت أمها: «هذا ليس أوز».

«يبـدو أن أوز مدفـون فـي مقبرتـك بيـن كل تلـك الأضـواء الخضـراء».

«لا يوجد تبغ هناك في الشتاء».

«لديّ مادة أفضل هنا».

بحثـت السـيدة بيـس حولهـا، تحـت كل الأوراق والتذكارات في العلبـة الورديـة حيـث تحتفـظ بعلـب الفنتانيـل، بيضـاء عليها كتابـة خضـراء، فـي أكيـاس شـفّافة. واظبـت علـى اسـتخدامها بحـرص شـديد. كان يفُتـرض ألا تشـعر بـأي ألـم، لكنهـا لـم تكـن تحـب إحسـاس الـدوار المرافـق لهـا. بـدا أن الألـم يتسـلّل إليهـا حتـى لا يعـود بمقدورهـا التفكيـر فـي أي شـيء آخـر. حـرّرت الأقـراص الـدواء ببطء فـي جسـدها، وكان بمقـدور الكميـة التـي تناولتهـا آنـذاك أن تقتلهـا قبـل سـنوات.

«إبادة أو تأديب».

قالت: «خلّصني من الألم فحسب».

«مـن حُسـن الحـظ أننـا صرنـا مدرّسـتين حتـى يكـون بمقدورنـا أن نحـب هـؤلاء الأولاد».

«كان هنـاك مدرّسـون جيـدون، وآخـرون سـيئون. لا يمكـن أن يفسـر ذلـك الشـعور بالوحـدة».

«هذا متأصّل في الشخص نفسه».

«يتم تناقله عبر الأجيال، كما يقولون. يستغرق الأمر أربعة أجيال».

«ربما نجح مع الفتى في نهاية المطاف».

«لا روز».

«قد يكون بخير أخيراً».

«هذا ممكن».

بات الكرسي أكثر راحة، والجو مثقلاً بالأصوات، وتدفّقت جداول مائية من ضوضاء خافتة حول أذنيها. مدّت ذراعيها، فأمسكت أمها يديها، وطافتا معاً. كانت تلك هي طريقة زيارتها لوالدتها، التي قد توفيت نتيجة داء السلّ مثل أمها وجدّتها. كان مرضاً قاسياً جداً ينتقل من الأم إلى أبنائها قبل أن تموت. لم تقضِ السيدة بيس نحبها بسبب السل الذي انتقل إليها من والدتها، فقد دخلت المصح في 1952؛ أي عام اكتشاف علاجه، ومداواة من لا شفاء له.

قالت لأمها: «كنت واثقة بأنني سأموت مثلك، لذا حاولت ألا ألمس أي شيء أو أي شخص. تشعرين بخدر طوال أعوام، ثم تستعيدين الإحساس. يكون شيئاً مقزّزاً في البداية، ويبدو مثل مرض. لكن تعتادين على تلك الأحاسيس بمرور الوقت».

«لقد تخلّصت من المرض لسبب ما، هه؟».

قالت السيدة بيس: «هؤلاء الأولاد. من أجل أن أعلّمهم الحياكة، وأصنع لهم ثياباً تقليدية، وأدرّبهم على الرقص. من أجل إقامة حفلات الشاي الصغيرة، التي وضعت فيها قليلاً من القهوة في أكواب حليبهم».

«هل ترين أحداً منهم الآن؟».

«من وقت إلى آخر، أولئك الذين بقوا أحياء. لاندرو طبعاً، وروميو يأتي أيضاً. أسمع عن كثير من الآخرين. موفقين؟ لا».

هزّت كلتاهما رأسها في الجو، وهما لا تزالان تمسكان أيدي بعضهما، وصاحت أمها: «حتى إذا أردت منحك كل الحب، لن يكون بمقدوري ذلك! كنت أكره أن أموت وأتركك. من الرائع أن نكون معاً الآن!».

* * *

جرَّت نولا ماجي إلى قدّاس منتصف الليل. عندما جثتا، استرخت ماجي، ووضعت ردفيها بكل صفاقة على حافة المقعد الخشبي. وكزتها والدتها بمرفقها، ولكن ماجي ابتعدت عن متناول يدها. أغضبت تلك الحركة الماكرة نولا، التي ضربتها مجدداً. أمسكت ظهر ماجي وثبّتتها حيث ينبغي أن تكون بحركة واحدة. تحركت بسرعة وثقة جعلت ماجي تفغر فاها وتلزم مكانها. لم يبدُ أن أحداً حولهما قد لاحظ ما يجري، على الرغم من أن عين الأب ترافيس طرفت أثناء سيره إلى المنبر.

كان الأب ترافيس قد توقف عن إلقاء العظات منذ وقت طويل، ولم يعد يسرد إلا القصص. أخبرهم ذلك اليوم عن قيام القدّيس فرانسيس بالتحدّث إلى الطيور، والأسماك، والأرنب الوفي، وعن استدعائه لإنقاذ قرية إيطالية من ذئب مفترس.

خرج الأب ترافيس إلى منتصف الممر، ومثّل اللقاء بين القدّيس فرانسيس والذئب. وصف ذئب غوبيو بأنه حيوان ضخم رهيب وشرس يأكل الناس. عندما وصل القدّيس فرانسيس إلى القرية، تبع آثار الذئب إلى الغابة، ثم واجهه. لم يكن أحدٌ قد تحدّى ذلك الذئب من قبل، وقد تفاجأ بأن القدّيس فرانسيس ليس خائفاً منه. أصغى الذئب إلى القدّيس ووافق على الامتناع عن ترويع القرية، وأكد عزمه الوفاء بوعده بأن وضع قدمه في يد القدّيس فرانسيس.

قال الأب ترافيس إنه عندما يتحدث شخص بهدوء ويرغب في السلام، قد يصغي حتى ذئب إليه.

فكّرت ماجي، نعم، ولكن ينبغي أن تعضّ أحياناً.

أعاد القدّيس فرانسيس الذئب إلى أهل غوبيو، وحصل على وعود متبادلة من الطرفين. كانوا سيطعمون الذئب، الذي سيتجول كل يوم حول المنازل ويتلقّى غذاءه منهم. بالمقابل، سيتوقف عن مهاجمة الناس. مجدداً، وضع الذئب قدمه في يد القدّيس فرانسيس، أمام القرويين تلك المرة. أقسم الذئب على ذلك بأن تدحرج على ظهره، ثم وثب على قائمتيه الخلفيتين وعوى. استتب الأمن آنذاك.

نفق الذئب بعد أن عاش طويلاً، ودفنه أهل غوبيو تحت شاهدة قبر، وحزنوا على موته.

كظمت ماجي غيظها؛ لأنها أرادت سماع القصة، لكن عندما انتهى الأب ترافيس من سردها، ابتعدت مجدداً، بأمان تلك المرة خارج متناول يد أمها.

كانت ماجي واثقة بأن الناس لم يتفقوا مع الذئب إلا لأنه قد يفترسهم.

* * *

عرف الجميع أن الكلب البني الشارد الذي قد عاش في الأحراج يخص بيتر آنذاك. لكن الحيوان خرج عن مسار ركضه المعتاد وقام بزيارة إلى منزل لاندرو بعد ظهر أحد الأيام. عندما همَّ لاندرو بالخروج إلى العمل في مبنى دار المسنين، حيث ينتظره أوان ليعتني به، وضع الكلب في مؤخرة سيارته، معتزماً إيصاله إلى منزل رافيتش.

أراد لاندرو ترك الكلب عند الباب. لكن بيتر ردَّ عليه، وتكلم فجأة بعد أن استعاد الحيوان: «ينبغي أن ننهي حديثنا».

قال لاندرو: «لقد تأخرت».

قال بيتر: «لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. هل يمكن أن تدخل؟ خمس دقائق؟».

هزَّ لاندرو كتفيه، وخلع حذاءه عند الباب.

قال بيتر: «لا، لا تقلق».

جلس لاندرو إلى الطاولة، ملامساً الحافة. لم يكن يرغب في الكلام، ومناقشة الأمر الذي يخشاه. استطاع أن يشعر بالتوتر يبقبق داخله، وقلبه يخفق بسرعة.

شرع بيتر: «الاتفاق، أو مهما كان اسمه».

أومأ لاندرو فقط، محدّقاً إلى أصابعه.

قال بيتر: «السؤال هو».

كاد قلب لاندرو يتوقف.

قال بيتر: «السؤال هو ماذا يفعل به؟».

بدأ قلب لاندرو الخفقان مجدداً.

قال بصوت خافت: «ماذا يفعل به؟».

قال بيتر: «هو حزين، ويفتقد أسرته، ولا يفهم ما يجري. أنتم تسكنون في آخر هذا الطريق. أرى وجهه في المرآة الداخلية حين نتجاوز منزلكم. يلتزم الصمت تماماً، وينظر فقط إلى بيته القديم».

كان ذلك كل ما يستطيع بيتر الإفصاح عنه. لم يقل شيئاً عن البكاء بصوت مكبوت، وقيام لاروز بضرب رأسه بيديه، لا شيء من هذا القبيل. لم يتحدّث عن أسئلته السرية التي لا يبوح بها إلا لبيتر. أين أمي الحقيقية؟ لم يستطع قول ذلك.

أصغى لاندرو إلى كل ما قاله بيتر، ثم تكلم. «أشعر بأنني استغللته لأزيح العبء عن نفسي. طرق تقليدية. تباً! هذه ليست طرقاً تقليدية. لكن مجدداً كان هناك سبب لذلك. أردت أن ...».

فكّـر بيتـر أن لانـدرو يحيـد عـن المسـار، ويحتـاج إلـى مسـاعدة.

«أظـن أن هنـاك سـبباً، وأعـرف ذلـك بالتأكيـد. نحـن نفكـر بشـأن لاروز أثنـاء إقامتـه معنـا، ونحـن نحبـه فعـلاً. هـو فتـى رائـع يـا لانـدرو، وقـد ربّيتـه كمـا ينبغـي. لقـد سـاعد وجـوده معنـا نـولا، وأفـاد ماجي. هـذا يسـاعد فعـلاً ... لكـن مـاذا يفعـل هـذا بـه؟ أعنـي أنـه يُبقـي نـولا متماسـكة، وهـذا شـيء هـام. لكـن الأمـر يمـزّق إيمالايـن مـن الداخـل».

قال لاندرو: «أوه، هي تخفي ذلك».

قـال بيتـر: «نـولا لا تخفيـه. يمكـن رؤيـة الأمـر فـي كل مكـان». أشـار بتشـنّج إلـى المكـان حولـه، غرفـة المعيشـة، قاعـة الطعـام، المطبـخ. اسـتغرق كلا الرجليـن فـي أفـكاره الخاصـة. كان شـعورٌ برهـاب الاحتجـاز قـد بـدأ يقـوى داخـل لانـدرو؛ شـعور يـزداد حلكـة كلمـا دخـل منـزلاً أو بنـاءً نظيفـاً ومرتّبـاً. لقـد انتابـه ذلـك الإحسـاس هنـاك، حيـاة يسـتنفدها الترتيـب. كان ماضـي لانـدرو مملـوءاً بطنيـن الأجهـزة الكهربائيـة، وتحديـد أوقـات النـوم، والصافـرات، والأجـراس، والأطبـاق المقسّـمة، وأيـام المدرسـة الداخليـة. هنـاك أيضـاً نظـامٌ لا يمكـن وصفـه للاسـتعداد العسـكري للعنـف.

قـال بيتـر: «لا يمكنني تحريك أي شـيء؛ لأنهـا تعيده إلـى حيـث كان. لديهـا شـريط قيـاس ذهنـي، ويمكـن أن تعـرف إذا تغيّـر أي شـيء حولهـا. صدّقني، تعـرف أننـا قلبنـا الطاولـة».

أومأ لاندرو.

قال بيتر: «أودُّ فعلاً ... أن أجعلها تتخلّص من ذلك».

شعر بأنه غير مخلص لها. بالمحصلة، كانت نولا قد انتقلت إلى بيت رافيتش صغيرة جداً، ولكنها تتمتع بصفات لطالما أعجبت أبويه وأجداده. لقد واسى نفسه بعنايتها الفائقة بتلك الأغراض.

أضاف: «أعني، أتمنى لو أن بمقدورها نسيان ذلك أحياناً».

قال لاندرو: «تريد أن تكون سعيدة مجدداً».

«سعيدة». نطقها بيتر؛ كأنها كلمة غريبة وقديمة. «تشعر بالغضب من ماجي، وذلك هو الأسوأ. لكنها تستمر في المحاولة فعلاً، فهي أم صالحة. حاولتُ في البداية إعادة لاروز إليكما. ظننت أن ما فعلتماه خطأً كبيراً، وأنها ستتحسّن من دونه، ثم أدركت أنني إذا أعدّته، فإن ذلك سيقتلها».

فكّر لاندرو في إيمالاين حين كادت تنهار في الخيمة التقليدية.

قال بيتر: «ولكننا نتكلم عن لاروز. أنفاسه تتحشرج، وخفقان قلبه يرنُّ في أذنيه. كان يعرف أن ما سيقوله سيجعل نولا تبكي بمرارة. لقد خرجت إلى الحظيرة لتفعل هذا، بعد أن نام الأولاد، على أمل ألا يسمعها أحد. إنه لاروز، وينبغي أن نفكّر فيه، وأن نعرف رأيه. يجب، كما تعرف، أن نجعل الأمور أسهل بيننا جميعاً».

قال لاندرو: «أوه».

جعلته الصدمة واجماً؛ كأن الغطاء قد كُشف عنه. هاجمه الضعف، فوضع رأسه على الطاولة. نظر بيتر إلى الأسفل نحو شعره المصفّف بعناية، والطويل حتى رقبته، وذراعي لاندرو الرخوتين. شعر بازدراء نحوه، وفكّر في البهجة التي سيشعر بها ساعةً من الوقت، وربما ساعتين، بعد أن يضرب رأس لاندرو بفأسه. فكّر أن ذلك غير ممكن من أجل لاروز، ثم غطّت صورة حزن الفتى كل أفكاره.

بعد أن غادر لاندرو، استلقى بيتر على سجادة غرفة المعيشة، محدّقاً إلى مروحة السقف. وضع يديه على جبينه، وتلوّت معدته مع ريش المروحة. لم يكن رجلاً يجيد كسب الأصدقاء، وقد واجه صعوبة كبيرة في حل تلك المشكلة مع لاندرو. يبلغ طول بيتر ست أقدام وبوصتين، ويتمتع بقوة جسدية لأنه يعمل في المزرعة، ولكنه يعاني ضعفاً أيضاً في كاحليه وركبتيه ورسغيه وعنقه. كان يشعر بالألم حين يلتقي جزء من جسمه بجزء آخر، وقد اعتاد أن يخفي الأمر عن الآخرين، بعد أن علّمه مدرّبو المدرسة الثانوية ذلك. كانت تلك مزرعة أسرته قبل أن يموت أفرادها واحداً بعد الآخر، باستثناء أحد أشقائه الذي باعه حصته من الأرض وغادر المنطقة ليعيش في فلوريدا. انحدرت أسرة بيتر من مهاجرين روس وألمان، وقد سكنوا هناك وقتاً طويلاً كفاية وعملوا على إزالة عظام الجواميس من تلك الأراضي.

عندما يشعر بيتر بأنه بخير، يرمي لاروز وماجي إلى

الأعلى في الهواء، وحين يكون متوعكاً، لا يحصلان منه إلا على ابتسامة من وجه سلافي كئيب. يستيقظ عند 5 صباحاً، ويذهب إلى السرير في منتصف الليل. يعمل في تلك الوظائف الأخرى، إضافة إلى المزرعة، ولكن لا يزال هناك الكثير لإنجازه. التقى نولا في فارغو، والتحق كلاهما بجامعة ولاية داكوتا الشمالية، وبدا مفاجئاً فعلاً أنهما لم يلتقيا مجدداً في بلدة بلوتو الصغيرة، وهي مكان ريفي فيه بعض المباني القديمة، ومحل بقالة واحد، وبعض متاجر الهدايا، وسينكس، وفرع جديد لمصرف ويست. كانت أسرة بيتر قد عملت في الزراعة خارج البلدة، في حين عاشت مارن ـ والدة نولا ـ هناك أثناء طفولتها، زاروا أحياناً الأرض التي قد استأجرتها. عندما ساءت الأحوال بعد وفاة بيلي بيس، انتقلت مع أبنائها إلى فارغو، وجعلتهم يحملون أسماءهم الثانية حتى لا يتعرّضوا لمضايقات من بعض الناس.

أثارت نولا إعجاب بيتر منذ البداية. كانت ممشوقة القوام، ورقيقة الملامح، وشعرها أشقر داكن تصبغه بلون أفتح، ويصير بنياً تقريباً إذا تركته يطول، مثل لون بشرته تماماً. كان وجهها جذاباً وجميلاً، ولكن عينيها مائلتان وحذرتان. بدت مراوغة، وتنغلق بسرعة على أفكارها. ليس بمقدوره سبر أغوارها بغضّ النظر عن الجهد الذي يمكن أن يبذله، ولا يستطيع حتى العثور عليها حين تكون أمامه تماماً. لم تكن عيناها الداكنتان القاسيتان تفصحان عن أي شيء أحياناً، ويبدو وجهها خالياً من أي تعبير مثل جدار

مطلـي حديثـاً. حـاول أن يجـد تلـك المـادة السـرّية التـي تظهـر أحيانـاً فـي غرفتهمـا وتجعلهـا تنبـض حيويـة وتشـع دفئـاً وحنانـاً، وتجعـل وجههـا ورديـاً ولطيفـاً، وعينيهـا تتقـدان عاطفـة. كان ذلـك حقيقيـاً، أليـس كذلـك؟ لـم يكـن واثقـاً بذلـك.

كيـف سيطلعها علـى الخبـر؟ الخطـة التـي قـد اتفـق عليهـا مـع لانـدرو. المشـاركة فـي تربيـة لاروز، ترتيـب شـهر بشـهر الـذي أرسـاه الرجـلان، حتـى لا يكـون العـبء ثقيـلاً علـى أيٍّ مـن الطرفيـن بخـلاف ذلـك. سـيخبرها بحـرص، وسـينقل إليهـا النبـأ فـي الحظيـرة، حتـى يكـون بمقـدور نـولا التصـرّف كمـا يحلـو لهـا. كسـب بيتـر مهـارة فـي الحفـاظ علـى تـوازنٍ داخلـي أثنـاء نوبـات الصـراخ، والصيـاح، والشـتائم، والغضـب، والأسـى، والبـؤس، والغيـظ، والبـكاء والنشـيج، والخـوف، والتشـدّق، والحنـق، والغنـاء، والابتهـال، ثـم السـكينة العاديـة التـي تتبـع ذلـك.

بعـد أن تكلـم مـع لانـدرو عـن تربيـة لاروز معـاً، بـدا أنهـا قـد عرفـت ذلـك بطريقـة مـا. جـاءت نـولا إلـى بيتـر وهـي بأمـسّ الحاجـة إليـه. اسـترخت بجانبـه، واسـتمدت الراحـة مـن وجـوده. لـم يكـن ممكنـاً أن يخبرهـا آنـذاك، وفكّـر أنـه قـد ينتظـر حتـى الصبـاح، بعـد أن تذهـب ماجـي إلـى المدرسـة.

قالت فجأة: «هل ستبقى معي إذا جننت؟».

ظهرت نبرة أسى في صوتها، لذا حاول أن يمزح معها.

«حسناً، أنت مجنونة فعلاً».

شعر بدموعها على صدره، وأدرك أنه قد تجاوز الحد.

«بطريقة جيدة، أحبّك أيتها المجنونة!».

«كيف يعقل أنك لم تُجن بعد؟».

«أنا مجنون فعلاً، من الداخل».

«لا، لست كذلك. أنت لست مجنوناً. كيف لم تجن حتى الآن؟ لقد فقدناه. كيف لم تجن؟ ألا تهتم إطلاقاً؟».

بات صوتها أعلى وأكثر حدّة.

«أنت لا تهتم إطلاقاً! أيها الحقير متبلّد المشاعر، أيها النازي. أنت لا تهتم!».

قال وهو يمسكها: «مهلاً! لا يمكن أن يجن مجنونٌ في الوقت نفسه على أي حال. لنتناوب على ذلك».

صمتت تماماً، ثم ضحكت فجأة.

«حقير، نازي».

ضحكت بقوة أكبر، وانتقلت عدوى ضحكتها إلى بيتر، ثم بدآ يضحكان معاً بطريقة غريبة. بدا أن كليهما قد جُنَّ جنونه من ذلك الكرب، فانتحبا على شعر بعضهما، وسالت دموعهما على الملاءة.

قال، لاحقاً: «ما تزالين حمامتي، ولن أتوقف أبداً عن حبك».

لكنها أخافته، وجمّدت حبه، واستطاع سماع تلاشي

القناعة فيما قاله. أحسَّ بأسوأ أنواع الوحدة، من النوع الذي تشعر به حين تكون بصحبة شخص آخر.

استيقظ لاحقاً في الظلام، ووضع يده على رأسها، وتمنّى بتكاسل أمنيته القديمة الغريبة، أن يتمكن من الاندماج معها، ويكون هي، ويصيرا مخلوقاً واحداً.

نعم، على نحو غريب، حين استسلم للنوم مجدداً. كل ذلك وما زال عليه أن ينقل الخبر إليها في الصباح. ليس في المنزل حيث يمكن أن يسمعه لاروز، بل في الحظيرة. قد يدفعها ذلك على نحو خطر إلى حافة الجنون فعلاً، في البداية؛ لأنه سيكون عليهم الاشتراك في تربية لاروز، ولكنه أمرٌ لا مفر منه. لم يكن بمقدوره تحمّل عبء شعوره بشأن ما يفعلانه بالصبي.

كانت نولا بخير حين أخبرها بذلك بعد عدّة أيام، وقد تقبّلت الأمر جيداً. بقيت بأحسن حال حتى رأت الفأرة، على الرغم من أنها لا تخاف منها. لكن عندما شاهدت واحدة، أدركت أنهم يتعرّضون إلى غزو من نحو 100 ألف منها. كانت في مدخل المرأب، فحاصرتها وحاولت أن تقتلها، ولكن الفأرة أفلتت من تحت حذائها، ما أثار حنقها. لم تكن وحيدة في المنزل ذلك اليوم، ولكن ماجي ولاروز موجودان في الساحة. كانت قد توثّقت تواً من الأمر، إذ لم يكن مسموحاً لهما بمغادرة ذلك المكان، وقد عرفا أنها ستتأكد من ذلك كل خمس عشرة دقيقة. وقفت نولا في الغرفة الصغيرة المبنية من اللَّبِن بين المنزل والمرأب. لم تكن تذهب إلى المرأب

إلا نـادراً، كان ذلـك مكانـاً خاصـاً ببيتـر، ومقـر ورشـته. كانـت لا تقـود السـيارة إلـى أي مـكان تقريبـاً، ولكنـه يقـوم بإخراجهـا حيـن تريـد ذلـك. لـم يقـضِ وقتـاً طويـلاً فـي المـرأب منـذ عمـل فـي تلـك الوظائـف الإضافيـة.

دخلـت المـكان وصدمهـا مـا رأتـه، علـى نحـو مقـرف، فـي ذلـك الجـو الفاسـد نتيجـة وجـود الفئـران. تراجعـت إلـى الخلـف، ووقفـت فـي المدخـل لتستنشـق بعـض الهـواء النقـي، ثـم سـحبت نفسـاً عميقـاً، وأشـعلت الأضـواء، وعـادت إلـى الداخـل. سـمعت صريـراً، وأحسّـت بحركـة غيـر مرئيـة، ورأت كتـلاً سـوداء صغيـرة مـن ذبـل الفئـران تغطّـي منضـدة عمـل بيتـر. تذكّـرت دلـو الخُـرق الباليـة. ركضـت إلـى المدخـل مجـدداً، وتنفّسـت قليـلاً هنـاك، ثـم سـحبت نفسـاً عميقـاً آخـر، ودخلـت مـرة أخـرى. ربمـا كان هنـاك بعـض الحبـوب فـي قعـر الدلـو؛ لأن شـيئاً قـد جذبهـا بالتأكيـد. ربمـا تركـت بعضـاً مـن طعامـه مـن دون أن تُحكـم إغـلاق وعائـه. لكـن بـدا كل شـيء مرتّبـاً؛ لأنـه لـم يكـن رجـلاً يحـب الفوضـى، الحمـد للـه، حتـى فـي المسـاحة الخاصـة بـه. فتحـت أولـى الخزائـن التـي يسـتخدمها لوضـع أدواتـه، المجـز طويـل المقبـض، وفأسـه، ومجرفـة، ومعـاول صغيـرة. لكـن مـا رأتـه جعلهـا تنسـى أنهـا تحبـس أنفاسـها.

وجـدت علبـة كعـك كرتونيـة مذهّبـة، وكثيـراً مـن ذبـل الفئـران، وشـموع عيـد ميـلاد عليهـا آثـار قُضـم علـى الـرفّ العلـوي فـي الخزانـة. الشـيء نفسـه فـي الخزانـة المجـاورة،

والتالية أيضاً، باستثناء واحدة توجد فيها حافظة بلاستيكية صفراء من نوع توبروير. كانت قد افتقدت تلك الحافظة، ولكن الفئران لم تصل إلى الكعك بداخلها، على الرغم من فقدان بعض القطع، التي يبدو أن بيتر قد تناولها سابقاً. كانت قد جعلت التزيين بلون أصفر باهت، مثل الحافظة، ورسمت بعض الزهور عليه بلون أرغواني. لم يكن كعكاً يتطلّب جهداً كبيراً، وقد كتبت أسماء الأولاد عليه. سحبتها من الخزانة وحملتها بعض الوقت، ثم أخرجت قطعة جافة وخفيفة، ولمستها بلسانها، وقضمت لقيمة صغيرة، ولكن لم يكن لها طعم. وقفت توازن الحافظة على ذراعها الأيسر، وأكلت باقي الكعك، والزهور، والأسماء، وحتى الشموع برؤوسها السوداء، التي نفّرت الفئران. لعقت إصبعها وضغطت على الفتات. عندما صارت الحافظة الصفراء خالية تماماً، عادت إلى المطبخ وغسلتها بالماء الساخن والصابون. ظنّت أن السكر سيؤثّر سلباً على أعصابها، ولكنه لم يفعل، وإنما أبطأ خفقان قلبها. شعرت بموجة مخدّرة ومبهمة تغمرها، وكاد يغمى عليها قبل أن تصل إلى الأريكة.

دخلت ماجي ولاروز بعد ساعة، جائعين، ومتسائلين عن سبب عدم توثّقها منهما، ووجداها مستلقية على ظهرها، وتبدو متيبسة؛ كأنها ميتة. كان فمها فاغراً قليلاً، ما جعل ماجي تضع أصابعها قربه لتتأكد من أنفاسها.

أشارت ماجي بطريقة مضحكة إلى ضرورة ابتعادهما،

فطأطأ لاروز رأسه ومشى على أطراف أصابعه. أخرجا ملعقتين من الدرج الخاص بها، ثم فتحت ماجي باب المجمّدة وأخرجت منها بصمت علبة من بلو بوني بالفراولة. أغلقا الباب بهدوء وركضا إلى مخبئهما في الحظيرة، ركن دافئ حيث يمكنهما وضع أصابعهما على مدفأة بيتر. تناولا المثلجات هناك، ثم طمرا العلبة، والملعقتين أيضاً، في الثلج الغضّ في الخلف. كانا شغوفين بالمثلجات.

* * *

دخل روميو بويات مشرب ديد كستر ورأى القس جالساً على كرسي مرتفع. كان الأب ترافيس القس الوحيد في تاريخ المحمية الذي يخرج إلى أماكن عامة ويرتاد المشارب المحلية. بدا أنه يستمتع بذلك مثل أي صياد عادي. كان يجلس إلى جانب شخص يعدّه صيداً محتملاً، ويشتري له أو لها جعة ليرمي صنارته باتجاهه. أحبَّ اصطياد الأسماك الحقيقية أيضاً، واعتمد التكتيكات نفسها طوال الوقت. قال: «يجب أن تصطادها بين الأعشاب». صِرْتُ لِلضُّعَفَاءِ كَضَعِيفٍ لأَرْبَحَ الضُّعَفَاءَ. صِرْتُ لِلْكُلِّ كُلَّ شَيْءٍ، لأُخَلِّصَ عَلَى كُلِّ حَالٍ قَوْمًا. إذا أراد الأب ترافيس أن يكون له وشم، سيحمل بالتأكيد كلمات الحواري بولس. كان يثمل تقريباً ليتواصل مع السكارى أيضاً، ولكن ذلك انتهى، وبات يدير آنذاك اجتماعاتٍ للمدمنين في قبو الكنيسة.

على الرغم من أن الأب ترافيس لم يشرب حتى الثمالة أبداً، فإنه قد شاهد قبل عشرة أعوام إلى أين يمكن أن

يـؤدّي ذلـك، جعـة وحيـدة تبعتهـا سـت علـب، ثـم كـؤوس شـراب أخـرى كادت تفقـده الوعـي. شـعر بالدهشـة مـن صعوبـة الامتنـاع عـن ذلـك، لـذا يتعاطـف مـع هـؤلاء النـاس، ولكنـه يخفـي ذلـك ويتعامـل بقسـوة مـع المخموريـن، حتـى مـع الأتقيـاء منهـم. إذا عـاد الشـخص إلـى معاقـرة الشـراب أو أظهـر عنـاداً بهـذا الشـأن في ديـد كستر، سيأخذه إلـى الخـارج مـن أجـل الابتهـال والتضـرّع إلـى الـرب. كان روميـو بويـات قـد ابتهـل مرتيـن، بقـوة، ووجهـه إلـى الحائط حيث ثبّتـه الأب ترافيـس، قبـل أن يصيـرا صديقيـن. رآه الأب ترافيـس هنـاك، وألقـى عليـه التحيـة.

كانـت هنـاك قهـوة يقدّمهـا فيرجيـل فـي الصبـاح، ولكـن لا يوجـد شـراب كحولـي باسـتثناء الجعـة. قَبِـلَ روميـو علـى مضـض كوبـاً مـراً مـن تلـك المـادة الفاتـرة.

كانت هناك كتابة على الـدورق الزجاجي: ماكيـد ماشكيكي وابو.

قـال روميـو: «مـاء طبي أسـود. يـا إلهي! هـل رأيتـم الأخبـار الليلـة الماضيـة؟». كان والأب ترافيـس مـن متابعـي محطـة سي إن إن. وضـع القـس كميـة مـن مسحوقٍ بلـون البنـدق مـن علبـة كرتونيـة في كوبـه وحـرّك السـائل فيـه.

«مـا الـذي جـاء بـك إلـى هنـا؟». تنـاول الأب ترافيس رشـفةً بحـرص، كأن القهـوة سـاخنة فعلاً.

قـال روميـو: «سـمعت ماكيـن فـي 29 فبرايـر. طلـب مـن

المبشّرين التلفزيونيين أن يذهبوا إلى الجحيم، بكلمات قليلة فقط. ماذا قال بعد ذلك عن سوء خُلق المتعصّبين؟ روبرتسون؟». أضاف روميو وهو يلكم الهواء: «إنسان صالح».

كان صدر روميو مجوّفاً، كأنه مُصاب بالسل، وذراعاه نحيلتين، ورأسه مدبباً مثل نسر، وعيناه متقدتين على الدوام. بدأ شعره بالتساقط، وتحوّلت تسريحة ذيل الحصان إلى مجرد خصلة صغيرة. ضرب كتلة الشعر خلف رأسه بكفّ يده، كأنها حبل مشدود. كان النهار مشرقاً، ويأمل أن يبدأ صباحه بتناول الجعة ليخفّف عنه وهج الشمس، لكن لم يكن بمقدوره فعل ذلك أمام كفيله.

قال الأب ترافيس: «كنت أتابع تلك القصة».

«نحن بانتظار أن يقوم رجلنا بحركته».

«إذاً ماذا تفعل الآن؟».

قال روميو: «أنا في طريقي إلى العمل».

قال الأب ترافيس: «هذه جديدة».

ألقى روميو نظرة على فيرجيل، الذي يمسح الطرف الآخر من طاولة المشرب، ولا يشاهد شيئاً. طرح زبون آخر، على الجانب الآخر من الأب ترافيس، سؤالاً على القس. عندما أدار ظهره، بحث روميو في كوب البوليسترين الذي يضع الزبائن ثمن قهوتهم فيه، ومكتوب عليه 25 سنتاً. كان نصف الكوب مملوءاً بقطع نقدية، معظمها من فئة ربع الدولار. أخرج روميو دولاراً من جيبه، كأنه يرغب

في الحصـول على فكّـة، ثـم نقـل كل قطـع النقـد الصغيـرة مـن الكـوب إلـى جيبـه. وضـع الـدولار فـي الكـوب وأعـاده إلـى النضـد. اسـتدار الأب ترافيـس إلـى روميـو وقـال: «لا أراك أبـداً فـي القـدّاس».

قال روميو: «إرهاق».

«أوه؟ أين تعمل الآن؟».

«المـكان نفسـه، هنـا وهنـاك. تنظيـف مرافـق الصـرف الصحـي، وإجـراء صيانـة لهـا، كمـا تعـرف».

قـد تعنـي الصيانـة أي شـيء. قـد يكـون القصـد منهـا أن يعيل المـرء نفسـه بطريقـة صحيـة. اعتمـد الأب ترافيـس اسـتراتيجية الصبـر مـع روميـو. كان يعمـل علـى حالتـه، ويرمـي حجـارة صغيـرة فـي بركـة المياه الراكـدة.

كان روميـو يرتـدي كنـزة بقبـة بنفسـجية فاتحـة، ويعتمـر قلنسـوة سـوداء مرسـوماً عليهـا جماجـم صغيـرة تشـبه الأشـكال الدقيقـة الموشـومة علـى عنقـه.

«هل تحب العمل؟».

قـال روميـو وهـو يهـز رأسـه: «إنهـا مـزوّدة بقـاع زجاجـي. يمكننـي رؤيـة الأسـماك فـي الأسـفل تـأكل الأوسـاخ. إنهـا أسـماك القـاع. أنـت تعرفنـي، صحيـح؟». ابتسـم روميـو. آلمتـه أسـنانه البنيـة الصغيـرة، ولكنـه أضـاف بعـض السـكر إلـى القهـوة وشـاهد المـادة الزيتيـة تتحـرّك فـي كوبـه حـول عـود بلاسـتيكي أحمـر.

قال الأب ترافيس: «نعم، أعرفك».

«تعرف إذاً أنني لست من علية القوم، ولست شخصاً مرموق المكانة. أسماك القاع كما قلت. لا أستطيع التحدّث مع هنود الطبقة المخملية هنا، مثل لاندرو، الذي يتسلّى بالغليون، ويظن أنه معالج تقليدي مثل راندال. هم يستميلون النساء بتلك الطريقة، بذلك الدواء الهندي القديم، كما حدث مع إيمالاين». ألقى تحيته المعتادة برفع إصبعيه حين نهض استعداداً للمغادرة، وسأل:

«هل سمعت ما قاله لاندرو عنك؟».

قال الأب ترافيس، ضاحكاً: «لا تجرّب تلك الخدعة معي».

«إذا لم تكن تريد أن تعرف ...». تظاهر روميو بالانزعاج. «لا عليك».

اندفع روميو عبر الباب إلى الخارج، وجيبه منتفخ من ثقل القطع النقدية. عَبَر الشارع إلى مشرب وايتني، وأفرغ ما في جعبته من نقود القهوة، وتبين أنه ربح أربعة دولارات كاملة.

قال لسنو خلف النضد: «شريحة من بيتزا السجق، وكعكة محلاة، وماونتن ديو. كيف والدك؟».

* * *

كانت مختصة علم النفس الوحيدة على نطاق مئة ميل مشغولة جداً وتعيش على زاناكس، وقد اعتادت على تناول

كؤوس من الفودكا كل ليلة، كما أن مواعيدها محجوزة عاماً كاملاً. كان الناس الذين لا يستطيعون الذهاب إليها يحضرون القدّاس بدلاً من ذلك، ثم يزورون الأب ترافيس في مكتب الأبرشية.

قالت نولا وهي تعبث بطلاء ظفرها الوردي الباهت: «أنا خائفة».

كان الأب ترافيس سيلقي محاضرة في دورة تدريبية للمقبلين على الزواج بعد نصف ساعة. كان مكتبه مصنوعاً من خشب سنديان ثقيل، من مدرسة الأبرشية القديمة، وساقاه ممدودتين على طولهما تحته. بدلاً من كرسي المكتب، جلس على مقعد تخييم قابل للطي مع حمّالة أكواب، وضع فيها وعاء القهوة الحافظ للحرارة، الذي يبدو ملائماً تماماً للجعة. أنار ضوء الشمس النوافذ الجنوبية، وبدت الأوراق على طاولته لامعة. انعكس الضوء إلى الأعلى، وجعل عينيه الباهتتين تطرفان.

قال الأب ترافيس بلطف: «لا تخافي يا سيدة رافيتش. لقد وقع الأسوأ، وتتولّين رعاية طفلين الآن، لاروز وماجي».

«ستتشاطر رعايته الآن. أعني لاروز. إذا عاد إليهم، سأشعر بالخوف، بالذعر مما قد أفعله».

«ستفعلينه؟».

قالت نولا بهدوء: «بنفسي». نظرت إليه بعينيها الجذابتين، بطريقة غامضة. كان هناك شيء مزعج في جمالها الشبيه بالدمى.

تزحـزح الأب ترافيـس إلـى الخلـف قليـلاً فـي كرسـيه. تحرّكـت حيّـة الندبـة الشـاحبة علـى عنقـه إلـى الأعلـى.

كان حريصاً في التعامل مع نولا، وقد جعلها تجلس إلى الطرف الآخر من الطاولة، وأبقى الباب مفتوحاً. تظاهر بأنه لا يفهم تماماً أنها قد تخلّت عن تفسيرها الخاطئ للأمر.

سأل الأب ترافيس، بفظاظة ولطف معاً، محاولاً أن يبقى محايداً: «هل تخطّطين لإلحاق الأذى بنفسك؟».

تغيّر مزاجها، وزمّت شفتيها، وبدت عليها الدهشة. أشاحت بصرها بعيداً حين أدركت أن القس قد يتصل مع بيتر.

«ليس هذا ما قصدته؟».

شرب الأب ترافيس رشفة من قهوته، وحدّق إليها من تحت حاجبيه. لم يعرف مقدار الهراء في كلامها. بدا الانتحار بالنسبة إليه إهانة لأصدقائه الذين توفوا في بيروت. لقد أرادوا أن يعيشوا حياة مديدة، ولكنهم ماتوا عبثاً باستثنائه هو. ربما كان لا يزال على تلك الأرض لتكريم ذكرى مصير 241 شخصاً. جعلته تلك الأفكار متبلّد المشاعر، فشدَّ قبضته ثم أرخاها.

«لنتكلم عن ماجي».

«ماذا عنها؟».

عبس الأب ترافيس متجهماً، وخفضت نولا ناظريها مثل فتاة عنيدة.

«يبدو أنها تتكيّف مع الوضع. هم جميعاً متفقون، وأنا الوحيدة التي لا تتأقلم بسهولة. لقد جئت لأتحدث عن نفسي».

«حسناً، لنتكلم عن كونك والدة ماجي. إذا كنتم تفكّرون بإيذاء أنفسكم بأي طريقة، سيؤثّر هذا سلباً عليها يا نولا. هل تفهمين هذا؟».

أمالت نولا رأسها، وبدا أنها تستعد لإخراج لسانها. كان الأمر مروّعاً، ومفزعاً، والقس يعاملها على أنها شيء زائد عن أسرتها؛ كأنها نكرة لا تصغي إلى ما يقوله.

«لا أريد أن أتكلم عنها أيها الأب ترافيس».

«لماذا؟».

«إنها نكدة». اختلج وجه نولا، وبدأت البكاء فجأة، والبحث عن منديل. دفع الأب ترافيس لفافة المناديل الورقية نحوها. حاولت أن تحبس دموعها، ولكنها سالت من عينيها. بدا أن ماجي هي سبب تعاستها، وعجزها عن التخلّص من حزنها. همست نولا في المنديل الورقي: «إنها مزعجة صغيرة».

سمع الأب ترافيس ذلك.

أزالت نولا الدموع من عينيها ومسحت وجهها. «آسفة يا أبتي، ربما ينبغي أن تكون الأمور طبيعية، وربما يجب أن أعيش حياة عادية. ينبغي أن أعتاد على الأمور كما هي، وأقبل بها، وأتوقف عن التفكير بدستي».

نهض الأب ترافيس ومشى حول طاولته.

قال: «من الطبيعي أن تفكّري بدستي».

وقف خلفها وتكلم فوق رأسها. ربما كان ينبغي أن يتراجع في تلك اللحظة، وينتظر. لكن مغازلة نولا على نحو زائف بدا أمراً يثير السخرية.

قال: «ليس من الطبيعي أن تفعلي ما فعلته في القدّاس. لقد ضربت ماجي».

استدارت غاضبة. «لم أفعل ذلك».

حدّق الأب ترافيس إلى الأسفل نحوها، ولكنه واجه صعوبة في ذلك. كان جمالها فاتناً ومغرياً، وبدت أقسى من الحشد الذي ينتظره في الاجتماع المرتقب.

«إذا جاء بيتر إليّ بشأن تعاملك مع ماجي، أو جاءت ماجي بنفسها، أو جاء أي شخص من أسرة آيرون، أو مدرّس، أو أحد آخر سأذهب إلى الخدمات الاجتماعية».

«هل ستفعل ذلك حقاً؟».

تكلمت نولا وهي تنشج، ولكن وجهها تغضّن غضباً. نهضت بحركة رشيقة ومفاجئة جعلت صدرها يلامس أصابع الأب ترافيس. جفل الرجل؛ كأن ناراً لفحته.

تراجعت نولا خطوة إلى الوراء، وقد اتسعت عيناها دهشاً.

«لا أظن أنك قصدت ما قلته تواً عن الخدمات

الاجتماعية أيها الأب ترافيس. سأتظاهر بأنك لم تلمس صدري». كانت نظرة نولا قاسية.

نظر إليها وفعل شيئاً سيشعر بالخجل منه لاحقاً. ضحك، قائلاً: «صدر؟». أشار إليها أن تخرج وهو يقهقه عالياً.

صرخ عبر الرواق: «اسمع يا ستان!». استدار حارس الكنيسة، حاملاً مكنسة في يده. «اسمع! ستتظاهر السيدة رافيتش بأنني حاولت لمسها».

قال ستان: «نعم، لا بأس»، وتابع الكنس.

قال الأب ترافيس حين استدارت إليه، غاضبة: «لستِ أول من يحاول هذا. يجب أن تعرفي أنني لا ألمس أحداً بتلك الطريقة أبداً. أنا لست من ذلك النوع من القساوسة».

بدأت تنتحب بقوة، ثم سارت مبتعدة عنه وهي تترنّح في كعبيها العاليين.

* * *

كان منزل لاندرو وإيمالاين يضم الحجرة الأصلية من 1846، التي بُنيت على عجل أثناء هطول الثلج على أسلافهما. شعر كلاهما بالرضا حين عرف أنه إذا أُزيلت طبقتا الطلاء والجصّ عن الجدران، سيجدان العمود الداخلي والحيطان الطينية. قضى كل أفراد الأسرة الأولى ـ أطفال، وأمهات، وأعمام، وأولاد، وعمّات، وأجداد ـ نحبهم هناك بسبب السل أو الخنّاق، وقد ترافق ذلك بحزن،

وصخب وتبجيل، وقصص سحرية. لقد عاشوا وماتوا فيما صار آنذاك غرفة المعيشة، وكان بينهم دائماً لاروز.

تم بناء ملحق للحجرة الأصلية بعد بعض الوقت، وباتت تلك الأكواخ الخشبية منزلاً واحداً أثناء عشرينيات القرن العشرين، حين اشترى جد إيمالاين ألواحاً عريضة، ودعم جوانب المنزل بها، ثم وصلها معاً ليشيّد سقفاً واحداً تحتها. تم عزل جناح بُني في الخمسينيات على طول المنزل وصار مجموعة من غرف النوم. كان هناك مرحاض خارجي، ومقطورة ماء، وحجرة اغتسال، وحوض، ولوح غسيل حتى السبعينيات، ثم اكتمل المنزل بحمام داخلي وغرفة غسيل صغيرة.

عاشت إيمالاين مع والدتها هناك أثناء الأعوام العشرة الآتية. عندما ازداد عدد الأولاد، وحصلت إيمالاين على شهادتها الجامعية، انتقلت السيدة بيس إلى دار المسنين. يؤدّي باب من غرفة نومها الصغيرة، حيث ينام لاندرو وإيمالاين، إلى الحمام. تقضي جوزيت وسنو أوقاتاً طويلة في الاغتسال هناك، وتقومان بروتينهما التجميلي المعقّد فيه، وترسلان أخويهما إلى المرحاض الخارجي حين يطرقان على الباب.

لا يزال المطبخ وغرفة المعيشة، وهما أقدم قسمين من المنزل، مكسوين بورق جدران من الخمسينيات، الذي تموّج تحت طبقات من الدهان، أخضر داكن أولاً، ثم أخضر فاتح، ثم أخضر مائل إلى الأزرق من اختيار سنو. لم توافق

جوزيت عليه أبداً، لذا رجحت كفّة رأيها بشأن ورق جدران غرفة نومهما المشتركة، باقات من أزهار الخزامى مربوطة بشرائط بيضاء. لم يفكّر أحد أبداً بشأن الدهان في غرفة الصبيين، أحمر داكن مغطّى بملصقات سلاحف النينجا، والثور الجالس، والرجل العنكبوت، وتوباك، وتشيف ليتل شيل، وديستينيز تشايلد، والحاسّة السادسة.

جرى رفع المنزل كله في الثمانينيات باستخدام رافعة وضعته فوق أساسٍ من كتل إسمنتية، وتخلّصوا بذلك من العفن والرطوبة. بات منزلاً حقيقياً آنذاك، مع قبو تحته. عندما تزوجت إيمالاين من لاندرو، شيّد الرجل منصة صغيرة لتحديد المدخل الأمامي، مساحة كبيرة كفاية لوضع كرسيين وأصيص ورود. بعد إنجاز ذلك، بدا البيت فجأة مثل منازل كثيرة، وتخيّل لاندرو أنهما سيكبران معاً هناك، ويجلسان على تلك الشرفة، ويشاهدان السيارات تعبر من خلال فتحة في الأشجار بجانب الطريق، وينتظران خروج أبنائهما، ثم أحفادهما، من الحافلة المدرسية واقترابهم من المنزل على رقعة معشوشبة تنمو فيها أزهار برية، عبر شريطٍ من الأعشاب الممهّدة، أو على الحصى المتجمّدة في الشتاء.

سيكون كل شيء بخير. سنكبر هنا معاً بأي حال.

كانت تلك فكرة لاندرو حين اصطحب بيتر لاروز أول مرة إليهم. سيكونون معاً في الربيع والصيف حتى أيام الشّعرى، حين يصبح البيت حارّاً، وتفوح رائحة التربة من الأخشاب القديمة في الداخل.

فتح لاندرو الباب فتجاوزه لاروز راكضاً، ممسكاً دميته المفضّلة، ومنادياً أمه. استدار لاندرو ليلوّح مودّعاً، ولكن بيتر كان قد عاد بسرعة إلى الطريق. أوصد لاندرو باب المنخل الألومنيوم وأغلق الباب الخشبي خلفه. أدرك أن رؤية لاروز وإيمالاين يطيران فرحاً معاً ستكون مؤلمة، لذا جثم بجانب البساط هناك، وقضى وقتاً طويلاً في وضع الأحذية المبعثرة مع بعضها وترتيبها في صفوف. عندما وصل أخيراً إليهما، مرخياً ذراعيه، كانا يتكلمان عن طريقة استخدام أداة تقشير البطاطا.

جلس لاروز إلى الطاولة بجانب النافذة، في ضوء شمس الشتاء الواهن. كان أثر الصقيع ظاهراً على الحواف الخارجية للنافذة، وقد تجمّد البخار في زغب رمادي على الجوانب والعتبة. أزال قشور البطاطا، قطعة بعد أخرى، ووضعها في طبق بلاستيكي. هزّت إيمالاين قطعاً من اللحم في كيس مع طحين، ثم أخرجت كل قطعة بمفردها وألقتها بحرص في زيت ساخن. كانت مقلاة حديد الصب ملساء وخفيفة نتيجة خمسين عاماً من الاستخدام المتواصل. لقد تركتها والدتها لهم.

جلس لاندرو إلى الطرف الآخر من الطاولة، وفتح باقي أوراق الصحيفة. جعلته خشخشتها يلاحظ أن يديه ترتعشان قليلاً.

اندفعت سنو وجوزيت عبر الباب أولاً، في حين تولّى ويلارد وهوليس نقل كل الأدوات الرياضية إلى الداخل.

تناثر كل شيء في أكوام عند الباب. ركضت الفتاتان إلى لاروز وأمسكتا به، وجثتا بجانب كرسي المطبخ تبكيان بصمت. ضرب الصبيان الأكبر سناً كفّيهما بكف لاروز.

قال هوليس: «لم يستعمل أحدٌ سريرك يا رجل».

قال كوتشي: «نعم، حاولت أن أنام هناك، ولكنه رماني إلى الأرض. إنه لك الآن».

تنهّدت جوزيت: «سينام هنا! هنا في منزله!».

قالت سنو: «أنت تعرف هذا».

مرّر لاروز يده على شعرهما أثناء تنافسهما في البكاء.

قال لاندرو: «مي-إو».

تنشّقت الشقيقتان وبدا أنهما قد تحرّرتا من عبء ثقيل، كأن ضياءً يتوهّج داخلهما. كانتا سعيدتين جداً، ولم تعرفا كيف تظهران ذلك من دون أن يبدو الأمر زائفاً. جلست الفتاتان لتحضير الجزر.

«أنت تقطعين شرائح كبيرة».

«لا، لا أفعل ذلك. انظري إلى البطاطا».

«هذا تناسق يا جوزيت».

«لا تكوني نيّقة».

كانتا قد حصلتا على قائمة من كلمات السات (اختبار الكفاءة الدراسية) من مدرّس يحبُّ كليهما. نالتا إعجاب

معظم المدرّسين بسبب اجتهادهما في الدراسة، وقد خفّفوا عنهما الواجبات لتتفرّغا لموسم الكرة الطائرة. كان موعد المباريات قريباً جداً، وتُقام كل الليل، وكذلك مباريات كرة السلة التي سيشارك بها هوليس وويلارد. تناوب لاندرو وإيمالاين على إيصالهم بالسيارة؛ لأن الحافلة تطلب مبالغ إضافية مقابل النقل في تلك الساعات. أضف إلى ذلك أنهما جعلا أبناءهما يدرسون في السيارة على المقعد الخلفي باستخدام مصباح يدوي. كيف عرفوا بشأن ذلك؟ لقد تعلّموا من والدة إيمالاين. لم يكن هذا النوع من التفاني من جانب لاندرو؛ لأن والديه كانا مدمنين على الكحول ولم يعيشا طويلاً.

❋ ❋ ❋

كان لدى روميو بويات عمل فعلاً، في الواقع، عدّة أعمال. ساعدت وظيفته المؤقتة في قسم الصيانة بالكلية القبلية في حصوله على أعمال بسيطة أخرى. قرأ كثيراً في الكلية بين غسل السجاد وتلميع النوافذ. كان يأمل الانتقال إلى قسم آخر، مثل المستشفى القبلي، ولكن الناس لا يغادرون تلك الوظائف أبداً. على كل حال، غذّت وظيفته الرسمية أعماله الأخرى كما تغذّي سمكة كبيرة مجموعة من الأسماك الصغيرة بالفضلات وبقايا الطعام.

كانت أعمال روميو الثانوية، غير الرسمية أصلاً، وحتى التطوعية، مربحة ومتعدّدة الجوانب. كان يجمع ويتخلّص من الفضلات الخطرة الباقية في القوارير الطبية، التي

يصفها أطباء الرعاية الصحية الهندية. لم يكن أحد قد استأجره أو طلب منه القيام بهذا، لكن الأمر بات جزءاً من طريقة معيشته. عندما ينظّف المكان، يبقى في كل قاعة صفّية أطول وقت ممكن من أجل البحث عن أدوية قد يكون أحد تركها بالخطأ في حقائب اليد. تطوّع لنقل الفضلات الخطرة التي تتراكم خارج المباني الأخرى، خاصة حين يزور المستشفى. قد يبدو للعين العادية أنه يبحث عن أعقاب لفائف تبغ، ولكن على الرغم من حقيقة أن بمقدوره العثور على لفائف تبغ شبه كاملة خارج بعض المداخل (مرمية على عجل من البيئة الخالية من التدخين)، إلا أن مهمته كانت أوسع نطاقاً من ذلك. اكتسب جزء من عمله، في الواقع، صبغة سرية. أشار شخص في المشرب، قد يكون القس نفسه، إلى روميو بأنه مختص معلومات المحمية، وقد ظنَّ أن ذلك صحيح. كان جاسوساً، لكنه يعمل باستقلالية. لم يكن أحد يوجهه، وقد أدار عمله الفردي لما فيه مصلحته.

اعتمد أساليب خاصة به، وجلب كثيراً من المعلومات الهامة بالإصغاء إلى ما يدور حوله بجانب إبريق القهوة في الكلية القبلية، أو الوقوف خارج أبواب غرف استراحة الأساتذة، أو الجلوس فحسب في مناطق التواصل الاجتماعي وعدم لفت الأنظار إليه. في مناسبة نادرة أو اثنتين، لم ينتبه إليه أحد أثناء عمله في اقتلاع النباتات الضارّة على المنحدر المعشوشب بجانب فريق إسعاف مشغول بما يقوم به. عرف كل شيء عن كل كارثة تحدث،

أشياء لا تخرج إلى العلن أبداً. لقد سمع روميو عن وفيات بسبب الانتحار جرى التستّر عليها حتى يمكن أن تبارك الكنيسة الجثمان وتدفنه في مقبرتها. اكتشف حالات إجهاض ووفيات مريبة لمواليد جُدد بدت مثل متلازمة موت الرضيع المفاجئ. عرف كيف يتناول الناس جرعات مفرطة من الأدوية، وأسباب ذلك، وكيف يكافح فريق الإسعاف جاهداً لإعادتهم إلى الحياة، ومتى يحين موعد إخراجهم من المصح. هامت كل تلك المعلومات في ذهنه، وبدا جيداً أنه يعرف كل تلك التفاصيل. في الواقع، أدرك روميو أن تلك المعلومات السرّية مدمّرة، وقد يكون لها فائدة جانبية من دون تبعات قانونية سلبية، وأنها أفضل من أي شكل آخر للنفوذ.

عمل روميو في مجال القمامة أيضاً، وتخصّص في النفايات الصيدلانية. كان يتم تمزيق تلك الفضلات عادة وإحكام إغلاق مستوعباتها، ولكن روميو عمل مع موظف صيدلية معين «تعاون» معه نتيجة المعلومات التي يمتلكها. كان يحصل على كيسين كل بضعة أيام، ويضعهما في صندوق سيارته.

عاش روميو في شقة معوقين مدانين في المجمّع السكني القبلي المسمّى فدانين خضراء، وقد بنُي لسوء الحظ فوق مقلب قمامة يتسرّب منه غاز أخضر. تمتّع روميو بمناعة ضد الهواء الفاسد الذي يتسلّل عبر الشقوق في مشمّع الأرضية. لم يزعجه العفن أيضاً، سواء الأسود

أو الأحمر. إذا صارت الرائحة قوية، سيجلب معطّر سيارة جديداً من وايتني، وأريج المانجو هو المفضّل لديه. كانت زخرفة شقته ترتكز على شجرة عيد ميلاد تبقى قائمة طوال العام، ويتم تزيين الشجرة المورقة بمعطّر سيارة برائحة المانجو. حملت جدرانه صوراً ضوئية مثبّتة بالجص الطري. كان لديه تلفاز، وثلاجة صغيرة، ومسجّل متنقّل، وفراش، وكيسا نوم من البوليستر، ومصباح جميل يدوي الصنع مع غطاء مكسور يشبه قبعة مائلة.

كان روميو يفتش محتويات الحقيبتين تحت ضوء المصباح، على كرسي وثير انتزعه من شاحنة محطّمة. بدا أن كل ما يتمناه موجود هناك على الورق ـ مطبوعات مهملة، وملصقات، ووصفة طبية، وملحوظات صيدلاني ـ وقد فشلت المعلومات التي اشتراها بمعلوماته في إثارة اهتمامه تلك المرة. عثر ضمن تلك الأكوام على قوائم بالأدوية التي يتناولها كل أفراد الجماعة، التي يمكن لأقربائهم سرقة كميات صغيرة منها. وجد روميو في تلك الأوراق أسماء من سيموت ومن سيعيش، والأكثر جنوناً مما يبدو عليه، وعرف بالتالي العاقلين الذين يتمتعون بالصحة والعافية. احتفظ بسجلٍّ عن حساباته على دفتر صغير، عقاقير، وجرعات، وتواريخ تجديد الوصفات، وطرق تناول المرضى أدويتهم. على الرغم من أن ملف روميو لم يذكر حالة واحدة أوصى فيها الطبيب مريضاً بسحق الأقراص واستنشاق المسحوق، إلا أن تلك كانت الطريقة المفضّلة لديه.

ظهرت كلمتا مسكّن ألم مجدداً تلك الليلة، وهو يحتفظ بأي شيء يحمل هاتين الكلمتين في كومة خاصة من القصاصات الورقية. عثر في الكيس أيضاً على إشعار بدفع مكافأة. انتقل إلى القسم المفضّل لديه، صفحة الوفيات في الصحيفة القبلية. قارن عدة وصفات طبّية مع أحد الأسماء، ثم لاحظ أن الجنازة ستُقام في اليوم الآتي.

توقف روميو بجانب متجر البقالة عند 9:45 من صباح اليوم الآتي، واشترى رطلاً من اللحم الرخيص، ثم قاد سيارته إلى الكنيسة. ركنها عند حافة الساحة بجانب شاحنة صغيرة بغطاء وقود يمكن فكّه بسهولة باستخدام مفك براغي. جلس في سيارته حتى دخل الجميع دار العبادة، ثم نقل إلى سيارته وقوداً أكثر من كافٍ لتوصيله إلى دار المتوفى والعودة مجدداً. كانت المسافة ستة أميال، ووصل إلى هناك في خمس عشرة دقيقة.

أوقف روميو سيارته بجانب المنزل، ومشى إلى الباب الأمامي مباشرة، وقرع عليه. كانت الكلاب الكبيرة في الخارج تنبح بقوة، ولكنه رمى بعض قطع اللحم لها لجعلها تهدأ. نبحت الكلاب الصغيرة في الداخل عند مدخل المنزل. لم يرد عليه أحد، ولاحظ أن قفل الباب من النوع الرخيص من ولمارت. فكَّ البرغي القديم ببطء من الإطار بمفكّه مسطح الرأس، ثم دخل، ورمى بعض القطع الإضافية من اللحم، فهزّت الكلاب ذيولها وتبعته مباشرة إلى غرفة النوم. كانت طاولة التلفاز بجانب السرير

تحمـل بعـض القواريـر البلاسـتيكية صفـراء اللـون، التـي فحصهـا بإمعـان، ثـم أخـذ واحـدة. رأى درجـاً مفتوحـاً قليـلاً في طاولـة ثانية قـرب السرير. مرحى! ثـلاث قواريـر أخـرى، إحداهـا ممتلئـة تمامـاً تقريبـاً. فـي الحمـام، فتّـش بحـرص خزانـة الأدويـة، وعبـس أثنـاء التوثّـق مـن كل دواء. ابتسـم أخيراً حيـن عثر علـى ما يريـده وهزَّ العلبة. وضـع ثلاثـاً منهـا فـي جيبـه، وقـال فـي نفسـه إنـه ينبغـي ألا يكـون جشـعاً. كانـت السـاعة 10:30 آنـذاك. ثبّـت القفـل حتـى لا يخـرج مـن مكانـه وغـادر المـكان، مـع نصـف رطـل مـن اللحـم فـي جعبتـه.

عـاد إلـى الجنـازة بحلـول 10:55. وضـع قواريـر الأدويـة فـي كيـس بلاسـتيكي وأخفـاه خلـف المقعـد الخلفـي، إضافـة إلـى اللحـم. تنـاول جرعـة صغيـرة مـن دارفوسـيت ودخـل الكنيسـة بصمـت. كان الجميـع يركّـزون علـى مـا يجـري فـي المقدمـة، وحملـة النعـش المجتمعيـن هنـاك. وضـع يـده علـى قلبـه حيـن أخرجـوا الجثمـان، وركـب فـي سـيارة أخـرى إلـى المقبـرة، لتوفيـر الوقـود.

بكـى الجميـع ارتياحـاً بعـد مراسـم الدفـن الحزينـة. عـاد روميـو إلـى الكنيسـة وتبـع المعزّيـن نـزولاً علـى السـلالم إلـى الغـداء الجنائـزي، وأكل حتـى التخمـة هنـاك. شـرب قهـوة عاديـة وتحـدّث إلـى أقربائـه وأقربائهـم. بقـي حتـى النهايـة، وشـرب مزيـداً مـن القهـوة، وتنـاول كعكـة، وحصـل علـى بقايـا طعـام مـن أطبـاق ورقيـة ليأخذهـا إلـى المنـزل. حيّـا بإيمـاءة صغيـرة حزينـة شـخصاً يعـرض صـورة رجـل يبتسـم لآلـة

التصوير ويحمل لوحة تكريم له. عندما عاد روميو إلى شقته، استخدم الورق المقوّى لاستنشاق مسحوق الأدوية التي حصل عليها.

قال إلى الكون: «إلى أين يا رجلي؟».

استنشق روميو المسحوق الموجود على الأوراق واسترخى في كرسي الشاحنة. سافر بعيداً وبأمان في المقعد الخلفي، مرتاحاً في قطيفة رمادية ناعمة. ابتسم رفاقه، في الصور على جداره، لوجوه المصوّرين الضائعين. كان بعضها صوراً مدرسية، وإحداها لإيمالاين ووالدتها؛ السيدة بيس مدرّسته المحبوبة، وأخرى للاندرو وصبيين آخرين، كلاهما ميت آنذاك، وثالثة لستار يرفع علبة جعة. هوليس: عدّة صور من المدرسة الابتدائية، وواحدة من الثانوية، وأخرى لهما معاً. روميو وهوليس، أعز إنسان لديه. حصل منذ وقت طويل على صورة من صحيفة صفراء اللون لزفاف إيمالاين وشخص بجسد لاندرو، لكن من دون وجهه. كان هناك أيضاً أشخاص قد طوى النسيان أسماءهم. ارتقى روميو آنذاك، وطاف عند السقف المتفسّخ والعفن الأسود، وعبر الألواح الخشبية المطلية بالزفت، التي تطقطق على السطح. تجاوزته رفيقته في السفر السيدة بيس في الهواء على الطرف الآخر من بلدة المحمية. وضعت يدها على كتفه، كما كانت تفعل مع الفتيان في المدرسة. خفض رأسه، على الرغم من أنها لم تضربه أبداً. كان ينحني دائماً حين يشير شخص ما إليه. بدا الأمر رد فعل لا إرادياً.

مرحباً أيتها الجميلة

جاءت نـولا إلـى القدّاس اليومـي وجلسـت بعـد الانتهـاء منـه فـي مكتـب الأب ترافيـس، بانتظـار قدومـه؛ لأنـه يتأخـر غالبـاً فـي الـرواق. سـمعت نـولا بالتأكيـد شـخصاً يتكلـم آنـذاك. أصغـى الأب ترافيـس إليـه، وطـرح عليـه سـؤالاً فـي سياق الحديث. كان الصوتـان يناقشـان بعض التفاصيل بشأن إصلاح جدار القبو، أو ربمـا النوافذ. عرفت أن البـرد يتسلّل إلـى الداخـل، وأن الربيع سيجلب معه تسرّباً، وطيناً، وثعابين. تظهـر الأفاعي دائماً قرب الكنيسـة، وبداخلها أحيانـاً. كانـت عـدّة أماكـن فـي المنطقـة والسـهول المجـاورة، وحتـى بحيـرة مانيتوبـا، تعانـي مـن كثرتهـا. توجـد جحـور عتيقـة للحيّـات فـي أماكـن عميقـة داخـل الصخـور حيـث تتجمّـع كل ربيـع، ولا يمكـن طردهـا منهـا.

لـم تكـن نـولا تخشـى الثعابيـن أبـداً، وبـدا أنهـا تجذبهـا إليهـا. رأت واحـدة منهـا آنـذاك، أفعـى غيـر سـامّة مقلّمـة باللـون الأصفـر وذات خـط أحمـر عنـد الفـم. مرحبـاً أيتهـا الجميلـة!

تلوّت الأفعى بصمت تحت رفٍّ من الكتب والكرّاسات، ثم توقفت، تتحسّس الهواء بلسانها. فكّرت نولا أن بمقدورها التحدث إليها أيضاً. يبدو أنه لن يأتي، ولا أظن أنه يريد رؤيتي، إذ ربما يعتقد أنني ضعيفة. سأواجه هذا الأمر بمفردي، على أية حال. لا أحب المسار الذي تسلكه أفكاري، ولكن لا يمكن أن أخالفها طوال الوقت، أليس كذلك؟ ستكون ماجي بخير، بعد ... ستصير نضرة مثل زهرة. سيشعر لاروز براحة كبيرة. تنتاب بيتر مشاعر محبة وكراهية معاً تجاهي، كما تعرفين؟ هو يثير أعصابي. أعرف أنني يجب ألا أنام كثيراً. من سيلاحظ كرسياً أخضر قديماً؟ الأفاعي تلاحظ. أنتِ، أو تلك الموجودة في قزحيتي حين أجعلهم يخلدون إلى النوم. عندما تظنين أنكِ لست موجودة هناك، يصير كل شيء محموماً، متقداً؟ وتدخل أشعة الشمس إلى المكان، وتجعله أكثر حَرّاً. بدا غريباً أن تبقى على قيد الحياة من أجل ذلك فقط، لتراها تسطع بوهجها عبر النافذة بعد الظهر. يسقط ضوء دافئ على حذائي، ويخرج بخار منه، ويهسُّ في الغليون. ذلك الصوت مريح. ربما لا أرى كما ينبغي. لا، ليس هناك أفعى تحت ذلك الرف، بل مجرد قطعة من حبل نايلون داكن اللون.

«نولا!».

«أنتظرك هنا فحسب. ظننت أنه قد يكون لديك وقت».

وقف الأب ترافيس في المدخل، وفكّر أن مجيئها إليه مزعج حقاً بعد أن حاولت ابتزازه. كان يظن أنها أكثر

منطقية من ذلك، وأدرك أنها قد تكون جادّة بشأن الانتحار. عرف أن عليه التوقف عن مقارنة الناس العاديين بالمارينز التائهين، وأنه ينبغي ألا يضحك أبداً.

«سأترك الباب مفتوحاً، أترين؟ لا تدفعي صدرك نحوي مجدداً، مفهوم؟».

قالت نولا: «لن أفعل».

«كيف حالك؟».

«أفضل، لست أفضل».

تنهّد الأب ترافيس ومزّق قطعة من لفافة المناديل الورقية، ورماها نحوها عبر سطح طاولته. مدّت نولا يدها إليها، وأمسكت بها، ثم وضعتها على وجهها.

قالت بأسى: «لا أحب المسار الذي تسلكه أفكاري».

قال الأب ترافيس: «لقد سمعت كل شيء».

«ظننت أن قطعة الحبل الموجودة تحت رفّك أفعى».

نظر كلاهما إلى المكان، ولكن لم يكن هناك شيء.

قال الأب ترافيس: «ربما كانت هناك أفعى، فهي تشبه أنابيب البخار».

«تشبهها طبعاً». ابتسمت. «لا أعرف لماذا ظننت أنه حبل».

انتظر الأب ترافيس أن تقول شيئاً. قعقعت أنابيب البخار وهسّت.

قال: «حبل، لماذا؟».

«ليست لديّ فكرة».

«لأن لديك خطة؟».

أومأت بصمت.

«خطة لتشنقي نفسك؟».

تجمّدت، ثم تمتمت: «لا تخبرهم من فضلك، سيأخذونه مني. ماجي تكرهني أصلاً، ولا ألومها ولكن أكره نفسي كثيراً. أنا أم سيئة جداً. تركت دستي يخرج من المنزل، ولم أراقبه. أرسلته إلى الأعلى لينام؛ لأنه كان شقياً، ويترك آثار يديه على كل شيء. صعد إلى هناك، وتناول قطعة حلوى. يحب ... كان يحب الشوكولا. وضعتها ماجي من أجله هناك. كانت مريضة ذلك اليوم، أو تتظاهر بذلك على أي حال. شجّعته على افتعال مشكلات، ما جعلني أرسله إلى السرير. لكنه تسلّل إلى الخارج».

«هل تلومين ماجي؟».

«لا».

«أنت واثقة؟».

«ربما في البداية، حين فقدت صوابي. لكن لا. أنا أم سيئة، نعم، ولكن إذا ألقيت اللوم عليها ستكون تلك، لا أعرف، ستكون تلك كارثة، صحيح؟».

«نعم».

أمعنت نولا النظر إلى راحتي كفّيها، المفتوحتين على حجرها.

«ستكون كارثة أيضاً أن تلومي نفسك».

شعرت بدوار، وظهرت بقع صفراء في مجال رؤيتها. وضعت جبينها بحرص على الطاولة.

«صرخت أيها الأب ترافيس. صرخت عليه بصوتٍ عالٍ وجعلته يبكي».

حدّق الأب ترافيس إلى الهاتف على الطاولة بعد أن غادرت نولا. كانت قد خطّطت لشيء ما، ولكن بدا أن حديثها عن آخر يوم في حياة دستي قد خفّف العبء عنها. تكلمت بمنطق، وأنكرت احتمال أن تقوم بإيذاء نفسها آنذاك. طلبت منه عدم إبلاغ بيتر، حتى لا يزيد ذلك همّه. قالت إنه سيتداعى من الداخل. لم يكن الأب ترافيس يشك بذلك، ولكن لن يعيش الرجل حياة طبيعية مجدداً إذا انتحرت زوجته. رفع السماعة من مكانها، ولكن أعادها فوراً. شعر بأنها أفضل حالاً حين غادرت المكان، لاحظ أنها ترتدي خفين أبيضين، وأن خطواتها رشيقة. لقد وعدت بأن تتكلم معه إذا راودتها تلك الأفكار مجدداً.

* * *

انتزع ولفريد قطعة من لحم الموظ المجمّد، وحملها إلى الحجرة، ووضعها في قدر ممتلئة بالثلج. أشعل النار، وعلّق القدر فوقها ليغلي الماء بداخلها. كان قد تعلّم من الفتاة

قطاف التوت الأحمر الذهبي، الذابل قليلاً في الشتاء، الذي يمنح اللحم طعماً غريباً قليلاً لكنه لذيذ. علّمته أيضاً طريقة تحضير الشاي من أوراق نباتات المستنقع، ودلّته على الأشنة الصخرية، الصالحة للأكل لكنها تفتقر إلى أي طعم.

دخل ماشكيغ، والد الفتاة الأعجف والمخيف، مع شخصين نحيلين. نظر إلى الفتاة، ثم أشاح بصره بعيداً. قايض الفراء التي بحوزته بشراب وذخيرة. طلب ماكينون منه أن يثمل بعيداً عن المركز التجاري. كان ماشكيغ قد طعن كل شخص آخر وجده قربه في اليوم الذي قتل فيه أخوال الفتاة. لقد جدع أنف مينك وقطع أذنيها. حاول آنذاك أن يستعيد الفتاة، ثم شراءها، ولكن ماكينون لم يقبل أياً من الأسلحة التي عرضها عليه.

بعد أن غادر ماشكيغ، قضى كل من ماكينون وولفريد حاجته، وجلبا بعض الحطب، ثم أوصدا المصاريع الداخلية، وذخّرا سلاحيهما. سمعا أنه قد قتل مينك بعد أسبوع تقريباً، ما جعل الفتاة تطأطئ رأسها وتبكي.

كان ولفريد موظفاً يتمتع بقيمة أكبر مما يعرف. أظهر مهارة في الطهي، وخبز الخبز من لا شيء تقريباً. احتفظ بخميرةٍ صنعها والده على الرغم من أنه قطع نصف أمريكا الشمالية، وبحث دائماً عن مصادر جديدة للعلّيق. كان يستهلك كل الطحين الناعم الذي يحضره ماكينون للمقايضة، إذ لم يكن الهنود قد اعتادوا على مذاقه بعد. قام ولفريد بطحن الأرز البري وتحويله إلى مسحوق، ثم أضاف إليه

المـواد الموجـودة لديهمـا. جمـع فـي الصيـف السـابق صلصـالاً علـى شـكل رابيـة صغيـرة، ثـم جوّفهـا ليصنـع تنّـوراً طينيـاً، وخبـز عليـه أقـراص العجيـن كل أسـبوع. خـرج ماكينـون إليـه حيـن بـدأت الأرغفـة تكتسـب اللـون البنـي، وأعجبتـه رائحـة الخبـز، هنـاك فـي الشـتاء المعتـم، مـا جعلـه يفتـح برميـلاً صغيـراً مـن النبيـذ. كان لديهمـا سـتة براميـل سـابقاً، ولـم يبـق منهـا إلا خمسـة. كان ماكينـون قـد خزّن النبيـذ الجيـد بنفسـه، وبكميـات قليلـة جداً فـي كل مـرة. عـادةً، شـارك ذلـك الشـراب الفاخـر مع أشـخاص آخريـن مـن أجـل الحصـول علـى مؤن يبيعهـا للهنـود. تناولـه مـع ولفريـد آنـذاك، جالسـين علـى قطعتيـن مـن شـجرة مقطوعـة بجانـب الموقـد السـاخن والنـار المسـتعرة.

صـرَّ الثلـج ولمعـت النجـوم فـي السـماء السـوداء خـارج نطـاق الـدفء. جلسـت الفتـاة بينهمـا، مـن دون أن تشـرب، واسـتغرقت فـي أفـكارٍ خاصـة بهـا. نظـر كلا الرجليـن إلـى شـكلها فـي ضـوء النـار مـن وقـت إلـى آخـر. بـدا وجههـا الملطّـخ بالطيـن ذهبيـاً داكنـاً. نضـج الخبـز أثنـاء تناولهمـا النبيـذ، فأخرجـا الأرغفـة بحـرص ووضعاهـا، سـاخنةً، داخـل معطفيهمـا. فتحـت الفتـاة بطانيتهـا لتمسـك رغيفـاً مـن ولفريـد. عندمـا أعطـاه لهـا، أدرك أن فسـتانها ممـزق مـن منتصفـه. نظـر إلـى عينيهـا، اللتيـن انتقلتـا إلـى ماكينـون، ثـم طأطـأت رأسـها وضمّـت الفسـتان بمرفقهـا أثنـاء إمسـاكها الرغيـف.

جلسـوا علـى قطـع مـن جـذع شـجرة فـي الداخـل، حـول جِـذل أكبـر قليـلاً، ليأكلـوا. كانـت الحجـرة قـد بُنيـت قبـل

أعـوام طويلـة، حـول بقيـةٍ مـن جذع كبيـر اسـتخدموه علـى أنـه طاولـة.

نظـر ولفريـد مستفسـراً إلـى ماكينـون، مـا جعـل التاجـر يقـول: «مـاذا؟».

كان بطـن ماكينـون منتفخـاً ومترهّـلاً، وسـاقاه مقوّسـتين، ولحيتـه مخضّبـة بالحنـاء، وعينـاه حمراويـن ماكرتيـن، وشـعره مجدولاً بخصـلات حمـراء ومملـوءاً بقشـرة الـرأس، وشـفتاه منتفختيـن، وأسـنانه سـوداء، وأنفاسـه منفّـرة، وشـعيرات أنفـه تقطـر مخاطاً وتفسـد أرقـام ولفريـد المكتوبـة بحبـر سـائل. كان ماكينـون بارعـاً فـي الرمايـة أيضـاً، وماهـراً باسـتخدام المطرقـة. لقـد رآه ولفريـد يسـتعملها فـي إحـدى المهمـات العديـدة التـي عمـل علـى إنجازهـا معـه فـي ذلـك اليـوم. كان رجـلاً خطـراً، مـا جعـل ولفريـد يمضـغ الخبـز ويحـدّق إليـه، وقـد تملّكـه شـعور غريـب. بـدأ ولفريـد إدراك طبيعـة الأشـياء التـي يسـتطيع القيـام بهـا أول مـرة فـي حياتـه آنـذاك.

العوارض الخشبية

يونيو. فقست نحو ستة ملايين قرادة خشب بين المنزلين، وبدأت بحثها اللزج والمحتّم عن قوتها. كان يوجد في تلك البقعة من الغابة قرادة لكل إنسان على وجه الأرض. أخبرت جوزيت سنو بذلك؛ لأنها عرفت أن شقيقتها تكره قراد الخشب كثيراً. كانت سنو تجد حشرة مهما توثّقت من ثيابها وغسلتها بعناية وهزّتها بعنف، وتفادت السير بين الأحراج، كما أنها تجذبها إليها أسوأ من أي شخص آخر. قالت إنها تأمل الانتقال والعيش في مدينة كبيرة خالية من الحشرات بسبب ذلك القراد.

قالت جوزيت: «ستفتقدين إلى أصدقائك الصغار». كان سروالها الجينز ضيقاً جداً، والجو حاراً. كشفت عن ذراعيها، ولوّحت بيديها.

كانتا ذاهبتين لجلب لاروز. جعلت أول موجة حرارة القراد يخرج بأعداد كبيرة من أعشاش التفقيس، ويملأ الأعشاب، ويقفز عن الأوراق والأغصان منجذباً إلى رائحة

الثدييات. أحسّت سنو بواحدةٍ منها في شعرها أثناء سيرها على الدرب، وحاولت إبعادها بيدها.

قالت: «سأعود. سأمشي على الطريق حتى إذا رأتني أمي».

سخرت جوزيت منها قائلة: «إنها مجرد قرادة صغيرة. لن أسير على هذا الطريق الترابي، فهو أطول مرتين من هذا. إذا تركتني أذهب لأجلب لاروز بمفردي، أيتها النيّقة، لن تحصلي على دوري في مشغّل الأقراص الليزرية».

كان مشغّل سوني مصدر بهجة لهما، وقطعة عزيزة عليهما، جهاز أقراص ليزرية معدني وأنيق يمكنه تشغيل الأسطوانات القليلة التي تمتلكانها: التسجيل الصوتي لروميو وجولييت، وريكي مارتن، ود. دري، وفرقة بلاك لودج. كان عليهما أن تشتركا به، لذا وضعتا جدولاً دقيقاً لأيام وساعات استخدامه. أرسلوا جوزيت لإعادة لاروز إلى منزلهم، ولكنها لم ترغب في أن تذهب بمفردها، وقدّمت رشوة إلى سنو بمنحها كل ساعات الاستماع إلى المسجّل في اليوم الآتي.

«لا بأس». انثنت سنو مثل غصن بتولا، ونزعت قميصها طويل الردنين، ووضعته فوق رأسها؛ كأنها تختبئ تحته.

«كان يجب أن أعتمر قلنسوتي».

«من الغريب حقاً رؤيتك من دون قلنسوتك؛ أعني قلنسوة شين».

كانـت تلـك قلنسـوة فريـق المصارعـة، التـي أهداهـا إلـى سـنو لإظهـار مـدى جدّيتـه بشـأنها، ولكـن ...

قالت سنو: «لقد انفصلت عنه اليوم».

كانـت جوزيـت تعـرف أن صديـق سـنو قـد ارتبـط بفتـاة أخرى، ولكـن لـم تقل شيئاً. جعلها ذلـك تتميّز غيظـاً، وأرادت أن تلكـم شين على خاصرتـه. ولكـن سنو تنزعـج حيـن تقـول أشـياء مثـل هـذه؛ لأن العنـف يجعلهـا تشـعر بالاشـمئزاز.

قالت سنو: «صرت أكره العمل هناك الآن».

باتـت كلتاهمـا تعمـل وقتـاً أطـول فـي محـل وايتنـي آنـذاك. كانتـا أصغـر العامليـن فيـه، ولكـن وايتنـي العجـوز ولنـدن، ابنـة زوجتـه، اللذيـن يديـران المـكان أحبّـا تفانـي الفتاتيـن فـي عملهمـا. عندمـا تكـون سـنو هنـاك، يأتـي شـين الوسـيم ويشـتري غاتوريـد ووجبـة بوريتـو الخاصـة بالمايكرويـف.

«هـل تعرفيـن لمـاذا نحـب الرجـال الآلييـن؟ إنهـم أفضـل دائمـاً مـن الرجـال الحقيقييـن. لـو أن شـين كان آليـاً لأنجـز أشـياء كثيـرة مـن أجلـي».

«هاها، بماذا ستأمرينه؟».

«أن يكون لطيفاً فقط، كما تعرفين؟».

«أعرف، لا تقلقي. سأجعله يندم على ذلك».

لا بـد أن سنو كانت منزعجة جداً؛ لأنهـا قالـت ميغويتـش؛ أي شكراً بالأوجيبوا، وبـدا أنهـا تعنيهـا حقـاً. تأثّـرت جوزيـت بذلك.

بـات المنـزل فـي مرمـى بصرهمـا. توقفتـا فـي الأجمـة وأمعنتـا النظـر إلـى أناقـة سـاحته وترتيبهـا. شـاهدتا أزهـاراً مزروعـة في مجموعـات نضـرة، ووشـيع صغيـر مشـذّب تماماً.

قالت جوزيت: «لا فيدا لوكا».

«أعرف، هذا حزين جداً».

قالـت جوزيـت: «تحـاول جاهـدة أن تتمالـك نفسـها. صـار أمـراً مألوفـاً، وتعجبنـي زهورهـا».

«أنا أيضاً، ولكنها تخيفني».

«اذهبي أنتِ أولاً».

«لا، أنت».

«حسناً، لكن أنتِ تكلمي معها».

«لا، لا أستطيع. سأفسد الأمر».

كانـت نـولا قـد طـوّرت مجـال قـوة مثيـراً للأعصـاب. انتقلـت الهالـة المتذبذبـة معهـا إلـى البـاب ونبضـت تجـاه الفتاتيـن حيـن فتحتـه ـ ليس على مصراعيـه، بـل قليـلاً فقـط ـ وقالـت: «أوه، أنتمـا». تدفقـت الذبذبـات حيـن تكلمـت، وسدّت الباب مثل غطاء بلاستيكي حيـن أغلقتـه نـولا بلطف فـي وجهـي الفتاتيـن. عندمـا فتحـت البـاب مجـدداً، فعلـت ذلك ببطء شـديد لـم يؤثّـر كثيراً على ترتيب الأيونـات هنـاك. خرج لاروز مـن المنزل، حامـلاً حقيبتـه علـى ظهـره. تراجعت الهالـة إلـى الداخـل، وركـض الثلاثـة علـى المـرج الأخضـر.

كانت نولا قد منعت نفسها عن مراقبتهم بعد أول مرة. أمسكت سمّاعتيها ومشت مباشرة حتى نهاية المنزل، وخرجت عبر الباب الزجاجي المزدوج، ووصلت إلى الشرفة ونزلت الدرجات الأربع، ثم عبرت الساحة إلى الكوخ، الذي تثير عوارضه الخشبية قلق بيتر. فتحت الباب، وتوثّقت من خزّان وقود آلة جز الأعشاب، ثم شغّلتها وعدّلت وضعية المسجّل المثبّت إلى حزامها. كان بيتر قد أهداها بعض الموسيقى الغريبة حقاً في عيد الميلاد. بدت مريحة ومزعجة في الوقت عينه، ترافقها مزامير تصدح وأصوات تنشد أغاني سوبرانو فردية، وأخرى مكتومة وغامضة، وألحان ترتفع حدّتها، ثم تنخفض، لتنبض حيوية مجدداً بنقرة مفتاح محيّرة. كان بمقدورها الاستماع إلى تلك الموسيقى إلى ما لا نهاية أثناء قيادة آلة جز العشب.

أوقفت الآلة في النهاية، ونزلت عنها، ثم ذهبت إلى البيت. صعدت إلى غرفتها، واستندت إلى باب الخزانة، وحدّقت إلى الثياب. كان لديها أربع قطع من كل شيء، بألوان داكنة، باستثناء فستان أرغواني وحيد، وهي لا ترتدي إلا تلك الملابس. أربع سترات، وأربعة سراويل قصيرة، وأربع تنانير، وأربعة سراويل جينز، وأربعة قمصان، وأربعة جوارب طويلة. أربع من كل شيء للكسوة، وأربع لكل يوم. لكن كان لديها كثير من الثياب الداخلية الجميلة التي اشترتها من دليل للسلع.

في البداية، ستغيّر ثيابها الداخلية فقط. أخرجت صداراً

بشريط كستنائي فاتح، وبيكيني أبيض صغيراً. ثم وقفت هناك ومدّت القميص الأبيض الداكن، والسروال الأكثر بياضاً على السرير. أخرجت الحذاء البني من علبته، ووضعت السترة الرمادية من دون ياقة، المخيطة باليد، حول القميص الأبيض. بدا أن متعهد دفن قد رتّب الكسوة كلها هناك. فكّرت أنها تبدو رسمية جداً على جثة، فأبعدت السروال الأبيض واستبدلت به تنورة قصيرة. قرّرت أنها يجب أن تفكّر مجدداً. نقرت بإصبعها على شفتيها وفتحت الخزانة.

الأشياء البرّية

سارت الفتاتان ولاروز بينهما عائدين عبر الغابة. لم تنسَ سنو القراد ولكنها استسلمت للأمر الواقع فحسب؛ لأنها تشعر بسعادة غامرة. كان شقيقهما الصغير سيبقى معهم بضعة أيام آنذاك، والضوء يبدو أخضر صافياً، والهواء عليلاً، والشمس حارة خارج الأشجار فقط، على الدرب. في منتصف الطريق، توقف لاروز وقال لهما: «هل يمكننا الذهاب؟». أدركتا أنه يعني الشجرة. لم يعلم أحد كيف عرف عن الشجرة، ولكنه عرف فعلاً وأصرَّ غالباً على الذهاب إلى هناك حين تأتي الفتاتان لاصطحابه معهما. لم تمانعا كثيراً، أو تخبرا والديهم بذلك الأمر. كان الوصول إلى المكان سهلاً، وبعد دقيقة وقفوا أمام شجرة تسلّق دستي، والغصن، وبقعة الأرض تحته، حيث توجد أزهار ذابلة، وكميات من أوراق التبغ والمريمية، ودميتان صغيرتان أبلاهما المطر - قرد وأسد - مرتبة في المكان.

وضع لاروز حقيبة ظهره على الأرض وأخرج «حيث تكون الأشياء البرّية»، ثم أعطاها إلى جوزيت وقال: «اقرأي». قرأتها بصوت عالٍ، وبعد أن توقف صوتها، وقفوا يستمعون إلى سقسقة العصافير.

قالت جوزيت: «ما سبب هذا؟».

أمسك لاروز الكتاب، وأعاده إلى حقيبته، عابساً قليلاً.

قال لاروز: «أظن أنه كان المفضّل لديه؛ لأنها تقرؤه لي طوال الوقت».

وضعت سنو وجوزيت أيديهما فوق صدريهما ونطقتا كلمات: «لترقد روحه بسلام». أمسكت كل منهما بإحدى يدي لاروز وتابعوا السير.

قال لاروز بصوت عال: «لقد سئمت من هذا الكتاب».

نظرت الفتاتان إلى عيني بعضهما، وكتمتا ضحكاتهما.

قالت سنو: «ربما يجب أن تترك الكتاب له».

«ضعه مع دمية القرد والأغراض الخاصة به».

قال لاروز: «لا أستطيع. سوف تبحث عنه».

قالت جوزيت: «حسناً، لا بأس، لكنها لن تعثر عليه. سوف تستسلم، صحيح؟».

قال لاروز: «لا، لن تستسلم أبداً. قد تذهب إلى الحظيرة وتصرخ مثل شبح أموات».

قالت سنو: «أووه، ما هو شبح الأموات؟».

«إنها امرأة عجوز نحيلة بأسنان طويلة تتجوّل قرب المقابر وتصرخ حين يموت شخص ما».

قالت جوزيت: «يا إلهي!».

قالت سنو: «أخفتني كثيراً. كيف عرفت هذا؟».

«أخبرتني ماجي بذلك. لديها مجموعة صور من كتب وأغراض تحتفظ بها تحت سريرها. كلها مخيفة».

«تحتفظ بأشياء مخيفة تحت سريرها؟».

نظرت جوزيت وسنو إلى بعضهما.

«يا للهول!».

«من أين تحصل على تلك الأشياء الجنونية؟».

«لا تقولي هذا للاروز».

قال لاروز: «تمزق صفحات من كتب مكتبة المدرسة».

قالت جوزيت: «لا تدعها تزعجك أيها الشاب».

قال لاروز: «لقد اعتدت عليها. بات كل شيء عادياً الآن».

أمسكت الفتاتان يديه ولم تتكلما بعد ذلك.

تحدّث لاندرو وإيمالاين عن اسمه قبل إرسال لاروز إلى منزل رافيتش في الخريف الماضي. كان الاسم الذي حمله كل لاروز، أي سراب، أو أمبانيتماجاد، هو الاسم الأصلي لابنة مينك، ويفترض أن يحميه من كل مجهول،

أو كل التعقيدات التي قد ترتبط بتلك الحادثة. تتحرّر طاقة هذه الطبيعة أحياناً، وتنتشر إلى جانب الفوضى وسوء الطالع في العالم، وتتضاعف مراراً. لا يتوقف سوء الحظ على حادثة واحدة فقط، وكل الهنود يعرفون هذا. يتطلب إيقافها بسرعة جهداً كبيراً، ولهذا السبب تم إرسال لاروز.

* * *

إيمالاين بيس، تلميذة نالت علامة ممتاز في اللغة الإنجليزية. ظنّت أنها ستحب تدريس الأدب، فحصلت على شهادة مدرّس، وعلّمت في المدرسة الثانوية، ولم تستمتع بحياتها إلا في عطلات نهاية الأسبوع. قرّرت أن بمقدورها مساعدة الأولاد الصغار أكثر من المراهقين؛ لأن هؤلاء مثلها تماماً، وقد تبين أنها محقة. تلاشت أي سلطة كانت تتمتع بها في الليلة التي ذهبت فيها إلى حفل خاص، ثم دخل بعض الطلاب المكان.

تلقّت عرضاً بعد انقضاء أيام السهر مع لاندرو، وتضمّن تمويل حصولها على إجازة في الإدارة؛ لأن القبيلة تبنّت مقاربة من أعلى إلى الأسفل في إدارة النظام المدرسي. عادت إيمالاين إلى الكلية، وأنهت دراستها، ثم رجعت حاملة شهادتها الجامعية وهي تشعر بالإثارة بشأن برنامج مساعدات جرى تمويله حديثاً آنذاك، مدرسة داخلية في المحمية لأطفال الأزمات.

لم يكن الناس يرغبون في التفكير بشأن المدارس الداخلية، كان يفترض أن تكون سياسة الاستيعاب الإلزامي

قد انتهت آنذاك. لكن مجدداً، لم يكن أطفالٌ من أسر مفكّكة يذهبون إلى المدرسة، أو لديهم مكان ينامون فيه، أو طعام حقيقي، أو يتلقون مساعدة لحل وظائفهم. ولم يكونوا سيخرجون من دائرة الفوضى تلك ـ مهما يكن نوعها، من الإدمان إلى الاكتئاب إلى اعتلال الصحة ـ إلا بالتحاقهم بالدراسة. كان ينبغي على الأولاد المواظبة على ارتياد المدرسة، والأكل والنوم وإنجاز الفروض بانتظام. ربما كانت المدارس الداخلية في الأيام الباكرة قد حرمت مرتاديها من ثقافتهم، ولم تجعلهم يفهمون تماماً معنى المحبة والأخوة، ولكن ماذا عن ذلك الوقت؟ كان الأطفال بحاجة إلى تدخّل من نوع ما، ولكن ليس بمنحهم إلى أسر تتولاهم بالتربية، أو حتى تتبنّاهم، وإنما بتطبيق إجراءات عاجلة تتيح للآباء وقتاً للعودة إلى المسار الصحيح. كان الجزء الأساس، بخلاف المدارس الداخلية التاريخية، هو وجود تلك المدرسة داخل المحمية، واحتضانها صفوفاً من الروضة إلى الرابع. بعد ذلك، يستطيع الأولاد الذهاب إلى مدرسة عادية. تولّت إيمالاين إدارة ذلك النموذج الجديد/القديم من المدارس الداخلية، المؤهَّل لتأدية دور الأبوين في الأسر التي تواجه فشلاً في حياتها، ثم تتعافى منه.

عربتان مقطورتان واسعتان للقاعات الصفّية، ومجموعة أسرية داعمة متجدّدة تسكن مع الآباء البديلين، ومدرّسون، ومعاونو مدرّسين، وكلهم مدربون كما يفترض في مجال علم نفس الطفل أو يعملون بشهاداتهم الخاصة في التدريس. شغلت في البداية منصب معاون المدير، وتولّت

مهمة جمع البيانات، ووضع الاستراتيجية، وطلب اللوازم، وإدارة الاجتماعات، وتنظيم التمويل، وكتابة تقارير لا تحصى عن مدى التقدّم في العمل، إضافة إلى مجموعة أخرى من المهمات خارج نطاق التوصيف الوظيفي. التخفيف من الحزن: لم يكن ذلك ضمن مهماتها. حزنها، وحزن الأولاد، وحزن الآباء. أضف إلى ذلك مسح القيء، واستبدال المناديل الورقية، فتح الأبواب وإغلاقها، وهزّ الصغار الباكين حتى يهدؤوا، ولعب كريزي إيتس مع الفتيات الصغيرات أثناء حديثهن عن قيام أمهاتهن بطعن آبائهن، أو العكس، وتحضير فطائر مع الأمهات اللواتي تتحسّن حالتهن، والتكلم بلهجة قاسية مع اللواتي لا يُظهرن تحسناً. لم تتعامل مع الآباء، وتركت ذلك إلى المدير، من ثم تولّت شؤون الإدارة.

حاولت ألا تنقل مشكلات العمل إلى البيت، ولكنها جاءت فعلاً، بسبب توقها للاستقرار والهدوء. انتقلت إلى البيت بسبب حاجتها إلى بيئة أسرية يمكنها الاعتماد عليها. انتقلت إلى البيت في محاولاتها المتعدّدة الفاشلة للحفاظ على تلك البيئة، ودورات الترتيب والانتكاسة التي مرّت بها، وكفاحها من أجل إيجاد توازن بينهما. انتقلت إلى البيت بسبب حاجتها إلى الخصوصية، حين صنعت خيمتها التقليدية وجلست داخلها، تنفّس عن الأسى بداخلها. انتقلت إلى البيت في استراتيجيات التكيّف التي اعتمدتها، معالجة الاختلال الوظيفي بحرق الميرمية، ونثر ريش نسر حول السرير، وتناول الشراب مرة أسبوعياً بمعدّل كأسين

من أفضل نبيذ يمكنها شراؤه، وبمفردها. انتقلت إلى البيت في محاولاتها إعادة بناء ما قد شيّدته بعناية من قبل، آل آيرون بوصفهم أفراد أسرة قوية، وأشخاصاً صالحين. كانت قد فهمت أن الطريقة الوحيدة مرتبطة بشخص لاروز، ولكن لم يكن بمقدورها تحمّل ذلك.

عرفت آنذاك أنها ستراه، وأنها ستحظى بمكانة هامة مجدداً بوصفها أمه، لذا قضت أيامها بطريقة مرحة، وباتت تنبض حيوية لم يرها أحد عليها من قبل. تحوّلت حركاتها المتشنّجة والحادّة إلى رشيقة وانسيابية، واستقر بصرها على أعمالها الورقية من دون حزن أو قلق، واسترخت حتى خصلات شعرها، التي لم تعد تربطها في عقدة، أو ترفعها بمشبك من الخرز.

غادرت إيمالاين مكتبها في مؤخرة العربة وقادت السيارة ببطء عائدة إلى المنزل. لم تكن قد أقلّت لاروز من بيت نولا؛ لأن بيتر طلب من لاندرو ألا يرسلها إلى هناك، أو حتى أن يذهب بنفسه. عرف أن نولا ستواجه وقتاً عصيباً مع أيٍّ من الوالدين. شعر بيتر بوخز في صدره حين تذكّر كيف ركض لاروز إلى أمه في محل البقالة، سعيداً جداً برؤيتها، وأنه تخلّى عن كل شيء ليكون بجانبها. تم الاتفاق على إرسال الشقيقتين أو الأخين لهذا السبب تحديداً. كانت جوزيت وسنو في غرفتهما آنذاك، والباب موصد عليهما، وكل منهما تتوثق من وجود قراد على الأخرى. تذمّرت سنو ونشجت باستمرار، وكادت تصرخ أحياناً. كان لاروز

يتصارع مع هوليس على أرضية غرفة المعيشة، وقد رماه أرضاً وأمسك وجهه بقبضته، وطالبه بالاستسلام.

ضرب هوليس ذراعه على الأرض.

قال كوتشي، جالساً على الأريكة: «لقد تمكّن منك تماماً». كان يتناول قطعة فطيرة باردة.

«لا تقل هذا له!».

قال لاروز متباهياً: «هل تريد أن تتغلب عليّ؟».

اقتربت إيمالاين، وسمع لاروز صوت سيارتها. خرج مندفعاً من المنزل وركض عبر الساحة المغطاة بالرماد. خرجت إيمالاين في الوقت الملائم لتمسك لاروز حين قفز إلى ذراعيها. كان لا يزال صغيراً كفاية ليستقر على ردفيها، في حين تحتضن خصره بذراعيها. التصق بها، ثم مال إلى الخلف وأخبرها كل شيء عن الملاذ السري في أجمة الليلك، والدمية الجديدة، والروضة الكنسية التي أخذته نولا إليها، من دون ماجي. لم يتكلم عن ماجي، وشعر بطريقة مبهمة أنه ينبغي ألا يخبر شقيقتيه عن شبح الأموات. كان هناك شيء مماثل دائماً، خطب ما، وحاول تفاديه على الدوام. لكن لم يكن يعرف أحياناً ذلك الشيء حتى يتحدث عنه، كما جرى مع ذلك المخلوق النحيل طويل الأسنان الذي يصرخ من أجل الموتى. عرف فوراً أنه ينبغي ألا يتكلم عن أشياء أخرى أخبرته بها ماجي في مخبئهما في أيكة الليلك؛ لأنها طلبت منه ذلك. قالت: «لا تقل أبداً إنني أخبرتك بهذا، سدّد أبوك

بندقيتـه تجـاه شـقيقي علـى نحـو متعمّـد، أبـوك قاتـل، أبـوك قتـل شـقيقي الصغيـر، سـأدلّك علـى المـكان، تغلغـل دم شـقيقي فـي الأرض، خرجـت ديـدان منهـا، حطّـت صقـور عليهـا، يمكـن أن تصـاب بالجنـون إذا وقفـت هنـاك، سـيخنقك شـبحه فـي الليـل، لا شـيء ينمـو هنـاك الآن أو سـينمو علـى الإطـلاق»، علـى الرغـم مـن أن لاروز قـد رأى نباتـات تنمـو هنـاك بعـد ظهـر ذلـك اليـوم، مـا جعلـه يشـعر بالارتيـاح.

* * *

«بينديغيج!».

«هذا ابني!».

كانـت الشـقة مملـوءة بأصدقـاء السـيدة بيـس، الذيـن شـعروا بالحمـاس لـدى رؤيـة لاروز، الـذي يحبّونـه كثيـراً.

قـال سـام إيغلبـوي: «هـذا هـو الفتـى الـذي يحبنـا؛ الفتـى الذيـن يرغـب فـي سـماع القصـص. أحسـنت تربيـة هـذا الصبـي يـا إيمالايـن».

كان سـام رجـلاً نحيـلاً بخطـوط مرتفعـة جميلـة حـول عينيـه وفمـه، كأنـه يبتسـم حتـى فـي المواقـف الجدّيـة. لـم تكـن فيـه أي خصلـة سيئة باسـتثناء أنـه عجـوز. كان يرتـدي قميصـاً مقلّمـاً بنيـاً، مطـوي الردنيـن بأناقـة، وربطـة عنـق بلـون العقيـق، وجينـزاً يشـده إلـى خصـره بحـزام جلـدي أصفـر متشـقّق، وينتعـل حـذاء جـري بقدميـه الهزيلتيـن. مشـى سـام أميـالاً فـي قاعـات وطوابـق المـكان. حدّقـت مالفـرن سـانغريت، وهـي امـرأة ضئيلـة القـد

ونكـدة المـزاج، شـزراً بعينهـا اليسـرى، وأطلقـت تنهيـدة تشـكّك، ثـم مالـت إلـى الأمـام علـى عصاهـا. كانـت تضـع كحـلاً وأحمـر شـفاه مـن ماركـة ميـو غيـرل.

قالـت لإيمالايـن: «اسـتعدت ابنـك إذاً». كان شـعرها مصفّفـاً إلـى الجانـب، ومثبّتـاً بمشـبك بلاسـتيكي أرغوانـي. «يبـدو نحيـلاً، أووه. لـم يطعمـوه جيـداً».

قالـت إيمالايـن: «إنـه ينمـو جيـداً»، وابتسـمت. كانـت تبتسـم طـوال الوقـت.

وزّعـت السـيدة بيس أطباقـاً ومناديـل ورقيـة، ثـم خبـزاً مقليـاً وحلـوى هلاميـة بطعـم الخـوخ. كان هنـاك قهـوة، ومسـحوق شـراب البرتقـال مـن أجـل لاروز. أكل الجميـع باسـتثناء سـام إيغلبـوي، الـذي لا يتنـاول شـيئاً مـن طعـام الرجـل الأبيـض، علـى الرغـم مـن أنـه يشـرب القهـوة.

قالـت مالفـرن: «يمكنـك تنـاول بعـض طعـام الرجـل الأبيـض، فأنـت نحيـل جـداً».

قالـت إغناشـيا ثنـدر، التـي تجـرُّ مسـتوعب أوكسـجين فـي كل مكان تذهـب إليـه: «كل شـيء فيـه نحيـل». ضحكـت بقـوة جعلـت أنفهـا يتغضـن.

قالت مالفرن: «هذا ما يقولونه، ولكن أنا لم أرَ شيئاً».

ظهر تعبير ماكر على وجهها.

قالـت إغناشـيا: «أشـعل المصبـاح بجانـب سـريرك، فـلا أحـد يعـرف مـا قـد يحـدث».

قالت إيمالاين: «مهلاً»، وأمالت رأسها نحو لاروز.

لمست مالفرين مشبك شعرها وحرّكت شفتيها الحمراوين من جانب إلى آخر وهي تنظر إلى إغناشيا. رفعت حاجبيها الكثّين الأشيبين، اللذين لا ينسجمان مع شعرها الأسود الداكن. أكلت بعض الخبز بلقيمات صغيرة، وشربت بعض القهوة. تكلم سام إلى لاروز بالأوجيبوا، وعلّمه كلمتي أطباق وصحون. أخبره عن طريقة تحضير طبقٍ للأرواح، التي تنظر بعين الرضا إلى الشخص الذي يقدّرها، وأنها موجودة في أشياء حولنا، كل الأشياء، وتتكلم الأوجيبوا، وتأتي في الأحلام، والعالم العادي أيضاً، وأنه ينبغي على لاروز أن يخبر أمه حين يقابلها. زمَّ شفتيه نحو إيمالاين.

مدّت مالفرن شفتها السفلية إلى الأمام وحدّقت إلى سام، ثم هزّت رأسها وركّزت بصرها على إغناشيا.

قالت بثقة: «أوه، إنه معسول الكلام، ويقوم بجولات ليلية، ينقر فيها على أبواب السيدات».

ضحكت إغناشيا: «ليفعل ما يشاء. لا يمكن أن يؤذي أحداً إذا راقبناه. يمكن أن يتكلم كما يحلو له. يجب أن يتعلّم هذا الفتى تلك الأمور، وهو يريد ذلك، ويرغب في سماع القصة. أضف إلى ذلك أننا نعرف أن سام مهتم بك فقط».

قالت مالفرين: «هه، هل تظنين هذا حقاً؟».

* * *

لـم يكـن بمقـدور الأب ترافيـس أن يرهـق نفسـه، علـى الرغـم مـن أنـه دفـع جسـده إلـى أقصـى طاقتـه باندفـاعٍ وحـزمٍ علـى درب الرشـاقة فـي الهـواء الطلـق. لـم تكـن محطـةً تماريـن الضغـط، المبنيـة مـن أعمـدة مثبّتـة بقطـع خشـبية، مرضيـة لـه. كان قـد تـرك لحـاء الشـجر علـى الأعمـدة لأن ذلـك يسـاعده فـي الإمسـاك بهـا. لـم يكـن الأمـر يتعلـق بذلـك فحسـب، فقـد اكتشـف أن الأرض لـم تكـن مسـتوية أو أن قطـع الخشـب لـم تكـن بالحجـم نفسـه تمامـاً، رغـم أنـه قاسـها بعنايـة. بـدا مسـتحيلاً القيـام بتلـك التمرينـات علـى نحـو صحيـح. توصّـل أخيـراً إلـى حـل يقضـي بالتبديـل مرتيـن لتدريـب كلتـا الذراعيـن كمـا ينبغـي. لـم تمنحـه التعليمـات التـي قـد كتبهـا بأناقـة علـى لـوحٍ أي معلومـة عـن ذلـك الحـل.

ركـض المسـافة القصيـرة إلـى المحطـة الآتيـة، وقـد أنجـز مئتـي تمريـن بطـن علـى البسـاط المطاطـي الثقيـل حيـن لاحـظ أنـه محـاط بأكيـاس مرميـة بيـن الأوراق، تبـدو ذابلـة بيـن الأعشـاب أو ممزقـة إلـى قطـع صغيـرة. أولاد! كانـوا قـد استخدموا آلات جز العشـب! أنجز مئة تمريـن بطـن إضافـي، بدافـع الغضـب، وعندمـا هـدأ شـعر بالسـخف. لا، لـم تكـن تلـك الأكيـاس لتخـرّب آلات جـز العشـب. تابـع طريقـه إلـى عارضـة رفـع الجسـم، وأنجـز بعـد ذلـك تمريـن رفـع القـدم عاليـاً مـن وضعيـة الوقـوف، وواصـل القيـام بـه حتـى آلمتـه سـاقاه. لـم يترنّـح نتيجـة ذلـك، وإنمـا اندفـع نحـو بقعـة القفـز عـن الحبـل. كان قـد جلـب حبلـه معـه حتـى يسـتطيع القفـز فـي المـكان، وبـدّل طريقـة تحـرّك الحبـل مـن الأمـام إلـى الخلـف

حتى وخزته رئتاه، ثم شعر بألم فيهما. كم سيكون لطيفاً إن استطاع وضع مضخة بئر قديمة الطراز هناك! كانت المياه الكبريتية تحتوي على كل المعادن والحديد التي يحتاج الجسم إليها، وذلك الماء سيكون بارداً، وسيجده منعشاً.

أحب المكان، وأحب الناس هناك. كانوا قومه، أليس كذلك؟ جعلوه يفقد أعصابه، ولكنه تأثر بكرمهم. هم يضحكون كثيراً، ولم يكن قد عرف الضحك من قبل. أراد البقاء مع مخلّصه أو من دونه، راجح العقل أو مجنوناً. كان قد جهّز محطة أخرى لتمارين البطن، العكسية منها، باستخدام بساط مطاطي بالٍ، لكن من دون كيس واحد بجانبه. حسناً، كانت المسافة طويلة إلى الأجمة. بات كل الأولاد يخافون من الأحراج بعد كل أفلام الرعب التي شاهدوها ـ هنود، هنود الألفية. لم يكن أحد قد عبث بالكيس الثقيل المخصص للرياضة في الهواء الطلق؛ لأنه موجود في قلب الغابة أيضاً. أبعد قراد الخشب عن الكيس بمجموعة ركلات جانبية عنيفة، وقد شعر بألم شديد في أعلى الفخذ حين فعل ذلك. لكن بات بمقدوره آنذاك رفع ساقه إلى رأسه. قال، متحدّثاً مع الرب: «هاها، يا إلهي! أنقذتني لسبب ما، حتى أستطيع تطوير ركلتي الاستعراضية الجنونية».

لم يشعر بما جرى حقاً، فقد عاد تواً إلى هناك بعد أن خرج من كيس نومه، ثم طار في الهواء. كان الخفراء الذين يحرسون مبنى المكاتب الأمامية حيث توجد ثكنة المارينز يتوقعون وصول صهريج ماء. عوضاً عن ذلك تجاوزت

مرسيدس صفراء الشاحنة بسرعة كبيرة، وانفجرت القنبلة التي تحملها في الرواق. ارتفع المبنى في الهواء ركاماً، ثم تناثر الركام، وأفراد المارينز معها، على الأرض. أحسَّ الأب ترافيس بأنه يطير، ثم يهبط بعنف، لكن لم يشعر بتحطّم جسده وتمزّقه. تحوّلت طاقة الدوران السوداء إلى صمت ساحق أسود، ثم بدأ الصراخ. عندما حاول الوصول إلى الآخرين أدرك أنه لا يقوى على الحركة، فبدأ الصراخ أيضاً، لا طلباً للمساعدة، وإنما «ابتعد عني» بعد أن فهم أنه بمثابة قطعة اللحم في شطيرةٍ من الفولاذ والإسمنت. شعر بالركام يتحرّك، وسحب شهيقاً من الغبار، وأطلق زفيراً، وصرخ محاولاً التخلّص منه. سحب نفساً من الغبار، وصرخ مجدداً، ثم سمع أصواتاً. يوجد واحد هنا، أبعدوا تلك الصخرة. إنه هنا، نحتاج إلى رافعة.

انزلق جندي نحيل، موشوم، لا يرتدي قميصاً تحت الصخرة بجانب ترافيس، ورفع بطريقة ما أشياء من حوله ـ باستخدام عارضة ـ وحرّك الصخرة، ثم دفعه إلى أذرع أشخاص آخرين. عرف الأب ترافيس الرجل تماماً، فقد تكلم معه عبر الهاتف. كان الرجل النحيل قد تزوّد بقوة كبيرة أثناء إنقاذ أصدقائه، كما يحدث مع الأمهات اللواتي ينقذن أبناءهن. لقد تكلما عن ذلك، وبقيا على تواصل مع بعضهما، لكنه لم يتحدث مع الرجال الآخرين وأسر الموتى. لم يذهب إلى معسكر ليغون، أو احتفالات التأبين. بات يخشى الطاقة السوداء، وعدم قدرته على التحكّم بتنفّسه عند حدوث التغير.

رفـع الأب ترافيـس حبـل القفـز إلـى مسـتوى فخذيـه، ثـم بـدأ تدويـره حـول نفسـه. كان يسـتفيد مـن قانـون نيوتـن الثالـث، لـكل فعـل رد فعـل يسـاويه فـي الشـدة ويعاكسـه فـي الاتجـاه. كان الوقـت هـو العنصـر المتغيّـر. حـدث الانفجـار فـي لحظـة، فـي حيـن سـيمضي باقـي حياتـه محـاولاً اسـتجماع شـتات نفسـه. أم أن الأمـر معكـوس؟ فكّـر فـي إيمالايـن.

* * *

كان الكرسـي الأخضـر قـد اسـتقرَّ فـي الحظيـرة منـذ شـهرين ولـم يلحـظ أحـد أنـه اختفـى مـن المطبـخ. اسـتعدت نـولا لقـول إنهـا سـتصلحه، إذا سـألها بيتـر. لكنـه مجـرد كرسـي خشـبي أخضـر، لـذا مَـن سـيهتم بـه؟ كان ذلـك الكرسـي الأخضـر هامـاً جـداً، وسـيكون آخـر شـيء صلـب تلمسـه قدماهـا؛ لأنهـا ستعلّق نفسـها مـن رقبتهـا، وسـتركل مسـند الظهـر. لكـن المكـان الـذي ستشـنق نفسـها فيـه غيـر ملائـم، وهـي لـم تكـن مسـتعدة بعـد، وقـد شـعرت بالخـوف مـن ذلـك حيـن وضعـت يديهـا حـول عنقهـا وضغطـت عليهـا. كتـم ذلـك أنفاسـها، فتيبّـس جسـدها وبـات بـارداً حتـى فكّـرت بأنهـا قـد تشـعر بالراحـة المنشـودة إذا قتلـت لانـدرو بـدلاً مـن الانتحـار. سـتذهب إلـى السـجن بالتأكيـد، وربمـا وقتـاً طويـلاً. سـتقرُّ بالذنـب، ولكـن مَـن لـن يفهـم؟ سـتفهم حتـى ماجـي، وربمـا توافـق علـى ذلـك. سـيفهم بيتـر، سيحسـدها جـزء منـه، فـي الواقـع. لاروز وحـده لـن يفهـم، وسيخسـر كل شـيء. رأت وجهـه، مكتئبـاً ومتغضّنـاً، وتذكّـرت وجـه دسـتي، الكئيـب والمتغضّـن.

إنها في ورطة حقاً، كما فكّرت.

ثم خطرت لها فكرة أخرى، تقاليدهم تجدي نفعاً. إنه عمل رائع. كيف يمكن أن تؤذي، هي أو بيتر، والد الابن الذي قد مُنح لهما؟ أغلقت عينيها وشعرت بدفء لاروز حين تهزّه لينام، وساقاه تتدلّيان فوق ساقيها، في حين يفتح بخار أنفاسه ممراً إلى صميم قلبها.

❋ ❋ ❋

تعلّق قلب روميو بحبّه الأول، ولكنه لم يكن يحب النساء بصفة عامة، خاصة حين يكبرن ويصير مزاجهن حاداً. عرف أن بمقدورهن تمزيق رجل إرباً بنميمتهن. حاول استرضاءهن دائماً، وجلب هدايا لهن على الدوام. أثناء عمله، كان روميو يجد غالباً أكياساً بعد انتهاء اجتماعات المحمية، قمصاناً من دون ردنين، وسائد للفئران الحاسوبية، أدوات لإجراء تمرينات رياضية لليدين، وكشّافات صغيرة، وأقلام حبر ورصاص، وقوارير ماء، وحتى مطرّزات صوفية مزينة بحروف ورموز. كانت مجموعته الخاصة من تلك الأغراض موجودة في الحمّام الذي يستطيع دخوله بكرسيه المتحرّك.

كان قد عانى من اكتئاب شديد منذ الثلاثاء الكبير حين تغلّب جورج بوش على الرجل المفضّل لديه، ما أخرج ماكين من المنافسة. انتابت روميو مشاعر سيئة بشأن السباق الرئاسي آنذاك. كان قد كشف في اجتماع المدمنين الأخير أمام المجموعة أن بوش يذكّره بكل الأشياء التي يمقتها في

حياته: عينين مراوغتين، جشع، رثاء الذات، رجولة زائفة. أدرك أن بمقدور بوش الفوز بالمنصب في تلك الأمة التي تكره نفسها. بقي الجميع واجماً باستثناء الأب ترافيس، الذي وضع ذراعه حول كتفي روميو مدة نصف ثانية، كأنه قريب له. تأثّر روميو بذلك، إذ إن القس لم يكن من محبي العناق. على الرغم من هذا، خرج من المكان وقرّر تنفيذ خطة إلهاء ذاتية منتظمة حتى تنتهي الانتخابات.

أخرج في ذلك اليوم عدّة هدايا من كيس قمامة أسود كبير حصل عليه بعد أحد الاجتماعات القبلية. وجد فيه أدوات تمرين لليدين على شكل سلاحف مرنة، لكن مخالب تلك السيدات لم تكن قوية كفاية، كما قال في قرارة نفسه. أعاد إلى الكيس بعض الشرائط التي توضع بين صفحات الكتب، وقبعات دعائية، وأكياساً رخيصة بالية أصلاً. كانت القمصان المرميّة صغيرة دائماً، في حين أن السيدات اللواتي يحاول استرضاءهن يرتدين ثياباً بمقاسات كبيرة جداً، باستثناء السيدة بيس. كانت أفضل من الأخريات، وصغيرة القد، وأقل نكداً منهن. احتفظ بقميص مسيرة 5 كيلومترات لدعم مرضى السكري، أصفر، من أجلها. وجد قطعتين من المطرزات الصوفية، وفحصهما بعناية، لكن لم يعجبه ما شاهده. لم يكن أحد يريد شيئاً مماثلاً؛ لأنها تبدو غريبة جداً. كوّر جزّة صوف وغادر إلى السكن.

لم يكن يدخل إلى غرفهن دائماً، ولم يسمح الجميع له

بتجاوز عتبة أبوابهم. انتابت بعض الناس شكوك بشأنه في دار المسنين، مثل السيدة بيس، التي وضعت سلسلة حديدية على بابها لأنه قد أصرَّ مرة على الدخول حين لم تكن ترغب في ذلك. قاد روميو سيارته إلى السكن، وعندما دخل الرواق الرئيس، رأى السيدة بيس، التي تحرّكت على خفّيها بطريقة سريعة تشبه الفأر حين لاحظته، ونظرت بعينيها الكبيرتين شزراً إليه، ثم استدارت على عجل نحو شقتها وأغلقت الباب بعنف خلفها.

فكّر روميو حزيناً، لقد كانت معلّمتي المفضّلة، والمدرّسة المثالية لدى الجميع. أخذتني إلى المنزل، وأطعمتني من مائدتها.

لم يعد ذلك متاحاً، كما أنها لم تعد تقبل هداياه إلا نادراً. لكن كان هناك دائماً خالته، أو الأم البديلة، أو أمه بالرضاعة؛ ستار. كان يجلب للسيدة ستار أفضل قطعة يجدها، قطعة الصوف البنفسجية المطرّز على إحدى زواياها عبارة «اجتماع الهنود الحمر الموقر 1999». كانت هناك مطرزات صوفية لأولئك الذين يعانون من انتكاسة أثناء علاجهم من الإدمان. قرع روميو باب ستار، متذكّراً الأدوية التي تحتفظ بها لعلاج التهاب المفاصل. فتحت المرأة الباب، وأشرق وجهها بابتسامتها الصغيرة.

صرخت لزائريها الآخرين: «إنه المغفّل!».

قالت مالفرن سانغريت إلى السيدة وبيد: «أه، إنه هو. دعينا نلقي نظرة عليه. نحيل، ولكن لا تعرفين أبداً ما يستطيع فعله».

«مـن أجلـي؟». أخـذت سـتار قطعـة الصـوف المطـرّزة. «ناعـم جـداً».

جلسـت النسـاء إلـى طاولـة المطبـخ، ينظـرن بإمعـان إلـى روميـو. كانـت أعينهـن لامعـة ومستفسـرة، وقـد تفحّصنـه جيـداً مـا جعلـه يخفـض بصـره فـي رد فعـل لا إرادي، مؤكـد تقريبـاً.

صرخـت السـيدة وبيـد: «عشـرون بقـرة خرجـت مـن بـاب الحظيـرة».

طأطأ روميو رأسه، خجلاً.

بـدأت السـيدات كبـار السـن العـدَّ بصـوتٍ عـال. وصلـن إلـى ثلاثيـن قبـل أن يتمكـن مـن الـكلام بصعوبـة. «احـذري! انتبهـي! توخـي الحـذر!».

ضحكت مالفرين: «انتبهي!».

«توخّـي الحـذر حتـى لا يعلـق رأسـها! أووو! إنهـا تحـاول أن تختلـس النظـر إلينـا!».

تظاهرت النساء بأنهن يغضضن أبصارهن.

سـمعوا نقـراً خفيفـاً، ثـم دخلـت مدرّسـته السـيد بيـس، التـي جلسـت بهـدوء علـى كرسـي آخـر وانضمـت إلـى النسـوة الثـلاث الأخريـات وروميـو إلـى الطاولـة. كان كوبهـا لا يـزال موجـوداً حيـث تركتـه.

«ألن تطلبن من روميو الجلوس؟».

«اجلس! اجلس!».

«لماذا تبدو مرتبكاً؟».

«عقله مشغول. ربما لا يرغب في أن يشاركنا أفكاره».

سكبت ستار كوب قهوة من أجله، ودفعت مرطباناً زجاجياً مملوءاً بالسكر نحوه.

قالت السيدة وبيد: «لقد بدأ الأمر. سيجلس الآن. ينبغي أن يتدبّر أمره أولاً؛ لأنه لا يبدو مرتاحاً».

لهثت السيدة بيس: «أوه يا إلهي!». لم تكن قد شاركت في حديثهن ذاك، ولكن عينيها لمعتا سروراً. حدّقت السيدات بقوة أكبر آنذاك إلى روميو.

قالت ستار: «كان فتى سقيماً، وليس لديه ما يتمتع به الرجال الأقوياء. يبدو أن لديه شيئاً مختلفاً في جعبته هذه المرة».

قالت مالفرن: «ربما هدية صغيرة أخرى قد جلبها من مكان ما. ربما أحد مصابيح ماغلتي المجانية، مع مدخّرات لا تعمل».

«مدّخرات لا تعمل!». تغضّن وجه السيدة وبيد، وانتفخت وجنتاها بقوة، ولكن لم تستطع أن تتمالك نفسها وبدأت تئز سعادة.

«هل شحنت مدّخراتك أخيراً؟».

«شحّمتها؟».

ضحكت السيدة بيس بصوت خافت فجأة، فاستأذن روميو منهن.

قالت مالفرن: «لا تتسرّع، خذ وقتك. اشحن تلك المدّخرات بقوة!».

صرخن بمرح: «آه».

أغلق روميو الباب وأوصده، وفتح الماء، ثم قضى حاجته وجعل المياه تتدفق لشطف المرحاض. فتح خزانة الأدوية بهدوء مستفيداً من تلك الضوضاء. شعر بخيبة أمل، ولكن أمسك قارورة واحدة كُتب على لصاقتها «استخدام شرجي». وجد مادة أخرى مسكّنة لـلآلام لا تتحوّل إلى مسحوق عند تحطيمها، ويمكن ابتلاعها فقط. كانت القارورة مملوءة، وهناك واحدة أخرى مماثلة لها، وعرف أن أحداً لن يلاحظ اختفاءها. مسح شعره بيديه المبلّلتين بالماء، وعقد تصفيفة ذيل الفرس الضئيلة مجدداً، وتوثّق من إغلاق زمام السروال، ثم خرج من هناك.

قالت ستار فوراً: «سررت جداً برؤيتك يا بني. لطفٌ منك أن تزور خالتك العجوز. أرجو أن تغلق بابي بإحكام عند خروجك، هه؟».

أغلق الباب فعلاً أثناء مغادرته على عجل، وأحدث صخباً في المكان. كان ينبغي أن يثير ذلك شكوكه، ربما، ولكن تلك كانت حالهن دائماً.

قرّر في تلك الليلة، في المنزل، أن يبيع الدواء الشرجي في قارورة مختلفة، ولكنه تناول جرعة ثلاثية من الأقراص القاسية. شربها مع كأسٍ كاملة من الماء، كما يوصي الأطباء،

وانتظر. لم يحدث شيء فتناول مزيداً منها، وانقضت نصف ساعة إضافية. نظر إلى التاريخ على القارورة، ثم حدّق إليها ورفعها في ضوء المصباح الباهت. كانت هناك لصاقة جديدة مثبّتة فوق الأصلية. لم يستطع كشط اللصاقة الثانية رغم أنه حاول ذلك باستخدام أطول أظافره، وشفرة حلاقة، ثم أدرك أن محتويات القارورة تؤثّر على بطنه.

«يا إلهي!». كان الألم مبرّحاً. قفز، وفرك بطنه، واندفع نحو باب حمام المعوقين، ودخله مسرعاً. كان المرحاض لا يزال يعمل جيداً وقد جرّبه في تلك الليلة. شعر بأن التشنّجات مثل مسامير تتحرّك عميقاً في القسم السفلي من بطنه. قال في قرارة نفسه إن أولئك السيدات لديهن حجارة بالتأكيد في أمعائهن، وتساءل عن إمكانية احتمالهن ذلك الأمر. كان جزء صغير فقط من تلك الجرعة كافياً لإحداث ذلك التأثير. جافاه النوم، وبزغ الفجر وهو في حالٍ يرثى لها، مرهقاً، ومصاباً بالجفاف، وجائعاً، ومتألماً، وعاجزاً عن الذهاب إلى العمل. لكن لا، لم ينتهِ الأمر عند ذلك الحد. طفت مشاعر أخرى على سطح وعيه. بدأ جلده يحكّه ويخزه، وتضخم أنفه وبدت قدماه بعيدتين. شعر بطعم مقزّز على نحو غير طبيعي في فمه.

أبقى روميو البطانيات مثبّتة بمسامير على النوافذ طوال اليوم، واستلقى في كومة من أكياس النوم، وعانى نوبات من الغثيان، والشرود الذهني، والإثارة الجسدية المتزامنة مع إطلاق غازات. تذبذبت محطة سي إن إن وتقطّع بثها.

كانـت آن كيـلان ـ إحـدى المرَاسِـلات المفضّـلات لديـه ـ تقـدم قصـة جميلـة عـن لغـة الفيلـة. عندمـا تسـمع صرخاتهـا، تعـرف أنهـا سـتلتقي للتـزاوج، كمـا قالـت آن. أطلقـت ذكـور الفيلـة البالغـة نهيماً، وبـدت المنافسـة محتدمـة بينهـا، وتعالـت أصواتهـا. شـعر روميو بألـم في بطنـه، فخفـض صـوت التلفاز، واسـتلقى تحـت كيـس نومـه. لـم يجـرؤ علـى الحركـة خوفـاً مـن إيـذاء أسـفل بطنـه المنتفـخ.

ربمـا كانـت السـيدات العجائـز علـى حـق ـ عقلـه مشـغول وقـد بـات الأمـر واضحـاً آنـذاك ـ لأنـه وجـد نفسـه يفكـر بوضـوح. فكّـر بتركيـز غريـب، وقـرّر أيـن سـيبيعها، وكـم سيجني مـن الأقـراص التي قـد أخفاهـا لديـه، وعدّهـا كلهـا في ذهنـه، وعقـد عزمـه بشـأن مـا سـيفعله بالأمـوال التي سـيحصل عليهـا. فكّـر فـي خالتـه، التـي ربّتـه فـي منزلهـا؛ الخالـة سـتار. علـى الرغـم مـن خدعتهـا الشـريرة، سيشـتري البقالـة لهـا، وينظّـف غرفتهـا حتـى لا تفـوح منهـا رائحـة كريهـة. فكّـر فـي أشـياء عاديـة وغيـر اعتياديـة. هـل سـيعيش علـى تلـك الحـال؟ طـرح علـى نفسـه ذلـك السـؤال. هـل سـيتعرض إلـى انتقـادات قاسـية مـن العجائـز فـي دار المسـنين؟ كيـف يمكـن أن يرتقـي بمكانتـه؟ كيـف يمكـن أن يحظـى بالاحتـرام؟ هـل ينبغـي أن يترشّـح إلـى منصـب مـا؟ إذا صـار عضـواً فـي المجلـس القبلـي سـيعلن فـوراً أن وضـع أقـراص مليّنـة للأمعـاء ولهـا تأثيـرات جانبيـة نفسـية فـي قواريـر مسـكّنات ألـم أمـر مخالـف للقانـون القبلـي. قضـى معظـم الوقـت فـي مراجعـة تفاصيـل مـا جـرى وترتيـب الكلمـات، وإعـادة النظـر فـي الاحتمـالات، كل

المعلومات. ما نوع المعرفة التي قد تساعده؟ فكّر في كل مظاهر القوة التي يمكن أن يحصل عليها مما يعرفه من أقاويل. عقد العزم على التوغل عميقاً، والتحقيق، وربما وضع أدلة على لوح كما يفعل ليني بريسكو، بطل «لو آند أوردر». كان سيجمع قطع الأحجية معاً.

* * *

أمعن ولفريد التفكير في الخيارات المتاحة: يمكن أن يهربا بعيداً، ولكن ماكونين لن يطاردهما فقط، وإنما سيدفع مالاً إلى ماشكيغ للقبض عليهما أولاً. يمكن أن يبقيا معاً طوال الوقت حتى يستطيع ولفريد حمايتها، ولكن هذا سيعني أنه يعرف كل شيء ما يجعلهما يفقدان عنصر المفاجأة. كان كسنوفون يستلقي مستيقظاً في الليل، يطرح على نفسه هذا السؤال: إلى أي عمر يفترض أن أنتظر؟ فكّر ولفريد أن هذا هو العمر الملائم؛ لأنهما سيضطران إلى قتل ماكينون طبعاً. حقاً، كان ذلك أول شيء فكّر ولفريد في القيام به، وبدا أنه الخيار الوحيد أيضاً. كان قد فكّر في كل الخيارات، على كل حال، من أجل أن يشعر براحة أكبر.

«كيف سنفعل هذا؟».

لم يكن إطلاق النار عليه ممكناً؛ لأنهما سيواجهان محاكمة حينذاك. كان قتله باستخدام فأس، أو بلطة، أو سكين، أو صخرة، أو تقييده وحشره تحت الجليد، ينطوي على مخاطرة. عندما استلقى ولفريد في العتمة يتخيّل كل سيناريو، تذكّر كيف سيمشي في الأحراج معها. كانت

تعـرف كل شـيء صالـح لـلأكل فـي الغابـة، وتعـرف علـى الأرجـح كل شـيء غيـر صالـح لـلأكل أيضـاً، وربمـا تعـرف النباتـات السـامة أيضـاً.

عندمـا صـار بمفرده معهـا فـي اليـوم التالـي، لاحـظ أنهـا قـد خاطـت فسـتانها بقطعـة قمـاش. أشـار إلـى الفسـتان، ثـم باتجـاه ماكونيـن، وتظاهـر بأنـه يقطـف شـيئاً ويطهـوه، وأن التاجـر يأكلـه، ثـم يمسـك ببطنـه ويخـرَّ صريعـاً. جعلهـا ذلـك تخفـي ضحكتهـا خلـف يدهـا. أقنعهـا بـأن تلـك ليسـت دعابـة، فبـدأت غسـل يديهـا فـي الهـواء، وعـضّ شـفتها، وتوزيـع نظـرات فـي كل مـكان؛ كأن أوراق الصنوبـر تعـرف مـا يخطّطـان لـه. أشـارت إليـه أن يتبعهـا.

بحثـت فـي الغابـة حتـى وجـدت سـويقات برّيـة تحمـل ثمـاراً مجعـدة سـوداء. وضعـت خرقـة علـى يدهـا، وقطفـت الثمـار، ثـم ربطـت قطعـة القمـاش عليهـا. بحثـت بيـن مجموعـة مـن أشـجار السـنديان، وغطّـت يدهـا مجـدداً، ودفعتهـا فـي الثلـج قـرب جـذع مقطـوع، لكنهـا لـم تعثـر علـى شـيء فـوراً. فـي النهايـة، أخرجـت مـن تحـت الثلـج بعـض القطـع الرماديـة الداكنـة التـي ربمـا كانـت فطـراً سـابقاً.

اسـتخدم ولفريـد فـي تلـك الليلـة لحـم صـدر سـتة طيـور حجـل، وثلاثـة أرانـب، وبطاطـا يابسـة، والمـواد التـي أخذهـا مـن الفتـاة لتحضيـر يخنـة متبّلـة ومالحـة. فتـح سـدادة برميـل مـن الشـراب الفاخـر، وتوثّـق مـن قيـام ماكونيـن بتجـرّع كل مـا قدّمـه لـه قبـل أن يـأكل. لكـن بـدا أن اليخنـة لـم تؤثّـر عليـه.

ذهب الجميع إلى أماكن نومهم، وتابع ماكونين تناول الشراب كما يفعل عادة حتى خمدت النار.

أيقظهما أنينه، وتذمره، وصرخات ألمه في منتصف الليل. أشعل ولفريد فانوساً، ورأى أن رأس ماكونين قد بات قرمزي اللون ومتورماً إلى حجم غريب. لاحظ أن عينيه قد توارتا في لحمه المنتفخ، وأنه يمدُّ لسانه الذي يشبه سمكة منقّطة مما كان فمه سابقاً. بدا أنه يحاول إلقاء ذاته خارج جسده. ألقى نفسه بعنف على الجدران الخشبية، وعلى الموقد، وأكداس الفراء والبطانيات، ما جعل الأسلحة تقعقع في صناديقها الخشبية. سقطت الذخيرة، والأشرطة، وأدوات أخرى عن الرفوف. برز بطنه من صدريته، مدوراً وقاسياً مثل صخرة، في حين تورّمت يداه وقدماه مثل مثانة. لم يكن ولفريد قد شاهد إطلاقاً شيئاً مخيفاً مثل ذلك، ولكنه أدرك أنه ينبغي ألا يقترب من ماكونين أو يزعجه بأي طريقة. بالنسبة إلى الفتاة، بدت سعيدة من حالته، رغم أنها لم تبتسم.

حاول ولفريد تجاهل الموت الفوضوي آنذاك إلى يساره، ثم يمينه، وبعدها تحت قدميه، وجهّز نفسه للرحيل. تحرّك ببطء وجلب حذاءين مخصصين للثلج وحقيبتين صغيرتين. وضع في الحقيبتين كتبه، وقضيبين حديديين لإذكاء النار، وأرغفة قد خبزها سابقاً. لفَّ بطانيتين، وجهّز ثالثة لصنع طماقين منها، وزوّد نفسه والفتاة بأربع سكاكين لكل منهما. أخذ بندقيتين، ومواد حشو، ووعاءً كبيراً من البارود، إضافة إلى بعض الملح، والتبغ، والقهوة الأثيرة

لـدى ماكونيـن، ولحمـاً مجففـاً. لـم يأخـذ كمية كبيـرة مـن النقـود، علـى الرغـم مـن أنـه يعـرف لـوح الخشـب المجـوّف الـذي يخفـي فيـه التاجـر مدّخراتـه، وسـاعته الذهبيـة، وخاتـم زفافـه، الـذي لا يرتديـه ماكونيـن إلا نـادراً.

حـكَّ قفـازي ماكونيـن الضخميـن بقـوة علـى ثيابـه حتـى تقطّعـت خيوطهمـا. عندمـا خـرج ولفريـد والفتـاة، سـمعاه يقـاوم السـم، وقـد تحـوّلـت أنفاسـه إلـى حشـرجات جهيـرة. لـم يكـن بمقـدوره سـحب الهـواء إلـى أعمـق مـن لسـانه المتـورّم وإيصالـه إلـى رأسـه الأرغوانـي الضخـم. اسـتطاع رغـم ذلـك أن ينـادي بصـوت واهـن عليهمـا.

«يا ولديَّ! لماذا تتركاني؟».

سـمعا مـن الطـرف الآخـر مـن البـاب قدميـه تضربـان الأرض الترابيـة الصلـدة. كان بمقدورهمـا سـماع يديـه البدينتيـن تتحسّـسان المـكان حولـه بحثـاً عـن المـاء فـي الدلـو الخشـبي الفـارغ.

حلوى اللوز

سبتمبر مجدداً. بات الجو حاراً جداً أثناء النهار، ولم تعد أي ورقة تتحرّك. كان ذلك أول أيام الدراسة، وقد وجدت ماجي ولاروز نفسيهما خائري القوى بحلول وقت انصراف التلاميذ. عندما ركبا الحافلة، بدأت الأشجار تهتز قليلاً، في حين ملأ رمل ناعم وساخن الهواء. بحلول وقت نزولهما في محطتهما، كانت قطرات كبيرة من الطل قد بدأت تنهمر. استقبلتهما نولا والكلب بمظلة حمراء رقيقة كادت تطير من قبضتها. وصلوا بصعوبة إلى المنزل، وعندما أغلقوا الباب ومض البرق عند حواف الساحة، وبعد نصف ثانية سمعوا هزيم الرعد.

في الداخل، فركت نولا الكلب بقوة بمنشفة قديمة تبقيها بجانب الباب قبل أن يتمكن من هزِّ نفسه. ارتعش الحيوان إثارة، لكنه لم يكن خائفاً. ثبّت بصره على نولا بنظرة ماكرة، ثم قفز إلى الأريكة، مجرّباً حظّه. كانت قد علّمته قواعد كل شيء، لا توسّل، أو قفز على الناس، أو مضغ شيء

باستثناء الدمى الخاصة بذلك، أو قضاء الحاجة في الساحة، بل عند حافتها فقط، أو التقيؤ أو ترك اللعاب يسيل في المنزل، إن استطاع ذلك. علّمته حتى ألا يأكل حتى تطلب منه. كانت الأريكة هي الشيء الوحيد الذي تبدو غير واثقة تماماً بشأنه. أمرته بالنزول عنها أحياناً، في حين سمحت له بالجلوس عليها في أحيان أخرى، وتركته حتى يقترب منها بين الفينة والأخرى. كان عليه معرفة مزاجها ليتوثّق من إمكانية الاسترخاء على تلك الوسائد الخضراء المبجّلة والوثيرة. بدت الإشارات ملائمة آنذاك، وتكوّر بصمت بين نولا وماجي، ودفع ثقله على نحو متزايد على جسديهما. تدريجياً، انفرجت عقد حاجبيه، وتحرّك سنتيمترات حتى استطاع أن يضع رأسه قرب فخذ نولا.

انهمر الغيث بغزارة في أمواج متلاحقة، وقرعت حبّاته على السطح مثل أشخاص يحاولون دخول البيت. أخاف ذلك ماجي دون لاروز. كان والده قد وضع ريشة عُقاب في الخيمة من أجله وتكلم مع أنيميكيغ، ودلَّ مخلوقات الرعد على المكان الذي يعيش فيه ابنه حتى لا تطلق برقاً وتصيبه أو تصيب أحداً آخر في ذلك المنزل.

قال لاروز لماجي: «لن يحدث شيء». وضع يده على وجنتها، وهدأت عصبية ماجي حين لمس لاروز خدّها. عرف لاروز أنها تحب أن يكون جسوراً، وأن كونها الشخص الشجاع دائماً يمثّل عبئاً عليها. لم يخبرها عن سبب كونهما بأمان، بسبب ما قالته ماجي عن قيام والده بقتل دستي.

بقيت ماجي بالقرب منه أثناء قيام نولا بتحضير شطائرهما وسكب حليبٍ من أجلهما. راقب لاروز موجات الغيث تتحرّك إقبالاً وإدباراً.

قالت نولا وهي تومئ إلى الأريكة: «لنأكل هناك».

رفع الكلب رأسه حين اقترب الطعام منه، ولكن حاول إخفاء صدمته.

جلسا مع طعامهما ونظرا إلى خارج النافذة من موقعهما بجانب الجدار. اهتزَّ المنزل من الصوت أحياناً، ما جعل ماجي ترتجف على الوسائد وتقترب أكثر من الكلب. عندما رفع لاروز بصره إلى نولا، أظهرت له وجهاً بشوشاً، وجهاً مرتبكاً، وجهاً لم يره أبداً من قبل. لمعت عينا نولا حين نظرت إلى الباب الزجاجي، وبدا أن الأغصان التي تهتزُّ بعنف تفتنها. كان الوجه الذي أظهرته له يحمل ابتسامة.

في المدرسة، كان هناك تلميذ ضخم وأكبر سناً يدعى دوجي فيدار في شعبة ك1- المختلطة، التي يداوم فيها لاروز. كان يخنق الأطفال ويمسك بهم فيما يدعوه «القبضة الهولندية»، يضغط بمفاصله بقوة على رؤوسهم، ويشدُّ آذانهم. ركّز اهتمامه آنذاك على كراهية لاروز، وبدأ يوقعه أرضاً، ويدفعه أمامه، ويدعوه «أحمق أحمر وردي».

سأل دوجي لاروز أثناء الدرس: «هل يمكنني استعارة قلمك الرصاص؟». عندما أعطاه لاروز القلم، كسر دوجي طرفه، وأعاده إليه. بَرَى لاروز قلم الرصاص مجدداً.

سأل دوجي لاروز حين جلس في مكانه: «هل يمكنني استعارة قلمك الرصاص؟».

قال لاروز: «لا».

تجهّم وجه دوجي، ورفع يده.

«سيدة هيبر، سيدة هيبر! لاروز لا يسمح لي باستعارة قلمه!».

قالت السيدة هيبر: «لديك قلم رصاص خاص بك يا دوجلاس».

أمسك دوجي قلم رصاص لاروز المبري حين لم تكن السيدة هيبر تنظر إليهما، ودفعه بقوة في ذراع لاروز ما جعل الرأس ينكسر تحت الجلد. ضحك دوجي وقال إنه حقن لاروز بتلك الإبرة. كشف لاروز كتفه لماجي في المساء، وظهر رأس قلم الرصاص عالقاً تحت الجلد.

احمرَّ وجهها وزمّت شفتيها غضباً، واتقدت عيناها الذهبيتان حنقاً.

عندما كانت في السادسة من عمرها، بدأ مدرّسو ماجي يصفونها بأنها «غريبة الأطوار». لكن بعد وفاة شقيقها، بات الأمر مختلفاً. أثارت حفيظة الأولاد الآخرين بانتقاء أصدقاء لها، ورفض الحديث مع أولئك الذين يزعجونها، وتأليبهم بعضهم ضد بعض لما فيه مصلحتها. على الرغم من أنها لم تكن تردُّ بفظاظة على المدرّسين، فإن التهذيب الكبير الذي أظهرته انطوى على قدرٍ من السخرية.

ستقول: «نعم آنسة بيرينغ»، ثم بهمس لا يسمعه إلا الأولاد الآخرون: «نعم آنسة ملل».

حرّكت عينيها، وأظهرت تعبيرات ساخرة على وجهها، من خلف ظهور مدرّسيها. لم يمسكوا بها أبداً وهي تلقي من جيب سروالها الجينز رصاصة صغيرة تتدحرج على الأرضية غير المستوية. كانت تصدر أزيزاً وصوتاً حاداً يجعل الجميع في حالة ترقّب. واظبت على ذلك، ورمت رصاصة كل بضعة أيام حتى فتّشت الآنسة بيرينغ جيوب الجميع. كان جيب ماجي فارغاً مثل الآخرين، ولم تكن قد أخبرت أحداً عمّا تفعله حتى لا يتمكن من الوشاية بها. بدا أنها غريبة أطوار منضبطة تماماً.

كان لدى ماجي قائمة.

ظهر اسم دوجي فيدار عليها آنذاك.

حان وقت الاستراحة، وركض بتثاقل في المكان ظاناً أنه بأمان، بقصة شعره الأشقر القصير وأسنانه التي تشبه أنياب الأرنب. عقدت ماجي صداقة مع فتاة أكبر سناً تدعى ساراه، التي كانت سريعة وقوية. اقتربت الفتاتان بهدوء من دوجي وأخذتاه بعيداً عن الفتيان الآخرين.

«هل ترغب في المشاركة؟».

لوّحت ماجي بقطعة حلوى من غدائها. ذهب معهما إلى الشجرة عند ساحة اللعب، ومشت ساراه خلفه ثم أمسكت ذراعيه بإحكام. كانت ماجي قد انتعلت حذاءً

بنعلين قاسيين من أجل تلك المهمة، وتراجعت إلى الخلف وركلته بين ساقيه. عندما تكوّر على نفسه، كتمت صراخه بقطعة الحلوى.

قالت بطريقة مخيفة لكنها لطيفة، وقد لمعت عيناها ارتياحاً: «لا تلمس أخي، من فضلك؟».

أفلتت ساراه دوجي، ومشتا بهدوء، تتكلمان مع بعضهما. «أعني، ماذا سيفعل؟ هل ينتحب؟ فتاتان أوقعتا بي؟ ركلتني إحداهما. سيستلقي هناك، وربما يتقيأ. لا أعلم. هم يتقيأون في الأفلام حين تركلينهم في تلك المنطقة. لنذهب ونرَ إن كان لا يزال لديهم حليب بالشوكولا».

توقفتا قليلاً لتراقبا الحركة حولهما قبل أن تدخلا قاعة الطعام.

كانت ماجي قد توقّقت من وجود لاروز على الطرف الآخر من الشجرة، وأنه رأى ما حدث. لكن طلبت منه أن يتجاوز المكان ركضاً ويراقب ما يجري بطرف عينه. كان ينبغي أن يختفي فوراً عند الطرف الآخر من ساحة اللعب. شاهد لاروز ما فعلتاه أثناء تجاوزه إياهم، ثم تابع طريقه إلى قضبان التسلّق. جلس في الأعلى، متظاهراً بالاهتمام بالأطفال من حوله، لكنه راقب الفتاتين أثناء سيرهما ببطء عائدتين إلى الداخل.

ظهرت حركة أثارت الانتباه، وتجاوزهم المدرّسون أثناء ركضهم تجاه دوجي. قال بعض الأولاد بهلع: «إنه أزرق، إنه

أزرق». رفع أحد المعلّمين دوجي، وأعلن أنه يحتاج إسعافاً أوّلياً. حمل مدرّسان دوجي رأساً على عقب من ساقيه وهزّاه. أخيراً، خرجت صرخة من دوجي: «مهلاً، توقف، كفى!». ظهر الارتياح والتشكّك على وجوه المدرّسين حين رموا قطعة من حلوى اللوز إلى رمل ساحة اللعب.

باتت ماجي تنام في غرفة دستي، في حين حصل لاروز على سرير معدني أحمر جديد، مكوّن من طبقتين. قالت نولا إنه ملائم إن أراد استقبال أشخاص آخرين للنوم عنده. عندما سمعها تقول ذلك، أشاح لاروز بصره بعيداً عنها. عرف أنها تعني أطفالاً آخرين من المدرسة في حين فكّر بأختيه وأخويه. على كل حال، ستأتي ماجي وتنام معه في بعض الليالي، ثم ستتسلّل من غرفته قبل الصباح؛ لأن والدتها وضعت قاعدة بشأن عدم نومهما في السرير نفسه بعد ذلك الوقت.

قالت ماجي: «لن يزعجك دوجي بعد الآن. دعني أرى ذراعك».

أشعلت ماجي المصباح بجانب سرير لاروز، وأمعنت النظر إلى ذراعه.

«هل تؤلمك؟». لمست البقعة.

«لا تؤلمني بعد».

«لم تعد تؤلمني يا لاروز. ينبغي أن تقول لم تعد تؤلمني».

لم يقل لاروز شيئاً. نظرت ماجي إلى ذراعه من عدة زوايا.

قرّرت: «أظن أنك ستكون بخير. يبدو مثل وشم، وأريد واحداً مثله».

ذهبت إلى حيث توجد حقيبة ظهر لاروز، وأخرجت محفظة أقلامه الرصاص. كانت هناك مبراة فوق خزانته الصغيرة، وقد استخدمتها ماجي لبري قلم رصاص بعناية كبيرة.

«لا بأس، ستضربني حيث ضربك فيدار بالقلم، في المكان عينه. سيبدو الأمر أننا مخطوبان أو شيئاً من هذا القبيل».

كان لاروز في السادسة فقط من العمر.

قال: «أنا في السادسة فقط».

«العمر لا يهم».

«أعني، أخاف أن أغرز القلم فيك».

«هل تعني أنك ستبكي؟». نظرت ماجي إليه بحدّة.

أومأ لاروز.

«حسناً، راقب».

أمسكت ماجي قلم الرصاص الحاد مثل الإبرة، كأنه مخرز ثلج، وحدّقت إلى وشم لاروز، ولعقت شفتيها. رسمت علامة باهتة على ذراعها في مكان الضربة على ذراعه، ثم رفعت يدها، ودفعت قلم الرصاص في ذراعها. انكسر الرأس الرصاصي، فرمت القلم عبر الغرفة وسقطت

على السرير، تركل بقدميها، وتمسك ذراعها، وتعض الوسادة لتكتم الضوضاء.

جلست بعد قليل، وظهرت بعض الدماء على يدها، ولكن الرأس الغرافيتي المغروس في ذراعها أوقف النزيف.

قالت وهي تنظر بعينين متسعتين إلى عيني لاروز: «هذا مؤلم أكثر مما ظننت. أنا سعيدة الآن لأن فيدار كاد يموت».

«هه؟».

«غصَّ بقطعة الحلوى تلك، بعد أن دفعتها في حلقه. لقد نزلت في المجرى الخطأ. صار لونه أزرق مثل شخص ميت. كان سيموت على الأرجح لو أن السيد أوبرجيرك لم يرفعه من كاحليه ويهزه، ما جعل فيدار يتقيأ. رأيت ذلك، صحيح؟».

أومأ لاروز.

«تعرف الآن كيف يكون الانتقام».

كانت ماجي معتادة على قول أشياء مماثلة، ولا تقتبسها فقط من قراءة روايات رومانسية قوطية ترميها والدتها بعد الانتهاء منها. شعر بيتر بالقلق بشأنها حين سألت ـ لا تزال تسأل ـ عمّا جرى بالضبط لدستي، وجثته تحديداً. هل كان عظاماً؟ هلاماً؟ غباراً؟ هواءً؟ هل تستنشقه إلى رئتيها؟ هل تأكل شيئاً نما من شعره؟ هل توجد ذراته في كل شيء؟ ولماذا لا تزال تحتفظ ببندقيتك؟ سألت عن كل ذلك. أكرههم. يجب أن تتخلّص منهم. لن ألمس واحداً منهم إطلاقاً. بدا ذلك، على الأقل، منطقياً.

انتاب بيتر قلق بشأنها حين واظبت على مراجعة كتاب جلبته من المكتبة بعنوان «كائنات شريرة». شعر بالارتياح حين توقفت عن قراءته، وبالانزعاج حين اتصلت أمينة المكتبة لتخبره عن فقدان صفحات منه. أثقلته هموم بشأن قيام ماجي بإخراج ثعابين من كومة الحطب وجعلها تلتف على ذراعيها، وطريقة ترويضها للعناكب، ثم سحقها من دون أي اكتراث من جانبها، وكيف أنها فتحت حضّانة بيض دجاج أحد الجيران قبل أن يفقس لترى ماهية المادة بداخلها، وكيف أخذت الصوص الميت إلى المنزل لتدفنه هناك، ثم أخرجته كل يوم لترى طريقة تفسّخه. انقضت أيام تجاهل فيها الكلب ماجي، وحتى ابتعد عنها، كأنه لا يثق بها. أثارت تلك الأمور قلق بيتر.

شعرت نولا، على كل حال، بالاطمئنان بشأن دافع ابنتها لتمزيق الغلاف البلاستيكي الذي يفصل بين العالمين. بدا طبيعياً، كما ظنّت نولا، أن تعيش في كليهما. عندما تستطيع رؤية أحد العالمين من العالم الآخر، عالم الأحياء على سبيل المثال من عالم الموتى، سيكون في ذلك بعض السلوان لك. استرخت نولا حين تخيّلت نفسها في نعش، وحلمت بأشكال منها تبدو متطابقة تقريباً، أثناء المدرسة الثانوية، وقد ارتدين جميعاً الزي المثالي: السروال الجينز، والقميص الطويل، والجوربين المضحكين، والخفّين، وقلادة القلب، إضافة إلى تصفيف الشعر إلى أعلى أو تركه يسترسل على الظهر. طبعاً، لا يمكنها ارتداء تلك الثياب، قديمة الطراز، حين تموت. أو ربما تستطيع ... يا للهول! عندما تلاقت كل السبل المؤدية إلى وفاة نولا، تلاشى قلقها.

من ناحية أخرى، شعرت بالغثيان حين تجاوزت وقت وفاتها، وتخيّلت أن كل شخص، وكل شيء، مضى قدماً مثل السابق، من دون نولا فقط. جعلها كل هذا تشعر بالذنب، كثيراً. لم تكن تترك نفسها على سجيتها إلا نادراً. حدث ذلك حين أكلت الكعكة البائتة، فارتفعت لديها نسبة السكر وغطّت في نوم عميق.

بعد أن أكلت الكعكة تلك المرة، أرخى السكون عباءته على كل شيء. كان المساء معتماً وصافياً. أطفأ بيتر المصابيح، وغطّاها ببطانية صوفية ناعمة. في الظلام، شدّت البطانية حول جسدها بإحكام، وأدركت أنها متدثرة، ومقيّدة داخلها، ومحمية من نفسها، كأنها في مستشفى أمراض عقلية حصري ومعزول عن الآخرين، وقد خُصّص بأكمله للعناية بشخص واحد فقط: نولا. غطّت في النوم، تنتابها فكرة واحدة مزعجة بأن عليها أن تبدأ كل شيء من جديد في الصباح. أزَّ الوجود في عقلها مثل بعوضة، ثم ضربتها بعنف، وركبت موجة راحتها نزولاً إلى الأرض.

* * *

سلك ولفريد والفتاة دربهما جنوباً على أحذية خاصة بالثلج مصنوعة من خشب وأوتار الدردار. عرفا أن اقتفاء أثرهما سيكون سهلاً. نسج ولفريد قصةً عن قرارهما الذهاب إلى غراند بورتيغ طلباً للعون، وأنهما قد تركا ماكينون مريضاً في الكوخ مع مؤن كافية. إذا تاها، أو ضلا الطريق، ووجدا نفسيهما في مكان أبعد جنوباً، سيكون هناك احتمال بألا يعرف

أحدٌ شيئاً عن ماكونين أو يهتم به أصلاً. سارا بصعوبة وبطء، وكسبا وقتاً مهماً، وأقاما معسكرهما في الليل. استشعرت الفتاة تيارات الهواء بوجهها ويديها، ثم دلّت ولفريد على مكان بناء الخيمة الصغيرة، وطريقة تثبيتها، وإيجاد حطب جاف في الثلج، وكسر أغصان ميتة من الأشجار، وتكديسها فوق بعضها حتى تبقى النار مشتعلة طوال الليل وتوجّه حرارتها نحوهما. ناما بسلام، متكوّرين في بطانيتين منفصلتين، واستيقظا على أصوات طيور القرقف.

أذكت الفتاة النار، وتناولا الطعام، وتابعا السير على الطريق جنوباً حين سمعا فجأة صوت ماكونين اللاهث خلفهما. كان يتقدّم مترنّحاً نحوهما، ويحطم أغصاناً صغيرة، وينادي عليهما: «انتظرا يا ولديَّ، انتظرا لحظة، لا تتخلّيا عني!».

اندفعا إلى الأمام برعب وقفزا عبر الثلج. اقترب كلب منهما؛ وعرفا أنه أحد حيوانات المركز التجاري البائسة، وقد ركض إلى جانبهما، ووثب بصعوبة في الثلج. ظنّا في البداية أن ماكونين قد أرسله لإيجادهما، ولكن الفتاة توقفت آنذاك ونظرت بقوة إلى الكلب، الذي عوى أمامها. أومأت وأشارت نحو درب عبر الأشجار إلى نهر متجمّد، حيث يمكنهما التحرّك من دون عوائق، وانزلقا على جليد النهر بسرعة لا يمكن تخيّلها. أخرجت الفتاة قطعة من الخبز منزلي الصنع من جيبها وقدمتها إلى الكلب، وعندما أقاما معسكرهما في تلك الليلة، نصبت شِراكاً في كل مكان

حولهما. أشعلت النار وبنت الخيمة في مكان يجعلهما يمرّان عبر فسحة ضيقة بين شجرتين، ونصبت فخاً هناك أيضاً، وثبّتت أنشوطة كبيرة كفاية لرأس رجل، حتى إن كان متورّماً. أكلا وقدّما طعاماً إلى الكلب، وناما، وقد أمسك كل منهما سكيناً قرب حقيبته وحذائه الخاص بالثلج.

استيقظ ولفريد عند انبلاج الصبح تقريباً، حين تحوّلت النار إلى جمار. سمع أنفاس ماكونين اللاهثة قريباً جداً منهما. نبح الكلب، فنهضت الفتاة وأشارت إلى ولفريد أن عليه تثبيت حذائه الثلجي، وجلب حقيبتيهما وبطانيتيهما. مع بزوغ الضوء، رأى ولفريد أن الفخ الذي نصبه من أجل ماكونين يهتز، والأنشوطة مشدودة بإحكام. شعر الكلب بالقلق، وبدأ تمزيق شكلٍ غير مرئي. دلّت الفتاة ولفريد على طريقة الوصول إلى الطرف الآخر من الخيمة، وجعلته يفهم أن عليه التوثّق من الشِّراك التي قد نصبتها، وجلب أي شيء قد تكون أمسكت به، وألا ينسى إزالة الأفخاخ حتى يتسنّى لها وضعها حول معسكرهم التالي.

تردّدت أصداء أنفاس ماكونين في الفسحة حول النار. عندما همَّ ولفريد بالمغادرة، رأى الفتاة تجهّز عصا مزوّدة بأوراق الصنوبر الجافة ولحاء البتولا، ثم تشعلها، وراقبها تحرّك العصا الملتهبة في الهواء مراراً. سمع أصوات ألم مكتومة. شعر ولفريد بخوف شديد، ولم يتمكن من العثور على كل الشِّراك، واضطر إلى قطع الوتر الذي قد أمسك بأرنب متجمد. أنهت الفتاة العمل وعادا إلى النهر مع

الكلب. بدآ يسمعان أصواتاً مزعجة وغير طبيعية خلفهما، ما جعلهما يحثّا الخطى بسرعة. ابتسمت الفتاة وسارت إلى الأمام، بهدوء، وكلها ثقة بنفسها، ما أثار ارتياح ولفريد. على الرغم من أنها كانت لا تزال طفلة.

* * *

سمعتها الآنسة بيرينغ.

قالت: «ماجي، تعالي من فضلك إلى مقدمة الصف».

كانت ماجي قد وضعت رأسها على مقعدها لتشرب بواسطة قصبةٍ عصير التفاح، الذي تحتفظ بعلبة صغيرة منه للحالات الطارئة. وضعت ماجي علبة العصير تحت قميصها، في حزامها، ومشت بهدوء، وامتثال وخجل، وتجاوزت المقاعد وهي تجرُّ قدميها من أجل زيادة الإثارة.

«فوراً!».

«حاضر يا آنسة بيرينغ».

سألت السيدة بيرينغ: «أو الآنسة ملل؟».

«ماذا يا آنسة بيرينغ؟».

«ماجي! ستسيرين إلى الزاوية وتقفين هناك ووجهك إلى الحائط».

كتم الأطفال ضحكاتهم، فاستدارت ماجي وابتسمت بلطف شديد. مشت إلى الزاوية ووقفت هناك، بجانب مبرّدة الماء، ووجهها إلى الحائط.

صرخت معلّمتها، التي وقفت خلفها تماماً: «سترين الآن ما هو الملل حقاً!».

ضحك الأولاد بأصوات عالية تلك المرة. حاولت ماجي أن تستدير، ولكن الآنسة بيرينغ كانت لا تزال هناك. أمسكت المعلّمة رأسها بيديها الكبيرتين اللتين تشبهان الفطيرة من صدغيها. شعرت ماجي بأن شيئاً يغلي داخلها، وقد أخبرت لاروز بأنها تنتقم دائماً من الشخص الذي يجعلها على تلك الحال. أبعدت الآنسة بيرينغ يديها عن رأس ماجي، وبدأت درساً عن الكسور. وقفت ماجي هناك، تفكّر في الأمر. سألت بعد بعض الوقت.

«من فضلك يا آنسة بيرينغ، هل يمكنني الذهاب إلى المرحاض؟».

قالت الآنسة بيرينغ: «ذهبت في الاستراحة»، وتابعت بهدوء 8/ 1 + 8/ 4.

اهتزت ماجي.

«آنسة بيرينغ. آنسة بيرينغ! ينبغي أن أذهب بأي حال».

قالت الآنسة بيرينغ: «لا».

تركتها ماجي تكمل الدرس، لكنها نزعت بصمت كوباً ورقياً من الكومة بجانب مبرّدة الماء، وانتظرت.

قالت أخيراً: «أرجوك يا آنسة بيرينغ». بدا صوتها متوتراً. «يجب أن أذهب فقد تبوّلت في الكوب».

«ماذا؟».

استدارت ماجي ورفعت كوب عصير التفاح.

«هل يمكنني إفراغ هذه من فضلك؟».

أغلقت الآنسة بيرينغ فمها، وجحظت عيناها من فرط الدهشة. أشارت إلى الباب، ثم جلست إلى طاولتها تحدّق إلى بعض الأوراق.

حملت ماجي الكوب الممتلئ بحرص أثناء سيرها على الممر، وكل عين في قاعة الدرس عليها. وضعت الآنسة بيرينغ رأسها بين يديها. استدارت ماجي وتوثّقت من أن المعلّمة لا تراقبها، وكشّرت لزملائها، ثم تجرّعت الكوب، وأغلقت الباب بعنف خلفها. توقفت في الخارج لحظة لتستمتع بالصراخ والزعيق، والعاصفة من التهديدات الجوفاء التي أطلقتها الآنسة بيرينغ. عندما عادت، جلست في مكانها، كأن شيئاً لم يكن. لم تطلب الآنسة بيرينغ منها العودة إلى الزاوية، وبدا أنها تدوّن ملحوظات. كانت ماجي تأمل بأن تراها تبكي.

كان جعل الناس يبكون أحد تخصّصات ماجي، لذا استمتعت بمحنة معلّمتها. فيما يخصها، كان بمقدورها ذرف دموع كثيرة، وبدا أنها تستطيع دفعها إلى عينيها. كانت تدرّب نفسها على ذلك.

* * *

عندما كانت نولا في القدّاس في أحد أيام الأحد، خطر

لبيتر أن يذهب إلى منزل لاندرو، وقد أخذ ماجي معه. لم يكن يشتاق إلى لاروز بطبيعة الحال، وإنما الصداقة كل ما لديه. كان بمقدوره زيارة شقيقه في فلوريدا، يوماً ما. أدرك أن لاندرو وأسرة إيمالاين أقرب الناس إليه.

سألت ماجي حين توقفت السيارة: «ماذا نفعل؟».

قال: «زيارة فقط».

كان لاندرو قد جاء إلى الباب آنذاك، فدخلوا جميعاً.

كان لاروز جالساً فوق كوتشي، الذي يتظاهر بأنه يتلقّى لكمات منه. رفع بصره بدهشة، في حين نظر بيتر إلى الأسفل متفاجئاً. لم يكن لاروز يتصرّف بعنف أو يتعارك مع أحد في منزلهم.

سأل لاروز: «هل حان الوقت؟».

قال بيتر: «لا، لم آتِ لاصطحابك. شعرت وماجي بالملل في المنزل، وقرّرنا أن نقوم بزيارتكم».

«أهلاً!». تهلّل وجه لاندرو الكبير وبرزت ابتسامته البشوشة. صافح يد بيتر بقوة، مترقّباً، وربما سعيداً. «لقد حضّرت القهوة تواً».

جلسا إلى مائدة المطبخ، وذهبت ماجي مباشرة إلى غرفة نوم سنو وجوزيت. شمّت رائحة طلاء الأظافر.

«ماجي! تعالي إلى هنا». كانت سنو تطلي كل ظفر بطبقة أساس بيضاء، ثم ترسم أشكالاً حلزونية سوداء إلى جانب

رقع مرقّطة. كانت جوزيت تضع مجموعة من الأظافر القابلة للتثبيت باستخدام غراء. جلست بانتظار أن تجف، لا تحرّك إلا وجهها، وتطرف عينيها وتحرّكهما مع إيقاع الموسيقى التي تستمتع إليها عبر سمّاعتين على رأسها.

«هل يمكن أن تطلي أظافري؟».

«ماذا تريدين يا ماجي؟».

«أرغواني؟ وجماجم بيضاء عليها».

«يا إلهي، لا يمكنني رسم الجماجم». ضحكت سنو. «شيء سهل». أخرجت من حقيبتها البلاستيكية قارورة صغيرة من الطلاء اللامع الأرغواني وهزّتها، فخشخشت الخرزة فيها. أحبّت ماجي ذلك الصوت.

«ربما نقاط فقط؟».

«يمكنني فعل ذلك».

انشغلتا بوضع طبقة الأساس، ثم اللون الأول، والطبقة الشفّافة، واللون الثاني، والطبقة الأخيرة. حبستا أنفاسهما حين أمسكت سنو الألوان ثم طلت أظافر ماجي. تكلمت سنو وماجي أثناء جفاف كل طبقة.

«كيف خطر لكم أن تأتوا لزيارتنا؟ أنتم لا تزوروننا أبداً».

«أظن أن أبي شعر بالوحدة؛ لأن أمي في القدّاس».

«لا بأس، أحسنتم صنعاً بالمجيء إلى هنا. كنا نلعب معاً! سيكون الأمر أسهل الآن، هه؟».

«نعم، أعني، أحياناً كما أظن ...». عبست ماجي، ثم انفرجت أساريرها. «ربما كانت هناك مكيدة انتقام كاملة بين أسرتينا، ولكن لا أظن أنها لا تزال قائمة الآن».

فزعت سنو.

«ما السبب ... لأننا جميعاً نحب لاروز؟».

«هه-هه. أنا وهو. لقد طعنّا نفسينا لنكون أخاً وأختاً».

«يا إلهي، ماذا؟».

«بقلمي رصاص، لإحداث نقطة زرقاء». شدّت ماجي كنزتها إلى الأسفل.

«هل يمكن أن أرى؟ أووه. انظري يا جوزيت. إنها على ذراعها. وشم لاروز وماجي نفسيهما ليكونا أخّين».

«تلقّى لاروز وخزة من طفل في المدرسة، وقد تولّيت أمر ذلك الفتى. ثم وخزت نفسي، لنكون مثل خطيبين في البداية. لكن لم أعرف ما تعنيه الخطوبة».

«هذا غير ممكن. هو أخوك، لذا ...».

قالت سنو: «حافظي على ثبات أصابعك الآن. ضعيها على الصحيفة».

قالت ماجي، خجلة تقريباً من سرورها: «أحب هذا». مدّت يدها إلى الأمام لتضع أظافرها المنقطة والأرغوانية تحت الضوء.

قالت جوزيت: «ماذا تعني بقولك إنك تولّيت أمره؟ هل ضربت ذلك الفتى؟».

قالت ماجي بتواضع: «اضطروا إلى إنعاشه».

«حقاً؟».

«هل واجهت مشكلة؟».

«ليس هذه المرة. إذا واجهت مشكلة، يمكنني التعامل معها».

أومأت جوزيت إلى سنو. «يمكنها أن تعتني بنفسها، نعم. هي تعتني بشقيقنا الصغير، فعلاً لا قولاً».

قالت ماجي: «سيكون الوضع أفضل إذا كنا جميعاً أسرة واحدة. يمكن أن تناما عندنا».

ابتسمت جوزيت: «لااا. نحن كبيرتان على ذلك».

قالت ماجي: «يمكن أن تحصلا على الوشم نفسه إذاً. أعرف كيف أفعل هذا».

انفجرت الفتاتان ضحكاً: «مهلاً، مهلاً!».

«أقوم ببري قلم رصاص حتى يصبح حاداً، ثم بووم». أشارت بحركة طعن سريعة باستخدام قلم.

قالت سنو: «قاتلة!».

دفع كوتشي رأسه عبر الباب، وظهر الحياء على وجهه. «يقول أبوك إن وقت الذهاب قد حان».

مدّت الفتيات أيديهن نحو بعضهن ليتعانقن.

«قبلة، قبلة، واحدة على كل خد، كأننا في المافيا».

* * *

طلب ولفريد من الفتاة أن تخبره باسمها. سألها بالكلمات، وسألها بالإشارة، لكنها بقيت واجمة. سألها في كل مرة توقفا فيها. لكن على الرغم من أنها ابتسمت له، وفهمت تماماً ما يريده، فإنها لم تخبره باسمها، واكتفت بالنظر إلى بعيد. بعد أن ناما بعمق، ومع اقتراب بزوغ الفجر، استيقظت وجثت بجانب النار لتنفخ عليها وتجعلها تشتعل مجدداً. صمتت تماماً فجأة، وحدّقت إلى الأشجار. دفعت ذقنها إلى الأمام، ثم سحبت شعرها إلى الخلف وركزّت بصرها على ذلك المكان. تابع ولفريد نظرتها ورآه أيضاً. كان رأس ماكونين، يتحرّك بشق الأنفس على الثلج، وشعره أحمر وأشعث، يبدو مثل ألسنة لهب تتراقص بسعادة. اصطدم بشجرة أحياناً وأنَّ ألماً، ودفع نفسه في أحيان أخرى مع لسانه، أو عنقه القصير، أو أذنيه اللتين اهتزّتا بطريقة مضحكة. تحرّك أحياناً بضع خطوات، ثم توقف وهو يتنهّد بإحباط من تقدّمه البطيء والمجهد.

مخطط الألم

أشـارت السيدة بيس إلـى الوجه المرهـق والمتجهّم على القائمـة المصـوّرة التـي وضعتهـا الممرضـة أمامهـا. كان ذلـك مخططـاً للألـم.

«سيئ حقاً، هه».

قالـت السـيدة بيـس: «أشـعر بألـم كبيـر؛ ألـم فظيـع. لقـد كنت بخير مـن دون هـذه النوبـات! لا أتذكّـر الآن أيـن وضعـت أدويتـي. ظننـت أنهـا موجـودة هنـا، تحـت أوراقـي، فـي علبتي».

سـألت الممرضـة المناوبـة بعـد الظهـر: «أيـن مـكان الألـم؟».

«هنا، وهنا، وهنا. ورأسي».

«سيخفّف هذا عنك».

«هذه حقنة؟».

«وجرعتـك المعتـادة مـن دوائـك. تذكّـري أنـك يجـب

أن تحافظي على تلك الأشياء. يمكن أن نوصد عليها في الخزنة، في المكتب».

«سأحتفظ بواحدة فقط، من أجل الحالات الطارئة».

«حسناً، لا بأس. لكن تذكّري ألا تدعي أحداً آخر يتناول شيئاً منها، أو يستخدمها. إنها أقوى بمئة مرة من المورفين، كما تعلمين؟ مورفين».

«لا يفيدني أي شيء آخر».

«ستنامين الآن».

«أفضّل البقاء هنا، على هذا الكرسي. ستأتي لزيارتي».

«من؟».

«أمي».

«أه، فهمت».

«أنت تبتسمين. أرى ابتسامتك. لكن ثقي بأنها ستأتي. بعد كل تلك السنين، سمحوا لها أخيراً بزيارتي».

قال لاروز لأمه: «كتبت اسمنا في كل مكان. لاروز ولاروز ولاروز إلى الأبد. كنت فخوراً بخطّي، وحريصاً على رسم كل حرف. كتبت اسمي في أماكن خفيّة لن يروها أبداً. كتبت اسمي من أجلنا جميعاً. رسمت اسمي على نحو مثالي، وجعلت الحروف بخط النسخ. مرةً، نقشت اسمي على الخشب حتى لا يتمكن أحد من محوه أبداً. يمكن قراءته حتى إذا وضعوا طلاء فوق الحروف: لاروز.

كتبته بخط باهت في مهجع الفتيات في فورت توتن، وأعلى الباب الخشبي، والجانب السفلي من الكراسي، وعلى رفوف غرفة التخزين في القبو حيث احتُجزت مرة لقلّة التهذيب. قلم رصاص بي-آي-إي 2، في دفتر ملحوظات، موجود الآن في الأرشيف الوطني في مدينة كانساس. على لوح كتابة، وداخل خزانة، وفوق باب مقصورة في ستيفان. تحت طاولة في مارتي، وعلى سبورة. خربشته على قطعة آجر تغطيها أعشاب في محطة توليد الكهرباء القديمة في واهبتون. كتبته في تشامبرلين، وفلاندرو، وفورت توتن وفورت توتن. تركنا اسمنا في تلك المدارس، وغيرها، وصولاً إلى المدرسة الأولى كارلايل؛ لأن تاريخ لاروز مرتبط بتلك المدارس. نعم، كتبنا اسمنا في أماكن لا يمكن إيجاده فيها أبداً إن لم يُهدم المبنى نفسه، أو يحترق فيشتعل معه كل الأسى والتعب الذي تحتفظ به تلك الجدران، وينتقل الدخان إلى الديار».

* * *

كان لدى دوجي فيدار شقيق أكبر سناً منه، وشقيقه لديه أصدقاء. لم يكونوا في المدرسة الابتدائية نفسها، وإنما في أخرى إعدادية، ملحقة بالثانوية. حاول تيلر فيدار، وكورتينز بيس، وبراد موريزي، وجيسون «بوغي» وايلدستراند أن يدعوا أنفسهم «الأربعة المخيفون». لم يكن أمراً ذا شأن، وقد عدّوه مجرّد دعابة حتى وقت قريب. كانوا نحيلين، ولطيفين، ولم يكتمل نموهم بعد. انشغلوا بألعاب الفيديو،

والتدرّب على أدوات غيتار كورتينز، التي تركها شقيقه له. كان لديهم كتاب أغانٍ، ولكن لم يعرفوا ما تعنيه العلامات أو كيف يضبطون أدواتهم الموسيقية. ظنّوا آنذاك أن ضوضاءهم جيدة. أخبر دوجي شقيقه عن محاولة ماجي قتله، وأبلغ تيلر أصدقاءه، الذين ترقّبوا فرصة سانحة للنيل منها. لم يحدث شيء؛ لأنها كانت تستقل الحافلة دائماً بعد انتهاء الدراسة. ثم عرفوا أنها حصلت على دور فطر مغنٍّ في المسرحية وستبقى في المدرسة بعد الدوام، وأنها تحتاج إلى شخص يقلّها إلى المنزل.

حالفهم الحظ في أحد الأيام؛ لأن والدتها تأخرت.

كانت ماجي تمشي في دائرة، وتتميّز غضباً، وتركل الأوراق. كان الجو بارداً، ودبقاً، ورطباً في الخارج، ولم تكن تحب ذلك الطقس. اقترب تيلر وقال بصوت لطيف: «هل أنتِ بخير؟». كان أكبر منها ولم تعرفه.

قالت ماجي: «لا، لقد تأخرت أمي».

«نحن نعيش هناك». أشار إلى المرأب حيث تجمّعوا. «أنا وإخوتي. هل تريدين قضاء وقت معنا حتى تصل أمك؟ يمكنك رؤيتها من النافذة الجانبية».

قالت ماجي: «لا أريد».

«أمي هناك».

«لا بأس».

تبعته إلى المرأب، ودخلاه معاً، لتفاجأ بوجود أصدقاء

تيلـر. وقفـوا حولهـا علـى نحـو أربكهـا، ثـم قـال تيلـر: «هـل تريديـن الجلـوس علـى الأريكـة؟». عندمـا جلسـت ماجـي، عرفـت أن الوضـع سـيئ. قفـزوا إلـى جانبهـا، وحاصروهـا بينهـم، وقـال تيلـر: «حاولـت قتـل دوجـي». ثـم بـدأ والفتيـة الآخـرون وضـع أيديهـم علـى جسـدها، هجمـوا عليهـا مثـل كلاب، وضايقتهـا براثنهـم القـذرة. شـعرت بأنهـا سـتفقد الوعـي، كأنهـا ضعيفـة وقـد استنفدت كل قوتهـا. غطّتهـا عبـاءة مـن الأسـى مثـل وشـاح رقيـق. عندمـا حـاول تيلـر تغطيـة فمهـا، عضّـت إصبعـه حتـى تذوقـت طعـم الـدم. دفعهـا بوغـي إلـى الخلـف علـى الوسـائد، فصاحـت بصـوتٍ أعلـى، وضربتـه بركبتيهـا بقـوة جعلتـه يتألـم ويئـن مثـل جـرو. حـاول كورتينـز الإمسـاك بهـا، ولكـن إبهاميهـا اندفعـا نحـوه وضربـا عينيـه، مـا جعلـه يتراجـع إلـى الخلـف وهـو يصـرخ بأنـه أعمـى. قفـزت نحـو أحـد أجهـزة الغيتـار، ولوّحـت بـه أمـام وجـه بـراد، ثـم ضربتـه علـى الجـدار، فرفـع ذراعيـه حـول رأسـه.

تكـوّر بوغـي فـي إحـدى الزوايـا، يبكـي بصـوتٍ عـالٍ، وأنَّ بـراد مـن الألـم. كانـوا جميعـاً فـي حـال صدمـة.

صرخـت الأم عنـد البـاب الخلفـي: «أيهـا الفتيـان؟ أيهـا الفتيـة؟ هـل أنتـم جائعـون».

صرخ تيلر: «لااااا!».

وقـف الفتيـة لاهثيـن، باسـتثناء بوغـي الـذي كان لا يـزال متكـوّراً علـى الأرض، وحدّقـوا إلـى بعضهـم.

قال تيلر أخيراً: «تباً، كان ذلك رائعاً. مرحباً يا ماجي، نريدك معنا، نحتاج إلى فتاة. هل ترغبين في الانضمام إلى فرقتنا؟».

«انضمام؟». ردّت ماجي شعرها ببطء إلى الخلف، ورتّبت ثيابها. كان الأدرينالين ينخفض، والخوف يخبرها بأن تجد الباب.

قال تيلر: «سنخبر الجميع عمّا حدث إذا لم تنضمي إلينا».

تقدمت خطوات إلى الباب، وفتحته. ثار الغضب حولها مثل حلقة مشتعلة.

«تخبر؟ تقول؟ تفضّل. هل تعرف لاندرو الذي قتل شقيقي؟ حسناً، هو أبي الثاني الآن. سيقتل كل واحد منكم، وسيطلق النار على رؤوسكم. الوداع».

ركضت ماجي عائدة إلى الزاوية التي يفترض أن تلتقي أمها عندها. كانت السيارة متوقفة هناك.

«آسفة لأنني تأخرت يا عزيزتي. هل شعرت بالملل؟».

قالت ماجي: «اصمتي».

«اصمتي؟ اصمتي؟ هل هذه طريقة ...».

صرخت ماجي: «اخرسي! اخرسي! اخرسي!».

ركضت إلى المنزل مباشرة، ودخلت غرفتها. أغلقت الباب بعنف خلفها، ثم تسلّلت بعد بعض الوقت إلى الحمام. مشى لاروز خلفها في الرواق.

قالت ماجي: «توقف عن ملاحقتي أيها الشقي».

شعرت بأن رأسها خفيف؛ كأن ما فعله هؤلاء الفتية قد أفرغه من دماغها. كانت أيديهم التي لمستها فظيعة، وقد تركت جراثيم غبائهم عليها. أرادت أن تغتسل مراراً.

«وغد صغير». كادت تصفع لاروز.

لكن لم يكن بمقدورها تعوّد ذلك الحقد. كان لاروز مخيباً للآمال، ولا يذكّرها بشيء خاص باستثناء أنه لم يؤذِ أي شيء أبداً. حلّت العتمة باكراً، لذا نزلت ماجي ولاروز على السلالم للتوثّق من وجود الطعام. تناولا بعض المثلّجات.

سكبت ماجي محتويات علبة من جعة داد في وعاء الماء الخاص بالكلب، الذي اقترب منه وشمّه بتشكّك، ولكن الرائحة بدت جيدة، فلعق السائل كله. سكبت علبة أخرى، وأحبّها الحيوان أيضاً، ثم ظهرت نظرة ثمالة على وجهه، فمشى مطأطئاً رأسه إلى الباب الزجاجي المغلق، وتمدّد على الأرضية هناك. فتح لاروز الباب قليلاً، وساعد الكلب في الخروج عبره.

قالت ماجي: «كلب غبي مسكين».

سار الكلب في دوائر ثم سقط على الأرض. جلس لاروز على الأعشاب الباردة معه، ووضع رأسه في حجره. كان الكلب يلهث، وعيناه تلمعان، ولكن زمجرته يمكن أن تعدَّ ابتسامة. جلست ماجي مرتعشة على مقعد خشبي تنظر إلى الأسفل نحوهما.

أنَّ الكلب أنين حيوان ثمل.

قال لاروز: «تحتاج إلى قهوة». لم يتحرّك الكلب، وسال لعابه حتى بقبقت أنفاسه فوق يدي وساقي لاروز.

راقبتهما ماجي التي أعجبها لاروز؛ لأنه ترك لعاب الكلب يسيل عليه. كان على تلك الحال دائماً. أحبّت الطريقة التي يمسك بها العناكب دائماً من دون أن يسحقها، وعنايته بالدجاج قبل أن يُذبح، وإنقاذ الخفافيش، ومراقبة قرى النمل من دون أن يُغرقها بالماء، وإنعاش حياة طيور رائعة.

أدّت نولا صلاة المائدة الكاثوليكية قبل العشاء. خطرت فكرة في بال ماجي، فنظرت إلى لاروز، الذي كان يحدّق إلى طعامه. كان مثل ذلك الراهب بالرداء البني؛ فرانسيس. كانت الحيوانات تأتي إلى لاروز وتجثم بجانب قدميه، وتنجذب إليه؛ لأنها تعرف أنها ستكون بأمان معه.

تلاشت تلك الفكرة في الضوضاء التي صدرت عن أمها أثناء تناولها الطعام. في الواقع، بدا كل شيء مرتبطاً بالطريقة التي تأكل بها والدتها. شعرت بالغضب بالتأكيد من تأخر أمها عليها، وتعريض حياتها للخطر من قِبل هؤلاء الأوغاد. حاولت ماجي أن تستدير بعيداً عنها، وتتظاهر بأن أمها غير موجودة، ولكن لم يكن بوسعها إلا أن تراقبها. غرزت نولا شوكتها في قطعة فاصولياء خضراء، ثم رفعتها إلى فمها. اعتادت نولا أن تنظر حول الطاولة أحياناً لترى إن كان أحد آخر من أفراد الأسرة يأكل فاصولياء خضراء في الوقت نفسه. في تلك اللحظة، كانت وحيدة مع الفاصولياء. لاحظت نولا نظرة استياء ابنتها، وشعرت بالدهشة، ثم

فتحت فمها، وكشفت شفتيها الرقيقتين وانتزعت بأسنانها حبة الفاصولياء الخضراء من الشوكة.

أمالت ماجي رأسها إلى الخلف. كيف يمكنها فعل هذا؟ كيف بمقدورها القيام بهذا؟ الأسنان؛ الأسنان، تكشط الشوكة. طقطقة المعدن على المينا. شعرت ماجي بنوبة غضب مفاجئة تنتابها. حدّقت إلى طبقها، نحو الفاصولياء الخضراء، وحاولت التخفيف من حقدها لتتجاوز الأمر، مثل الشيطان، كما قد اقترح الأب ترافيس العجوز والجذّاب حين جرّتها نولا إلى حجرة الاعتراف في تلك المرة الوحيدة.

سحبت نفساً عميقاً، وأمسكت قرن فاصولياء خضراء واحدة بأصابعها. لم يلحظ أحد ما تفعله. تطلّب الأمر ستة قرون من الفاصولياء الخضراء المقطوفة باليد، إضافة إلى العبارة المعتادة «همم! انظري يا أمي!». ظهر وميض جنوني واستفزازي في عينيها حين قضمت قرون الفاصولياء الخضراء عن أصابعها، ثم التكشيرة الغريبة التي تثير الاهتمام دائماً.

اعتدلت نولا في جلستها، وشوكتها مرفوعة قليلاً. بدا أن موجة قاسية من القوة تنبعث منها.

قالت: «شاهدي طريقة أكل الفاصولياء يا ماجي»، ثم رفعت الشوكة، وباعدت بين شفتيها، وكشطت القطعة عن المعدن بأسنانها.

نظرت ماجي إليها مباشرة، وحركت فمها بكلمات لا تستطيع إلا نولا، والدتها فقط، فهمها: أنتِ مقرفة.

صرخ بيتر بعد أن شعر بالتوتر الصامت، من دون أن ينتبه إلى ما تقوله الشفاه: «ماذا يجري؟».

رفع الكلب رأسه في الزاوية.

أمسك لاروز الوعاء وأفرغ آخر كمية من الفاصولياء الخضراء في طبقه، ثم أكلها بسرعة. نظر إلى الكلب، قلقاً، ولكن الحيوان استرخى بهدوء في مكانه.

تجهّم وجه نولا. بدأت تلهث بقوة آنذاك، مع إضافة اخرسي إلى أنتِ مقرفة. أمالت ماجي كرسيها إلى الخلف، راضية، ثم أعلنت أنها قد انتهت من وجبتها، وصعدت ببطء على السلالم. تابعت عينا نولا ابنتها، ورمقتها بنظرات غاضبة وثاقبة. شعرت بأنها ربّت وحشاً تكرهه بكل ما في قلبها من زيوت سوداء، وتحبه أيضاً بيأس وارتباك مضنيين. استقرّت على كرسيها بهدوء، وأكلت قرن فاصولياء خضراء من نهاية شوكتها. لم يلحظ بيتر أو لاروز ما يحدث، كما بدا. إذاً لم تكن هي؟ لم تكن هي المقرفة؟ سقطت دمعة على طبقها.

رأى بيتر دمعة أخرى تترقرق. «هل أنت بخير؟».

قال لاروز: «أخبرني شخص اليوم».

وضع بيتر ذراعه حول نولا، وأمسك بها فحسب. كان قد بدأ يجيد ذلك.

«بماذا أخبرك؟».

«قال إن أمي جميلة».

ابتسمت نولا ابتسامة باهتة ومرتبكة.

قبل أن يتكلم، توثّق لاروز من أن ماجي قد أغلقت الباب على نفسها في غرفتها. بدا غريباً حقاً أن يجد نفسه دائماً عالقاً بين الاثنتين، اعتاد أن يثق بجوزيت. كانت قد أخبرته أن ذلك غريب، وأبلغته أن ماجي تعاني من نوعٍ من اضطراب الكآبة، على الأرجح، الذي يجعلها تتصرّف علّى ذلك النحو. قالت سنو إنهم كانوا يجب أن يتبنّوها، وإنهم يحبونها، ولكنها قاسية. أضافت أن هناك مشكلات تواصل في منزلها. قالت جوزيت إن ذلك شائع جداً في عمرها، ومرتبط بالعلاقة بين الأم وابنتها. كانت وسنو وأمهما محظوظات؛ لأن إيمالاين أنجبتهما في سن مبكرة، وهي غريبة الأطوار مثلهما، ولا تحاول أن تكون أفضل منهما أو متفوقة عليهما. قالت جوزيت إن عليه القيام بكل ما قد يجدي نفعاً، ولكنها تشعر بالأسف تجاهه؛ لأن الوضع غريب.

تسلّلت ماجي إلى غرفته تلك الليلة. كانت مستلقية في غرفتها تنتعش بعد الاغتسال مرة أخرى بماء ساخن. بدأت تبكي، بمفردها، وبدا ذلك ملائماً لها. لكن توقفت عن البكاء في أقرب وقت ممكن، لتتمالك نفسها. كانت عسقلة، عسقلة جريحة، وأرادت غرز أنيابها في حناجر هؤلاء الفتيان. عادت أفكارها إلى الطريقة التي تنجذب بها الحيوانات إلى لاروز، وقرّرت أن تعهد ببراثنها ليده الطفولية.

همست: «ابتعد»، ثم دفعت نفسها تحت لحافه.

وضعت قدميها الساخنتين على قصبتي ساقيه.

«أريد أن أسألك شيئاً». كان أنفها لا يزال مسدوداً نتيجة البكاء اللا إرادي، ووجهها متورماً. لكن جلده برّد أخمصي قدميها.

«أرجوك يا لاروز، لا تضحك. سأطرح عليك سؤالاً جدّياً».

«حسناً».

«ماذا ستفعل إذا هاجمني بعض الفتية، ولمسوا جسدي، وفعلوا أشياء أخرى، بطريقة سيئة».

قال لاروز: «سأجعلهم يموتون».

«هل تظن أن بمقدورك فعل هذا؟».

«سأكتشف ذلك».

«هل يستطيع قدّيس أن يقتل من أجل الحب؟».

قال لاروز: «يمتلك الأولياء قوى خارقة».

«هل تظن أنك قدّيس؟».

«لا».

قالت ماجي: «أظن أنك كذلك».

تقلّبت في السرير، وحدّقت إلى شق الضوء الخافت تحت الباب. كانت ليلة باردة، وقد انتشر دفء جسده في الفراش. تلاشت طبقة الحكّة القذرة التي سبّبتها تلك الأصابع الحقيرة عن جلدها، وتبدّد الانزعاج والكدر الذي أصابها

نتيجة عادات أمها في مضغ الطعام. ذاب كل شيء سيئ في المغنطة الرقيقة لملاءات السرير، وبدأت تشعر بالنعاس.

داعب لاروز نهايات شعرها على الوسادة بجانبه.

همست: «أنا مهيضة الجناح».

* * *

عرف روميو أن الثلج سيهطل، أول مرة في الموسم، وشمَّ رائحته. كان بمقدوره أن يشم دائماً تلك الرائحة النضرة قبل وصولها، وقبل أن يحوّل مختصو الأرصاد الجوية الثلج إلى دراما على تلفازه. اندفع إلى الخارج، عبر قطعٍ من الأرض المحروثة، واتخذ سبيله إلى البلدة. كما هو متوقع، بدأت كسفات الثلج بالهطول أثناء سيره المتمهّل، وقد راوده انطباع، ربما بسبب الأدوية التي تناولها، أنه قد علق هناك فجأة. كان في كرة أرضية مصغّرة ومتجمّدة على طاحونة صغيرة، ضمن مشهد صغير يظهر فيه رجل يمشي إلى ديد كستر، إلى الأبد، عبر قصاصات متساقطة من ورق أبيض أو ربما بعض المواد الكيميائية الشبيهة بالثلج التي ستترسّب عبر غربال حين يقلب طفلٌ عالمه رأساً على عقب بيديه. أحب هذه الفكرة كثيراً ما جعله يذكّر نفسه أنها ليست حقيقية. بدت الحركة ساكنة جداً ومنوّمة، وأفكاره، كانت أفكاره تركّز عليها.

ظهر لاندرو وهو يقود سيارته في تلك اللوحة، غافلاً كما هي حاله دائماً، ولكن الثلج تحرّك على نحو دائري

خلفه وأعاد أفكار روميو إلى الموضوع القديم المفضّل لديه: الانتقام. صدّق لاندرو أنه خارج متناول يد روميو ودائرة اهتمامه. لكن لا، لم يكن الأمر كذلك. كان لاندرو مغروراً بنفسه، ومعتدّاً بذاته، ولم يعد يتذكّر تلك الأيام الخوالي التي جمعتهما معاً، حين كانا شابين يافعين بعمر لاروز تقريباً. بدا أن الأمر بعيد وموغل في القدم إلى ذلك الحد، ويبقى خفياً معظم الأوقات مثل شظية صغيرة في العظم. وجد نفسه يطفو على السطح أو يخز روميو من الداخل مثل تلك الأقراص الزائفة الفظيعة التي تناولها بعد تعرّضه إلى خدعة من قبل هؤلاء العجائز.

ذابت ثلجات في شعر روميو الرقيق. كانت مجرد ضربة حظ، ربما، ولكنه سجّل اسمه على قائمة عمّال الصيانة في المستشفى. يا للهول! الكثير من قوارير الأدوية، والقليل من الوقت. لم يعد سلوكه يثير انتباه أفراد فرق الإسعاف، وقد استرق السمع إلى جملة دوّنها على قصاصة ورقية. لا تلمس الشريان السباتي أبداً. كان قد وضع علبة من المسامير الصغيرة الملونة في راحة كفّه وثبّت الورقة على الجدار، ثم بدأ العمل على الروابط بينها. كان ذلك أول دليل، بين أخرى كثيرة، عمّا قد حدث فعلاً في اليوم الذي أردى فيه لاندرو دستي.

كان ليني بريسكو؛ الشخص الوضيع، وروميو؛ صاحب المراوغ، سيكشفان الحقيقة.

أدرك روميو، في لحظة الصفاء الذهني التي تمتّع بها بعد مرور سيارة لاندرو، أن الناس الذين يمتلكون

معلومـات يتكلمـون بهـدوء، ورمـزٍ أيضـاً. كان يتعلّـم فـك شيفرة مـا يقولونـه، وقـد اضطر أحيانـاً إلـى تخميـن مرادهـم. لكنـه عـرف أنهـم يمتلكـون معرفـة جوهريـة.

فهـم أنـه مـن أجـل الحصـول علـى الحقيقـة يجـب أن يحظى بمكانـة مرموقـة، أو يظهـر بأنـه جديـر بالثقـة علـى الأقل.

اغتسـل روميـو جيـداً لهـذا السـبب، وتقـدم بطلـب للعمـل بـدوام كامـل فـي المستشـفى، علـى الرغـم مـن أن فرصتـه محـدودة، كمـا أن العمـل المكتبـي يجعلـه يتصبّـب عرقـاً دائمـاً. لكـن هنـاك، فـي المستشـفى، قـد يكسـب أهميـة مجـدداً. كان العاملـون الآخـرون فـي قسـم الصيانـة أشـخاصاً محترميـن فـي المجتمـع، وبعضهـم يقـود سـيارة الإسـعاف أحيانـاً، وكلهـم جديـرون بالثقـة. كان سـترلينغ تشـانس، علـى سـبيل المثـال، شـخصاً رائعـاً حقـاً، وقـد أصغـى، بوصفـه رئيـس قسـم الصيانة، إلـى روميـو أثنـاء إجابتـه عـن أسـئلة المقابلـة بهـدوء وحـرص.

ظـنّ روميـو أن سـترلينغ تشـانس شـخص متحفّـظ، وقـد أعجبـه ذلـك. أراد روميـو أول مـرة آنـذاك منـذ تلقّـى تعليمـه علـى يـد السـيدة بيس، شـيئاً أكثـر مـن مجـرد طريـق إلـى عالـم النسـيان. أراد تلـك الوظيفـة، لا العمـل المتقطّـع الهامشـي الجزئـي، وإنمـا وظيفـة بـدوام كامـل. صحيـح، كانـت دوافعـه غامضـة: العقاقيـر والانتقـام. لكـن لمـاذا المواربـة بشـأن أخلاقيـات العمـل؟ لـم يكـن هنـاك شـكٌّ بـأن هـذا العمـل سـيجعل مصـادر أدويتـه القديمـة تبـدو بائسـة. لن يضطـر مجدداً إلـى المعانـاة مـن نقمـة التأثيـرات الجانبيـة. والمعلومـات؟

إذا حصل على معلومات من ذلك العمل، ستكون شيئاً يحتفظ به حتى يحتاج إليه حقاً، معلومات هامشية. لكن هناك معلومات نادرة جداً وصادمة قد يستطيع ـ ربما ـ استخدامها لابتزاز شخص ما طوال حياته. بدت تلك فكرة مرضية، خاصة إذا فشل سابقاً في قتل ذلك الشخص.

* * *

سافرت الفتاة، وولفريد، والكلب معاً، وشقوا طريقهم بصعوبة. استخدما كل الحيل التي في جعبتهما، وتركا حتى طعاماً للرأس النهم خلفهم، لإبطائه فقط. انتعلا حذاءي الثلج، وقد أصلحتهما الفتاة عند الحاجة. تمزّق نعلاهما القديمان، فثبّتت طبقة من الجلد عليها من الأسفل وحشتها من الداخل بفراء الأرنب. كلما حاولوا نيل قسط من الراحة كان الرأس يظهر وهو يزعق في الليل، ومتقداً عند الفجر. تحرّكوا من دون توقف تقريباً، حتى تضوّروا جوعاً وكادوا يتجمّدون، ما جعلهم يتوقفون أخيراً.

استغرق بناء الكوخ الصغير من لحاء الأشجار معظم النهار. عندما جهّزا نفسيهما للنوم، وضع ولفريد بعض الحطب على النار، ثم تراجع إلى الخلف مرهقاً. كان ذلك العمل البسيط قد أصابه بالدوار، واستنفد قوته عبر أصابعه إلى اللهب. تراجعت النار بسرعة من مجال رؤيته، وصعدت جرفاً غير مرئي. بدأ يرتعش، بقوة، ثم ظهر حائط أسود أمامه، ووجد نفسه محتجزاً في معبد مكوّن من قاعات متشعّبة. تلمّس طريقه طوال تلك الليلة عبر

الممرات الضيقة، على طول الجدران الخالية من الأبواب. زحف حول زوايا، وبقي منخفضاً. كان الوقوف مستحيلاً حتى في أحلامه. عندما فتح عينيه مع أول ضوء، رأى قبة الكوخ مشوّشة المعالم وتدور بقوة، ما وضع غشاوة على بصره وجعله يشعر بالغثيان. لم يجرؤ على فتح عينيه مجدداً ذلك اليوم، وإنما استلقى ساكناً قدر المستطاع، ورفع رأسه أحياناً مع إبقاء عينيه مغلقتين ليرتشف قطرات الماء التي سكبتها الفتاة بين شفتيه من قطعة لحاء مطوية.

طلب منها أن تتركه خلفها، وتظاهرت بأنها لا تفهم ما يقوله.

اعتنت به طوال اليوم، وجلبت حطباً، وحضّرت حساءً، وأبقته دافئاً. زمجر الكلب بقوة عند الباب ذلك المساء، وفتح ولفريد عيناً واحدة لحظة فقط ليرى صوراً مضاعفة من الفتاة وهي تلفّ يدها بقطعة من البطانية لتمسك مقبض الفأس، ثم تسخّن طرفها المعدني حتى صار أحمر اللون. شعر بها وهي تخرج من الباب، ثم بدأ نوبة هذيان من ثرثرة، وشتائم، وصراخ، وأنين وتأوّه، وركل بقدميه كأن أشجاراً تسقط. ساد صمت بين الحين والآخر، ثم سمع أصواتاً متنافرة حادّة مجدداً. تواصل ذلك كل الليل. عند بزوغ أول ضوء، شعر بأنها قد زحفت إلى الداخل، وأحسَّ بدفء جسدها وثقلها حين تكوّرت عند ظهره، وشمَّ رائحة جلد الكلب، أو ربما شعرها. بعد ساعات من ذلك اليوم، استيقظ وسمعها تقرع طبلاً في دفء النار. اندهش كثيراً، وسألها بالأوجيبوا عن طريقة حصولها على ذلك الطبل.

أخبرته بأنه قد طار إليها، وأن ذلك الطبل يخصّ أمها، التي استخدمته لإعادة أشخاص إلى الحياة.

لا بد أنه سمع بالخطأ؛ لأن الطبول لا تطير، ولم يكن ميتاً بالتأكيد، أو أنه كذلك؟ بدت الدنيا خلف عينيه المغلقتين أكثر غرابة من قبل. كان قد دخل عالماً مملوءاً معادلات كسور حين خرج من المعبد المظلم كثير الغرف. لم يشعر بالراحة من تلك الرياضيات المعقّدة، التي تكوّنت نماذج منها مراراً بأشكال مختلفة، وانضمت إليها مثلّثات حادّة الزاوية وتفكّكت إلى أشكال هندسية لا نهاية لها. إذا كان ذلك هو الموت، سيكون مرهقاً من الناحية البصرية. عندما بدأت تقرع على الطبل، فقدت تلك النماذج كثافتها تدريجياً، وتضاءلت حركتها حين غنّت بأنين غريب وحاد النغمة، وارتفع صوتها وانخفض بتكرار مريح حتى تحوّلت السلاسل، أخيراً، إلى مجرد خفقة لون. صحّح الطبل بعض الإيقاع الداخلي، ورسم هدوءٌ مريحٌ لوحة أفكاره، ثم نام.

مجدداً، سمع تلك الليلة المعركة في الخارج. مرة أخرى، شعر بها عند بزوغ الفجر تتكوّر بجانبه وشمَّ رائحة كلب محروق. ثانيةً، ضبطت النغمة وقرعت على الطبل حين استيقظت. نقلته الأغنية نفسها بعيداً، ووضع يده على رأسه. قصّت بطانيتها، وكلّلته بعمامة صوفية دافئة. عند اقتراب الليل، فتح عينيه ورأى أن العالم قد عاد إلى سابق عهده. همس بفرح: «لقد عدت، لقد رجعت».

قالت مبتسمة: «يجب أن تذهب معي في رحلة أخرى»، وبدأت الغناء.

جعله غناؤها يهدأ ويسترخي، وعندما خرج من جسده وأمسك يدها بقوة، لم يشعر بالخوف حين ارتفع عن الأرض. سافرا في الجو الشاسع، فوق الغابات الكثيفة، وطارا بسرعة كبيرة حتى لم يعد بمقدور البرد اللحاق بهما. في الأسفل، اشتعلت حرائق، وظهرت قرية تبعد مسيرة يومين فقط عن كوخهما المؤقت. شعرت بالرضا، وأعادته إلى حيث كانا، ثم دخل ولفريد الجسد الذي لن يغادره مجدداً حتى يكمل نصف قرن من العمل الشاق والمضني.

وصلا بعد يومين من السير في غابة كثيفة إلى بلدة صغيرة. شاهدا نحو مئة بيت أوجيبوا مبنية من أغصان ولحاء الأشجار عند منحنيات نهر هناك. ظهرت عدّة منازل خشبية مشيّدة بأناقة في صف جميل على طول شارع مغطى بالثلج. كانت تشبه المنازل التي قد تركها ولفريد خلفه في الشرق، وصدّق لحظة عابرة فقط أنهما قد تجاوزا منطقة البحيرات الكبرى. ظنَّ أنه في دياره، ومشى إلى أكبر دار هناك. تلقّى جواباً حين قرع الباب، ولكن المرأة الشابة التي ردّت عليه لم تدرك أنه رجل أبيض إلا بعد أن عرّف نفسه بالإنجليزية.

سمحت وأسرتها، وجميعهم من المبشّرين، بدخول الثنائي إلى المطبخ الدافئ، وقدّموا لهما الماء وقطعاً من القماش ليغتسلوا بها، ثم ثريداً لا طعم له من الأرز البرّي

المطبوخ. سمحوا لهما بالنوم متدثّرين ببطانيات على الأرض خلف موقد الحطب. بقي الكلب في الخارج، وشمَّ رائحة كلب الأسرة وتبعه إلى الحظيرة، حيث ارتاح الاثنان في دفء جسد البقرة الكبير. في صباح اليوم التالي، تحدّث ولفريد بجدّية مع الفتاة، التي كان وجهها النظيف فاتناً جداً، وطلب منها أن تتزوّجه.

قال: «عندما تكبرين».

ابتسمت وأومأت.

سألها عن اسمها.

ضحكت، وأشارت إلى أنها لا تريد أن يمتلكها، ثم رسمت وردة.

كانت الأبرشية ترسل بعض أفراد الأوجيبوا إلى المدرسة الداخلية التابعة للكنيسة المشيخية التي شُيّدت حديثاً للهنود فقط. كانت تقع في المنطقة التي صارت ولاية ميشيغان، وعرفت الفتاة أن بمقدورها السفر إلى هناك أيضاً إن أرادت أن تتعلّم، مع ضرورة بقائها في ذلك المكان؛ لأن أسرتها تخلّت عنها. على الرغم من أنها لم تفهم ما يعنيه ذلك، إلا أنها وافقت عليه.

أخذوا كل شيء منها في المدرسة. كانت خسارة طبل أمها مثل فقدان مينك مجدداً. في الليل، طلبت من الطبل أن يطير عائداً إليها مجدداً، ولكن لم يفعل أبداً. تعلّمت بسرعة كيف تنام، أو أن تترك ذلك الجزء من نفسها الذي

يدعى الكراهية يغطُّ في النوم كما ظنّت، ولكن لم يفعل أبداً. كانت كينونتها كلها أنيشينابي؛ وهم، أو سراب، أو أمبانيتماجاد، أو ما يدعونها به الآن ـ هندية. قالوا: «لا تتكلمي الهندية»، حين كانت تتكلم بلغتها. بدا صعباً أن تقسم أجزاء من نفسها وتحرّرها من ذاتها. في الليل، طارت عبر السقف وحلّقت كما تعلّمت سابقاً. خزّنت أجزاء من نفسها على قمم الأشجار، على أمل أن تستعيدها لاحقاً، حين تصمت الأجراس. كانت هناك نواقيس كثيرة، وقد شعرت بألم في رأسها، في البداية، بسببها. قالت لنفسها بصوتٍ عالٍ إن أفكارها متشابكة جداً، أو إنبيميسكوندام. على كل حال، لم يكن لديها متسع من الوقت لتفكّر فيما يجري.

بدت رائحة الأولاد الآخرين مثل كبار السن، ولكنها تعوّدت عليها، وسرعان ما فاحت منها الرائحة ذاتها. كان ثوبها ومشدّها الصوفيان ضيقين عليها، في حين جعلتها الثياب الداخلية الصوفية تحكُّ مثل مجنونة. شعرت بألم في قدميها، اللتين فاحت منهما رائحة كريهة من التعرّق في الحذاء الجلدي القاسي. عانت يداها من الجفاف، وشعرت بالبرد دائماً، ولكنها اعتادت على ذلك. تكوّن الطعام عادة من لحم مملح وملفوف غير ناضجين تماماً ما ملأ المهجع بروائح بشعة، وزاد الحليب الذي أُرغموا على شربه الطين بلة. لكن بغض النظر عن كون الطعام بارداً، أو بائتاً، أو غريباً، كان يجب أن تأكل، لذا تعوّدت عليه. واجهت صعوبة في فهم ما يقوله المعلّمون أو التعبير عمّا تريده بلغتهم، ولكنها تعلّمت. أبقاها البكاء والنشيج

مـن صفـوف الأسـرّة مسـتيقظة فـي الليـل، وبـدأت تصـرخ وتطلـق الغـازات عنـد النـوم مثـل كل الآخريـن.

اشـتاقت إلـى أمهـا، علـى الرغـم مـن أن مينـك باعتهـا. اشـتاقت إلـى ولفريـد؛ الشـخص الوحيـد الباقـي لهـا، واحتفظـت برسـائله المكتوبـة بخـط جميـل، وقرأتهـا مجـدداً حيـن شـعرت بالضعـف أو التعـب. انزعجـت مـن تسـميته لهـا بالـوردة، فالفتيـات لا يحملـن أسـماء ورود؛ لأنهـا تذبـل بسرعة. كان ينبغي أن تحمـل الفتيات أسماء سرمدية، أشكالاً مـن الضـوء، أو الغيـوم، أو النجـوم، التـي تظهـر وتختفـي مثـل جزيـرة عنـد الأفـق. بـدت المدرسـة مثـل حلـم لا يمكـن أن يتحقّـق أحيانـاً، وقـد غطّـت فـي النـوم علـى أمـل أن تسـتيقظ فـي عالـم آخـر.

لـم تعتـد علـى الأجـراس أبـداً، إنمـا تعـوّدت علـى مجـيء أولاد آخريـن وذهابهـم. ماتـوا بسـبب الحصبـة، أو الحمّـى القرمزيـة، أو الإنفلونـزا، أو الخنّـاق، أو السـلّ، أو أمـراض أخـرى ليـس لهـا اسـم. لكـن كانـت قـد تعـوّدت آنـذاك علـى مـوت كل مـن حولهـا. مـرةً، أُصيبـت بحمّـى وظنّـت أنهـا ستموت أيضـاً. لكـن جـاء طيفهـا الأزرق الباهـت فـي الليـل، وجلـس علـى السـرير، وتكلـم معهـا بلطـف، وأعـاد روحهـا إلـى جسـدها، وأخبرهـا بأنهـا سـتكون بخيـر.

لـم يكـن أحـد يثمـل، أو يجـرح وجـه وأنـف والدتهـا، أو يسـيء معاملتهـا. لـم يسـتلّ أحـدٌ سـكيناً ويطعـن خالهـا الـذي يعتنـي بهـا، فيتدفـق الـدم مـن فمـه وينـزف حتـى المـوت. كان

الشـيء الجيـد الآخـر الـذي فكّـرت فيـه أثنـاء بـكاء الأولاد الآخريـن هـو أن الرحلـة إلـى المدرسـة شـاقّة وطويلـة، وهـي أطـول كثيـراً مـن قـدرة رأسٍ علـى القيـام بهـا.

* * *

سـرد ولفريـد قصـة مـرض ماكينـون المفاجـئ، وكيـف انطلق مـع الفتـاة إلـى البريـة طلبـاً للمسـاعدة، التـي تـم إرسـالها إلـى هنـاك. كان الهنـود قـد وجـدوا ماكينـون ممـدداً خـارج المركـز التجـاري، وقالـوا إنـه عانـى مـن حمّـى فظيعـة وخـرج طلبـاً للثلـج البـارد، وتوفـي هنـاك، وقـد مزّقتـه الـكلاب إربـاً. رأسـه؟ أراد ولفريـد أن يسـأل، لكـن الخـوف عقـد لسـانه. سُـمح لولفريـد بالعمـل مـكان ماكينـون، لـذا غـادر المسـتوطنة وسـافر شـمالاً. تـرك سـاعة التاجـر الذهبيـة، وخاتـم زفافـه، ومالـه فـي مـكان إخفائهـا. أبلـى حسـناً فـي المركـز، علـى الرغـم مـن أن الحركـة التجاريـة لـم تعـد جيـدة. سـمع أنفـاس ماكينـون الفظّـة فـي الليـل أحيانـاً، واستنشـق الرائحـة الكريهـة التـي اعتـاد أن يشـمّها مـن قدمـي التاجـر حيـن ينـزع خفّيـه فـي أحيـان أخـرى. احتفـظ ولفريـد بسـجلات تجاريـة تفصيليـة عـن العمليـات التجاريـة، وكتـب غالبـاً إلـى الفتـاة فـي ميشـيغان، وردتـي، شـيري لاروز. كان متأثّـراً بالفرنسـية وسـلالة الهجينيـن مـن الرحّالـة الذيـن عرفهـم. حاولـوا إقناعـه بنسـيانها، لكنـه لـم يسـتطع، بـأي حـال، الـزواج مـن امـرأة أخـرى. علـى الرغـم مـن أنـه قـد أقـام علاقـات مـع نسـاء أخريـات، إلا أنـه لـم ينسـها أبـداً.

واصـل كتابـة الرسـائل حتـى تتذكّـر وعدهـا. كتـب عـن

تجاربهما، وإعجابه بمهاراتها وقوتها أثناء رحلتهما. قضى ولفريد أوقاتاً طويلة في العيش، والصيد، والحديث، وإقامة الشعائر مع قومها. أعطوه دواء للتخلّص من ماكينون، وبدا أنه مفيد له. لم يعد يسمع حشرجة الأنفاس في الليل، أو يشم رائحة القدمين. كان يتحوّل إلى هندي، في حين تتحوّل هي إلى امرأة بيضاء. لكن كيف يمكن أن يعرف؟

* * *

حلَّ ذلك الموعد أخيراً؛ يوم الوفاة. كان عام قد مضى آنذاك، ولم تكن لدى لاندرو وإيمالاين فكرة عن الطريقة التي ستقضي بها أسرة رافيتش ذلك اليوم. كان لاروز مع أسرة آيرون، كما قد خطط بيتر. فعلوا ما بوسعهم قبل ليلة، وجمعوا الأولاد لإقامة طقوس الغليون في غرفة المعيشة، وتحدث الجميع. تناقلوا الغليون المبجّل، من أحدهم إلى الآخر. أدار الأولاد الغليون في كل اتجاه حين وصل إليهم، وأبدوا حرصاً كبيراً، وعرفوا كيف يمسكونه. قال هوليس إن لاروز أنقذهم لأنه ذهب إلى آل رافيتش. قال ويلاد إنه يشتاق إلى لاروز. قالت جوزيت إن الأشياء التي قالها الأخوان صحيحة، وإنها مسرورة لأن علاقة ماجي بهم باتت أكثر متانة. قالت سنو إن لاروز أنقذ كلتا الأسرتين. كان معالجاً صغيراً. لم تستطع إيمالاين أن تتكلم، ولم يقل لاندرو شيئاً، ولكن الحزن فيه صار أكبر كثيراً من قبل.

في ذلك اليوم تحديداً، اكتشف لاندرو أنه لا يستطيع الخروج من السرير، فقد غادرت كل القوة والإرادة جسده،

وأرخت كتلة نوم سوداء ثقلها عليه. جاء الصبيان إلى باب غرفة نوم والديهما المقابلة للمطبخ، وقالا: «أبي، أبتي؟».

سمع أقدامهما تمشي متثاقلة عند الطرف الآخر من السرير، ثم دخلت الفتاتان. لمسوا شعره، ويديه، ولكنه أبقى عينيه مغلقتين. عندما غادروا سالت دموع على التجاعيد حول فمه، نزولاً على عنقه، وتجمّعت على ترقوته، لكن حرارة جسده جفّفتها. اكتشف أنه ساخن على نحو غير عادي، وأنه مصاب بالحمّى، فشعر بالرضا. كان مريضاً حقاً. بعد أن غادر الأولاد الأكبر سناً على متن حافلة المدرسة، جلست إيمالاين بجانبه.

فكّرت في الاستلقاء بجانبه، ولكن شيئاً كان قد خرج منها. بحثت في قلبها، ولم تجد إلا حساباً مرهقاً عن الصعوبات التي سيجلبها بؤسه عليها في ذلك اليوم.

قالت: «يجب أن أذهب إلى العمل. لاروز هنا. هل يمكن أن تأخذه إلى المدرسة بعد ساعة؟».

قال لاندرو: «نعم، سيُجدي الأسبرين نفعاً. سأكون بخير».

جلست إيمالاين معه، وداعبت شعره وأبعدت غرّته عن جبينه. كان لاروز يأكل حبوب الشوفان بالزبيب، ويترك حبّات الزبيب حتى نهاية الوجبة.

«هل أنت واثق بأنك تستطيع فعل هذا؟».

«أنا واثق. سأبقى هنا نصف ساعة فقط، ثم سأنهض».

سمعها تودّع لاروز، وإغلاق الباب، وهدير المحرك حين غادرت المنزل.

جولة لا تنتهي

ظنَّ لاندرو أن الظبي يعرف؛ يعرف طبعاً، وأنه يعلم منذ السنة السابقة. كان لاندرو يراقب، مع سلاحه أحياناً، ومن دونه في أحيان أخرى. اكتشف مرات عديدة أن الظبي يراقبه أيضاً. اعتاد أن يتوقف، ويشعر بنظرته على قفا رأسه، ويستدير ليراه ساكناً من دون حراك، وعيناه ماكرتان ولامعتان. لو أنه قد أصغى، أو فهم، أو اهتم بفهم ما يعرفه، لما لاحق ذلك الظبي إطلاقاً؛ أبداً. كان سيعرف أن الحيوان يحاول إبلاغه شيئاً هاماً جداً. لم يكن الظبي مخلوقاً عادياً، وإنما جسراً إلى عالم آخر، ومكاناً لن يتوقف فيه لاندرو أبداً لرؤية ابن صديقه بين الأوراق، أو لمنع أفكار غريبة من أن تراوده في لحظات غير ملائمة إطلاقاً.

كيف يمكن تفسير ذلك العيار الناري؟ سيتمنى لو أن ذاته تخرج من الوجود ليقرّر إن كان سيفعل ذلك مرة أخرى. لكن الشيء الأقسى، والأفضل، والوحيد الذي يمكن القيام به هو البقاء حياً، والعيش مع العواقب، ومع أسرته. كان شعوره بالعار وعبؤه الثقيل يكاد يخنقه.

خشي أن ينهار أحياناً ويقول فجأة إنه كان يشرب ذلك اليوم، على الرغم من أن ذلك غير صحيح. ربما سيكون الوضع أسوأ. لم يكن يفكّر بوضوح، ولم ينتظر، أو ربما

انتظر وقتاً أطول من اللازم مجيء ذلك الظبي حتى بدت اللحظة الملائمة متأخرة. لكنها كانت لحظة غباء، حقاً، أليس كذلك؟ على الرغم من هذا، كان عدم حرص لاندرو في تلك اللحظة سيئاً مثل الثمالة. لم يفهم أحد أن الوضع سيئ جداً، باستثناء دستي. عرف، طبعاً، أو عرفت روحه، وقد أخبر لاندرو بذلك في الحلم.

كان زاك بيس قد أخضع بيتر إلى فحص النَّفَس بعد الحادثة، وقد أجراه على نحو روتيني بعد احتجاز لاندرو. نظر زاك إلى البيانات، ثم استدار ونظر بثبات إلى لاندرو. كان الناس يشكّون دائماً بأن أولئك الذين يعملون مع مرضى خارج المراكز الصحية يأخذون بعضاً من أدويتهم. لكن لم يكن قد تناول شيئاً منذ أسابيع؛ إطلاقاً. لقد أقسم على عدم تناول أي مسكّنات. كان الرقم عادياً، لكن هناك شيء بشأن لاندرو نفسه، وردود فعله، التي تراوح بين نوبات الهذيان والهدوء، وضحكه مرة. ربما بصوت عال؟ لكن لم تكن هناك إشارة إلى وجود أي مادة في دمه. وعلى كل حال، عرف زاك أن لا شيء يبدو طبيعياً بعد حادثة مثل تلك. كان الجميع يشعر بالإرهاق من هول الصدمة وارتفاع الأدرينالين. كان زاك قد عدَّ لاندرو قدوة منذ الطفولة، وهو قريب إيمالاين العزيز عليها. ضمّن نتيجة الاختبار السلبية في تقريره، التي ستساعد في تبرئة لاندرو، ولكن واجه مشكلة. لم يكونا قد تكلما عن الحادثة منذ ذلك الوقت؛ لم يتحدّثا إطلاقاً.

كان على لاندرو أن يخبر أحداً بالحقيقة في ذلك اليوم تحديداً، في الذكرى السنوية. شعر بأن رأسه يرن، فقد ضاق ذرعاً من إخفاء الأمر. أدرك السنة الماضية أنه لا يوجد شخص ملائم لذلك. كان هناك، طبعاً، شخصان يمكن أن يثق بهما ويخبرهما، ويمكن أن يحملا معه ذلك العبء الثقيل. لم يرغب في أن يخسر احترام الأب ترافيس، أو يرى وجه إيمالاين بعد أن يحرّر تلك الكلمات من داخله، ولم يكن هناك أحد آخر. لم يكن زاك، الذي يعرف ما جرى، سيتكلم معه. كان يجب أن يتكلم، وقد دخل لاروز الغرفة في تلك اللحظة تحديداً.

«أبي». جلس لاروز على السرير. «انهض!».

«أنا مريض اليوم».

تحسّس لاروز جبين لاندرو، مثل راشد تماماً، وجعل والده يبتسم.

«أيها الطبيب الصغير، هل أعاني من حمّى؟».

قال لاروز: «تحتاج إلى علاج في الخيمة التقليدية»؛ لأنه أراد القيام بكل التحضيرات.

قال لاندرو: «حسناً، لنفعل هذا. سنبني خيمة تقليدية، نحن الاثنان فقط. يمكن أن تغيب يوماً عن الروضة، كما أظن، من أجل خيمة تقليدية. صحيح؟».

«بالطبع أستطيع».

«لكن سأخبرك شيئاً أولاً».

انتظر لاروز.

«هذا سر، وكبير أيضاً. يجب أن نقسم على أن يبقى سراً بيننا، اتفقنا؟».

تجهّم لاروز تماماً، وتصافحا أربع مرات.

«حسناً، أنا أثق بك».

فتح لاروز عينيه واسعتين حين نظر إلى والده، ولم يطرف.

«لم أكن، أه، بكامل قواي العقلية في اليوم الذي قتلت فيه دستي. لم أتعمّد ذلك، ولكن لا أعرف، ربما كان تسديدي خاطئاً. القصد أنني كنت أخرق ذلك اليوم».

عبس لاروز، وشعر والده بوخزة في صدره.

سأل لاروز: «هل رأيت دستي هناك؟ هل رأيت الكلب؟».

قال لاندرو: «أي كلب؟».

قال لاروز: «سقط دستي عن غصن شجرة. رأيت المكان. رأيت كل شيء في حلمي في إحدى الليالي. لحق دستي الكلب إلى الغابة، وقد رآك الكلب. اسأله إذا شئت».

شعر لاندرو بألم في رأسه.

«كانت تسديدتك متقنة دائماً من قبل. قال أبي الآخر هذا».

«بيتر».

«نعم. قال إنك كنت ستصيب الظبي».

قال لاندرو: «هذا صحيح. لا يزال الظبي هناك، وقد رأيته يتجوّل في الغابة».

قال لاروز: «أخبرني دستي أنك أصبته بالخطأ».

فتح لاندرو ذراعيه لابنه، واقترب لاروز ببطء ليضمّه إلى صدره. تنفّسا معاً. استرخى لاروز، وأطلق تنهيدة كبيرة، ثم نام، في حين بقي لاندرو مستيقظاً، يحدّق إلى السقف. سقطت السماء، كما تفعل في كل لحظة، وكلّله العار. اكتشف أنه كان يُفترض أن يشارك لاروز كل شيء؛ لأن الفتى طيب جداً مقارنة برجل غير صالح مثله. لاروز، مجدداً. لقد أنقذته لاروز من قبل. في اليوم الذي انطلقت فيه الحافلة إلى المدرسة الداخلية، كان أكبر بضعة أعوام فقط من ابنه آنذاك. بدا مستحيلاً أن يسمح والداه له بالذهاب. لم يخبراه بذلك، ولكن كانا سيعيشان، ويموتان، في مينابوليس.

قام والدا لاندرو بوضعه على متن الحافلة مع أغراضه، ثم ابتعدا بسيارة جدّه. كان في التاسعة من عمره فقط. أخذ المسؤولون عن المدرسة كيس ثيابه ومقتنياته حين ركب الحافلة. كانت تلك آخر مرة يراهما فيها. كان سيذهب إلى مدرسة يديرها مكتب الشؤون الهندية في الحكومة الأمريكية، كما قال والداه. انتسب كلاهما إلى مدارس تابعة للأبرشية، لكنهما لم يرتاحا فيها، وقد ظنّا أن المدرسة الحكومية ستكون أفضل. أضافا أنهما سيزورانه، وسيستقلان نوعاً مختلفاً من الحافلات إذا انتقلا إلى مينابوليس.

كانـت مقاعـد حافلـة لانـدرو خضـراء وقاسـية، وسـاخنة. حـدث ذلـك فـي شـهر أغسـطس وقـد توقفـت المركبـة فـي سـاحة مكشـوفة. كان يفتـرض أن يأكلـوا الغـداء في منتصف المسـافة إلـى المدرسـة، وهـذا مـا فعلـوه حقـاً. نزلـوا مـن الحافلـة إلـى متنـزه، وركـض الأولاد الأكبـر سـناً فـي المـكان وهـم يضحكـون. اسـتلموا رزمـاً مغلّفـة بـورق القصديـر، وعندمـا فتحوهـا وجـدوا شـطائر مـن خبـز أبيـض طـري، مـع بعـض الزبـدة، وجبنـة برتقاليـة، ومعهـا تفاحـة. قرقـرت معدتـه، فطلـب شـطيرة أخرى وحصـل عليهـا، بالمكوّنـات نفسـها. أكل كل شـيء، وشـرب مـاء بطعـم الحديـد مـن مضخـة.

بعـد أن ركـب الحافلـة مجـدداً وانتهـى التفقّـد، نـزل إلـى الأرض، وتكـوّر تحـت المقعـد. عـادت المركبـة إلـى الطريـق السـريع، واسـترخى لانـدرو هنـاك تحـت الكرسـي. اسـتطاع تمييـز اسـم تكـرّر مـرات عديـدة علـى نحـو مثيـر للاهتمـام داخـل الحافلـة.

لاروز. لاروز. لاروز.

تمتمـت الفتيـات خلفـه، بسـعادة. بـدأ أولاد آخـرون البـكاء بأصـوات خافتـة، ثـم أُصيبـوا بنوبـات فـواق. تقيـأ فتـى فـي الرابعـة مـن عمـره. كان البعـض يحـدّق إلـى خـارج النافـذة، مفتونـاً بمـا يـرى. ضحـك بعـض الفتيـة وتحدّثـوا مـع بعضهـم، فـي حيـن جلـس آخـرون سـاكنين. حـدّق لانـدرو إلـى ذلـك الاسـم، متكـوّراً تحـت مقعـد الحافلـة. كانـت الحـروف مرسـومة بقلـم رصـاص داكـن اللـون، مـراراً: لاروز. غفـا،

وسرعان ما غطّ في نوم عميق على بطنه. لم يستيقظ حين توقفت الحافلة، ونزل الجميع منها. لم يستيقظ حين حلقوا رأسه لمنع إصابته بالقمل وتركوه في الحمام أثناء بحثهم عن ثياب جديدة له من دون بقّ، أو حتى في السرير تلك الليلة، أو صباح اليوم التالي أيضاً. لم يستيقظ أبداً. كان لا يزال نائماً في تلك الحافلة.

خذا كل شيء

1967 - 1970

روميو ولاندرو

كان مبنى المهجع مبنياً من آجر أحمر متداخل بإحكام، وهو مجمّع بسيط يشبه الصندوق، وفي منتصفه فتحة المدخل الرئيس. عندما دفع لاندرو الإطار الفولاذي الداكن للباب الرئيس، تغيّر الضغط الداخلي وأفلتت منه ذبذبة صوت أجش؛ تنهيدة خافتة ذكّرته بشبح ميلبرت على الطريق العام. كانت الأرضيات من السيراميك الباهت أصلاً، لكنه ملمّع حتى صار صقيلاً. في وقت متأخر من الأصيل، تصل أشعة الشمس الدافئة إلى الممر الأوسط. كان هناك فتية صغار على أحد الجانبين، وفتيان كبار على الجانب الآخر، وتوجد قاعات منامة كبيرة مقسّمة إلى مقصورات صغيرة على جانبي الرواق، وكل حجيرة تضم سريرين بطابقين، وتتسع لأربعة أولاد. كانت المراحيض والحمامات موجودة في منتصف المسافة إلى قاعة الجلوس الرئيسة، ومكاتب المشرفين بواجهاتها الزجاجية على كل طرف منها. كانت هناك غرفة غسيل في القبو تضم صفوفاً من الغسّالات والمجفّفات التي تهدر ليلاً ونهاراً.

شـرحت إحـدى المشـرفات فـي جنـاح الفتيـة الصغـار، وهـي امـرأة ريّانـة ووجههـا مملـوء نمشـاً، وشـعرها أبيـض كثيف تربطه في عقدة صغيرة، نظام العلامات إلى لانـدرو. كان يتـم تدويـن الاسـم فـي جـدولٍ ضمـن سـجل خـاص بذلـك، إذا لـم يغتسـل، أو بلّـل السـرير، أو استغرق فـي النـوم، أو أصـدر ضوضـاء بعـد إطفـاء الأضـواء، أو ردَّ بوقاحـة، أو ذهـب إلـى خـارج حـدود المدرسـة، أو الأهـم إذا هـرب مـن المكان. شـرحت السيدة فريلتشيك أنـه إذا حصـل علـى كثير مـن العلامـات السيئة، لـن يخـرج فـي إجـازات أو يذهـب فـي رحـلات إلـى البلـدة. أضافـت أن الأمر سيكون أسـوأ إن هرب، وقـد لا يسـتعيد أيـاً مـن امتيازاتـه السـابقة. كان لانـدرو قد سـمع أنهـم يرغمـون الصبيـة علـى ارتـداء فسـاتين خضـراء طويلـة مهينـة، ويحلقـون رؤوسـهم، ويجعلونهـم ينظّفـون الممـرات. لكـن فتـى آخر على متـن الحافلة نفـى ذلـك وقـال إنهـم كانـوا يفعلـون ذلـك فـي مدرسـة مختلفة سـابقاً، لكنهـم توقفـوا آنذاك. كانـت السـيدة فريلتشـيك لا تـزال تتكلـم، وتؤكّـد أن الهـروب خطـر، وأن فتـاة قـد توفّـيت قبـل عاميـن. قالـت السـيدة، التـي يدعوهـا الجميـع رأس الزبديـة، إن الفتـاة وُجـدت مرميـة فـي إحـدى القنـوات، وإن العالـم مملـوء أشـخاصاً سـيئين، لـذا «لا تهـرب». لـم يكـن صوتهـا قاسـياً، أو لطيفـاً، وإنمـا عاديـاً. ربتـت علـى كتفـه وقالـت إنهـا تظنُّ أنـه ولـد طيـب، ولـن يهـرب أبـداً.

كلمـا قالـت كلمـة هـروب، انتـاب لانـدرو شـعور غريـب بشـأن كلمـة هـارب، التـي قلبتـه رأسـاً علـى عقـب مـن الداخـل.

أمسك روميو حزمة الثياب والملاءات، في حين وقف مشرفٌ في غرفة النوم وعلّم الفتية الطريقة التي يفترض أن يرتّبوا أسرّتهم بها. كان هندياً، مثل زوج خالة، ولكن بعينين صغيرتين، ووجه قاسٍ ومغطى بالبثور. نزع المشرف كل شيء عن السرير الذي عمل عليه سابقاً وطلب من كل الفتية أن يرتّبوا أسرّتهم كما علّمهم. ذهب إلى غرفة أخرى بعد أن ناداه أحدهم، وبدأ الفتيان الذين سيتشاركون الغرفة في ترتيب الملاءات والبطانيات.

فعلوا كلهم ذلك، باستثناء فتى محدودب وشاحب. جلس على حافة سريره وقال، بصوت خافت: «اذهب إلى الجحيم يا بيتس». ركل أغطية الفراش على الأرضية وداس بقدمه عليها. كان ذلك روميو، الذي عثروا عليه بعمر الرابعة أو الخامسة تائهاً بجانب الطريق في المحمية نفسها حيث ترعرع لاندرو. لم يعرف أحد من يكون والداه، ولكن بدا واضحاً أنه هندي. وجدوه يحمل آثار حروق وكدمات، ويتضوّر جوعاً، وظنّوا أنه مختلٌّ عقلياً. لكن عندما تم إرساله إلى المدرسة الداخلية، تبين أنه واحد من أذكى الفتيان هناك. حاول أن يبدو صلباً، لكنه لم يكن كذلك. أحبَّ السيدة بيس، واجتهد في صفّها للفت انتباهها، وجعلها تأخذه إلى البيت معها، أو تتبنّاه. كان ذلك هدفه، الذي ربما يبدو صعباً لكنه ليس مستحيلاً؟ بالمحصلة، لقد تجاوز مرحلة تبليل السرير.

كان روميو قد توقف عن التبوّل في نومه لأنه امتنع عن

شرب الماء. لم يعد يتناول إلا كوباً في الصباح وآخر عند الظهر. هل شعر بالعطش؟ نعم، بالتأكيد. لكن بعد شهر من تحمّل ذلك العطش الفظيع، لم يعد الفتى يبلّل سريره لا إرادياً، وقد استحق الأمر العناء. لم تعد قطرة واحدة تتجاوز شفتيه بعد وجبة الغداء، حتى إذا شعر بدوار شديد، حتى إذا جفَّ فمه وبات طعمه مثل فأر عفن. استحق الأمر المشقّة حتى لا يتبوّل في السرير.

سمعهم يتكلمون عنه في الأسرّة الأخرى.

«لا يمكنك الحصول على الطبقة الأعلى في السرير، فقد يسيل منك شيء».

لكن لاندرو نظر إلى روميو، وابتسم ابتسامة واسعة ولطيفة، وقال: «لا، يبدو بخير. سأنام في الأسفل».

وضع لاندرو أغطية فراشه في الطبقة السفلية من السرير.

شعر روميو بموجة من الأحاسيس تغمره تماماً، بدأت بالدهشة، وتحولت إلى سعادة، ثم فرح، إن كان ممكناً وصفها على هذا النحو. لم يكن أي فتى قد ساعده أبداً من قبل، أو ابتسم له من أجل أن يكونا صديقين. لم يكن لديه إخوة، أو أقرباء في المدرسة، أو معارف في الديار باستثناء خالة مفترضة. كانت تلك اللحظة مع لاندرو هامة جداً، وقد دام تأثيرها أياماً. وبات الوضع أفضل حتى؛ لأن لاندرو لم يتردّد أبداً. صار روميو بأحسن حال؛ لأن لاندرو وصفه بذلك. كان لاندرو يبدو رائعاً بمشيته المتثاقلة وثقته

بنفسه، وقد تصرّف ببساطة؛ كأن روميو لطيفاً دائماً معه. بات روميو أكثر استقامة وقوة، وشرع في تناول كمية أكبر من الطعام، وصار أكبر حجماً بفضل لاندرو. بدأ شرب الماء في وقت متأخر من الأصيل، من دون أن يبلّل نفسه. كان لاندرو ماهراً في الرماية، ويصيب نقطة الهدف في كل مرة، في حين أتقن روميو الحساب الذهني. باتا معروفين، ونالا إعجاب فتية آخرين. أخذتهما السيدة بيس عدّة مرات في ذلك العام إلى البيت معها. كانت أم فتاة صغيرة تدعى إيمالاين، التي بدا أنها أُعجبت بكليهما. تجاهل لاندرو إيمالاين، ولكن روميو أحبّها. جلس على الأرض معها، ولعبا بقطع بلاستيكية، ودمى، وألعاب على شكل حيوانات، وقرآ الكتاب المصوّر المفضّل لديها كلما دفعته بين يديه. ضحكت السيدة بيس وشكرته؛ لأن الكتاب مملّ كما قالت. لم يهتم روميو بذلك، فقد أثارت كل كلمة منه اهتمام الفتاة الصغيرة. عندما كبرا، كبر حبه لها أيضاً، ولكنها نسيت كل ما يتعلق به.

كان هناك حبل مجدول متدلٍّ من شجرة عالية في الساحة الملحقة بمنزل السيدة بيس. تناوب الصَّبيَّان على التشبّث بكرة الخرق القماشية المربوطة إلى نهاية الحبل. أدار كل منهما الآخر بقوة، ثم أرجحه، ودفعه في حلقات واسعة حتى شعر بالغثيان. بعد أن تهدأ معدتهما، كانا يتناولان حساء اللحم والخبز المقلي، وذرة من الكوز مباشرة. جعلتهما السيدة بيس يقرآن «الإخوة هاردي»، التي استعارتها من المكتبة خصيصاً لهما، بصوتٍ عالٍ أحياناً.

كان روميو يجيد القراءة أكثر من لاندرو، ولكنه أخفى ذلك، وأصغى إلى صوته المجهد، ونظر إلى جسده المرتعش؛ كأن كل جملة تمثّل تلة مرتفعة ينبغي أن يصعدها. بقي الصديقان منسجمين كل الخريف، وكل الشتاء، وكل الربيع، وقضيا فصلي صيف معاً، وصارا مقرّبين جداً من بعضهما. في السنة الثالثة تقريباً، على كل حال، بدأ لاندرو يتكلم عن والده ووالدته، اللذين لم يأتيا لزيارته أبداً. تحدث عنهما في الخريف، ثم الشتاء، واستهل الربيع بالكلام عن الذهاب للعثور عليهما.

قال روميو: «هذا يعني الهرب».

قال لاندرو: «أعرف».

تلك الفتاة؟ هربت بعد أن زحفت تحت الحافلة، وتشبّثت بشيء ما في الأسفل. تسلّلت حين وصلت إلى المحمية، وركضت عائدة إلى بيتها. أبقتها أمها وأبوها لديهما؛ بسبب تصرّفها ذاك. كانا خائفين مما قد تفعله إن أرسلاها ثانية.

كان الصَّبيان يتكلمان على نحو متقطّع في سريرهما المزدوج، ويهمسان ويهمسان بعد إطفاء الأضواء.

قال لاندرو: «لا أعرف. قد تسقط، أو تجرّك الحافلة».

«يجب أن تكون مسطّحاً مثل وايل إي. كايوتي».

«لا يستحق الأمر العناء»، كما يقول شارلو سانت كلير.

«أنت ضخم على أي حال. ينبغي أن تكون ضئيلاً».

قال لاندرو: «يمكنني فعل هذا». كان ذلك قبل أن يبدأ الأكل، ويصير أكبر حجماً.

قال روميو: «يمكنني فعل هذا أيضاً».

«لا تستطيع».

«أستطيع».

قال لاندرو: «يجب أن نفعل ذلك بسرعة إذاً. ستعود حافلة المدرسة بعد أسبوع، ولن يأخذنا أحد آخر».

قال روميو: «ليس الوضع سيئاً جداً هنا في الصيف». خفق قلبه بسرعة. ماذا إن وصل إلى «الديار»، ولم يكن أحد باستقباله؟ لن يكون لاندرو هناك أيضاً، إذا غادر هو الآخر. لم يكن بمقدوره التفكير في ذلك. عرف روميو أنه عاش لسبب ما، وأن الندوب على الجانب الداخلي من ذراعيه تمثّل شيئاً لا يمكن وصفه، ولا يمكن أن يتذكّره. لم يرغب في أن يغادر المدرسة، أو يتشبّث أسفل الحافلة.

«اسمع يا لاندرو. في الصيف، نذهب إلى البحيرة ونسبح، ونقوم بأشياء أخرى، صحيح؟ هذا مسلٍّ».

«هم يراقبونك طوال الوقت».

قال روميو: «نعم».

قال لاندرو: «حسناً، سئمت من مراقبتهم لي».

كان حتى روميو يعرف أن بيتس يلاحق لاندرو، ويحاول تقييد حركته، وأن الأمر لا يقتصر على المراقبة بالأعين.

نظر روميو إلى لاندرو في ساحة اللعب في اليوم التالي.

«هل تظن أنهم يراقبوننا؟».

أومأ لاندرو.

لاحظ روميو الضجر خلف نظراته. غموض الروح، حسناً، لم يكن روميو ليطلق ذلك الوسم عليها، ولكن بعد عدّة أعوام استخدم الأب ترافيس ذلك الوصف تحديداً حين تحدّث عن رجل شنق نفسه أمام ناظريه. لم يعرف روميو ذلك إلا حين أخفى لاندرو تلك الشرارة خلف عينيه، وأدرك أن ذلك يعني أنه سيتوخّى الحذر وسيفعل أي شيء يقرّره بغضّ النظر عن خطورته. بدا لاندرو هادئاً جداً آنذاك، في حين شعر روميو بالغثيان.

أثناء عطلة الأسبوع، كانا على وفاق مع «رأس الزبدية»، التي سمحت لهما بنقل مقعد مكسور إلى ورشة النجارة. شاهدا الحافلات متوقفة في الخلف. بعد أن أوصلا المقعد، تسللا خلف زاوية المبنى ثم زحفا نحو حافلة مدرسية، وانبطحا تحتها. استطاعا رؤية القطعة التي يمكن أن يتشبّثا بها.

قال لاندرو: «ربما، إن كنت مجنوناً حقاً. ربما بضع دقائق، لا ساعات طويلة. لكن قد تتشبّث مدة أطول إذا عرفت أن السقوط سيقتلك».

قال روميو: «لا يبدو الأمر مسلّياً كثيراً».

قال لاندرو: «ألا تفكّر بشأن تلك الفتاة؟».

لكن كان هناك شيء لا يمكن مقاومته في خطة لاندرو المحكمة. لم يستطع التوقف عن التفكير، والكلام، وكيف يمكن أن يربطا نفسيهما بحزامين أو حبلين، وأن يصير المكان حاراً أو بارداً، وأنه سيحتاج إلى سترة بكل الأحوال.

❋ ❋ ❋

حلَّ اليوم المنشود. سار روميو ولاندرو بتمهّل نحو الأولاد المصطفّين للذهاب إلى البيت، وتوقفا عند الطرف. وقفت رأس الزبدية بجانب باب الحافلة المفتوح، تتوثّق من قائمة الأسماء، في حين حمل كل تلميذ في الطابور حزمة ثياب. كان لكل من روميو ولاندرو كيس خاص به. في اللحظة الأخيرة، ابتعدا عن الجميع، وتسللا حول مؤخرة الحافلة، وتواريا عن الأنظار في الظل، ثم دخلا تحت المركبة. كان هناك قضيب معدني بعرض قدم في الوسط يمكن أن يتشبّثا به، وبجانبه سلّتان حديديتان صغيرتان يمكن أن تساعدهما في الحفاظ على توازنهما. وضعا كيسيهما في السلّتين وثبّتا نفسيهما على بطنيهما هناك، على ارتفاع قدم فقط عن الأرض. لفّ كل منهما رسغيه حول القضيب المعدني، وصار وجهاهما متقابلين.

انقضى وقت ظنّاه ألف سنة قبل أن يشتغل محرك الحافلة. سارت ببطء عبر شوارع البلدة، وشعر الصبيان بتعشيق علبة التروس، وتغير شكلها، وانتقال القوة عبرها. عندما صاروا على الطريق السريع، تمايلت الحافلة، ثم انتقلت بسلاسة إلى سرعة أعلى.

رفعا رأسيهما، ذاهلين، وأصغيا إلى قعقعة المحرك. آلمتهما أذناهما، وطارت قطع من الحصى أو الحجارة بين الفينة والأخرى نحوهما ولسعتهما مثل خردق. رجّت وصلات في الإسفلت عظامهما، وامتلأ جسداهما بالأدرينالين، وتملّكهما شعور بالرعب. بقيا على بطنيهما، رافعين أقدامهما، مكوّرين أرساغهما حول القضيب المعدني، وجهاً لوجه، يثبّتهما الخوف في مكانهما.

اخترق الألم طبلتي أذني روميو، ولكن عرف أنه إذا رفع يديه إلى أذنيه سيموت نتيجة السقوط إلى الأرض. صار الألم أسوأ بمرور الوقت، ثم انفجر شيء ببطء في رأسه وخفّت الضوضاء. حاول الفتى جاهداً ألا ينظر إلى الأسفل نحو الطريق السريع، الذي ظهر في كل مكان حولهما وغلّفته بغشاوة بغيضة. كان الشيء الوحيد الآخر الذي يمكنهما رؤيته هو بعضهما.

أغلق لاندرو عينيه، فتحكّمت به العتمة وجعلته يشعر بالدوار. كان عليه أن يركّز على روميو، الذي لا يحب أن يحدّق أحد إليه، أو أن ينظر بنفسه إلى عيني شخص آخر، إلا إن رفعت مدرّسة رأسه وأرغمته على ذلك. لم يكن ذلك يحدث في أسرة لاندرو، أو بين أصدقائهما، ما أثار حنق المدرّسين البيض. في تلك الأيام، لم يكن الهنود ينظرون إلى أعين الناس إلا نادراً. لم يكن الأمر سهلاً أو مقبولاً حتى، لكنه ضروري فقط. تحت الحافلة، لم يكن هناك مكان آخر ينظر إليه الصبيان باستثناء عيني بعضهما.

عندما كبر الاثنان وتذكّرا التجربة كلها، أدركا أن تلك النظرة الاضطرارية كانت أسوأ ما فيها على الإطلاق.

بدا شعر روميو القصير والبني الفاتح ملتصقاً برأسه، وملأ الدخان بؤبؤيه خوفاً. تلوّى وجه لاندرو الوسيم في الريح وطار شعره المسترسل خلفه، وضُغطت عيناه في شقّين صغيرين، لكنه كان لا يزال بمقدوره أن يرى ـ أوه، نعم يستطيع الرؤية ـ البقع الصغيرة البنية الفاتحة في قزحيتي روميو، ميلاً بعد آخر. بدأ يفكّر، مع انقضاء الدقائق، دقائق لا تنتهي امتدت إلى ساعة، التي بدورها بدت سرمدية آنذاك، بأن عيني روميو ستكونان آخر شيء يراه على الأرض؛ لأن جسديهما يفقدان القوة التي يحتاجان إليها للتشبّث بالقضيب الحديدي. الذراعان، الكتفان، البطن، الفخذان، الساقان، كلها متيبّسة، وتفقد قوتها باضطراد، كأن الضوضاء نفسها تدفعهما بعيداً عن مكانهما. لو أن كليهما لم يكن فتى صلب العود، وخفيف الوزن، ولديه عضلات قوية تمكّنه من تسلّق سارية العلم، والقفز من فوق الأسوار، والإمساك بغصن في يد، والتأرجح على شجرة بالأخرى، فوق سياج، لكانا قد لقيا حتفيهما. لو أن الحافلة لم تخفّف سرعتها في ذلك الوقت تحديداً، وتتوقف عند محطة للاستراحة، لكانا قد ماتا أيضاً.

بقيا واجمين من شدة الألم. تفوّه لاندرو ببضع كلمات، ولكن اكتشفا أنهما لا يستطيعان سماع شيء. راقب كل منهما فم الآخر يفتح ويُغلق.

صرخا حين أفلتا القضيب المعدني واندفع الدم عائداً إلى العضلات. شاهدا من تحت الحافلة ساقي رأس الزبدية السمينتين، وسروال السائق الرمادي، ثم كواحل وأقدام الفتية الآخرين النحيلة. انتظرا على ساحة وقوف المركبات الإسفلتية حتى ذهب الجميع إلى الحمامات وعادوا إلى الحافلة مجدداً. أُغلق الباب، وشغّل السائق محرك المركبة، فتدحرجا من تحتها مبتعدين عنها، واختبآ خلف برميلٍ خاصٍ بالنفايات. عندما رحلت الحافلة، سارا بتثاقل إلى مجموعة من أشجار الراتينغ الزرقاء الكثيفة على الحد الخارجي للساحة. تلوّى كل منهما ألماً طوال نصف ساعة، وعضَّ على عيدان حوله. عندما خفَّ الألم على نحو يسمح لهما بالتنفّس، شعرا بعطش شديد، وجوع أيضاً، وتذكّرا أنهما قد تركا كيسيهما عالقين تحت الحافلة. خطر في بالهما آنذاك الخبز الذي قد أخفياه بين ثيابهما.

كانت محطة الاستراحة خالية، لذا غادرا الأجمة ودخلا المكان. شربا الماء من الصنابير، وقضيا حاجتهما، وتساءلا إن كان بمقدورهما قضاء الليلة هناك. لكن لم يكن هناك متسع في الحمام، حقاً، للاختباء فيه. بحث روميو في النفايات وعثر على قطعة حلوى، وسال لعابهما عند تناول الشوكولا. خرجا من الباب، ولاحظا سيارة تنعطف نحوهما من الطريق السريع. أسرعا إلى الخلف وتواريا تحت الأشجار. خرجت أسرة مكوّنة من أربعة أفراد بيض من السيارة بحوزتهم كيسان ورقيان بُنيان. وضع الطفلان الكيسين على طاولة نزهات، ثم ذهب أفراد الأسرة إلى المراحيض.

ركض لاندرو نحو الكيسين في اللحظة التي اختفوا فيها عن الأنظار. جرى روميو إلى السيارة بحثاً عن طعام آخر، ورأى أن المفاتيح لا تزال في مقبس التشغيل. أشار إلى روميو، الذي مشى بخطوات سريعة إليه، وجلس خلف المقود، ثم أدار المفتاح، وبدّل وضعية علبة التروس، كأنه كان يفعل ذلك طوال عمره.

انعطف روميو ولاندرو من الطريق السريع إلى درب إحدى المقاطعات، المفروشة بالحصى. تابع لاندرو قيادة السيارة، وأكلا الشطائر، والبيض، وكل شيء آخر باستثناء التفاحتين، واحتفظا بقارورة عصير الليمون، والقبعات والسترات. تركا السيارة متوقفة على طريق جانبي داخل أجمة، وعادا جرياً إلى سكّة قطار أرادا تجاوزها. بدآ السير غرباً على القضبان. عندما حلَّ الظلام، وجدا مأوًى، فارتديا السترات الإضافية واستخدما القبعات على أنها وسادتان. تناولا التفاحتين وشربا ثلث عصير الليمون. مرّت ثلاثة قطارات في تلك الليلة، بسرعة أكبر من قدرتهما على ركوبها. تابعا السير في الصباح.

قال روميو: «أتساءل عن شيء واحد، وآمل ألا أعرف أبداً».

قال لاندرو: «ماذا؟».

«كيف تقص رأس الزبدية شعرها حقاً. باستخدام زبدية بحجم رأسها تماماً أو ماذا؟».

قال لاندرو: «تحوّل ذلك الشعر من بني إلى أبيض في أحد الأيام».

«لفتت كثافة ولمعان شعرها الأنظار فعلاً».

لم يصدّق روميو أن ذلك حدث في يوم واحد، ولكن سأل عمّا جرى.

«ما سمعته أنها قد عادت إلى قاعة الطعام ورأت شبح ميلبرت بهيئته التي ظهر عليها بعد أن غرق في تلك الرحلة المدرسية. سألها عن السبب الذي منعها من أن تركض إليه حين رأته يغرق. لم يكن الماء يصل إلى أكثر من بطنها. قال الناس إنها طفيلية».

تمتم روميو: «وقفت عاجزة».

«صرخت على السيد جالينسكي، الذي قفز إلى الماء. لحقته إرماين، وخاضت في المياه، وتبعها كل الأولاد الذين يجيدون السباحة، وكل الراشدين الآخرون. لم يعثروا عليه إلا في وقت متأخر، وقالوا إن السبب هو ثعبان الماء».

لم يقل روميو شيئاً، ولكن تساءل أحياناً بشأن لاندرو. كان بعض الأولاد قد سمعوا معلّماً من لويزيانا يقول إن ثعبان الماء سام. اختلق بعض الأطفال رواية عن وجود أفعى من الماء تتسلّل حول قدمك وتسحبك إلى الأسفل. عرف روميو أنه ثعبان وأن ميلبرت قد غرق؛ لأنه لم يكن يجيد السباحة. كان لاندرو لطيفاً، ولكن طفيلية؟ ثعبان ماء؟ أزعجت تلك الألفاظ روميو. لم يقتصر الأمر على ذلك، وإنما شعر بألم في رأسه أيضاً.

تذمّر روميو: «لا يستطيع هذا القطار أن يتحرّك باستمرار، من دون سبب وجيه. لا بد من وجود مخزن حبوب في مكان ما هنا».

استطاعا رؤية مزرعة على بعد أميال منهما، وبدت مثل وشيع مربع أخضر عند الأفق، ومساحة مستوية من الأرض. كانت الشمس تكاد تغرب وقد شربا كل عصير الليمون، وينظران إلى بعضهما بترقّب. لكن لاندرو أعطى روميو الجرعة الأخيرة قائلاً: «اشربها كلها»، وأشاح ببصره بعيداً، بتردّد. لم يعد لديهما شيء يأكلانه طوال ساعات باستثناء أطراف الأعشاب الطويلة النضرة على دربهما.

قال روميو: «قد نصل إلى هناك بحلول الظلام».

قال لاندرو: «أنا واثق بأن لديهم كلباً».

لكن تابعا السير.

راقبا المنزل من مخبأ في أجمة ليلك معمّرة دائمة الخضرة، طابقان، مطلي بالأبيض، زخارف خشبية على طول الطابق الأول وأربعة أعمدة تحمل شرفة أمامية صغيرة وأنيقة. اشتعل ضوء في الخلف، وفُتح باب الغربال قليلاً، ثم أُغلق بقوة. اقترب كلب عجوز أبيض الخطم بتثاقل من الساحة، وتبعته امرأة مسنّة طويلة. كانت ترتدي فستاناً ضارباً إلى البياض وكنزة رجالية رمادية فضفاضة، وتنتعل خفّين من جلد الغنم. لاحظ الصبيان الخفّين لأنها مشت بهما على حافة الأعشاب القصيرة. تلكأ الكلب في الخلف وتوقف أمامهما وهو يحرّك أنفه، وعيناه معتمتان وباهتتان.

قالت المرأة: «تعال إلى هنا يا فتى الفلفل».

وقف الكلب أمامهما لحظة أخرى، واكتشف كما يبدو أنهما مسالمين، ثم مشى بخطوات تلقائية متثاقلة إلى سيدته. دار الاثنان حول الساحة، وأكملا عشر جولات، وتحرّكا ببطء أكبر في كل مرة. لاحظ لاندرو المرهق أن المرأة وكلبها يحاولان الاستفادة من آخر ضوء يتسلّل عبر الأشجار، وكسب الدفء الذي يجلبه معهما أثناء ترقّبهما موجات متواصلة من الظلام. اشتدّت العتمة أخيراً ولم تعد المرأة والكلب مرئيين تقريباً. توقف الكلب في كل مرة تجاوزاهما فيها لينظر إلى الصبيين، ثم لحق بالمرأة مجدداً. في الجولة الأخيرة، سمعهما الصبيان يقتربان منهما، وعندما توقف الكلب تلك المرة، لاح ظل المرأة الأسود أمامهما.

سألت: «هل أنتما جائعين؟ حضّرت بعض الطعام».

لم يجرؤا على الرد.

مشت مبتعدة عنهما، وبعد بضع دقائق خشخشت الأوراق حين خرج الصبيان من الأجمة، وتبعاها إلى الباب. وقفا في الخارج حين دخلت المنزل.

صرخت، بصوت مختلف، متشكّك؛ كأنها ظنّت أنها ربما لم ترهما حقاً: «يمكنكما الدخول أيضاً».

دخل الصبيان المطبخ، وتردّدا حين شاهدا المرأة العجوز في الضوء. كانت رائعة، نحيلة وطويلة جداً، وقد

سفعتها الشمس جيداً، ووجهها مثل مروحة مطوية من تجاعيد أفقية. بانت كتلة سميكة من شعر أبيض، كأنها غُرّة فوق جبينها. كان جانبا شعرها مثبّتين بأناقة إلى الخلف، وأذناها بارزتين إلى الأمام، أذنان مدوّرتان ورخوتان قد تغضّنتا على امتداد حياتها. كانت عجوزاً جداً، وحتى معمّرة. بدت زرقة عينيها الباهتة متداخلة في البياض، ما منحها مظهر شخص قد خرج من القبر. لم يكن مظهر المرأة غريباً فقط، وإنما وجود هاتف في المطبخ أيضاً. كم سيطول الوقت قبل أن تتصل بالشرطة؟ شعر الصبيان بتوتّر كافٍ لدفعهما إلى الفرار.

قالت المرأة فجأة: «لماذا، أنتما ترتديان ثياباً جديدة!»، وابتسمت بلطف، من دون أن تُظهر أسنانها؛ كأنها تعرفهما.

نظر الولدان إلى ثيابهما القديمة المتسخة.

استدارت لتفتح الثلاجة، وبدأت إخراج أوانٍ وأطباقٍ مغطاة بورق القصدير. أعطتها إلى الصبيين، اللذين تقدما خطوة إلى الأمام.

قالت: «ضعاها في الفرن».

فتح لاندرو موقد فرن خزفي نظيف، ووضع الصبيان طبقاً بعد آخر في الداخل. كان الفرن بارداً. تفحّص روميو قرص التشغيل وأداره، فارتفعت الأرقام إلى 500، ولكنه ثبتها عند 425.

قالت المرأة، وهي تفرك يديها: «ها نحن ذا. ماذا غير ذلك؟».

فتحت خزانة، وأخرجت صندوقاً من رقائق بسكويت مالحة وعلبة سردين، ووضعتهما على الطاولة. كان هناك إبريق شاي بارد.

«اجلبا بعض الكؤوس».

لوّحت بيدها إلى شبكة تجفيف الأطباق. نهض الكلب من على بساط محبوك عند الزاوية وجاء ليستلقي عند قدميها. عندما بدأ الولدان تجرّع الشاي، نزعت المفتاح من علبة السردين، وأدخلته بيد مرتعشة في الشق، ثم أدارته حتى فتحت نصف الغطاء.

«شُوَك؟». هزّت رأسها نحو الأدراج إلى يسار المغسلة. أحضر لاندرو الأشواك، وخمّن روميو الخزانة الصحيحة وجلب إلى الطاولة ثلاثة أطباق صفراء كبيرة تحمل صور سيدات يرتدين تنانير ورجال يعتمرون قبعات يرقصون على الحواف. أخرجت المرأة قطعة سردين من العلبة باستخدام شوكة، وهرستها مع البسكويت في طبقها. أومأت إلى الصبيين أن يفعلا الشيء نفسه. علق الطعام في حلقيهما في البداية، ثم بدا أن يديهما تمسكان لا إرادياً قطعة بعد أخرى من الرقائق الهشّة. ابتلعا كل السردين باستثناء القطعة الأخيرة، التي تركاها للمرأة العجوز. كانت تراقبهما، مبتسمة، وقد بدت أسنانها داكنة ومكسورة.

قالت: «تابعا، فقد أكلت كفايتي». تقاسم الولدان القطعة الأخيرة.

أخبرتهما: «مات زوجي بسبب مرض في القلب. قلبي يخفق بقوة، ولكن لا أهتم إن توقف فعلاً». سألت لاندرو: «كيف أمك وأبوك؟ ألا يزالان يحفران قبوهما؟».

نظر لاندرو إلى روميو، ورفع حاجبيه.

قال روميو: «يحفران؟».

أومأت المرأة.

«لا بأس، إنها طريقة جيدة لحفظ المؤن من أجل الشتاء. لقد أخبرناهما بأن البرد قاسٍ على الهنود. قال زوجي إنهم يحتضرون، وأن واحداً منهم يموت كل يوم، لذا أنا مسرورة برؤيتكما أيها الولدان، ومسرورة أنكما وصلتما إلى هنا. أسرتكما من الهنود الطيبين. قال زوجي دائماً إنهم أفضل الأصدقاء على الإطلاق حين يكونون طيبين. سيسرق السيئ كل شيء منك، ويصير شريراً حين يثمل. كنتما طيبين دائماً أيها الصبيان. أنتما ولدان صالحان».

رنَّ الهاتف، فاهتزّوا جميعاً. لعقت المرأة شفتيها ووقفت لترد. كان هاتفاً أسود مثبّتاً على الحائط، وقد مُحيت الأرقام عن القرص. ضغطت السمّاعة بقوة على أذنها الكبيرة.

قالت: «بخير». كانت تحدّق إلى جهاز الهاتف كأن المتصل داخله.

تابعت وقد ظهر الشك على وجهها؛ كأنه سؤال مخادع: «لم أتناوله بعد»، قالت بخنوع: «نعم، الفرن مطفأ. سأخرج لاستلامه. نعم، نعم، أنا جائعة».

ظهرت نظرة ماكرة على وجهها، واستدارت لتغمز الصبيين. «جائعة أكثر من أي وقت مضى!».

«حسناً، عمت مساء».

أغلقت السمّاعة وتأفّفت. كانت روائح تسخين كل أنواع الطعام المختلفة قد ملأت المطبخ، ولكن لم تلحظ ذلك. جلست إلى الطاولة مجدداً، عابسة.

سأل روميو: «هل نُخرج الطعام؟».

تحرّك فم المرأة بصمت، ثم فزعت.

«أخرجا الأطباق أيها الصبيان. لنتناول الطعام!».

بطاطا مهروسة، ومرق، وذرة بالقشدة، وسبانخ باللبن، ودجاج مع بازلاء وجزر، وفطيرة ذرة بالتوابل لذيذة الطعم. شريحة سميكة من اللحم، التي تقاسمها الصبيان، وخبز ذرة، وجزر بالزبدة، ومعكرونة مع جبن، ومعكرونة مع لحم، ومعكرونة مع تونة. قطعة سميكة من لحم البقر مع الفطر، ومزيد من المرق. أكلوا كل شيء. لم يكن طعم بعضها شهيّاً، إنما ساخناً ومقبولاً في الوقت عينه. كانت هناك فطيرة تفاح كبيرة، تنز عصيراً حلواً سميكاً ولم تُقطّع بعد، على النضد تحت منشَفة الأطباق.

استرخت المرأة العجوز في مكانها، ومالت إلى الخلف لتستمتع برؤيتهما يتناولان الطعام ويأكلان بنهم.

تمتمت: «يمكن أن تأكلوا أيها الفتيان دائماً، على الدوام».

عندما انتهيا من الأكل، وجلسا منتصبي القامة، خدرين، قالت: «ليس لدينا أشياء كثيرة نغسلها باستثناء أطباقنا وأشواكنا. يقول سيل إنه يجب نقعها أولاً، وإنه سيغسلها مجدداً بأي حال. أظنُّ أنه ينبغي أن تعودا أيها الصبيان إلى قومكما بعد ذلك. يمكن أن تأخذا كل شيء معكما، أو ما بقي منه. قد يخرج إخوتكم وأخواتكم بحثاً عنكما. لا أحتاج إلى كل هذا. لا يمكنني الطهي لمجموعة كبيرة من الناس. إذاً، هل ستغادران؟».

قال روميو: «نحن ... لا يمكننا الذهاب إلى البيت. هل يمكننا البقاء هنا؟ معك؟».

نقلت المرأة بصرها من أحد الصبيين إلى الآخر.

قالت: «لم تفعلا ذلك أبداً من قبل».

تدخّل لاندرو: «حلَّ الظلام».

ضحكت المرأة العجوز. «يقول والدك إن الهنود يستطيعون الرؤية في العتمة، ولكن ربما لم تتعلّم هذا بعد. بالتأكيد. افعلا شيئاً من أجلي. اذهبا إلى النوم في تلك الغرفة الكبيرة في الأعلى، التي يوجد فيها غطاء سرير أخضر. تقلّبا على السرير كما يحلو لكما، ولا ترتّبا شيئاً في الصباح. أحبُّ أن تصدح الموسيقى من مذياعي في الليل، هنا في الأسفل. أحب الاستماع إليها على الأريكة حتى أغفو. إنها أريكة جيدة، ولكن سيل يتوتّق دائماً من نومي هناك، من أجل ظهري. لا يهم! هيا اذهبا!». أشارت إلى الأعلى وهي تضحك.

قالت: «لن يفهم سيل ما جرى»، وأدارت القرص على المذياع حتى سمعت موسيقى هادئة تشبه الفالس. أطفأت الضوء واستلقت على الوسائد.

نام الولدان، مرهقين ومتخمين، بعمق حتى الصباح واستيقظا على أصوات جدال في الأسفل. كان صوت الشاب عالياً وحاداً، وبدا أنه ينتعل حذاءً ثقيلاً. سمعا وقع خطواته الصاخبة في المكان، ثم انخفضت نبرة صوت الشاب، إلا أنه بقي مسموعاً دائماً. كان صوت المرأة خافتاً، كأنها تتكلم عبر الهاتف، ولم يسمعا ما تقوله.

سمعاه يدخل المطبخ ويخرج منه، قائلاً العبارات نفسها مراراً. «لا يمكن أن تأكلي كل تلك الكمية! لقد جئت إلى هنا لتنظيف ثلاجتك، ولكن لا يمكن أن تأكلي كل ذلك!».

لا بد أن الشاب قد فتّش القمامة.

«لم ترمي ذلك الطعام، إلا أنك تخلّصت منه ربما في الغابة».

لم تقل المرأة العجوز شيئاً.

«حسناً، حسناً! لن تفعلي ذلك. هل نمتِ هنا على الأريكة مجدداً يا أمي؟ حسناً، هل فعلت؟ هل نمتِ هنا؟ طلبت منك ألا تفعلي هذا، أليس كذلك؟ هل تريدين أن تعاودك آلام الظهر، وأن أحملك إلى المعالج الفيزيائي في حين أنني يجب أن أنجز كثيراً من الأعمال؟ هه؟ لا تتظاهري بأنك لا تسمعينني. لا تديري رأسك بعيداً عني بهذه الطريقة».

لا بـد أنهـا قـد أقـرّت بنومهـا علـى الأريكـة؛ لأن الشـاب، ابنهـا، وبّخهـا بقسـوة. شـعر الصبيـان بالدهشـة، وأصغيـا إلـى مـا يـدور فـي الأسـفل. علـى الرغـم مـن أنهمـا قـد سـمعا سـابقاً شـجاراً بيـن راشـدين، فـإن الطريقـة التـي تكلـم بهـا الابـن بسـخرية مـن والدتـه كانـت تـؤدي إلـى انفـراط عقـد المحبـة بينهمـا بالتأكيـد.

قـال الابـن بخبـث: «حسـناً إذاً. شـكراً لأنـك صادقـة معـي. لا بـأس، لا ينبغـي إذاً أن أصعـد إلـى الأعلـى وأرتّـب الفـراش».

عرفـا أن المـرأة العجـوز تذكّـرت آنـذاك أنهمـا موجوديـن فـي الأعلـى.

تكلمت بضع جمل، وبدا أنها أقنعت ابنها أخيراً.

«ربمـا ظننـت أن هنـاك كميـة طعـام أكبـر ممـا كان موجـوداً فعـلاً. هـه! حسـناً، سـأترك هـذا الكيـس لـك. لا تطبخيـه كلـه مـرة واحـدة، هـه؟ سـيكفيك هـذا طـوال أسـبوع. لا يـزال هنـاك بعـض الطعـام الـذي تركتـهِ فـي المجمّـدة. لكـن مهـلاً، هـذه الفطيـرة. أمـي، لا تكذبـي علـيّ الآن! لا تكذبـي علـيّ أبـداً، لقـد خبـزت تلـك الفطائـر كلهـا، ولكنـك لا تأكليـن أبـداً تلـك الكميـة منهـا».

سـمعاها حيـن قالـت بصـوتٍ عـالٍ: «لقـد قطفـت ذلـك التفـاح مـن شـجرتي، طهوتـه، وجمّدتـه. يمكننـي خبـز فطيـرة، أليـس كذلـك؟».

وتوالـت أسـئلة الابـن المشـكّكة. «لـم يبـقَ إلا قطعتـان! مـاذا يجـري؟ هـل اسـتقبلت زائـراً؟».

بـدا أن المـرأة العجـوز اختلقـت قصـة مـا عـن الكلـب؛ لأن الابـن قـال بعـد ذلـك: «تقيأ؟ هـل حـدث ذلـك فـي المنـزل؟».

تحـرّك سـيل بتثاقـل بعـض الوقـت، وبحـث عـن القـيء، ولكـن بـدا واضحـاً أن الكلـب عجـوز جـداً ولا يقـوى علـى الصعـود إلـى الأعلـى؛ لأن الابـن لـم يصعـد علـى السـلالم للبحـث هنـاك. غـادر بسـرعة، وركـب شـاحنة بيضـاء لامعـة. اختلـس الصبيـان النظـر مـن فـوق إفريـز النافـذة، وراقبـا الابـن ينطلـق مبتعـداً فـي مركبتـه، ويقطـع مسـافة طويلـة حتـى لـم يعـد ممكنـاً رؤيـة شـيء باسـتثناء بعـض العجـاج خلفـه.

نـزلا علـى السـلالم، ووجـدا المـرأة واقفـة بجانـب النافـذة تراقـب المـكان الـذي اختفـى فيـه ابنهـا. اسـتدارت نحوهمـا، وقـد بـدت علـى وجههـا تعبيـرات يعرفهـا الولـدان جيـداً: الغضـب والخجـل مـن تملّـق شـخص يسـيطر علـى مصيـرك، ويظهـر طيبتـه أمامـك. لـم يكـن شـيئاً يمكنهمـا تسـميته، ولكـن بقـي مهمـاً لهمـا باقـي حياتهمـا. عـرف الصبيـان أن المـرأة العجـوز تعرفهمـا مـن الطريقـة التـي بـدا أنهـا تفكّـر بهـا. وقفـا ينظـران إلـى بعضهمـا فـي غرفـة المعيشـة. أدركا أن المـرأة قـد لانـت قليـلاً أخيـراً، ووضعـت يدهـا المرتعشـة علـى صدرهـا.

قالـت، وقـد ترقرقـت دمـوع فـي عينيهـا فجـأة: «أنـا مسـرورة برؤيتكمـا أيهـا الصبيـان». ضحكـت، مرتاحـة، ولاحظـا مـدى خوفهـا مـن أن يـدرك ابنهـا أنهـا تائهـة تمامـاً فـي ذلـك العالـم.

«هـل تشـعران بالجـوع مجـدداً؟». بانـت تلـك التكشـيرة الهزيلـة.

تكلمت في وقت لاحق ذلك الصباح.

«أوه، كانت الأرض خصبة هناك. بدأنا في ديفلز ليك بقطعة صغيرة من الأرض، فيها مرعى منحدر، وفدانان مستويان. كل ما فعلناه هو حرث التربة. كان الماء على عمق خمس عشرة قدماً فقط، وقد حفرنا بئراً أخرجت مياه عذبة. اشترى زوجي الأرض من أمك وأبيك باثنتي عشرة قطعة نقدية حين تراكمت عليهما الضرائب. كان كل المزارعين يشترون أراضي الهنود بثمن رخيص ذلك العام. انتقلتم جميعاً إلى منزل جدّك، ولكن تلك المزرعة لم تكن كبيرة. قد تتذكّر أن أمك كانت جميلة آنذاك، بضفائرها الهندية، وكيف أنها جاءت بحثاً عن بعض الطعام مثلكما تماماً أيها الصبيان، وقد احتفظتُ دائماً بشيء من أجلها. معاطف، وفساتين، وبطانيات قديمة، وأشياء بالية لتصنع منها لُحُفاً. أعطيتها حتى إبراً وخيوطاً. أحببتكم أيها القوم. كان يجلبون بعضاً مما يصطادونه أيضاً. ماتوا بسرعة بعد أن ذبلوا جميعاً، لسببٍ أو آخر. مرضوا كلهم».

«وأنتما أيها الصبيان، إلى أين ذهبتما؟». شدّت قامتها وحدّقت إليهما بحنان. «إلى أين ذهبتما؟».

توقف الصبيان، وسحبا أنفاساً. كانت تحدّق إليهما، وتبدو قلقة عليهما.

قالا: «ذهبنا إلى مدرسة داخلية».

قالت: «أوه، نعم. طبعاً فعلتما. فورت توتن. هل أحسنوا تغذيتكما؟».

كان فورت توتن قد أغلق أبوابه منذ أعوام.

على الرغم من قدرتهما على أكل المزيد دائماً، فإن الطعام كان كافياً في مدرستهما. كان هذا أحد الأسباب التي جعلت روميو يحب ذلك المكان. لا، لم يكن الطعام هو سبب فرارهما، وإنما العيش مكرهاً وفقاً لقواعد الغرباء، ومع جدّيه اللذين قد أحبّاه لكنهما لم يعودا موجودين آنذاك، ومع ذلك التعبير الذي قد رآه على وجه المرأة العجوز ـ الكفاح من أجل إنقاذ نفسها ـ تذكّر لاندرو ابتسامة رأس الزبدية المميزة حين كان يفعل شيئاً هندياً، وشعر بالجزء الآخر منها بقوة أيضاً، بعد مشاهدته طريقة تعامل ابن المرأة معها، وحيرتها تجاه الحقيقة التي ينبغي أن تختارها.

قال لاندرو: «لقد أطعمتنا جيداً».

نظرت المرأة إليهما بوجهها المتغضّن الخالي من أي تعبير، وعينيها اللتين تبدوان من عالم الأرواح.

«أردتما شيئاً؟ خذاه». أشارت إلى كل غرض حولها. «خذا أي شيء، قبل أن يأخذه. يريد أن يبيع كل شيء، الأرض، والمنزل. التزما الهدوء أيها الصبيان، واخفضا رأسيكما، كما تفعلان الآن». قالت لروميو، ثم للاندرو: «خذاه، خذا كل شيء».

* * *

قوارير ماء، ومال، وأكياس طعام. مشى روميو ولاندرو عائدين إلى خط السكك الحديدية وتابعا طريقهما غرباً.

ستحمل السكّة في أربعين عاماً عربات فولاذية سوداء بطول ميل مملوءة بالزيوت، لن تتوقف القطارات حتى تتعطّل أو تصل إلى الميناء. لكن عندما هرب الصبيان لم تكن هناك قطارات شحن منتظمة تحمّل الحبوب في عرباتها من مخازن البلدة. خطر لهما حين سارا على السكّة وتجاوزا مئات الفدادين من مزارع القمح والذرة التي لم تنضج تماماً بعد أنه لا يوجد سبب لتحميل قطار من مخزن حبوب في بداية الصيف.

توقفا عند شجرة حور وارفة، وجلسا تحتها، ثم أكلا بيضاً مسلوقاً، وشطائر، وجبناً، ومخللاً. كانت سيدة المزرعة العجوز قد أعطتهما نقوداً من جورب سري محشو بعملات ورقية ملفوفة. حاولت أيضاً أن تعطيهما ساعة يد زوجها، وخاتماً بحجارة بيضاء، وسواراً مصنوعاً من حجارة صفراء، وساعة حائط قالت إنها عتيقة. وافق لاندرو على أخذ تلك الأشياء، ولكن روميو رفض بتهذيب.

قال روميو للاندرو حين تناولا الطعام: «يا رجل، أين كان عقلك هناك؟ إذا اعتقلتنا الشرطة وبحوزتنا أغراض تلك السيدة المزارعة، سيزجّون بنا في السجن».

هزَّ لاندرو كتفيه. «يجب أن نعدَّ المال».

كانت الأوراق العليا من الرزمة من العشرات، وداخلها أخرى من فئة العشرين، مع ورقتي مئة دولار فقط، ما أدهشهما.

قال روميو: «أوه، لا، لا. أنا مقتنع بأن سيل يعرف بشأن هذا. سيتصل بالشرطة».

بدا لاندرو ذاهلاً، ولكنه تابع العد. كان المبلغ يزيد على ألف دولار.

قسم الصبيان المبلغ بعناية، ونزعا النعلين الداخليين من حذاءيهما ووضعا ورقتي المئة دولار والعشرينات هناك. احتفظ كل منهما بسبعين دولاراً في جيوبهما، وتابع السير وهما يدوسان على المال المريح في نعليهما، حتى وصلا إلى إحدى البلدات. كانت مدينة صغيرة نسبياً فيها مخزن بن فرانكلين كبير. دخلا المكان، وتبعتهما صاحبة الحانوت، إلا أنهما كانا معتادين على ذلك. لم يزعج ذلك لاندرو، ولكن روميو لوّح بوقاحة بورقة عشرة دولارات أمامها. اشترى لاندرو قطعتي عرق سوس سوداوين، في حين ابتاع روميو قطعاً صغيرة من الحلوى. دفعا الثمن وخرجا إلى الرصيف، ثم سارا إلى حافة البلدة، ولاندرو يتظاهر بأنه يدخّن. عند الطرف الشرقي، تجاوزا مقهى صغيراً يحمل لافتة كتب عليها «حافلة». عبّر لاندرو عن مخاوفه من شراء تذكرة، وتجادلا بشأن المكان الذي سيذهبان إليه. الديار؟ ليس إلى هناك.

قال لاندرو: «ينبغي أن نذهب إلى مينابوليس ونحصل على عمل هناك»؛ لأنه سمع أشخاصاً يقولون هذا.

حدّق روميو إلى لاندرو.

قـال: «لـن يوظّفنـا أحـد، إذ يُفتـرض أن نكـون فـي المدرسـة. إذا رأونـا، قـد تعتقلنا الشـرطة».

تسـاءل عـن بلـوغ لانـدرو ذلـك العمـر مـن دون أن يفهـم كيـف تجـري الأمـور؟ لكـن لانـدرو تابـع الـكلام عـن مينابوليـس والوظائـف حتـى استسـلم واشـتريا تذكرتيـن تبيّـن أنهمـا مكلفتيـن جداً، علـى الرغـم مـن أن روميـو بـدا واثقـاً أن ذلـك كلـه خطـأ. عندمـا ركبـا الحافلـة، قـال: «مـاذا سـنفعل؟ خاطرنـا بحياتنـا حتـى لا نركـب فـي حافلـة».

لكـن الحافلـة انطلقـت تقعقـع علـى الطريـق، ووجـدا نفسـيهما عالقيـن علـى متنهـا. كانـت المقاعـد وثيـرة علـى الأقل ويمكـن إمالتهـا إلـى الخلـف، ومعدتهمـا مملـوءة بالطعـام. شـعرا بالنعـاس، ثـم غطّـا فـي نـوم عميـق. اسـتيقظا عنـد اسـتراحة الغـداء، واشـتريا حسـاء، وتجرّعـاه بسـرعة. راقـب لانـدرو روميـو يتنـاول حسـاءه، وفكّـر، كمـا قـد فعـل مـرات عديـدة، بأنـه يبـدو شـخصاً ماكـراً بوجهـه وتـدي الشـكل، وعينيـه المتقاربتيـن، وفكّيـه الحادّيـن.

تجـاوزا داكوتـا الشـمالية الواسـعة، ثـم مـزارع مينيسـوتا المتماوجـة. صمتـا تمامـاً، واسـتغرقا بتأمـل الأرض الجميلـة، والبلـدات الصغيـرة الأنيقـة المشـيّدة مـن الآجـر والحجـارة. ثـم رآهـا لانـدرو علـى طريـق عـام خـالٍ. أمسـك روميـو وسـحبه إلـى نافـذة الحافلـة. مشـت امـرأة علـى طـول الخـط المنصّـف، نحوهـم. كان لانـدرو قـد شـاهدها مثـل نقطـة صغيـرة بعيـدة فـي البدايـة، ولكـن كان هنـاك شـيء مألـوف فيهـا. أدرك حيـن

اقتربت كفاية أنها رأس الزبدية. كان شعرها أبيض، وقصيراً، ومصفّفاً بالطريقة المعروفة نفسها. انخفضا في مقعديهما حين تجاوزتها الحافلة. اندفع لاندرو إلى مؤخرة المركبة ليرى إن كانت قد عرفتهما، وارتطم براشدين يقبّلان بعضهما تحت بطانية على المقعد الخلفي الكبير. كانت رأس الزبدية بعيدة لكنها تركض، كما ظن، تجري بالتأكيد خلفهما. كان يعرف أنها بطيئة في الجري؛ لأنه رآها سابقاً تطارد فتى اسمه أرتان. على الرغم من أن رأس الزبدية لم تكن سريعة، فإنها أظهرت إصراراً وعزماً، ولم تتوقف. ركض أرتان في حلقات بالمكان، ولكنها أمسكت به في النهاية؛ لأنها تحمّلت أكثر منه، ولم تستسلم أبداً، أو تتردّد في مطاردتها له.

كان يرتجف حين عاد وجلس بجانب روميو. عندما أخبر لاندرو عما رآه، وضع روميو رأسه على ذراع لاندرو وقال إنها ليست رأس الزبدية.

«إنها تشبه كثيراً من السيدات البيض، ألم تلحظ هذا؟».

هدأ روع لاندرو، لكنه لم يستطع التوقف عن التفكير بأن رأس الزبدية كانت شبحاً، أو قوة، أو عنصراً أطلقته المدرسة الداخلية لمطاردتهما حتى نهاية الوقت.

أوصلتهما الحافلة إلى المدينة.

عندما ركبا الحافلة، كان السائق قد سألهما عمّن سيلتقي بهما في مينابوليس. التزما الصمت تماماً. استفسر: «الأم

والأب؟ قريب؟». أومآ ارتياحاً. كانا على وشك الترجّل متجاوزين السائق آنذاك، ولكنه أمسك بهما.

قال: «انتظرا هنا. سأرافقكما إلى والديكما. اتفقنا أيها الصبيان؟».

أومآ مجدداً. عندما نزل السائق على الدرجات ليفتح حجرة مقصورة الأمتعة تسللا من الحافلة ودخلا المحطة. اختلطا مع مجموعة أشخاص ينظرون إلى حشد صغير يقف خلف حبل على جانب الممر. انخفض الصبيان تحت الحبل، واندفعا عبر الباب الزجاجي، وصارا في الشارع.

ضغطت الضوضاء من كل جانب، ودفعتهما إلى متابعة السير. حاول روميو مراقبة اللافتات المعدنية والبقاء في الجادّة الأولى. لم يكونا قد شاهدا إشارات المرور الضوئية إلا بضع مرات فقط في حياتهما، في حين كانت في كل مكان آنذاك. قلّدا ما فعله أشخاص آخرون، وشربا من صنبور ماء عام، ونظرا في النوافذ أو إلى لوائح الطعام المؤطّرة خارج المطاعم. سارا كأنهما يعرفان إلى أين يذهبان، واشتريا من محل صغير عند إحدى الزوايا قوارير مياه غازيّة وعلب فشار بالزبدة. وصلا فجأة إلى نهاية الشارع في منتصف المدينة، وشاهدا مبنى مشيّداً من آجر أحمر ووردي يحمل لافتة مكتوباً عليها «بيرمان بوكسكين»: باحة مفروشة بالحصى، وسلسلة معدنية، وجدران عالية. كان خلفها أعشاب متشابكة، وشجيرات، وأشجار طويلة.

دخلا بين الأعشاب، وقادهما درب منحدر إلى نهر عريض.

اتخذا سبيلهما نزولاً إلى الضفة نحو الدعامة الإسمنتية التي تثبّت الجسر. شاهدا في الأجمة هناك دليلاً على وجود معسكر، بعض القطع الخشبية التي جرفتها المياه والموضوعة حول بقايا نار خامدة، وحجارة مسودّة، وبطانيات تحت بعض الألواح الخشبية، وعلبتين كرتونيتين كبيرتين، وأكياساً تحتوي على علب وقوارير فارغة. كانت قطع متسخة من السجاد ممدّدة حيث الأرض ممهدة. شربا المياه الغازية بنكهة البرتقال وأكلا الفشار، ووضعا القارورتين مع الأخريات، ثم مزّقا العلبتين إلى أجزاء صغيرة وألقياها في النهر. راقبا قطع الورق الملتوية تطفو بسهولة. كان الظلام سيحل قريباً.

قال لاندرو: «لنذهب إلى هناك».

أمالا رأسيهما إلى الخلف ونظر إلى الدعامات، وشاهدا أطرافاً صدئة من حديد التسليح في أعمدة إسمنتية متهدّمة تبرز بطول اليد أو موطئ القدم. سحب لاندرو بطانية رثّة من تحت الألواح الخشبية، ولفّها حول عنقه، وصعد إلى هناك. فاحت من البطانية رائحة العفن والبول. هزَّ روميو بطانية أخرى، ولكن الرائحة الكريهة كادت تخنقه، فتركها مكانها. كان أعلى الدعامة الإسمنتية واسعاً كفاية لكليهما، لكن من دون حاجز يفصلهما عن السقوط إلى النهر على الجانب الآخر. كانت المسافة بين رأسيهما والقضبان الحديدية التي تحمل العوارض والمنصة الخشبية أربع أقدام، والقطار سيمر بجانبها تماماً. سيكون الصوت عالياً، ولكنهما تعلّقا سابقاً أسفل حافلة مدرسية.

استيقظا وارتبكا حين مرَّ القطار بجانبهما. بعد ذلك، لم يستطيعا النوم مجدداً واستلقيا مستيقظين، يصغيان إلى ما حولهما. صمت كل شيء، حركة السير، وصخب المدينة وثغاؤها. أطبق السكون، واستطاعا سماع النهر يشق طريقه متجاوزاً تلك البقعة إلى مكان يتدفق فيه مسرعاً: سد أو شلال. ناما بصعوبة مجدداً. في وقت ما قبل الفجر بقليل، حين بدأ الضوء يبزغ، سمع روميو أشخاصاً يتكلمون في الأسفل. وكز لاندرو برفق؛ لأنه قد يتقلّب بعنف في مكانه حين يستيقظ. مدّا عنقيهما من فوق حافة مخبئهما وحاولا سماع ما يقوله الأشخاص في الأسفل.

قال رجل: «فوز ساحق».

«تباً».

«ثمانية دولارات يا رجل، تسعة دولارات».

«مظهر حسن، مظهر جميل».

قالت امرأة: «حسناً، لم يكن الحظ إلى جانبك».

«إنها نكسة البحيرة الحمراء».

قالت المرأة: «زيت تشيبيوا».

«وأنت تحبينه».

«أنا لا أحبه، ولكن قد أتعوّد عليه».

«أوه، فتاة شقية».

بدأت الأصوات تضحك وتقهقه، وتصيح حتى لهثوا.

لا بد أنه شيء قد فعلته تلك المرأة. في الأسبوع التالي عرفا أن تلك الساعة الخاصة قبل الفجر هي الوقت الوحيد الذي يمكنهما فيه سماع أصوات الناس في المعسكر. كانت المدينة لا تزال نائمة، والهواء ساكن. خرج ضباب من الماء حاملاً الأصوات إلى مسامعهما. لم يكن ممكناً سماع الأصوات في كل الأوقات الأخرى إلا تمتمة ترتفع وتنخفض، وضحكات متقطّعة، ومرة نوبة صراخ وزعيق، وشجار بدا أنه انتهى على خير؛ لأن أعضاء المعسكر، وعددهم خمسة دائماً أو ستة أحياناً، أكلوا وناموا على أسرّتهم المصنوعة من البُسط أو في صناديق متوارية عن الأنظار بين الأعشاب. كان معظم الأشخاص هناك هنوداً.

طوّر روميو ولاندرو عادات مغايرة لروتين الأشخاص الهزيلين في المعسكر. بعد ساعة تقريباً من بزوغ ضوء النهار، وعندما يكون المتشرّدون غائبين عن الوعي، ينزل الصبيان من ملاذهما الآمن. كانا يمشيان بهدوء بعيداً عن دائرة النار والنائمين، ويسرقان بعض الطعام وكيس خبز أحياناً، في حين أخذا مرة علبة مفتوحة من الفاصولياء المطبوخة. سارا في إحدى المرات على درب ضيق يؤدّي إلى النهر حتى اقتربا من معسكر آخر، ربما مخيّم منافس، أو المكان الذي حدث فيه الشجار. غيّر الصبيان طريقهما نحو النهر قبل أن يقتربا كثيراً من تلك البقعة، وعندما وصلا إلى الشارع عبرا النهر على ارتفاع منخفض فوق جسر قديم يكاد يتداعى. كان هناك حيّ على الجانب الآخر من الجسر يتم توزيع الحليب فيه، وقد استطاعا الحصول

على قارورة بين الفينة والأخرى. عندما تفتح المحال أبوابها كانا يشتريان خبزاً ورطلاً من السجق، ثم يتقاسمان الرغيف واللحم، ويأكلان كل شيء في متنزه، أو زقاق، أو على درجات مشمسة في كنيسة آيلة للسقوط. لم يسأما أبداً من ذلك الفطور.

كانت هناك ثلاث صالات سينما منفصلة يمكنهما الوصول إليها سيراً على الأقدام. شاهدا فيلماً بعد ظهر كل يوم، وجمعا ما بقي في علب الفشار بعد ذلك، وأخفياه بجانب مقعديهما ليأكلاه أثناء العرض الآتي. عند عرض أفلام جيدة حقاً، كانا يختبئان خلف ستائر المخرَج حتى يحين موعد العرض المسائي. شاهدا القدم الكبيرة، وقطط أرستقراطية، وأسفل كوكب القرود، والمطار، ومنزل الظلال الداكنة، وهرقل في نيويورك، وريو لوبو، ورجل يدعى حصان (ست مرات: أثّر بهما كثيراً)، والرجل الكبير الصغير (ثماني مرات: أثّر بهما بعمق، ولكن طُلب منهما مغادرة المكان. لم يكن ملائماً للأطفال؛ لأنه يعرض امرأة تبكي بسبب بتر ذراع هندي. صارا مهووسين بذلك المشهد الذي لا يمكن وصفه).

أرادا أن يشاهدا ذلك الفيلم مجدداً، لذا تسللا إلى الصالة التي تعرض العسكري الأزرق. عندما كانا يترقّبان مشاهدة الذراع، دخلت امرأة في وقت متأخر وجلست على بُعد بضعة صفوف أمامهما. كان شعرها الباهت منفوشاً حول رأسها. انخفضا في مقعديهما، ونظرا عبر مساند الكراسي

فـي الصفـوف نحـو الأمـام. اسـتدارت فجـأة إلـى الخلـف، ولمعـت أسنانها في العتمـة، وتوهّـج شـعر رأس الزبديـة وطـاف فـي الهـواء، منفصـلاً عـن جسـدها. ارتفعـت يدهـا، وظنّـا أنهـا سـتنتقل إلـى أحـد الكراسـي بجانبهمـا، ولكـن شـخصاً آخـر جـاء وجلـس بجانبهـا، فـي حيـن اسـتدارت هـي مجـدداً نحـو الشاشـة. لـم تكـن قـد رأت الصبييـن، فتسـللا علـى عجـل إلـى الخـارج. كان روميو قـد أفلت بعـض البـول في سـرواله، ولكـن وضـع لانـدرو بـدا أسـوأ كثيـراً، وظـنَّ أنـه سـيتقيأ.

قال لاندرو: «هل رأيت؟».

قـال روميـو: «أعـرف، ولكـن تمالكـت نفسـي. بـدت مثـل رأس الزبديـة، ولكـن لا يمكـن أن تكـون هـي يـا رجـل. هـذا غيـر ممكـن!».

علـى الرغـم مـن هـذا، ارتبـكا وتجـولا علـى غيـر هـدى عائديـن إلـى النهـر. وصـلا إلـى المعسـكر مـن غيـر أن ينتبهـا إلـى ذلـك، وسـارا بيـن الأشـخاص الذيـن يحـاولان الاختبـاء منهـم، ويقومـان بسـرقتهم منـذ نحـو أسـبوعين.

أمسـك رجـل بـرأس لانـدرو، ولكـن رائحتـه كانـت كريهـة جـداً مـا جعـل الفتـى يتقيـأ فعـلاً، فأفلتـه ذلـك الشـخص مـن قبضتـه.

أمسكت امـرأة ذات شـعر أشـعث طويـل بكاحلـي روميـو وسـحبته إلـى الأسـفل.

تكلم شخص يضع نظارة شمسية. قال: «اجلسا».

ضـرب الأرض بعصـا بيضـاء طويلـة يسـندها إلـى كتفـه. أشـار إلـى الأعشـاب الممهـدة حـول النـار الخامـدة.

ركل أحدهم لاندرو، فسقط إلى الأرض.

تخلّص روميو من قبضة المرأة وجلس أيضاً.

قـال صاحـب النظـارة الشمسـية: «حُـلَّ اللغـز»، وضحـك. «ألا تعرفـان أيهـا الشـقيان الصغيـران أنـه لا يمكنكمـا السـرقة مـن لصـوص؟ نحـن لصـوص، ونسـرق مـن أشـخاص أكفّـاء، هـل فهمتمـا؟ عميـان!».

ضحك الآخرون مثل أشخاص قد سمعوا تلك الدعابة مـن قبـل. لـم يكـن الصبيـان قـد شـاهدا عصـا شـخص ضريـر مـن قبـل، لـذا لـم يفهمـا النكتـة.

أمرهمـا صاحـب النظـارة الشمسـية: «تكلمـا الآن. اشـرحا مـا تفعلانـه هنـا».

قال روميو: «نحن نزور أقرباءنا».

عـدَّ الرجـل كريـه الرائحـة ذلـك هزليـاً جـداً. عندمـا ضحـك، رأى الصبيـان أن لديـه مجموعتيـن مـن الأسـنان فـي فمـه، واحـدة خلـف الأخـرى. كان فمـه مملـوءاً بالأسـنان، وبـدا فتحـه صعبـاً. أغلقـه بحـرص. علـى الرغـم مـن الخـوف والتوتّـر، ثبّـت لانـدرو بصـره علـى فـم ذلـك الرجـل، علـى أمـل أن يفتحـه مجـدداً.

قال الرجل بالنظارة الشمسية: «أنتما هاربان».

قال لاندرو: «نعم».

«أنتما هنا منذ بعض الوقت. لاحظنا أننا نفقد أشياء من حولنا، ولكن ظننا أنهم المتشرّدون البيض في المعسكر الآخر. هل هربتما من مدرسة داخلية؟».

«نعم».

أومأ صاحب النظارة الشمسية، ثم نزع نظارته، وفرك عينيه الزرقاوين الخامدتين، وأعادها إلى مكانها. بدا كل شيء آخر فيه هندياً، في حين أن عينيه مفزعة؛ جميلة جداً ومخيفة في آنٍ معاً. كان هندياً نحيلاً، وضامراً، وأزرق العينين، ولديه شارب مقاتل كونغ فو.

قال: «حسناً، لا بأس».

قال الرجل نتن الرائحة وصاحب الأسنان الكثيرة، الذي قد أمسك لاندرو: «يمكنكما البقاء». أشعل ناراً باستخدام أعشاب جافة، ثم أغصان صغيرة، ثم فروع أكبر قليلاً. أطلقت ناره لهباً فوراً وطقطقت على نحو مريح. دفع مجموعة من الحجارة إليها، ثم أضاف إليها قطعاً من الحطب، ورتّبها بعناية في موقعها في حين كانت المرأة شعثاء الشعر تواجه صعوبة في فتح علبة من يخنة لحم دينتي مور بمفك قصير. غرزت المفك بقوة في غطاء العلبة، مراراً، وحاولت وصل الثقوب ببعضها حتى تستطيع نزع الغطاء. كانت النار قد تحوّلت إلى جمار حين استطاعت فتح العلبة جزئياً، وانتهى الصبيان من سرد

قصتهما إلى صاحب النظارة الشمسية. سارت امرأة أخرى بهدوء إلى داخل المعسكر، تحمل كيسين على ذراعيها. كانت صغيرة القد، وأنفها يشبه منقار طير، وهزيلة، ووجهها مملوءاً بالبثور. كان هناك أيضاً هندي صامت يرتدي ثياب راعي بقر متسخة. جلس بعيداً عنهم قليلاً يراقب الآخرين بعينين صغيرتين مستفسرتين وحمراوين، ووجهه يبدو كئيباً.

تكلم الرجل فجأة بصوت أجش وحاد، وأخرج سكيناً طويلة ولامعة تشبه الحربة.

«هل سرقتما أيها الحقيران بطانيتي؟».

تظاهر روميو ولاندرو بالدهشة، وانهارا إلى الأرض، مسترخيين مثل دميتين. نشج لاندرو بأنفاس مرهقة، وأصدر روميو أصوات انزعاج بائسة.

قال الرجل وهو ينظف أظافره بالسكين: «أوه، تباً، سأقتلهما».

ضحك الآخرون، لكن ليس بطريقة لئيمة.

قالت المرأة الشعثاء: «اخرس، إنهما مجرد طفلين. هما ينامان هناك». أشارت إلى جسر السكك الحديدية بشفتيها. تذمّرت: «إنه ليس مكاناً آمناً حتى. يجب أن يعتني بهما شخص ما».

أبعد الهندي قوي البنية وكئيب الوجه سكينه. قال: «آسف أنني أخفتكما أيها الحقيران. سأجلب لكما غداً صندوقاً جميلاً. يمكن أن تناما في الأسفل هنا».

رمت المرأة الشعثاء العود الذي كانت تحرّك به علبة اليخنة إلى الأعشاب وأخرجت بعض الأوعية الصغيرة من داخل قميصها. سكبت اليخنة في علب فطائر قديمة لا تزال تحتوي بعض قطع الكعك الصغيرة، وأعطتها إلى الولدين.

«أعيدا ملاعقي حين تنتهيان، هل سمعتما؟».

أومأ الصبيان وأكلا، في حين سالت دموعهما على اليخنة.

صعدا إلى أعلى الدعامة تلك الليلة وناما. ربما كانت اليخنة، أو العينان الزرقاوان، أو الذراع قد جعلت لاندرو يتقلّب وينتحب بقوة ما أوقظ روميو في منتصف الليل. كان لاندرو لا يزال نائماً حين بدأ ينزلق عن قمة الدعامة، فأمسك روميو ذراعيه، ما جعله يستيقظ فجأة. كان القمر بازغاً، وحدّقا إلى عيني بعضهما كما فعلا تحت الحافلة.

قال روميو: «أمسكت بك».

أصدر لاندرو صوتاً يائساً.

قال روميو حين اقترب من الحافة: «لا تخف أبداً».

بدا هادئاً، ومحباً، وقوياً، وستبقى تلك اللحظة محفورة في ذاكرته. كانت تلك آخر مرة في حياته يقوم فيها بعمل بطولي. حاول روميو أن يثبّت قدميه على الإسمنت واستخدم ذراعيه لإيقاف ارتعاشه، ولكن لاندرو كان أثقل منه. في كل مرة رفع فيها لاندرو ساقه لإيجاد موطئ قدم، اقترب روميو من الحافة. أخيراً، استعاد لاندرو توازنه باندفاعة عنيفة،

وعندما فعل ذلك، دفع روميو من فوق رأسه في الهواء. حاول لاندرو أن يتشبّث بشيء، لكنه سقط إلى الخلف. كان يمكن أن يصطدما بالماء ويخوضا إلى الشاطئ، أو ربما يغرقان، أو يرتطمان بقاعدة الدعامة ويموتان، ولكنهما وقعا بدلاً من ذلك على الأرض المعشوشبة. خفّف روميو من سقطة لاندرو، وبدأ الصراخ. فقد لاندرو وعيه فوراً، وعندما استيقظ في الصباح وهو يعاني من الصداع، خرج زاحفاً من الخيمة القماشية التي وجد نفسه فيها ليبحث عن صديقه. كان روميو متدثراً بكيس بجانب النار الخامدة وبدا ميتاً. خرجت المرأة الشعثاء من بين الأعشاب وسكبت بعض الشراب على روميو، ثم سحقت حبّة وأضافتها إلى القليل من اليخنة، ومررتها ببطء عبر حلقه. لم يحرّك روميو ساكناً وبدا ميتاً مجدداً.

سأل لاندرو وهو يلمس طرف كيس النوم برفق: «ما خطبه؟».

«وجدناه على هذه الحال».

كانت المرأة ثملة تماماً. حاولت أن تداعب شعر روميو، ولكن يدها لم تصل إلى رأسه أبداً.

«لم نعرف ما ينبغي فعله لذا وضعناه في كيس النوم. يتكلم عن ذراعه وساقه». سحب لاندرو الكيس بحرص كاشفاً عن ساق روميو. لم يرَ دماً، ولكن الساق بدت غريبة على نحو يثير الاشمئزاز، حتى في سرواله. كانت ذراعه معقوفة أيضاً، وقد اختفى حذاؤه.

قال لاندرو بارتباك: «لنأخذه إلى الطبيب».

لكن رأس روميو ارتفع قليلاً وصرخ: «لا، لا، لا!». تراجع لاندرو إلى الخلف مذعوراً.

«كنت محقاً، إنها هنا!».

صكَّ روميو أسنانه، ولمعت عيناه على نحو غامض. «هي تطاردنا، وقد توثّقت من هذا الآن».

«من؟».

هسَّ روميو: «رأس الزبدية يا رجل».

«أرأيت؟». كانت المرأة الشعثاء قد تراجعت أيضاً إلى الخلف، مصدومة. ماذا يمكن أن تفعل؟ هزّت قارورة الشراب.

«يعرف سوني من أين يأتي بالمزيد. ينبغي أن نبقيه هنا، ونخفّف من ألمه، هه؟ حتى يتحسّن. لا نريد أن يتطفّل أفراد الشرطة علينا».

اقترب لاندرو زحفاً من روميو، ولمس وجهه الشاحب. كان جلد روميو بارداً، ورطباً، وقاسياً مثل صخرة. انتظر لاندرو، وراقب حتى سحب نفساً، ثم آخر. اتقدت عينا لاندرو، عرف جيداً أن روميو قد حاول إنقاذه. لم يطق الشعور المفاجئ بالخزي حين أدرك أنه قد تسبّب بإصابات صديقه.

قال: «سأجد وسيلة لنقلك إلى المستشفى. انتظر هنا»، وركض مبتعداً، وألم صديقه يثقل قلبه.

اندفع لاندرو على الرصيف، وتوقف حيث سقطا،

وانتزع حذاء روميو من الأعشاب، ثم ركض فوق الجسر خائفاً. خفّف سرعته، وأخرج المال من تحت النعل الداخلي لخفّي روميو، ووضع الأوراق النقدية في حذائه. بدأ يتجوّل في الأحياء التي يعرفها، ومشى ساعات، باحثاً عن شرطي. شعر بالإرهاق ولم يرَ سيارة الشرطة تتوقف على دربه، أو الضابط الذي خرج منها، حتى اقترب كفاية ليمسك به بطريقة يتقنها تماماً. بدا مريحاً أنه لن يتمكن من الإفلات، ما جعله يسترخي تماماً. بدأ الكلام، وأخبر الشرطي كل شيء عن روميو ومعسكر المتشرّدين وحاجته إلى العون، وكيف يبدو صديقه ميتاً.

وضع الشرطي لاندرو بحرص على المقعد الخلفي في السيارة، الذي كان مصنوعاً من بلاستيك قاسٍ ومعزول بشبكة قماشية ثقيلة. سيتم استبدال زجاج مقوّى بها يوماً ما، وسيعرفه لاندرو أيضاً. كان هناك لاسلكي مع مجهار يمكن حمله باليد، وقد استخدمه الشرطي، وطرح أسئلة، ونقل المعلومات عبره. ثم انتقلوا في السيارة عائدين فوق النهر. ظهرت مركبة إسعاف، ثم سيارة شرطة أخرى. جلس لاندرو في سيارة الدورية في حين شق الآخرون طريقهم إلى الجسر، ثم عاد أفراد الشرطة بعد انقضاء بعض الوقت.

قال أحد الشرطيين: «لقد رحلوا».

خرج لاندرو مسرعاً من السيارة وركض نحو الأجمة، وعبر من خلال فتحة في السياج، وجرى في زقاق، وعلى امتداد

شارع هناك قبل أن يُلقى القبض عليه وهو يحاول أن يعبر ساحة وقوف سيارات. حاول الضابط أن يهدئ من روعه.

«يجب أن تجدوه!».

صرخ لاندرو، وانتحب، وأنَّ، ثم صمت أخيراً. نقلوه بالسيارة إلى مقر مديرية المنطقة، وجعلوه يجلس على كرسي، ومنحوه كأساً من الماء وشطيرة. جلس هناك طوال يوم كامل، ثم نصف يوم ثانٍ. لكن على الرغم من تعبه من الانتظار، نهض بنشاط حين دخلت رأس الزبدية الأصلية إلى المركز. وقف شعره على قفا عنقه وحاولت معدته أن تتقيأ الشطيرة. عرف أنه محق؛ لأن رأس الزبدية كانت أكثر مما تبدو عليه، وتتمتع حتى بقوى خارقة للطبيعة.

في وقت لاحق، عندما صار لاندرو خلف خزان المياه، أدرك مرة أخرى أنه محق، وأنها تمثّل روح المدرسة الداخلية. قالت إنها تريد الخير له ومساعدته على أن يكون فتى صالحاً، وولداً أبيض أيضاً.

عندما توسّل لاندرو الشرطة أن ترأف بحاله، قالت إن كل الهاربين يتصرّفون على ذلك النحو. وقّعت بعض الأوراق، وأخذه رجل شرطة إلى السيارة، حيث شاهد بيتس جالساً في مقعد الراكب الأمامي. وضع الشرطي لاندرو في المقعد الخلفي للسيارة وأخبره بأنه سيكون بخير. جلس لاندرو واجماً، ولم يستطع حتى تناول الغداء الذي أحضرته رأس الزبدية له من أحد المطاعم، على الرغم من أنها حثّته على ذلك وقالت إنه يبدو هزيلاً.

قـال بيتـس شـيئاً حيـن قطعـوا نصـف المسـافة تقريبـاً إلـى الديـار، فأوقفـت رأس الزبديـة السـيارة. فتـح بيتـس البـاب الخلفـي وأخـرج لانـدرو بعنـف، ودفعـه بقـوة إلى طـرف الطريـق، ثـم إلـى الجانـب الآخـر مـن مجموعـة أشـجار.

قال: «اذهب».

لـم يجـرؤ لانـدرو علـى الحركـة. سـمع بيتـس يفتـح زمـام سـرواله، وبعـد لحظـة طرطـش بـول سـاخن علـى مؤخـرة بنطـال لانـدرو.

قال بيتس: «هذا لأنك أضعت روميو، فقد كان فتى جيداً».

اندفـع لانـدرو مبتعـداً، وعـاد إلـى جانـب الطريـق، ثـم إلـى السيارة. بعـد أن اجتـازوا مسـافة أخـرى، قـال بيتـس شـيئاً بصـوت خافـت إلـى رأس الزبديـة. هـزّت رأسـها الأبيـض الأشـعث نفيـاً، بمعنـى أنـه ينبغـي ألا يقـول مـا قـد قالـه بـأي حـال.

«المقعد! صار للاندرو «أبو شخّة» الآن!».

ظـنَّ طبيـب غرفـة الطـوارئ فـي المركـز الصحـي بمقاطعـة هينبيـن أنـه يمكـن تجبيـر ذراع روميـو، ولكـن ينبغـي بتـر السـاق. ثبّـت الطبيـب روميـو وأرسـله إلـى قاعـة العمليـات. كان د. مايـر بويـل، الجرّاح هنـاك، قـد درس الأمـراض المعديـة، وأكثـر تحفّظـاً حيـن يتعلـق الأمـر بالسـاقين. اكتشـف أن روميـو هنـدي أمريكـي، وعـرف أنـه مـن سـلالة هنـود تتمتـع بمناعـة غيـر طبيعيـة، وقـدرات تعـافٍ ذاتيـة، وقـد نجـت مـن أوبئـة كثيـرة فـي الماضـي.

أعلـن: «أثـق بـأن هـذا الصبـي سـيتعافى. علـى الرغـم مـن

أنه الفتى الأشد هزالاً، والأكثر قبحاً، والأبشع رائحة الذي رأيته يوماً، وحاله هي الأسوأ على الإطلاق، فإنه ينحدر من سلالة طويلة من الناجين. يتمتع بروح جرذ».

لم تكن تلك إهانة، فقد عرف ماير الجرذان، الطبية منها والبرّية. عندما كان صبياً، تم إرساله على متن سفينة شحن من بولندا إلى أقرباء هناك، بعد الحرب مباشرة. كان يحترم الجرذان، ومعجب بمكرها وبراعتها.

قال للممرضات أثناء مساعدتهن له على تحضير نفسه: «ستكون هذه عملية طويلة. سأنقذ هذه الساق الحزينة».

انتظر روميو رؤية عيني الطبيب بويل البنيتين اللطيفتين جداً، اللتين تتمتعان ببصيرة ثاقبة، كل صباح في الشهرين التاليين. كان يدخل الغرفة، ويتوقف، ويقول بنبرة خافتة: «كيف حال الساق الحزينة اليوم؟». كان د. بويل ينزع الضمادات بيديه المعقّمتين، بيديه المدرّبتين، ويحدّق وحتى يشم الأجزاء من ذراع وساق روميو التي يمكنه تفحّصها خارج الجبيرة.

«سيكون جزء منك ضعيفاً مثل طفل صغير حين نزيل الجبيرة».

قال روميو: «كل شيء يؤلمني. أشعر بألم شديد. أين حذائي؟».

قال د. بويل المرة المئة، بألطف طريقة ممكنة: «لا تقلق بشأن حذائك».

لـم يمنـح رومـيـو مهدئـات قويـة مثـل التـي قـد اختبرهـا لاحقـاً. ستنقضي أعـوام قبـل أن يتـذوق رومـيـو مجـدداً طعـم المـواد التـي قدّمتهـا لـه المـرأة الشـعثاء، ولكـن عندمـا فعـل ذلـك، شـعر بأنـه قـد عثـر علـى مصـدر الرأفـة الوحيـدة فـي هـذا العالـم.

ولفريد ولاروز

موغل في القدم

كان عتيقاً وقد خرج من الأرض أثناء غليانها، ولكنه نام، ثم دخل مرحلة سبات في الغبار. انتشر السلُّ في هجمة شرسة ليتحد مع الحياة الدافئة. ظهر في كل عالم جديد، وكل عالم قديم. أحبَّ الحيوانات أولاً، ثم أحبَّ الناس أيضاً. حطَّ الرحال أحياناً في خلايا النسج البشرية، معزولاً عن المواد المغذّية في الجسم. ظهر أحياناً أخرى وتحرّر من مكمنه وانتشر عبر العظام، أو الرئتين المعقّدتين أساساً، وبدا ممكناً أن يصيب أي عضو في أحيان أخرى. لم يكن له تأثير أحياناً، في حين أصاب أسرة بأكملها، أو بدأ رحلة نشر عذابه في مدرسةٍ حيث ينام الأولاد إلى جانب بعضهم في أحيان أخرى.

في إحدى الليالي، بعد الصلاة في مدرسة الأبرشية، حيث نامت أول لاروز، وردة، مع فتيات أخريات على صفوف من الأسرّة في غرفة باردة لا يدفئها إلا أنفاسهن، طار السل فجأة من بين شفتي فتاة نحيلة، واندفع فوق

أليس أناكواد في الريح الباردة التي صرّت عبر شرخ في النافذة، وطاف فوق شقيقتها ماري. انقضَّ بعد ذلك نحو جسد لاروز النائمة تحت بطانية صوفية، ولكن تيار الهواء أوقفه فجأة. تلاشى ذلك الكائن المعمّر على القضيب الحديدي في سريرها، ولكن آخر خرج من قطيرةٍ من سعال أليس، ووثب فوق معدن سرير لاروز، وتسلّل مع شهيق أنفاسها إلى داخلها.

* * *

كان ولفريد بانتظارها حين خرجت من العربة التي أحضرتها إلى سانت أنطوني. كانت قد غادرت دار الأبرشية إلى المدرسة الملحقة بها قبل ستة أعوام، مرتدية قميصاً ومتدثّرة ببطانية.

«لحظة!».

سترة صوفية بنية ضيقة، وقفازان جلديان صغيران، وتنورة خفيفة مع جوربين تحتها، وسروال مزركش قد حاكته بنفسها، ومشد للخصر، وصدار. كان عملها المضني على الثياب القديمة قد أثمر فعلاً. اعتمرت قبعة بنية مصنوعة من اللباد، ومزينة بعقدة أرغوانية وشريط قماشي نيلي اللون. كان حذاؤها أنيقاً ومقوّساً عند الكعبين، وقد أثار إعجاب مدبّرة المنزل.

لم يعرفها ولفريد، كما أرادت تماماً. رمقها بنظرة إعجاب، ثم خفض ناظريه وقد خاب أمله. عاد بصره إليها

تدريجياً. بعد بعض الوقت، تحوّلت نظرته إلى استفسار ودهشة، ثم تقدّم خطوة إلى الأمام.

قالت: «هذه أنا».

ابتسما لبعضهما، متوتّرين. عكس وجهها اعتزازها بنفسها مع بعض التواضع. نزعت قفازاً ومدّت يدها، فأمسكها مثل طائر حي. وضع حقيبتها على كتفه، ومشيا على حافة الطريق المغبر. دلّها ولفريد على العربة، عربته من طراز ريد ريفر، المزوّدة بعجلتين والمربوطة إلى ثور مبرقش. كانت العربة مصنوعة من الخشب الكامل، وقد رُبطت أجزاؤها بمهارة باستخدام أوتاد. وضع ولفريد حقيبتها في الخلف وساعدها في الصعود إلى المقعد الخشبي بجانبه. ضرب بسوطه فوق الأذن اليمنى للثور فجرَّ الحيوان العربة على الطريق، الذي تحوّل إلى درب مملوء بالحفر، ما جعل العجلتين تصرّان بصوت حاد.

قادهما الدرب إلى المركز التجاري في السهول الكبرى في مقاطعة بيمبينا، ثم مسافة أبعد إلى حيث قرّر ولفريد أن يجرّب العمل بالزراعة. شعرت بصهارة سعادة تبقبق في داخلها أثناء انتقالها في تلك الضوضاء، التي تجعل الكلام عديم الفائدة. نزعت دبابيس قبعتها أولاً، ونفخت على العقدة الأرغوانية، ثم وازنتها بحرص على فخذها. كان جلدها قد اصفرَّ نتيجة عدم تعرّضها للشمس. سقط الضوء على كتفيها وانعكس بهيّاً على طول حلقها. أغلقت عينيها، وتراءى لها شعاع دافئ بظل ذهبي خلف جفنيها. أمسكت

ذراع ولفريد لتحافظ على توازنها. ظنَّ المعلّمون في الأبرشية أن تدريس النساء فن تدبير المنزل وتربية الأطفال أساسي للقضاء على الهمجية. كان ينبغي دقّ إسفين بين الأم الهندية وابنتها. بدا أن بمقدور الأساليب الجديدة أن تقضي على كل آثار التعليم البدائي، ولكنهم لم يفهموا قوة ضوء الشمس على عنق المرأة.

أعاد الدفء إلى ذاكرة لاروز الوقت الذهبي الذي عاشته قبل وفاة والدتها. نظرت بانتقاد إلى ولفريد، الذي بدا أنه قد صار هندياً حقيقياً. كان المدرّسون سيقصّون شعره ويحرّرونه من كل ما يرتديه، قميص قطني بورود حمراء، وسروال من جلد الغزال، وقبعة عريضة مزركشة، وحذاء مزيّن بأزهار وخيوط ملونة. كانت الشمس قد سفعت بشرة ولفريد حتى صار بلون قشرة الجوز الداكنة. أشعل غليوناً، وفاحت رائحة زكية من الدخان، وامتزج عبق التبغ بشذا المريمية ولحاء الصفصاف. غمزها حين شعر بنظرتها الجانبية، فحاولت أن تضحك ولكن عينيها لم تسعفاها. لماذا لا تضحك؟ مدّت يدها تحت ثوبها وفكّت مشدّها، في ذلك المكان. خلعت نعليها، ونزعت الدبابيس من شعرها. كان المشد والحذاء هما الأسوأ، لا يمكنها سحب نفس عميق أبداً، وتشعر بألم ووخز مع كل خطوة تقوم بها. من ينظر؟ من سيهتم آنذاك إن انتعلت حذاءً من دون كعبين، أو حرقت مشدها، أو عبثت بالخمسين زراً التي تغلق ظهر ثوبها؟ ستأكل لحماً طازجاً، ولن يكون هناك مزيد من اللفت. لمعت أسنان ولفريد. لقد انتظر طويلاً، إذا

جاز التعبير. على كل حال، لم يكن قد تزوج أياً من تلك النسوة. هل بات قاسياً جداً عليها آنذاك؟ تساءل مستغرباً. أبطأ الثور، ثم أوقف العربة. هبّت الريح، ولكنّ صمتاً أطبق على الأرض.

استدار ولفريد إليها، وأمسك وجهها بلطف.

قال: «جيميكاوا ديز».

رأتهم فجأة وبوضوح عراةً على صخرة في النهر تحت ضوء الشمس. كانوا يأكلون توتاً لطخ عصيره ألسنتهم، وشفاههم، وسال حتى على ذقنها وتجمّع بعض منه على ترقوتها. رأت حياتهم، وما يجري معهم. جذبت ولفريد إليها، فحملها عبر أعشاب طويلة واستلقيا أرضاً. تقلّبا في التوت، وهرسا الثمار حتى سالت دماء منها، كما يحدث أثناء الولادة. سيحدث كل شيء لهما، وسيكونان شخصاً واحداً، والجميع بالنسبة إلى بعضهما.

قالت لولفريد: «أريد ثوب زفاف مثل هذا»، وأرته صورة تم استخدامها لجمع المال للمدرسة، وتظهر صديقتها فيها. «كل الثياب مستعارة، ولكن شعرها حقيقي». كانت لاروز قد مشّطت شعر صديقتها وصفّفته ليتدلّى على كتفيها، ثم رفعته لاحقاً في عقدة عرائسية.

قالت: «أظن أنها ماتت بسبب السل، مثل كل شخص آخر أعرفه. لم أسمع عنها أبداً بعد أن عادت إلى ديارها».

جاش سعالٌ في صدرها، ولكنها تنفّست بهدوء وربتت

علـى قصّهـا حتـى زال الضيـق. كانـت تتحسّـن، وتشـعر بـأن قوتهـا تطـرد الضعـف منهـا.

بنـى ولفريـد الكـوخ الـذي سـيحتل فـي نهايـة المطـاف وسـط المنـزل ليحتضـن أرواح أسـلافه. شُـيّد الكـوخ مـن ألواح خشـب السـنديان، وسُـدّت الفراغـات بينهـا بصلصـال داكـن. كان فيـه موقـد حطـب، ومقـلاة مـن حديـد الصـب، ونوافـذ مـن أوراق مدهونـة بالزيـت، وأرضيـة خشـبية صلبـة. صنـع ولفريـد سـريراً مـن الحبـال، وحشـت لاروز فراشـاً بـأوراق البلـوط ووسـائد بأعشـاب التيفـا. توهّـج الموقـد حـرارة فـي الشـتاء، وناما تحـت غطـاء مـن جلـد الجامـوس.

بعد ذلـك، غسـلت لاروز الثيـاب بمـاء جليـدي تحـت ضيـاء القمـر، ومـدّت ذراعيهـا فـي الضـوء الفضـي. بـات جسـدها يانعـاً ومتعطّشـاً للحيـاة. زحفـت عائـدة إلـى الفـراش، وعندمـا غفـت شـعرت بأنهـا ترتقـي فـي السـماء. فتحـت عينيهـا لتنظـر إلـى الأسـفل، واكتشـفت أنهـا طافـت عبـر السـطح. تحرّكـت مثـل مروحـة فـي الهـواء، وتوثّقـت مـن المنطقـة حـول كوخهمـا الصغيـر بحثـاً عـن ضيـاء الأرواح. هسّـت النجـوم بعيـداً عنهـا، وألقـت واحـدة منهـا شـذرة مـن نـور، التـي تذبذبـت وتمايلـت، ثـم دخلـت لاروز مباشـرة. ترنّحـت فـي طريقهـا نحـو الأسـفل، واسـتلقت بجانـب ولفريـد مجـدداً.

وهكذا أنجبا مخلوقاً إلى هذا العالم.

قصّـت ثيابهـا الأنيقـة مـن أجـل صنـع لحـاف الطفـل، ومزّقـت مشـدّها وتفحّصـت الأقـواس المرنـة والغريبـة، التـي عدّلهـا

ولفريد لتصير قضباناً لحماية لوح المهد. قايضا الأحذية ببذور من زوجة أحد المستوطنين، ومنحا الجوارب والقبعة إلى معالجٍ من أجل أن يحلم بأفضل اسم للولد.

أنجبت الأولاد الثلاثة الآخرين أثناء عواصف رعدية. عوت لاروز حين قصف الرعد، وأرغت الطاقة بداخلها، وصارت ولادتها أكثر سهولة. جاء كل ولد قوياً ومعافى تماماً، وحملوا أسماء: باترايس، وكثبرت، وكليوفيل، ولاروز. بدا واضحاً أنهم جميعاً سيتمتعون بحيوية والدتهم وتصميمها، وكفاءة والدهم وفضوله، مع خصال مشتركة بين الاثنين.

صقلت ألواح أرضية منزلها، وخاطت ستائر قطنية. تعلّم أبناؤها القراءة والكتابة بالإنجليزية وتكلموا الإنجليزية والأوجيبوا، وصحّحت لهم القواعد بكلتا اللغتين. كان هناك كلمة لكل شيء بالإنجليزية، وكلمة لكل فعل بالأوجيبوا. تمتلك الإنجليزية مرادفات أكثر للمشاعر الشخصية، ولكن الأوجيبوا تتمتع بمرادفات أثرى للعلاقات الأسرية. رسمت خريطة للعالم على لوح أبيض، من ذاكرتها. تعلّم الجميع الحساب، ونسخوا الأرقام التي درّسها أبوهم لهم. أتقنوا الخياطة وأشغال الخرز، وعملوا بها حين هطل الثلج وعزلهم عن العالم. قطع الأولاد الحطب وأبقوا الموقد ملتهباً. علّمهم ولفريد سر صنع العجين، والحصول على خميرة برية لعمل الخبز، وشاركهم بهجة تحضير الأرغفة في رماد الحطب فوق النار. استبدلوا الزجاج بأوراق

النوافذ المدهونة بالزيت. كانت تلك الأرض ستصير جزءاً من المحمية، ولكن ولفريد استقرَّ هناك، فتركهم العملاء والقس وشأنهم.

عندما صار عمر أصغر أبنائها عاماً واحداً، بات سعال لاروز المتكرّر يستنفد قوتها وينشر الألم عبر عظامها. جعلها ولفريد تشرب الزبدة التي تطفو على سطح الحليب، وطلب منها أن ترتاح. دثّرها بحرص ووضع حجارة ساخنة في الفراش. تحسّنت واستعادت بعض قوتها، وبقيت على تلك الحال سنوات بعد ذلك. ثم انهارت مجدداً في أحد أيام الربيع، وأراقت دلواً من الماء البارد، واستلقت مبللة على الأعشاب الباردة، مرهقة وغاضبة، وترغي دماً فاتحاً. مجدداً، تعافت واستردّت قواها. خدعت ذلك المخلوق القديم وارتاحت منه عشرة أعوام إضافية.

أخيراً، تمكّن منها ذلك المخلوق أثناء سعيه للحياة بداخلها، وغرس سكاكين حديدية ساخنة في عظامها، ومزّق رئتيها إلى قطع شبيهة بقصاصات ورقية. سكب ولفريد عبر فمها ملء ملاعق من دهن أي طريدة جلبها إلى المنزل. جعلها ترتاح، وغطّاها بعناية كل ليلة، ووضع حجارة ساخنة حول قدميها. ودّعته كل مساء، وحاولت أن تموت قبل الصباح، وخاب أملها حين استيقظت. دهن مرهماً من قرّاص مغلي ومهروس على شرائط قماشية، ووضعها على صدرها. تحسّنت قليلاً، وازدادت قوتها، ولكن ذلك لم يدم أكثر من شهر. في يوم صيفي معتدل

ومنعش، عندما كان أزيز الحشرات مسموعاً في حقل القش، وأشجار البتولا تصدح بأغنية حفيف أوراقها المعتادة، تكوّرت على نفسها مجدداً بين الأعشاب. حدّقت إلى الأعلى نحو السماء الصافية ورأت طائراً مشؤوماً. غطّى ولفريد لاروز باللحاف ووضعها على سرير مصنوع من عيدان القصب في العربة. كان الأولاد قد جعلوا السرير عالياً، وغطّوا الألواح ببطانيتين ثقيلتين، ثم بلحفهم. رأت لاروز ذلك السرير الذي صنعوه من أجلها وداعبت وجوههم.

قالت، برعب مما قد انتشر في جسدها: «خذوا بطانياتكم».

صرخت: «عرّضوها للهواء، وافتحوا المنزل للتهوية. ناموا في الحظيرة بعض الوقت».

لمسوها، وحاولوا تهدئتها.

ابتسمت، وقالت: «أشعر بالدفء»، ولكن لم تكن كذلك.

سمع ولفريد عن وجود طبيب في مستشفى القديس بولس المبنيّ حديثاً، وأن لديه علاجاً لذلك المرض. أخذ لاروز إليه براً بالعربة. بعد رحلة استغرقت أسبوعين وكادت تجهز عليها، التقت أخيراً د. هانيفورد آمس.

في غرفة الفحص المعقّمة، قاس الطبيب الشاحب والدمث نبضها بأصابعه اللطيفة، وأصغى إلى أنفاسها، وشرح ما قد تعلّمه من الجنوبي د. جون كروغان. كان

قد استنبط علاجاً لداء السل، أو التدرّن الرئوي، في كهف كبير في كنتاكي. تبين أن نقاء الهواء في الكهف يسهم في الشفاء من المرض. بنى د. هانيفورد أربعة أكواخ حجرية في كهوف واباشا في سانت بولس، ووضع مرضاه هناك وأطعمهم جيداً، وتوثّق من أن البيئة المحيطة بهم نظيفة وصحية. عندما التقى الطبيب لاروز، عارض في البداية نقلها إلى قسم المعالجة بسبب كونها هندية، وبدا واثقاً بأنها لن تتعافى، ولكن ولفريد أصرَّ على ذلك. انتظرا ثمانية أيام، وعندما توفي أحد المرضى، أعطاه ولفريد كل المال الذي بحوزتهما، فسمح الطبيب بدخولها. كانت غرفتها الحجرية المطلية بالكلس صغيرة، ومساحتها تتسع بالكاد إلى فراش وحوض غسيل، وواجهتها تفضي إلى حافة صخرية فسيحة حيث ينبغي أن تستلقي طوال اليوم وأن تراقب نهر الميسيسبي، الذي يتدفق بقوة في مجراه. ابتسمت لاروز حين وضعها ولفريد على الفراش الجديد والطري، واستطاعت من هناك رؤية كل المسافة عبر النهر إلى الأفق، نحو الشرق، حيث تتجمّع غيوم وردية داكنة.

عانى دماغها من حمّى شديدة، وشعرت بانفعال ونشاط غير طبيعيين. طلبت أوراقاً، وريشاً، وحبراً. نام ولفريد طوال ليلتين عند طرف فراشها، متدثّراً ببطانية فقط. نام كل المرضى على ذلك الحجر الطويل البارز من الشرفة؛ لأن آمس ظنَّ أن هواء الليل، أيضاً، يقوّي الرئتين. كتبت لاروز من دون توقف. عندما ذهب ولفريد إلى الديار، أخذ معه الأوراق، التي تتضمّن قصصاً، ونصائح، ورسائل إلى أولادها.

تلقّوا رسائل منها كلما وصل ساعي بريد على حصانه إليهم. كانت تأكل، وترتاح. شرحت أن د. هانيفورد آمس يستفيد من أحدث العلوم لمتابعة علاجها. كان متحفّظاً فيما يتعلق باستخدام الأفيون، ويفكّر في إجراء جراحة لها، وقد فقد بنفسه شقيقاً وشقيقة بسبب ذلك الوباء الأبيض. على الرغم من أنه قد أُصيب بالمرض معهما، إلا أنه استعاد عافيته. إذا كان بمقدوره إخضاع نفسه لتشريح من أجل معرفة سبب بقائه حياً، سيفعل ذلك بالتأكيد. عندما وجد أن الأطباء في المناطق الشرقية محافظون جداً في تفكيرهم، حزم كل أدوات مختبره وسافر غرباً. كان سيتمتع بالحرية هناك أثناء محاولته إيجاد علاج لذلك المرض، وسيكتشف ما قد أنقذه في حين مات أولئك الذين يحبهم. وفقاً لما يعرفه، لم يكن هناك شيء غير عادي بشأنه. لم يكن قوياً، والتمرين الوحيد الذي يقوم به هو المشي، مهما تكن حال الطقس، لترتيب أفكاره. لم يكن يتّبع حمية معينة، أكل كل ما يجده، والتهم الحلويات بشراهة، ودخّن حتى. لا، لم يكن يتمتع بشيء خاص ظاهرياً، وكل ما يتعلّق به عادي، ولا يلفت الانتباه. أدرك أنه ينبغي أن يكون شيء بداخله، لكنه لم يستطع تحديده. كان شقيقه متسلّق جبال، ونحيلاً، وطويل الأطراف، في حين تمتّعت شقيقته بجمال باهر، وأجادت السباحة في مياه الأطلسي قبالة كيب كود وركبت خيولاً صعبة المراس. كانت تصدّق تماماً بنفسها، وشعرت بالدهشة حين عرفت أنها ستموت. كان ما جرى مفاجئاً لهانيفورد أيضاً وجعله يستسلم للأمر الواقع، ولكن لا يزال بقاؤه على قيد الحياة يثير الفزع بداخله.

عندمـا التقـى لاروز، تعـرّف إلـى أحجيـة أخـرى سـتعيد ترتيـب حياتـه. كان الوبـاء منتشـراً بيـن قومهـا، وقـد مـات كل مـن أُصيـب بـه منهـم تقريبـاً. كان يصـدّق بالعلـم، لا بفكـرة المصيـر المحتّـم، التـي تظهـر باسـتمرار فـي الصحـف. انزعـج كثيـراً حيـن أعلـن متدينـون استولوا سـابقاً علـى الأراضـي فـي تلـك المنطقـة أن «مشـيئة الـرب» تقضـي بالقضـاء علـى كل الهنـود الذيـن يمثّلـون حجـر عثـرة علـى درب التقـدّم.

قـال د. آميـس: «غريـبٌ حقـاً كيـف تضـع «مشـيئة الـرب» أمـوالاً فـي الجيـوب».

وجـده البعـض مزعجـاً، لكنـه لـم يهتـم بذلـك. كان يتمتـع بالكفـاءة ويعيـش الحيـاة، وسيسـتفيد مـن كليهمـا.

انتابـه شـكٌّ بـأن لاروز لـن تنجـو أبـداً مـن محنتهـا؛ لأن أي هنـدي لـم يُشـفَ مـن ذلـك المـرض سـابقاً. عندمـا توطّـدت معرفتـه بهـا، ذكّرتـه لاروز بشـقيقته، وقـرّر أنـه سـيداويها بـأي حـال، وعمـل بجـدٍّ علـى حالتهـا.

شـاهدت لاروز، مـن فراشـها علـى النتـوء الحجـري، تغيـر الطقـس. كان د. آمـس قـد تنـاول السـمك بصلصـة الكريمـة حيـن أُصيـب بالمـرض. أكلـت لاروز السـمك بصلصـة الكريمـة. مشـى آنـذاك، ومشـت هـي أيضـاً، علـى الرغـم مـن أنـه لـم يكـن بمقدورهـا فعـل ذلـك إلا علـى الممـر الحجـري القصيـر فـي الكهـف. عندمـا غـادر ولفريـد، كانـت قـد تحسّـنت قليـلاً. كتـب د. آمـس قائـلاً إنهـا تتكيّـف جيـداً مـع توقـف إحـدى رئتيهـا عـن العمـل، تحلّـى ببعـض الأمـل. أخبـرت رسـائلها ولفريـد أنهـا

صارت أقوى، وبات مسموحاً لها بالمشي مرتين في اليوم آنذاك، ولا تزال تأكل السمك بصلصة الكريمة. ثم وصلت رسالة أخبرت فيها ولفريد بأنها قد رأت ماكينون.

جلب ولفريد طعاماً للأولاد على عجل وسَرَج حصانه.

ظهر رأس ماكينون عند الفجر، من النهر الكبير، مثل بقعة صغيرة تبقى ثابتة في مكانها طوال اليوم، وتستعد لشيء ما. استيقظت لاروز عند شروق الشمس، يوماً بعد آخر، لترى أن الرأس ينتظر، بتلهّف، والبخار يغلي في سحابة حوله. بعد ظهر أحد الأيام، ترنّح الرأس في الماء، وعلى الرغم من أنه اختفى طوال أيام أحياناً، فإنه ظهراً مجدداً على الدوام. الأذنان الممزقتان، مثل مجذافين باليين، تسحبان ماكينون بمشقة ضد التيارات الغادرة التي ظهرت في دوامات وعلى منحدرات. تشجّعت حين قلب النهر الرأس أو سحبه إلى بركة منه. لكنه ظهر مرة أخرى دائماً. بات بصرها ثاقباً ورأت بوضوح ما يجري على مسافات بعيدة.

طاف الرأس في دوائر، وتنخّع الأنف وتغضّن حتى توقف بعد أن شعر بوجودها. عندما كانت تغطُّ في النوم، تحرّك الرأس مقترباً منها، لذا حاولت البقاء مستيقظة، ولكن النعاس غلبها في النهاية. كلما استيقظت، وجدت الرأس أقرب إليها. رأت أنه قد تحلّل بمرور السنين، وأن إحدى العينين صارت بيضاء وعمياء، وقد حرقت النار الجلد وجعلته متغضّناً، وسوّدت الأنف المملوء بالبثور.

وقف الشعر في الأذنين الكبيرتين والمنخارين الخاويين، ثم احترق مثل القش في الليل. لمعت زهرة كف الذئب في الأمواج، وشمّت شذاها، لم تكن رائحة تفسّخ وإنما شيء أجاج. كان ماكينون قد خلّل رأسه منذ وقت طويل بالملح والكحول، ولم يعد ممكناً قتله.

جاءت الممرضة ولفّت لاروز بالملاءات، وغطّتها ببطانيات ثقيلة مسخّنة بالآجر، وربطتها بحزام لتنام بأمان. كانت ضعيفة مثل الماء، وقوية مثل التراب. بدا أن احتضارها سيستغرق وقتاً طويلاً، وأن ذلك المجهود يجعلها أقوى. كانت مستعدة. تسلّق الرأس المنحدر، وهمهم أثناء صعوده على الجرف الصخري. لم يكن بمقدورها الهروب من الفراش، ولكنها استفادت مما قد تعلّمته من والدتها. غادرت جسدها، بعد أن فصلت روحها عنه. تشبّث رأس ماكينون بالحجارة بأسنانه، وحرّكها يميناً ويساراً. قرقر تلهّفاً، وصرَّ أسنانه فوق حافة الجرف، ثم صار فوقها، لكن بعد فوات الأوان. تحرّرت من جسدها وارتقت في الهواء، في الوقت نفسه الذي غرس فيه ماكينون أنيابه الكبيرة في قلبها.

وصل ولفريد في وقت متأخر ذلك اليوم، وقد شعر بذراعيها وثقلها خلفه على السرج كل الطريق إلى هناك. تحدث إليها، وطلب منها البقاء في جسدها. لكن رائحة الحمضيات وأنفاسها الدافئة بين كتفيه بقيت عالقة في أنفه، جعلته تلك الأشياء يشعر باليأس. كانت هناك غرفة انتظار

صغيـرة، وتـم اصطحابـه إليهـا لإطلاعـه علـى النبـأ. أخبرتـه ممرضـة سـمينة متورّدة بمـا جرى، وعـرف أن زوجتـه قـد رحلت فعـلاً. لـم يكـن لـدى الممرضـة وقـت للتفاصيـل، ولكنهـا ربتـت علـى يديـه، وتركتـه ليتحمّـل عـبء الخبـر بمفـرده.

كان ولفريـد قـد استعدَّ ذهنياً لذلـك الأمـر بتصـوّر مـا سيفعله فـي تلـك الحـال. كان سيغطّي جسـدها بإحكام، ويحملهـا على حصانـه الكبيـر، ثـم سـيقوم بالرحلـة إلـى الديـار ممسـكاً الزمـام بيـد، فـي حيـن ستكون علـى السـرج أمامـه. سيرتاح رأسـها على صـدره وسيتشـرّب شـعرها الدمـوع التـي ستسـيل علـى عنقـه. لـم يكـن بمقـدوره إبعـاد رأس ماكينـون عـن أفكاره، لكـن أدرك أنهـا سـتكون بأمـان أخيـراً، ولا يمكنـه النيـل منهـا. لـن يضطـر أولادهـا إلـى تحمّـل مـا قـد عانتـه، وسـوف يعتنـي بهـم ويحميهـم بحياتـه. أخبرهـا بـكل ذلـك فـي أفكاره، وباتـت كلماتـه دافئـة فـي الهـواء وهـي تبحـث عـن روحهـا.

رأى نفسـه ينعطـف علـى الطريـق نحـو المنـزل، ويخفّـف سـرعة الحصـان هنـاك ليسـير بخطـى متثاقلـة ويائسـة. لـم يكـن يجـرؤ علـى إبـلاغ أولادهمـا بالخبـر، علـى الرغـم مـن أنهـم ربمـا عرفـوا بالأمـر؛ لأنهـا يمكـن أن تزورهـم، كمـا ظـنَّ، فـي أحلامهـم. قـرّر أنـه سـيترجّل، ويديـر زوجتـه علـى السـرج، ويسـجّي جثمانهـا فـوق الأرض.

ثـم سـيجلب الأولاد لرؤيتهـا. عندمـا غـادر، كان الغيـث قـد هطـل قبـل ليلـة واكتشـف أن الأرض لا تـزال رطبـة فـي بعـض الأماكـن. أغلـق عينيـه، ورأى نفسـه يمـزج قليـلاً مـن الطيـن

بأصابعه. سيلمس وجهها، ويدهن وجنتيها بالوحل، نزولاً إلى أنفها، وفوق جبينها، وطرف ذقنها المدبّب. لو أنه امتلك ترساً برونزياً، لثبّته في الأرض عند طرف قبرها. بعد دفنها، سيتجوّل في الغابات، ويشرب من قفائر النحل البري العسل المر الذي جعل جنود كسنوفون يُصابون بالجنون.

قال بصوت عال في غرفة الانتظار الخانقة: «لاروز».

«أين هي تلك الممرضة؟».

لم يكن يرغب في أن يؤذي رجالٌ زوجته في الحياة الآتية، كما حدث معها في هذه الحياة. لاحقاً، سيحرق كل أغراضها ليرسلها معها.

قال في الهواء: «سيري إلى الحافة وانتظريني. اعتمري قبعتك المزينة بريشة».

«أين هي تلك الممرضة؟».

جاء ولفريد ماشياً بخطوات متثاقلة على الطريق، خدراً. ركض أولاده إليه فقد كانوا يترقّبون وصوله، ولكن شعروا بالارتباك حين شاهدوا والدهم المتزن دائماً يبدو حائراً. أثاروا صخباً فوراً وطرحوا أسئلة. أوقف ولفريد الحصان ووضع يده على وجهه. لم يسألوا إن كانت والدتهم لا تزال حية، وإنما عن مكان وجودها. بقي واجماً حتى دخلوا الكوخ، وجلس على كرسي بجانب الموقد، وتم إشعال النار، وإزالة السرج عن الحصان. قضى وقتاً طويلاً قبل أن يقول أي كلمة، وقد زاد سكوته قلقهم إلى درجة

جعلتهم يلتزمون الصمت في النهاية. خرجت كلماته مثل صاعقة في ذلك السكون أخيراً.

«لقد ماتت أمكم، ودُفنت. تم دفنها في مكان بعيد».

أمسك أيديهم، وداعبهم، وتركهم يبكون على ثوبه، وذراعيه، حتى شعروا بالإرهاق وذهبوا بائسين إلى أسرّتهم. بقيت الأصغر بينهم فقط؛ لاروز، التي حملت اسم والدتها مكوّرة قربه. في مرحلة ما، هزَّ والدها نفسه أثناء تحديقها إلى الجمار، وسمعت لاروز همساته.

«سُرقت، لقد سُرقت أمك».

* * *

بقيت لاروز الثانية تتخيّل أحياناً، حتى كبرت بطبيعة الحال، أن والدتها ربما تعيش في مكان ما رغم سرقة جثمانها، من قبل إله ما على الأرجح. عرفت أن ذلك غير صحيح، طبعاً، ولكن الفكرة راودتها باستمرار. عندما استفسرت من والدها في نهاية المطاف عن ذلك، انزعج وأنزل قارورة شراب من على الرفّ العلوي. كان ولفريد يشرب قليلاً بين الحين والآخر، ولكن لم يثمل أبداً، لذا بدا واضحاً أن ذلك يعني أنه يجهّز نفسه للحديث عن شيء صعب.

قال: «أنتِ الوحيدة التي سألت عن ذلك».

قالت لاروز: «أخبرتني أنها قد سُرقت».

«حقاً؟».

لـم يتـزوج ولفريـد ثانيـة أبـداً، علـى الرغـم مـن أن النسـاء رميـن أنفسـهن علـى طريقـه. كان قـد تكلـم عـن والدتهـم مـن دون توقـف طـوال أعـوام، مـا أبقـى ذكراهـا حيّـة لـدى أولادهـا. لـم يكـن قـد تحـدّث عنهـا آنـذاك منـذ نحـو عـام. أرادت تلـك الفتـاة، لاروز، أن تعمـل لـدى رجـل يدعـى ريتشـارد هــ. بـرات، الـذي قـد تجـوّل فـي محميـة مانـدان هيداتسـا أريـكارا وسـافر عبـر داكوتـا الشـمالية، إضافـة إلـى داكوتـا الجنوبيـة، وأسّـس مدرسـة داخليـة فـي كارليزلـي، بنسـلفانيا. أعلنـت أنهـا سـتذهب معـه؛ لأنهـا عرفـت أن والدتهـا قـد انتسـبت إلـى مدرسـة داخليـة. كانـت تلـك طريقـة لتكـون مثـل أمهـا، التـي قـد علّمـت ابنتهـا بمهـارة ومثابـرة كل مـا تعرفـه.

ماذا تعلّمت؟

قبـل أن تمـوت لاروز الأولـى، كانـت قـد علّمـت ابنتهـا طريقـة العثـور علـى الأرواح الحارسـة فـي كل مـكان تذهـب إليـه، ومعالجـة النـاس بالأغانـي والنباتـات، والأعشـاب التـي يمكـن أن تتناولهـا إذا شـعرت بجـوع شـديد، ونصـب الأفخـاخ، واصطيـاد الأسـماك، وعقـد الشـباك، وإشـعال النيـران مـن أعـواد وقطـع مـن لحـاء البتـولا. علّمتهـا الخياطـة، وغلـي الطعـام باسـتخدام حجـارة سـاخنة، وحياكـة حُصـرٍ مـن القصـب، وصنـع قـدورٍ مـن لحـاء البتـولا. علّمتهـا طريقـة تسـميم الأسـماك بالنباتـات، وصناعـة السـهام، والقـوس، وإطـلاق النـار مـن بندقيـة، والاسـتفادة مـن الريـح أثنـاء الصيـد، وتجهيـز عصـا للحفـر، وإخـراج بعـض الجـذور، وصنـع فلـوت

والعزف عليه، وتطريز حمالة جراب بالخرز. علّمتها معرفة الحيوانات التي تدخل الغابة من أصوات الطيور، واتجاه ونوع حال الطقس المتوقعة من سقسقة العصافير، وإمكانية موتها أو وجود عدوٍ يتربّص بها ويتعقّب أثرها من صرخات الطيور. تعلّمت طريقة منع المولود الجديد من البكاء، وإضحاك الطفل الأكبر سناً، والطعام الذي ينبغي أن تقدّمه لكل ولد وفقاً لعمره، والإمساك بنسر لتحصل على ريشة منه، وإسقاط حجل عن شجرة، وحفر تجويف غليون، وحرق غصن سمّاق، وزراعة التبغ، وتحضير خليط اللحم والفاكهة المجفّفة، وحصاد الأرز البري، والرقص، والغربلة، وتجفيف الطعام وتخزينه، وتحضير التبغ لاستخدامه في الغليون. علّمتها الحفر على جذوع الأشجار، وتحضير شراب القيقب، وجمع النسغ، وتجهيز الحساء، وصنع السكر، ونقع الجلد وكشطه، وإزالة الشحم عنه ومعالجته بدماغ الحيوان، وجعله طرياً وناعم الملمس، وتدخينه وطرق استخدامه. علّمتها صنع القفازات، والطماقات، إضافة إلى ثوب وطبل ومعطف وكيس من معدة أيل، أو رنّة، أو ثور بري. علّمتها كيف تترك جسدها خلفها حين لا تكون مستيقظة تماماً، أو أثناء نومها، وأن تطير لتتوثّق مما يجري على الأرض. علّمتها كيف تحلم، وتعود من الحلم، وتغير الحلم، أو تبقى في الحلم لإنقاذ حياتها.

* * *

كان نقيبٌ سابقٌ في لواء الخيّالة العاشر يشرف على

المدرسة الصناعية الهندية في كارليزلي، بنسلفانيا. بعد نجاحه في تعليم السجناء في ماريون وإيلينوي، وعمله مع نساء ورجال سيوكس اليافعين في معهد هامبتون، وتأثيره الكبير على أولئك الذين يتشاطرون الأفكار نفسها مع فرانك بوم. وصف ريتشارد برات طلابه بأنهم إصلاحيون متعاطفون، وكتب أن أمل وخلاص العرق يتمثّل في غمر الهنود ببحر حضارتنا، والسيطرة عليهم، وتثبيتهم هناك حتى يقتنعوا تماماً بها.

كانت لاروز الثانية متشبعة بتلك الأفكار، وذكية أيضاً. بعد عذاب التعوّد على مشدّها، باتت تشدّه بإحكام أكبر من قبل وترتدي قفازين؛ لأن والدتها ارتدت قفازين في مناسبات خاصة. تعلّمت تنظيف بيوت أشخاص بيض أثناء برنامج الجولات الخارجية في كارليزلي، وإزالة التراب الصلد من الزوايا بالسكين، وصقل العروق الرمادية في الأرضيات الرخامية. جعلت الألواح الخشبية تلمع، والأدوات النحاسية تتلألأ. كتبت بخط يد جميل، وتعلّمت الحساب بالآلاف. عرفت أنهار العالم والحروب التي خاضها الإغريق، والرومان، والأمريكيون الذين هزموا البريطانيين ثم الهمجيين. حفظت قائمة بالأعراق، التي وضعت الأبيض في أعلى مرتبة، ثم الأصفر، والأسود، والهمجي أخيراً. كان قومها في أدنى منزلة وفقاً للمنهاج الدراسي.

ماذا يعني ذلك؟ ارتدت قبعات وربطت شرائط أحذيتها. حفظت «إعلان الاستقلال» عن ظهر قلب، وقد تكلم

النقيب برات بنفسه معها عن الحرب الأهلية وأسباب اندلاعها. سردت من ذاكرتها مقتطفات تتضمن قصيدة عن الملاك في المطبخ. تعلّمت الرياضيات وحفظت شكل الدول في الكرة الأرضية، واطلعت على التاريخ الأمريكي ومستويات الحضارة العتيقة والحديثة، التي تُوّجت برجال مثل النقيب ريتشارد برات. تعلّمت العيش على خبز وماء، ثم قهوة ومرق ورغيف. الأهم أنها تعلّمت كيف تقوم بأعمال الخدمة، استخدام معصرة الغسيل، وتنشية الثياب، وكيّها. عملت عشر ساعات في اليوم في درجة حرارة تبلغ 120. تعلّمت الخياطة باستخدام الآلة، وتخيّلت طريقة خياطة فمها وإغلاقه. فيما يخص التحدّث بالأنيشينابي، تعلّمت كيف تتحمّل الضرب بعصا خشبية. تعلّمت الأكل باستخدام شوكة وملعقة، ودهن الشحم على رغيف بسكين، وزراعة الخضراوات، وسرقة بعضها، وصناعة الصابون، وفرك الأرضيات، وفرك الجدران، وفرك القدور، وفرك جسدها، وفرك الرأس، وكشط أرضية لتنظيفها، وكرسي المرحاض، والخزانة رفاً بعد آخر، وأين توجد الجرذان وكيف يمكن قتلها، وكيف تعزّز حميتها الغذائية بالسرقة من مزارع مجاورة أو جمع جوز وذرة، وإخفائها في صدرها. أثناء تلك الأيام الباكرة، باعت كارليزلي منتجاتها الزراعية وأطعمت التلاميذ شوفان، وشوفان، وشوفان.

تعلّمت الوقوف على نحو صحيح، والمصافحة بقوة، وشدَّ قفازيها على يديها، ونزعهما عن أصابعها واحداً بعد آخر، والمشي مثل امرأة بيضاء على حذاء عالٍ،

واستخدام وغسل رقع الطمث كريهة الرائحة. لم تكن أي رائحة مقرفة من دماء قديمة تفوح من نساء أوجيبوا؛ لأنهن يستخدمن الطحالب والتيفا ويتخلّصن منها فوراً، ويغتسلن مرتين يومياً. تعلّمت تحمّل الرائحة، والحكّة، وغلي ثيابها الداخلية للقضاء على القمل، والاغتسال مرة واحدة فقط في الأسبوع، أو كل أسبوعين، أو حتى ثلاثة. تعلّمت النوم على أرض باردة، وتحمّل رائحة أشخاص بيض، وترتيب المائدة. تعلّمت أن تراقب أصدقاءها يموتون بسرعة بسبب الحصبة، أو يختنقون بسبب الالتهاب الرئوي، أو يذبلون بسبب التهاب السحايا. تعلّمت أن تنشد تراتيل الجنازة، وقد غنّتها من أجل صبي سيوكس يدعى آموس لافرومبواز، وفتى تشيني يدعى آبي لينكولن، وهربرت ليتلهوك، وإرنست وايت ثندر، وكيت سمايلي، وفتى مات منتحراً، ولكنها مسحت اسمه من ذهنها بعناية. تعلّمت التعامل مع الجوع وأن تملأ بطنها حتى إن اضطرت إلى أكل لحاء الشجر، طبقات عميقة من البتولا. تعلّمت، مثل والدتها، إخفاء أنها مصابة بالسل.

قال برات أيضاً: قال جنرال فذٌّ إن الهندي الجيد الوحيد هو الهندي الميت، وإن الموافقة السامية على تدميرهم كانت عاملاً حاسماً في ارتكاب المجازر بحق الهنود. بهذا المعنى، اتفق مع هذا الرأي، ولكن بشرط واحد: ينبغي القضاء على الهندي في كل شخص من ذلك العرق. اقتلوا الهندي، واتركوا الإنسان.

لم يكونوا قد بدؤوا القتل باكراً كفاية مع ولادة لاروز تلك. عرفت «ترنيمة معركة الجمهورية»، ولكن والدتها علّمتها استخدام سموم أوجيبوا قوية وخفيّة. عرفت طريقة اصطياد وسلخ أي حيوان تراه. كانت أمها قد نصبت فخاً لرجل أبيض شرير وفقأت عينه، واستدعت طبل والدتها وعالجت رجلاً وقع في دوار أسود. كانت أمها قد صنعت طبلاً جديداً من أجل ابنتها، ولم يأخذه أحد؛ لأنها تركته مع والدها. رأت لاروز الصغرى المحيط، وقد أنجزت عملها في المنطقة الشرقية. علّمتها أمها أن تبعد روحها عنها من أجل أن تحمي نفسها عند الضرورة. جلبت ذواتها الكثيرة من قمم الأشجار، ودمجتها في نفسها، وباتت مكتملة وجاهزة للذهاب. حصلت على قبعة مزينة بريشة مقابل عملها شهراً في تنظيف القدور، وتحرّكت باحتشام على طول رصيف السكك الحديدية، وفي محفظتها تذكرة العودة إلى الديار.

أرادت تغيير كل شيء بشأن كل شيء حين تصل إلى البيت. كان بمقدورها إصلاح بضعة أشياء بأمور بسيطة. عاشت مع والدها؛ ولفريد، وتزوجت أحد أقربائها. كانت معلّمة وأم معلّمة. باتت ابنتها التي تحمل الاسم نفسه والدة السيدة بيس. تعلّمت كلهن لغتين، وأربعة مستويات من الرياضيات، وطرق الاستفادة من النباتات، والتحليق فوق الأرض.

* * *

ارتشف والدها شرابه. لم يكن قد تكلم بعد، ولكنه وضع يده التي تمسك كوب الشراب فوق كومة من الأوراق.

سألت لاروز: «هل ستخبرني، أخيراً، عن مكان دفنها؟».

قال ولفريد: «لا يمكنني إخبارك بهذا».

«لماذا؟». اقتربت منه ولمست كتفه.

«لأنني لا أعرف».

على الرغم من مشاعرها المتناقضة، فإن لاروز حاولت دائماً أن تكون واقعية، وأن تتخيل قبراً، أو شاهدة تحمل اسم والدتها، أو مكاناً يمكن أن تزوره يوماً ما. لم يكن ما قاله والدها يبدو منطقياً.

قالت: «هذا غير ممكن».

قال: «بلى»، ثم كرّر الكلمات التي قد نسيتها وتذكّرتها مرات عديدة منذ كانت يافعة.

«لقد سُرقت».

ربت على كومة الأوراق، ونظر مباشرة إليها.

«يا بنتي، كل شيء هنا».

1000 حالة وفاة

20003 – 20002

الرسائل

السيدة بيس جالسة إلى طاولة المطبخ المصنوعة من الكروم اللامع، وسطحها الصقيل مغطى بصواني الخرز، وعلب السيجار، وأكوام من الأوراق. وضعت سنو وجوزيت بحرص كل الرسائل القديمة في حافظات خاصة بها. كانت معظم الرسائل، التي كتبها ولفريد روبرتس في ستينيات، ثم سبعينيات القرن التاسع عشر، لا تزال سميكة ومرنة، ولكن بعضها أكثر هشاشة، ومسطّرة، وممزقة من الحواف.

قالت السيدة بيس: «كان الورق المصنوع في ذلك الوقت عالي الجودة، في حين أن ما يصنعونه حالياً يتفتّت في بضعة أعوام».

قالت سنو: «هذا بسبب الأحماض؛ لأنها تدخل في تركيبة معظم الورق الآن».

كان ولفريد روبرتس قد كتب عدّة نسخ من الرسائل التي أرسلها لاستعادة زوجته المسروقة، وخزّن أرشيفاً كبيراً أثناء محاولته تلك. تحمل الرسائل تواريخ، وهناك

سجل بمواعيد إرسالها بالبريد، واستلام الردود، في حال ورودها أصلاً.

قالت جوزيت: «خطة النسخ الاحتياطي الأصلية».

قالت السيدة بيس: «استفاد من خبرته في العمل في تجارة الفراء، واحتفظ بسجل عن كل المراسلات. أخبرتني خالتي أنه احتفظ بتلك الرسائل في علبة معدنية، مغلقة. كانت يافعة حين توفي، ولكن تذكّرت ذلك المفتاح الصغير، الموجود في مرطبان سكر قديم، من دون مقبض. خشي أن يعبث الأولاد بتلك الأوراق. يوجد هنا كل ما لديه عنها، التي تثبت أنه قد بحث عنها».

وضعت السيدة بيس الحافظات البلاستيكية في مجلد ذي حلقات. كانت أولى الرسائل موجّهة إلى د. هانيفورد آمس. طلبت كل الرسائل من ولفريد، وواحدة من محام أيضاً، استعادة رفات لاروز روبرتس. كانت أسنانها القاطعة، وجمجمتها المكسورة سابقاً، وجسدها المصاب بأضرار نتيجة ركلات قاسية من تاجر فراء خليع، إضافة إلى عظامها التي نخرها السل، ستجعل تمييزها أمراً سهلاً. بحث عنها في رسائله، التي توالت بعد ذلك. واصلت ابنة ولفريد، لاروز الثانية، إرسالها. تبين أن هناك رسائل أيضاً من الوقت الذي قضته في كارليزلي. انتقلت عادة كتابة الرسائل إلى ابنتها، ثم إلى السيدة بيس. كانت تلك الرسائل قد بحثت طوال أكثر من قرن عن عظام السراب، الوردة، لاروز.

كانت حال لاروز مفيدة نوعاً ما، في البداية، في أبحاث د. هانيفورد آمس. رفضت رسائل منه بلطف طلبات ولفريد، وأكدت على قيمة جسمها باسم العلم. أظهرت عظامها قابلية التأثر الفريدة لدى الهنود لذلك المرض، ومدة مقاومتها له. كان جسدها قد تكيّف مع الداء، مراراً، وتعافى منه. قال الطبيب إنها تعدُّ نموذجاً جديراً بالاهتمام من البشر. باتت لاروز، بعض الوقت أيضاً، ممثّلة الأشخاص غريبي الأطوار. لم يكن آمس يتمتع بأي حق، وفقاً للمحامي، لنقل لاروز على الطريق وعرضها في محاضراته العلمية عن تقدّم السل. قدّم آمس كل الرفات البشرية التي بحوزته إلى الجمعية التاريخية بمقاطعة آمس في ماريلاند، حيث قضى شيخوخته، وتم عرض العظام هناك.

بعد الرسائل من ولفريد، جرى الاحتفاظ بالعظام في درجٍ بجانب عظام هنود آخرين، أُخذ بعضها من مقابر، ونُبشت أخرى من مدافن، في حين ظهر بعضها الآخر أثناء حرث حقول، أو تشييد طرق عامة، أو بناء أسس منازل أو مصارف أو مستشفيات أو فنادق، أو حفر برك سباحة. رفضت الجمعية التاريخية طوال أعوام إعادة العظام، وقد كتب رئيسها أن رفات زوجة ولفريد تعدُّ جزءاً هاماً من تاريخ مقاطعة آمس.

عُرضت عظام لاروز مرة أخرى، ونُقلت على عجل بعد محاولة سرقتها بالقوة. لاحقاً، كان ما بقي من رفات لاروز الأولى، التي قد عرفت أسرار الكوكب، ويمكنها العثور على

الطعام في أي مكان، وقاومت رأساً مترنّحاً وحفظت آيات من الإنجيل، لاروز تلك التي تميّزت بذكائها وتزيّنت بالشرائط كل عام، ووصفها اثنان من معلّميها في الأبرشية بأنها عنيدة ولا سبيل إلى تقويم سلوكها، لاروز تلك التي نزعت مشدّها وضحكت حين سارت مجدداً منتعلة حذاء من دون كعبين، لاروز تلك التي حرستها أرواح زرقاء شاحبة وكائنات رعدية أثناء ولادة أبنائها، لاروز تلك التي أحبت الندبة الرفيعة بجانب ابتسامة ولفريد، لاروز تلك قد فُقدت بطريقة ما، ما أثار أسفاً عميقاً لدى رئيس الجمعية التاريخية.

* * *

انساب ضوء أغسطس مسافة طويلة عبر الأشجار. كان القراد ميتاً، والأعشاب منتشرة في الخنادق، ولاروز لا يستطيع إيقاف أفكاره. اضطر إلى النوم في البقعة التي مات فيها الفتى الذي حلَّ محله. كان هذا التوجيه الداخلي قوياً جداً ما جعل لاروز يكذب أول مرة في حياته امتثالاً له. أخبر إيمالاين أنه يُفترض أن يذهب إلى منزل بيتر ونولا في عطلة نهاية الأسبوع. اختلق صديقاً من المدرسة؛ لأنهما لم يكونا يعرفان أي أولاد من بلوتو، وتكلم عن حفل عيد ميلاد، وجعل الأمر يبدو معقولاً. شعر ببعض الدهشة لأنهما صدّقا كذبته بسهولة، وفوراً أيضاً. قال بيتر إنه سيتكفّل بإيصاله؛ لأنها ستكون في العمل. شعرت إيمالاين بخيبة أمل، فقد اصطحبت لاروز إلى العمل معها في عطلات نهاية الأسبوع، وجعلته يساعدها في مكتبها، وغرف التدريس.

كانا يذهبان عند الظهر إلى متجر وايتني ويشتريان قطعاً من جبن الموزاريلا أو شطائر أسماك مدخّنة من جوزيت.

قالت إيمالاين في البداية: «لا، لا، لا يمكنك الذهاب».

نظر لاروز إلى عينيها وقال: «أرجوك». كانت تلك النظرة تكسبه ما يريد، وقد أتقن استخدامها، بعد أن تعلّمها من ماجي.

سحبت إيمالاين نفساً عميقاً، ثم أخرجت زفيراً قوياً. عبست، ولكن استسلمت. احتضن لاروز أمه مودّعاً وقبّل وجنتها. فكّرت إيمالاين «إلى متى سيستمر هذا؟» حين ردّت خصلة من شعره إلى الخلف. بدا حزنها واضحاً أمام ناظريه.

«أراكِ في الأسبوع القادم يا أمي». عانقها مرة ثانية، بحنان كبير. كان هناك شيء في ذلك العناق جعلها تتراجع إلى الخلف. أمسكت بكتفه على بُعد ذراع منها، وأمعنت النظر إليه.

«هل أنت بخير؟».

أومأ.

قال: «ينتابني مزيج من المشاعر الجيدة والسيئة». لم يكن هذا يعني شيئاً ولكن بدا مقبولاً أيضاً، لذا استطاع قول ذلك باقتناع. بقيت متشكّكة، ولكنها كانت قد تأخرت أيضاً عن الاجتماع العاجل. بعد أن غادرت والدته، عاد لاروز إلى غرفة النوم، وأخذ بطانية من خزانة الأغراض. لفَّ الغطاء ووضعه تحت ذراعه، ثم فتح زمام حقيبته

المملوءة دمى على شكل شخصيات ووضع فيها قارورة رذاذٍ طارد للبعوض. في المطبخ، فتح الصنبور وملأ مستوعباً صغيراً بالماء.

كان لاروز دقيقاً وحريصاً في كل تلك الأمور، وبدا أنه يصير إنساناً فاعلاً. لقد تعلّم من أسرته بالولادة نصب فخاخ للأرانب، وتحضير اليخنة، وطلاء الأظافر، ولصق ورق الجدران، وإقامة الشعائر، وإشعال نارٍ في الخارج تحت وابل كثيف، والعمل على آلة الخياطة، وقصّ قطع قماش لصنع اللُّحُف، ولعب هالو، وجمع وتجفيف وغلي أعشاب طبية مختلفة. لقد تعلّم من كبار السن طريقة الانتقال بين العالمين المرئي وغير المنظور. علّمه بيتر استخدام الفأس، والمنشار الكهربائي، والتعامل بأمان مع إ22ـ، وقيادة آلة جز العشب، وسياقة جرّار، وحتى سيارة. علّمته نولا طلاء الحيطان، وتربية الحيوانات، وزراعة النباتات، وقلي اللحم والخبز. علّمته ماجي إخفاء خوفه، والتظاهر بالألم، والضرب بالمفاصل، واستهداف العينين، ودفع الأصابع في أنف شخص من الخلف والتهديد بانتزاعه من وجهك. لم يكن قد فعل تلك الأشياء بعد، أو حتى ماجي، ولكنها كانت تبحث دائماً عن فرصة سانحة.

عندما وصل إلى المكان، مدَّ بطانيته بجانب حزم تبغ، وأرز، وأشياء متحلّلة، وأوراق، وعيدان. كان الجو حاراً، والوقت لا يزال نهاراً، والنسيم يهبُّ على الأغصان العالية فقط. لم تكن أعداد البعوض كبيرة مثل تلك التي خرجت

في بداية الصيف الحار، وعندما رشَّ نفسه بالرذاذ، أزّت حوله لكن من دون أن تهبط عليه. في البداية، كان صوتها هو الوحيد المسموع. جعله السكون، الصمت المطبق، يشعر بعدم الارتياح. لكن الطيور بدأت تسقسق مجدداً، ترحيباً به في أراضيها، ما دفعه للجلوس على بطانيته. أدرك أنه قد نسي إحضار أي نوع من القرابين، كان يُفترض بك أن تفعل ذلك. ينبغي عليك أن تأخذ هذا بالحسبان حين تذهب إلى الغابة. يجب أن تقدّم شيئاً للأرواح. كان لديه نفسه، ومجموعة من الدمى، ورذاذ البعوض، وبطانيته، وأغنية واحدة، ومستوعب الماء. كانت أنشودة الجهات الأربع التي قد تعلّمها من والده. رفع مستوعب الماء عالياً كما رأى أمه تفعل، وقدّمه في كل اتجاه. أنشد أغنيته وسكب الماء على الأرض، ثم أحكم إغلاق المستوعب الفارغ، واستلقى على ظهره ونظر إلى قمم الأشجار المتمايلة وقطع السماء الظاهرة بينها. غطّت الأشجار كل السماء تقريباً، ولكن استطاع رؤية لون أزرق، زرقة حارّة، على الرغم من أن الهواء في الأسفل كان دافئاً فإنه ليس لاهباً. لولا البعوض الذي اقترب من أذنه أو حطَّ على أنفه وقرصه أحياناً، لشعر بالراحة بالتأكيد.

زقزقة العصافير، وأزيز الحشرات الخافت. استلقى هناك مستمعاً إلى شكوى معدته، بانتظار أن يحدث شيء ما. استسلمت معدته بعد الظهر تقريباً، وهبّت ريح قوية على المكان، ولم يعد بمقدور البقّ استهدافه، ما جعله يغطُّ في النوم. كان الظلام حالكاً حين استيقظ، وشعر بالعطش،

وتمنّى لو أنه أحضر كشافاً أو بعض عيدان الثقاب. لكن والديه قد يريان ضوءاً، كما قال في قرارة نفسه، وأدرك أنه قد فعل الصواب. لم يكن مرتاحاً، وفكّر في العودة. ولكن سيكتشفون أنه قد كذب عليهم ولن يثقوا به مجدداً أبداً. لن يحظى إطلاقاً بمثل هذه الفرصة، لذا استلقى على بطانيته مصغياً إلى الأوراق تخشخش عند مرور حيوانات صغيرة عليها، وخفقات قلبه التي ترنُّ في أذنيه، وصرير صراصير آخر الصيف. سمع نقيق بعض الضفادع، ونعيب بوم. تكلم والداه عن ماندوج، تلك الأرواح التي تعيش في كل شيء، خاصة في الغابة.

هذا أنا فقط. همس للأصوات فتغيرت طبيعتها، وباتت جوقة همس، وعلى أتم الاستعداد لقبوله. غطَّ في النوم، أخيراً. نام بعمق جعله لا يتذكّر أحلامه حين أيقظته أصوات طيور حادّة في الصباح. شعر بظمأ آنذاك، وجوع، وتعب محبّب أيضاً، ولم يرغب في أن يتحرّك على الإطلاق. كان جسده بحاجة إلى طعام؛ لأنه يتمدّد. قال الجميع إنه في مرحلة النمو. سيكون سهلاً جداً أن يذهب باكراً إلى منزل نولا ويقول إنهم قد أوصلوه. لقد فعل ما ينبغي فعله، في تلك الليلة الوحيدة. لكن قرّر البقاء؛ لأنه شعر بارتياح غريب. كان حلقه جافاً جداً، والبلع مؤلماً، لكنه لم يهتم بذلك. اشتدّت حرارة النهار، وأطبقت بثقلها عليه.

سمع لاروز، أو شعر، بعد بعض الوقت أن شخصاً ما يقترب، ولكن الخمول الذي أصابه بسبب الحرارة منعه من

التحـرّك بسـرعة. لـم يشـعر بالخـوف، وظـنَّ أنـه والـده، علـى الأرجح. أحـبَّ لانـدرو التجـوّل في ذلـك المكان من الأحـراج أيضـاً. لكـن لـم يكـن هـو، في الواقـع لـم يكـن شـخصاً واحـداً علـى الإطـلاق. كانـوا مجموعـة مـن النـاس، نصفهـم هنـود ونصفهـم الآخـر قـد يكونـون هنـوداً، وبعضهـم شـاحب إلـى درجـة أنـه اسـتطاع رؤيـة نـور يشع مـن خلالهـم. جـاؤوا إليـه وتصرّفـوا علـى سـجيتهم، وجلسـوا حولـه، أشـخاص مـن كل الأعمـار. كان هنـاك عشرون منهـم علـى الأقـل، لكـن لـم يسـلّم أحـدٌ منهـم عليـه أو حتـى ينظـر إليـه، وعندمـا بـدؤوا الـكلام عـرف أنهـم لا يلحظـون وجـوده. أدرك ذلـك لأنهـم تكلمـوا عنـه كمـا يفعـل الآبـاء حيـن لا يعرفـون أن بمقـدورك سـماعهم. عـرف أنـه هـو المقصـود بكلامهـم؛ لأن أحدهـم قـال: «الولـد الـذي حـلَّ مـكان دستي»، فـي حيـن سـأل آخـر: «ألا يـزال يلعـب بسـيكر والدمـى الأخـرى؟»، وقـد كان يفعـل ذلـك فـي الواقـع، إنمـا حـاول إخفـاء الأمـر عـن الآخريـن. أشـار أحدهـم فجـأة.

«إنه هناك!».

نظروا إليه، وتصرّفوا مثل أقرباء يرونك فجأة.

«يا للهول، لقد كبر!».

كانـت المـرأة التـي قالـت هـذا ترتـدي سـترة بنيـة ضيقـة، وتنورة مقلّمـة، وتعتمـر قبعـة مائلـة إلـى أحـد الجانبيـن مزينـة بريشـة طائـر. كانـت هنـاك امـرأة أخـرى معهـا، تمسـك يدهـا، وتشـبهها كثيـراً. أشـارت إلـى لاروز وتحدّثتـا معـاً. تكلمـت المـرأة الأكبـر سـناً بالأوجيبـوا. بـان القبـول فـي صوتهـا، ولكـن شـيئاً فيهـا جعلهـا

تبدو نزقة، ومخيفة، وقاسية أيضاً. انحنت مقتربة منه، ونظرت إليه بإمعان، وتفحّصته من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه.

قالت: «ستطير مثلي».

لم يكن هناك عدد كبير من الهنود الذين يشبهونهم على امتداد التاريخ، ويرتدون النوع القديم نفسه من الثياب البسيطة. تكلموا الأوجيبوا، التي عرفها لاروز لكنه لم يفهمها تماماً. بدا أنهم يناقشون شيئاً عنه؛ لأنهم أومأوا برؤوسهم نحوه أو نظروا إليه أثناء حديثهم. اتفقوا على شيء ما، وتكلمت المرأة التي تعرف الإنجليزية معه. تحدّثت بلطف، واستقرَّ بصرها عليه بمحبة. عندما نظر لاروز إلى قسمات وجهها الرقيقة، عرف والدته، فغمرته مشاعر ارتياح على الفور.

قالت: «سأعلّمك حين يحين الوقت».

استطاع رؤية نسخة باهتة من صورة عمرها أربعة أعوام شاهدها سابقاً في يد نولا في سيماء أحد الحاضرين. كان ذلك دستي، بعمره آنذاك.

سأل لاروز الفتى: «هل أنت بخير؟».

هزَّ دستي كتفيه، وقال: «لا، ليس حقاً».

«هل يمكن أن تعود؟ أتتذكّر أننا كنا نلعب سوياً؟».

أومأ دستي.

«أحضرتُ بعض الأبطال والدمى الأخرى».

«حقاً؟».

فتح لاروز حقيبته، وأخرج دمى على شكل شخصيات معروفة، فتفحّصها دستي. بدآ اللعب بهدوء؛ لأن الراشدين موجودون هناك.

«إذا عدت، يمكنك رؤية سيكر».

انفرجت أسارير دستي، وطأطأ رأسه.

نهض الجميع بعد وقت قصير وغادروا المكان، ومشوا ببساطة في كل الاتجاهات، يتمتمون، ويضحكون. شدَّ لاروز قامته ونظر إلى المرأة التي تعتمر القبعة. طوى بطانيته من منتصفها، ثم كرّر الأمر. رفع الحقيبة إلى كتفه، ووضع البطانية الملفوفة تحت ذراعه، وبدأ السير. شعر أنه بخير. سلك الدرب إلى منزل ماجي ودخل من الباب الخلفي قبل حتى أن تعرف نولا أنه وصل. ذهب إلى الحمام ووضع فمه تحت الصنبور، وجعل الماء المنعش يتدفق إليه.

«لاروز؟».

صرخ نحو الأسفل: «لقد دخلت من الخلف».

«لم أسمع سيارة تقترب».

«أوصلوني إلى حافة الطريق».

استلقى على السرير، وجعلته الراحة المفاجئة يخلد فوراً إلى نوم عميق خالٍ من الأحلام.

* * *

بعد أن اقترفت معلّمة الطفولة المفضّلة والسيدات الأخريات ذلك العمل البغيض، لم يعد روميو يصدّق من دون طائل بالقناعة القديمة نفسها، وقد جعلته خيانتهن يعيد حساباته. لم تعد الترتيبات التي اعتمدها طوال حياته، والغش والسرقات الصغيرة، تؤتي الثمار التي يرجوها. بدا غير واثق بما سيؤول إليه الوضع، سواء إلى الأسوأ أو إلى الأفضل، بعد أن حصل على الوظيفة التي تقدّم لها؛ ذلك العمل الحقيقي. لقد تم اختياره لتلك الوظيفة من بين كل الأشخاص الآخرين. في البداية، جعلته الدهشة يكدح في العمل، ثم صار أكثر اهتماماً بالقصص التي تجري حوله. عمل ساعات إضافية؛ لأن الأمر يشبه المشاركة في دراما تلفزيونية شائقة. أنجز أكثر مما هو مطلوب منه في مجال التنظيف لدخول الأقسام المختلفة، والعثور على أشياء جديدة. أفرغ القمامة باستمرار، خاصة أثناء اجتماعات الموظفين. لمّع الأرضيات بآلة التنظيف الكهربائية الكبيرة؛ لأن الناس يحبون الأرضيات المصقولة، وقد ازدادت ثقتهم به بعد أن قام بذلك. كنس، ومسح، ونظّف القيء والدم وفقاً للإرشادات المتّبعة. بدأ يحب الالتزام بالقواعد! أحبَّ ارتداء قفازين مطاطيين! بدأ الناس يظنّون أنه قد صحا من غفلته، وتركهم وما يظنّون. ذهب بانتظام إلى اجتماعات المدمنين على التلة، مع الأب ترافيس. كان الجميع فاشلين هناك، في حين تحول إلى إحدى قصص النجاح.

قال أحدهم إنهم سيُجرون اختبار دم في العمل يوماً ما، حتى لعمّال التنظيفات. يوماً ما، إنما ليس فوراً، ولكن

الأمر سيتم بالتأكيد. همهم روميو، ورمى المكنسة من يده، وسار كل الطريق إلى البلدة. كان يتحمّل مشقّة ذلك العمل لأنه يشعر بالأمان فيه، وقد انقضى وقت طويل منذ خضعت جروحه القديمة للعلاج رسمياً. فكّر أنه قد يستطيع الاستفادة من النظام، والحصول على وصفات جديدة، أكثر قوة من قبل. تحسّن مزاجه، وقادته خطواته إلى ديد كستر، على الرغم من أنه لم يكن يحب إنفاق المال الذي يجنيه من عمله الجديد على مشروباتٍ في ذلك المشرب. ربما يقابل شخصاً يعرفه هناك، ويملك نقوداً، وقد يكون مرحاً ويريد شخصاً يشاطره الشراب.

عندما تكيّفت عيناه مع الظلمة في الداخل، بحث روميو بسرعة عن القس. أراد أن يتكلم مع الأب ترافيس، لا عن اختبار الممنوعات، وإنما بشأن آخر الأخبار. لكن القس لم يكن هناك، وقد شعر بالدهشة حين رأى ابنه عند الطرف الآخر من النضد.

جلس إلى جانب هوليس.

سأل: «ما هذا؟».

قال هوليس: «إنه عيد ميلادي. لقد وُلدت في أغسطس، ألا تتذكّر؟».

صرخ روميو متفاجئاً: «طبعاً، طبعاً».

التحق هوليس بالمدرسة في وقت متأخر؛ لأنهم خرجوا أثناء طفولته بمهمة من نوعٍ ما تتضمن النوم على المقعد

الخلفي في السيارة، والذهاب إلى منازل تُقام فيها حفلات، وتناول وجبات هابي ميل من ماكدونالدز. لقد نسي روميو إرساله إلى المدرسة، ولكن في أول بضعة أعوام فقط. بلغ هوليس الثامنة عشرة من عمره آنذاك قبل أن يصل إلى سنته الدراسية الأخيرة. أخرج شهادة سواقته من محفظته ليقدّمها إلى الساقية بافي.

«سأطلب أول جعة لي!».

«اطلب لي واحدة أيضاً يا بني».

قال هوليس: «لماذا لا تشتري أنت جعةً لي على سبيل التغيير. إنه عيد ميلادي».

قال روميو: «كنت سأحبُّ القيام بهذا، ولكنني مفلس تماماً».

طلب هوليس قارورتي جعة.

قال هوليس بملل: «ما نفع الأبناء؟ لكن لا تحاول خداعي يا أبي».

«لا، لا، لن أفعل أبداً».

«حسناً».

«لا شيء باستثناء أن ذراعي مصابة». فزع روميو، وحرّك كتفيه .

«ذراعك وساقك». نظر هوليس إلى الأسفل نحو الساق. كانت تلك الساق مغلّفة بغطاء من الجلد الاصطناعي

الأسود في آخر مرة رأى فيها والده. كانت ملفوفة آنذاك بجبيرة بنية داكنة مصنوعة من القطن والبلاستيك.

«تعرف كيف حدث هذا؟ علاقة لاندرو بالأمر؟».

«نعم، فقد أخبرتني هذا مراراً».

«بات اسمي الساق اليسرى الحزينة منذ ذلك اليوم». ضحك روميو، إذ لم يكن بوسعه تحمّل الأمر. تأثّر باحتمال تناول جعة مع ابنه، الذي لم يكن قد غادر المكان بعد. طأطأ روميو رأسه، وحرّكه إلى أعلى وأسفل، مبتسماً للجعة.

«أنا مسرور لجلوسي معك يا بني».

«تخرّجت هذا العام، كما تعرف».

قال روميو: « واو!».

«سألتحق بالحرس الوطني. لديّ مقابلة معهم».

بقي روميو واجماً، وأشار إلى بافي أن تحضر الجعة بسرعة.

قال هوليس: «أفكّر دائماً منذ ضربوا البرجين. بلادي لها فضل كبير عليّ».

شعر روميو بالصدمة: «ماذا؟ أنت هندي!».

«أعرف، بالتأكيد، فقد كادوا يقتلوننا جميعاً. لكن مع ذلك، إنها مسألة تتعلق بالحريات، صحيح؟ ونحن لدينا مدارس ومستشفيات وملهى. عندما نسيء التصرّف الآن، سيرتدُّ ذلك سلباً علينا».

«هل أنت مجنون! إنها صدمة الأجيال يا بني. ليست غلطتنا أنهم قد اضطهدونا، ودمّروا ثقافتنا، وبنيان أسرنا. جُلَّ ما نريده هو استعادة أرضنا».

تناول هوليس أول رشفة قانونية من الجعة.

«أوه، نعم، صحيح. لكن أفكّر دائماً فيما يمكنني فعله لإنقاذ الناس أثناء حدوث الفيضان، وإخراجهم على متن أطواف، مع أولادهم الذين يرتدون سترات نجاة. أتخيّل كلابهم تقفز إلى المركب في اللحظة الأخيرة. أرى ذلك باستمرار. أعني، إنه الحرس الوطني. لن أغادر الولاية على الأرجح».

قال روميو بوَهنٍ: «آمل ألا تفعل». خمّن أن ذلك القبول جزء من كونه أباً، واكتشف أنه أكثر صعوبة مما قد تخيّل. خطرت فكرة في باله بسبب الغيرة.

«ماذا عن لاندرو؟ هل طلب منك الانضمام؟ بسبب عاصفة الصحراء؟».

قال هوليس: «ليس تماماً، فقد عمل في القسم الطبي مع هيئة الإمداد. لم يخرج أبداً إلى طريق الموت، وإنما جهّز أشياء من أجل الرجال، مثل أدوات إنقاذ الأرواح وأمورٍ أخرى مماثلة. لكنْ هناك أسباب أخرى، على أي حال، لهذا القرار الذي اتخذه. سأتعلّم اللحام، وبناء الجسور، وربما قيادة الشاحنات، أو معدّات ثقيلة. أريد أن أدّخر بعض المال أيضاً، وأحصل على تلك الامتيازات.

سأنتقل إلى قوات الاحتياط لاحقاً، وربما أسافر إلى غراند كانيون أو فلوريدا، أي إلى خارج الولاية بطبيعة الحال».

أومأ روميو، وتعرّق.

تمتم: «لم أكن أفضل شخص في حياتك. من أنا ليكون لي رأي؟».

«لا بأس يا أبي. أعرف أنك ذهبت إلى المدرسة الداخلية. الناس يقولون إن ذلك أفسدك ...».

أرجع روميو رأسه على الخلف.

«يقولون؟ الناس يقولون؟ هم لا يعرفون. لقد دمّرني الرحيل عن المدرسة الداخلية. أحببت المعلّمين هناك، وقد قالوا جميعاً إنني سأذهب إلى الجامعة».

صحيح، كما فكّر هوليس. لم يكن يكره والده، عرف بعض الآباء الأسوأ منه. بدأ يشعر بالحنق وأدرك أن عليه الابتعاد عن روميو. لم يكن عاتباً على أمه، أيضاً، وكل ما أراده هو أن يعرف هويتها ومكانها. كان منسجماً مع آل آيرون، ربما أكثر من اللازم؛ لأنه وجد نفسه يفكّر باستمرار أنه سيكون شيئاً رائعاً إن أحبّته جوزيت، وربما تزوجته يوماً ما.

«هل لديك حبيبة؟».

طرح روميو السؤال بصوت خجول وخافت خشية أن يقول ابنه شيئاً ساخراً. عندما لم يرد هوليس، ظنَّ أنه قد أهانه.

تابع روميو: «أعرف أنني لم أكن أباً جيداً لك، ولكن يمكنك الاعتماد عليّ الآن».

نظر هوليس إلى والده، الهزيل جداً، والتوّاق إلى نيل محبة الآخرين، ثم خفض بصره، محرجاً.

قال: «يمكنك الاعتماد عليّ أيضاً يا أبي».

عبس روميو ونظر إلى رواسب جعته، وحبس دموعه.

قال: «هذه لحظة للذكرى». مدَّ يده لمصافحته، ولم يستطع هوليس الإفلات من قبضته إلا بطلب قارورة جعة أخرى لكل منهما. التمس هوليس من بافي أن تغير قناة التلفاز فوق النضد إلى سي إن إن؛ لأنه يعرف أن والده يحبها. اشتكى شخصٌ من تغيير القناة، ولكن بافي أسكتته. جلس روميو وحدّق بإمعان إلى الشاشة.

استرخى قليلاً بعد بضع دقائق ومال بثقة نحو هوليس.

«يبدو أن الخاطف عطا التقى عراقياً ما في براغ، ربما؟ في أبريل من العام الماضي».

سأل هوليس من دون اهتمام: «ماذا يعني هذا؟».

قال روميو: «يبدو الأمر لي مثل كرة ثلج متدحرجة. إنها تكبر يوماً بعد آخر. لكن معلومة من الاستخبارات التشيكية؟».

وضع روميو قبضته تحت ذقنه، وبدا مثل حكيم يُمعن التفكير في الأمر.

هزَّ هوليس كتفيه.

قال روميو: «يريدون ضرب صدّام. إنه رجل جشع ومجنون، ولكن ليس إلى هذا الحد. ذلك مؤكد!».

كان «عينا الظبية» هو اللقب الذي يطلقه روميو على بن لادن.

أطلق هوليس العنان لخياله، في حين وسّع والده توقعاته عن دوافع هذه الشخصية العامة أو ذلك السياسي. لم يسمع الخوف والتوتر بشأنه في صوت والده. تناول هوليس جعته رشفة بعد أخرى، ولم يكن يرغب في أن يغادر المكان؛ لأنه عندما يصل المنزل، سيضطر إلى البحث عن كتاب ينبغي أن يقرأه في ذلك الصيف بعنوان «عالم جديد شجاع». لم يكن يمتلك نسخة منه كما يتذكّر، ولكن كان لدى جوزيت وسنو أكوام من الكتب، التي قد تتضمّن ذلك الكتاب تحديداً، وسيأتي به من رفّهما، وينهيه بسرعة، وقد تساعده جوزيت في كتابة بحثه. رأى هوليس نفسه يحدّق إلى شاشة الحاسوب، وجوزيت تميل فوق كتفه، متجهّمة، وأنفاسها في أذنه. ستقول عيد ميلاد سعيد بذلك الصوت العذب الذي تخاطب لاروز به.

«اخرس أيها الدماغ!». شدَّ هوليس شعره ليعيد نفسه إلى الواقع. كان جالساً هناك مع والده الحقيقي، في عيد ميلاده تحديداً. خطر لهوليس أن بمقدوره أن يسأل عن والدته، مجدداً، على الرغم من أنه تلقّى دائماً الجواب نفسه، أغنية من ثغرة في الذاكرة، ورقصة وشاح ثمل.

طـرح الأسـئلة فـي تلـك الأيـام لسـماع الكلمـات والعبـارات التـي ابتكرهـا والـده.

«مهـلاً، إنـه عيـد ميـلادي الثامـن عشـر. إذاً يـا أبـي، مـاذا كان شـكل أمـي؟ مـاذا كان اسـمها؟».

«اسـمها؟ السـيدة بابـا نويـل. لقـد جلبتـك، صحيـح؟ حقـاً يـا بنـي، لا أتذكـر. كانـت تلـك أوقاتـاً جنونيـة يـا بنـي. لكـن جدّيـاً، مـرة أخـرى، كانـت جميلـة جـداً، وعندمـا تدخـل إلـى مؤسسـة، تـدور كل الـرؤوس علـى أعناقهـا، وتبـرز أعيـن الرجـال مـن محاجرهـا كأنهـم مجموعـة مـن المغفليـن. هـؤلاء الأوغـاد السـخيفون. صُدمـت حيـن سـمحت لـي بالتقـرّب منهـا».

هـزَّ روميـو رأسـه، وحـرّك إصبعـه فـي الهـواء. «أه، لكـن كمـا تـرى ... حـدث ذلـك بفعـل الممنوعـات. شـوّش ذلـك ذهنهـا. آمـل أن تكـون حيـة اليـوم، يـا بنـي، ولكـن دليـل إدمانهـا يلقـي ظـلالاً مـن الشـك علـى ذلـك. لا تتنـاول الممنوعـات أو شـيئاً مـن هـذا القبيـل ...».

«مهـلاً يـا أبـي». طلـب هوليس قارورتـي جعـة مجـدداً، ثـم أخـرى لوالـده. «علـى رسـلك، لكـن وفقـاً لمـا تخبرنـي بـه، لـم أكـن لآتـي إلـى هـذه الدنيـا لـو أن الممنوعـات لـم تشـوّش عقـل أمـي».

«إذاً!». ضحـك روميـو، وقهقـه بصـوتٍ عـالٍ حتـى لـوّح بإصبعـه مجـدداً. «ثـم مـاذا؟ مـاذا يعنـي هـذا؟».

«أنا موجود لهذا السبب».

«تناوَلت الممنوعات، ولهذا جئت إلى الدنيا».

«أليست الحياة غريبة؟ لكن مع ذلك، أرجو أن تتوقف عن إثارة الموضوع مجدداً».

قال هوليس، من دون أدنى تهكّم: «حاضر يا أبي. إذاً لن تخبرني اسمها حتى في عيد ميلادي».

شعر هوليس بأن المرح قد انتهى لذا قرّر التضحية بقارورة جعته، والخروج من الباب قبل أن يُجن. كان الحفاظ على السلامة العقلية بمثابة وثيقة تأمين على الحياة بالنسبة إلى هوليس.

دفع الثمن إلى بافي، وقدّم جعته إلى روميو.

«استمتع بها».

خرج هوليس من الباب وراقبه روميو يغادر المكان، حزيناً. كان هناك والد محب في كرسي الرفض مجدداً. كانت الجعة جيدة، على أي حال، وسلوان، ومجانية. لكن عندما أُغلق الباب، تخيّل روميو فجأة ابنه من لحمه ودمه يتابع طريقه إلى آل آيرون، ويؤكد ولاء الابن لأبيه أمام لاندرو، المسؤول عن إصابة ذراعه وساقه، اللتين تؤلمانه وترتعشان أحياناً. جعلت تلك الفكرة روميو يتجرّع كلتا قارورتي الجعة. انتكاسة صغيرة! يمكن أن يتكلم عنها في الاجتماع الآتي. نزل عن كرسي المشرب، وحاول الحفاظ على توازنه، وخرج على الدرب إلى منزله وهو يشعر بوخزات ألم الثمالة. عندما وصل إلى بيته، أخرج مسكّناً عادياً من مخبئه، ووجد نفسه يكاد يبكي من الفرح والحزن معاً بعد أن احتفل مع ابنه بعيد ميلاده الثامن عشر ومعرفته

أن هوليس يفضّل أسرة ومنزل لاندرو على شقة والده، التي يوجد فيها شجرة عيد ميلاد على مدار العام تقريباً.

كانت الخيانة كبرى، والأكاذيب كثيرة، على الرغم من أن روميو لم يستطع أن يتذكر إن كان قد طلب من هوليس أن يعيش معه.

الاستياء يؤدي إلى الانتحار! ساعده شعار المجموعة على قطع سلسلة أفكاره السيئة.

استرخى روميو في كرسي سائق الشاحنة الصغيرة، معجباً بما قد أنجزه. كان أمامه منظر متلألئ من شجرة زائفة يحتفظ بها على مدار العام وتبهج قلب والد وحيد. مع ذلك، لم يكن بمقدوره أن يتحلّى بالإيجابية. تخلّص من تلك الفكرة! حدّق روميو إلى الجدران، التي ثبّت عليها أشياء خاصة بواسطة مسامير. نص حكاية مبجّلة، وصائدو أحلام بزغب دجاج! تكلم إلى صورة التلفاز المتذبذبة حيث يحاول صندوق بريد على شكل رأس أن يُضحك مذيعاً. يا للروعة! والغرور والثقة بالنفس!

قال روميو إلى صائد الأحلام الأزرق الفاتح بخيوط قوس قزح: «لا أحد تستهزئ به أيها اللسان السليط، ولا حتى أنت أيها الصديق القديم، الصاحب القديم لاندرو آيرون. وفقاً لذكرياتي التفصيلية جداً عمّا يسمى محاولة هروبنا، فإن السبب الذي يجعلني أفرك ساقي القديمة الحزينة، التي أشعر بموجات ساخنة وباردة تسري فيها، هو أنت يا لاندرو آيرون، وينبغي أن تجيب عن أسئلة كثيرة، أشياء لم تفصح عنها أبداً!».

تغلغلت المادة الفعالة وشعر بالدفء فوراً يسري في ساقه. ذاب الألم في الكرسي الوثير، ولكن الأمور لم تكن جيدة على الإطلاق عند الأخذ بالحسبان تفادي لاندرو لماضيهما المشترك.

صرخ روميو بسعادة: «أيها الشرير»، واستيقظ لاحقاً لمقابلة رومي، ورأى بوضوح لمعان شجرته المعطرة برائحة المانجو. كان قد غفا، ولكنه يشعر آنذاك بتحرّر من الاستياء الذي قد خنقه من قبل. لم يكن ينبغي على لاندرو أن يتصرّف على ذلك النحو ويسرق مشاعر ابني هوليس، وأن يدفعه إلى الانضمام إلى الجيش، حتى! لقد أقنعني لاندرو بالانضمام إلى الخطة التي وضعها، ويجب ألا يتظاهر كل حياته أنه لا يتذكر شيئاً مما جرى. ينبغي على لاندرو أن يشاطره كل الأشياء التي يمكنه الحصول عليها، وألا يتخيّل أن ذاكرة الناس ضعيفة، أو أنهم قد ينسون؛ لأن الناس يتمتعون بذاكرة قوية ولم يتوقفوا أبداً عن الحديث بهذا الشأن. لقد سمعهم روميو، وهو يعرف ذلك بالتأكيد. ينبغي ألا يتخيّل لاندرو أن الأمر قد انتهى، لأن الإنسان لديه أذنان، أذنان صغيرتان على جانبي رأسه يمكن أن تسمعا حين يبدأ الناس بالهمس. يمتلك الإنسان دماغاً يفك رموز الكلام المشفّر بين المهنيين. يتغضّن قلب الإنسان مثل الزبيب، ويتأثر بالوحدة، ويتقد بهدوء، ويفهم ما يعنيه أن يفشل المرء في الحب، أو يفشل أمام كاذب أشر. راهن روميو على أن قلبه الأسود الغاضب يمكن أن يمزّق شغاف قلب لاندرو الهش، إذا استطاع فقط أن يحصل على دليل ثابت ضد لاندرو للنيل منه.

الكرسي الأخضر

أرخى ملل آخر الصيف عباءته على ماجي مثل غشاوة مزعجة. كانت في الثالثة عشرة من عمرها، ولكن تعيش في جسد فتاة صغيرة. عرفت أنها أكبر من أن تتصرّف مثل طفلة، وأقل نضجاً من أن تكون مراهقة. وضعت شطيرة وعلبة ذرة في حقيبتها، وانطلقت إلى خارج المنزل. كانت هناك دروب قديمة عبر الغابة، ممهّدة منذ وقت طويل بعد أن سار الناس عليها، وزاروا بعضهم بعضاً، أو ذهبوا إلى البلدة، أو الكنيسة، أو المدرسة. توجد دروب جديدة سلكها أطفال على دراجاتهم الهوائية وعرباتهم الخفيفة. إذا لم يكن هناك درب، ستدخل ماجي إلى أجمة متشابكة وتخرج منها، وتتسلّل إلى أماكن هادئة. عندما تخرج عن الدرب، قد تواجه أي شيء، ولكن لم يحدث أي خطب من قبل. لم يلحظ أحد شيئاً. كان لاروز مع أسرته الأخرى أحياناً، وبيتر في العمل.

متى توقفت أمها عن مراقبتها؟ لم تعد تتوثّق بشأنها؟ امتنعت عن التجسّس عليها؟

جلست ماجي على غصن شجرة وراقبت ما ظنّت أنه منزل ممنوعات، وكلاباً سوداء قوية البنية مربوطة بسلاسل إلى الشرفة. واصلت المراقبة طوال أسبوع لترى دخول مدمنين أو خروجهم. توقفت سيارة في نهاية المطاف هناك، وخرجت منها امرأة تعرفها. كانت معلّمتها في الروضة، والوحيدة التي أحبّتها؛ لأن الروضة هي السنة الوحيدة التي تفوّقت فيها دراسياً. قلبت الكلاب القوية نفسها على ظهورها لتسمح للسيدة سويت أن تفرك بطونها. عندما دخلت البيت، تبعتها الكلاب كما يفعل الأولاد عادة. تمنّت ماجي بشغف أن يكون بمقدورها الذهاب معهم، ولكن اضطرت إلى الابتعاد عن المكان بعد أن عرفت أن السيدة سويت تطعم الكلاب حليباً وبسكويتاً داخل المنزل. كانت تقرأ لها قصصاً، وتصنع فوانيس من ورق مقوّى. ذهبت ماجي إلى المنزل.

شاهدت في اليوم التالي دباً ينبش نوعاً من الجذور بجانب مستنقع، وفي وقت آخر ثعلباً يقفز عالياً بين الأعشاب، ويهرول ممسكاً فأراً بفمه. تجوّلت الظباء في المكان بحذر، وتوقفت لتحرّك آذانها وتشم الروائح بأنوفها، قبل أن تخرج من مخابئها. شاهدت التراب يرتفع عن الأرض خلف غرير يحفر وكراً، وفئران ذات قوائم بيضاء وعيون جميلة، وسنونو زرقاء تطير بسرعة في الهواء، وصقوراً تحوم بطريقة مبهمة، وغرباناً تتشقلب على تيارات هواء قوية مثل قضبان توازن غير مرئية. بدأت تشعر بالراحة خارج المنزل أكثر من داخله.

كانت جالسة في أحد الأيام في مكان عالٍ على شجرة، تنزع عنها قراد الخشب. غمرها ظل شيء ما ضخم، وصامت مثل شبح، فالتصقت باللحاء، وتشبّثت بغصن. شعرت بأصابع تلمس شعرها بلطف، ثم ابتعد الشيء بسرعة، وتوارى صامتاً بين الأوراق. لم تكن تخاف بسهولة، ولكن أنفاسها تثاقلت. نزلت منتصف المسافة نحو الأرض وجثمت على الجذع. ظهرت بومة بعينين ذهبيتين كبيرتين على الغصن أمامها، وطقطقت بمنقارها، وثبّتت بصرها عليها بحنان غير طبيعي. نظرت ماجي إليها مباشرة. خفق قلبها بقوة في تلك اللحظة، ودعت البومة إليها. قفز الطائر مثل نابض، ومدّت ماجي ذراعيها عالياً، فترك جروحاً مؤلمة على قفا معصميها. بدا أن صرخاتها قد أثارت إعجاب البومة، التي بقيت بعيدة في حين نزلت ماجي المسافة الباقية إلى الأرض. انقضّت عليها مرة أخرى، ورفعت شعرها عن فروة رأسها أثناء اندفاعها عبر الأجمة.

خفّفت سرعتها إلى المشي حين اقتربت من المنزل. عندما خرجت من الأحراج، رأت سيارة والدتها في الممر. دخلت البيت، لكنها لم تجد أحداً هناك. رأت في الساحة الخلفية في الخارج الكلب جالساً متيقظاً خارج الحظيرة، محدّقاً إلى الباب. شعر الكلب بنظرتها واستدار، ثم ركض نحوها وهو يعوي، ولكنه هرول عائداً لينظر بقلق إلى الباب مجدداً.

لم تنادِ ماجي أمها أو تصدر أي صوت، البومة داخلها آنذاك. ذهبت ماجي إلى الحظيرة على درب غير مطروق يؤدي

إلى مكان يمكن أن يكون هادئاً أو مضطرباً. أنقذ صمتها أشياء على الأرجح. شعرت أحاسيسها بأن هناك خطباً ما، فسحبت الباب الجانبي الصغير ودخلت المكان. وجدت والدتها في شعاع من الضوء، واقفة على الكرسي الأخضر القديم، وقد لفّت حبلاً مصنوعاً من النايلون حول عنقها.

كانت نولا ترتدي تنورة بنفسجية وحزاماً فضياً بمشبك معدني، وتنتعل خفّين كستنائيي اللون، وتضع طماقين مزركشين جميلين. لاحظت أن صدرها مثقلٌ بالقلائد، وأصابعها بالخواتم، ومعصماها بالأساور، وبدا أنها قد ارتدت كل حليّها حتى لا يستخدمها أحدٌ أبداً بعد ذلك. فكّرت أن نولا قد تدرّبت على فعل ذلك على امتداد أسابيع أو ربما أعوام، وأنها وقفت هناك طوال الصباح هذه المرة، تستجمع قواها الخائرة لتركل الكرسي من تحتها.

كان لا يزال بمقدورها القيام بذلك، إذ لم تكن ماجي تتمتع بالقوة لرفعها أو السرعة لقطع الحبل عنها. كانت نولا تستطيع فعل ذلك أمامها، ولن تكون هناك فائدة من الجري إليها. لم تتحرّك ماجي، ولكن الغضب خنق أنفاسها.

«يا إلهي يا أمي!». خرج صوتها حاداً، ما جعلها تتميّز غيظاً. «هل ستستخدمين ذلك الحبل الرخيص حقاً؟ أعني، إنه الحبل الذي ربطناه حول شجرة عيد الميلاد».

حرّكت نولا قدمها إلى الخلف، فاهتزَّ الكرسي.

«توقفي».

حدّقت نولا إلى ابنتها من الطرف الآخر.

رأت والدتها قوة البومة في عيني ماجي، في حين رأت الابنة عنفوان النفس، والنفس وحدها، في عيني نولا.

ارتفعت القدم مجدداً. اهتز الكلب، متوتراً، بجانب ماجي.

قالت ماجي: «حسناً، أرجوكِ توقفي».

تردّدت نولا.

قالت ماجي: «لن أخبر أحداً».

توقفت نولا عمّا تفعله بعد ذلك التردّد.

«أمي». غطّت غشاوة عيني ماجي. جعلتها الكلمة، وصوتها، تشعر بالخجل. «إذا نزلت، لن أخبر أحداً أبداً».

نزلت قدم نولا عن الكرسي، إنما بقيت من دون حراك باستثناء ذلك. كان الهواء جافاً، وحاراً، وخانقاً مثل السر بينهما. أدى احتمال اتهام ابنتها بالتواطؤ إلى جعل نولا ترفع الحبل عن عنقها، وتنزل عن الكرسي. جعل رهاب الاحتجاز ماجي تتقيأ.

تقيأت طوال يومين، وشعرت بالتقزّز في كل مرة رأت فيها أمها، وتذكّرت أنها محتجزة داخل صندوق معدني مغلق يضم سرّهما. أمسكت نولا الوعاء الزجاجي، ومسحت وجه ابنتها بمنشفة أطباق بيضاء رطبة. فاضت عينا والدتها بالدموع

حيـن وضعـت الوعـاء والمنشـفة جانبـاً. أم وابنـة. احتضنتـا بعضهمـا بذراعيهمـا مثـل مخلوقتيـن مذعورتيـن، وتشـبّثت كل منهمـا بالأخـرى مثـل طفلتيـن فـي سـرداب مخيـف.

* * *

كان مقـر الحـرس الوطنـي قديمـاً ومألوفـاً، ولكنهـم يبنـون منشـأة جديـدة خـارج البلـدة. كانـت المعـدّات مسـتعملة وحتـى باليـة بعـض الشـيء، ولكنهـم سيسـتلمون قريبـاً شـحنة مـن أحـدث الأسـلحة، والعتـاد عالـي التقانـة. عمّـت الفوضـى المكتـب وانتفخـت الملفـات، ولكـن سيحصلون على خزائن مجلـدات، وحواسـب، وطـاولات، وأجهـزة نسـخ جديـدة. جلس هوليس إلى طاولـة متهالكـة قبالة مايك، الـذي عاملـه مثـل أخ لـم يـره منـذ وقـت طويـل. كان مايـك مربـع الـرأس، وقـوي البنيـة، وعينـاه زرقاويـن وصغيرتيـن، وشـفتاه ورديتيـن قليـلاً، وشـعره أشـقر قصيـراً، لكنـه ليـس مثـل مشـاة البحريـة تمامـاً. قَبِـل هوليـس بصمـت أن يخسـر شـعره المسترسـل الطويـل، ويلتحـق مباشـرة بالتدريـب الأساسـي، لكـن مايـك أخبـره أن هنـاك خيـارات كثيـرة، ثـم عرضهـا عليـه. أراد الحـرس الوطنـي مـن هوليـس أن يكمـل تعليمـه، ويعمـل معـه فـي كل مرحلـة. بـدا ذلـك شـيئاً خاصـاً بالراشـدين، لـذا حـزم أمـره، واختـار المسـتقبل الـذي يريـده، واتخـذ قـرارات بهـذا الشـأن، ووضـع خطـة لذلـك، ووقّـع أوراقـاً، وصافحـه فـي النهايـة.

بعـد التوقيـع، والمصافحـة، وتعريفـه علـى آخريـن فـي المقـر، دُعـي هوليـس إلـى نـدوة حـوار الشـباب بعـد الظهـر.

جعله مايك عمّاً فخرياً لابنه البالغ من العمر ثلاثة أعوام، وعرّفه إلى زوجته جيسي، التي بدا أنها تشبه زوجها بطريقة غريبة. توزّع الجميع على مجموعاتهم الأسرية، وحاولت كل مجموعة بناء برج من حلوى الخطمي وشرائح المعكرونة النيئة. تبين أن هوليس بارع جداً في ذلك، فقد بنى قاعدة متينة باستخدام المعكرونة والخطمي مثل تنكرتويز هشّة. أكل طفلهما حبوب تشريوس وصرخ مطالباً بالخطمي، في حين قطع مايك وجيسي المعكرونة إلى الطول الذي طلبه هوليس، الذي وضع خمس قطع جافة معاً لتعزّز بعضها، مثل الباستا. كان قد عمل في ربط القضبان المعدنية لدى وينك للإنشاءات في ذلك الصيف. كان برجهم الأعلى على الإطلاق، ولم يتمايل أبداً. اختار الرقيب فيرج أندرسون البرج الذي صنعوه من الخطمي على أنه الأفضل، وعرضه على المجموعات الأسرية الأخرى في النهاية.

أشار إلى القاعدة المزدوجة، وتعزيز البنيان، وجدّية التخطيط، والدقة. قدّم مايك هوليس إلى الآخرين، ونسب إليه الفضل في ذلك الإنجاز، وصفق له الجميع. قال الرقيب أندرسون إن هوليس يتمتع بالصفات المطلوبة ليكون مهندساً حربياً، إن أراد ذلك، أو المضي قدماً في أي مهنة قد يختارها، وإن بلاده تحتاج إليه، ووجوده محل ترحيب لدى أسرة الحرس الوطني في داكوتا الشمالية، أشخاص يعملون معاً لضمان أمن المواطنين الأمريكيين.

قـاد هوليـس السـيارة عائـداً إلـى المنـزل حامـلاً برنامـج التدريـب، وجـدولاً زمنيـاً للرواتـب، وموعـداً لاسـتلام بزّتـه الرسـمية ومـواد مـن أجـل دراسـته، وقائمـة بـكل خطـوة مـن أجـل أن يصبـح عضـواً فـي الحـرس الوطنـي. أثنـاء القيـادة، فكّـر فـي لانـدرو، الـذي أخبـره أنـه سـيتعوّد حيـاة الجيـش بسـهولة، وأن الأمـر سـيبدو طبيعيـاً بعـد المدرسـة الداخليـة. فكّـر فـي الأوقـات التـي قضاهـا فـي الصيـد مـع لانـدرو، قبـل الحادثـة، ومـدى حـرص ذلـك الرجـل علـى تعليمـه كل مـا يعرفـه. كان لانـدرو قـد أبلغـه بـأن مدربـه طلـب مـن فتيـة الغـرب أن يتقدمـوا خطـوة إلـى الأمـام؛ أي أولئـك الشـباب مـن وايومينـغ، ومونتانـا، وداكوتـا الشـمالية والجنوبيـة. فرزهـم ليعملـوا مـع بعضهـم؛ لأنهـم سيكونون دائمـاً أفضـل خيـارٍ لـه.

قـال لانـدرو إنـه قـد تعلّـم الصيـد مـن جـدّه فـي سـن مبكـرة، وإن ذلـك أثمـر لاحقـاً. لـم يكـن لانـدرو قـد أطلـق النـار علـى أي شـخص فـي عاصفـة الصحـراء، لقـد عمـل فـي قطـاع الدعـم، ومـلأ اسـتمارات طبيـة، وأجـرى فحوصـاً روتينيـة، وتولـى العنايـة بجـروح سـطحية، وعـزّز إجـراءات الصحـة العامـة. كان هوليـس واثقـاً تمامـاً بأنـه لـن يضطـر أبـداً إلـى إطـلاق النـار علـى أحـد، وأنـه سـيفعل العكـس؛ أي سـينقذ النـاس. سـيعرف هوليـس مـا ينبغـي فعلـه فـي حـال انـدلاع أزمـة مـا، وسـيكون الشـخص الـذي يمكـن الاعتمـاد عليـه. فهـم بطريقـة مبهمـة أن إنقـاذ النـاس قـد يكـون أمـراً خطـراً فعـلاً إن واجهـوا موقفـاً شـائكاً.

عندما دخل المنزل شمَّ رائحة أرنب مقلي مع البصل واللحم المقدّد، إضافة إلى المريمية، وشاهد سنو وجوزيت تلوّحان لتوجيه الدخان نحوهما، لسبب خاص وغامض. وضعت إيمالاين ذراعيها النحيلتين حوله، ووكزه كوتشي، ثم لكمه بقوة أكبر حين لم يرد عليه. شعر هوليس بقلبه يتضخّم حباً، ونفّذ حركة خنق زائفة بحق كوتشي. صرخ لاروز.

«أخرجا من هنا! أنا أبني كوخاً».

كان يلصق بالغراء قطعاً من ورق مقوّى على إطار علبة أحذية، ويصنع مجسّماً لمسكن الأمريكيين الأصليين من أجل مكتب إيمالاين.

توقفت جوزيت عن توجيه الدخان نحوها، ونظرت من فوق كتفها، وأمالت رأسها إلى الأمام والخلف.

«توثّق من وضع صبّار هناك».

قالت سنو: «لا. نعجة، وعربة من نوع فيما».

قالت جوزيت: «إضافة إلى كرة طائرة. فتيات النافاهو قاسيات».

قالت سنو: «فتيات النافاهو. أظن أنهن يعشن في منازل جديدة وأنيقة في الضواحي، في الواقع. أضف طريقاً مسدودة ونظاماً لرش المياه».

«نظام رش مياه؟».

بدت جوزيت محتارة.

«لا، أنت محقة. لن يهدرن مياههن».

«تباً! فينيكس تسرق مياههم! قرأت عن ذلك! ضع أنابيب كبيرة تسحب مياه النافاهو! لاروز، يمكنك استخدام قصب الشرب!».

رفع لاروز بصره إلى هوليس وقال: «أخي، هل يمكن أن تخرجهما من هنا؟».

* * *

كان لاروز مع أسرته من آل رافيتش، في أجمة الليلك. دخلت ماجي إلى مخبئهما الأخضر الظليل وجلست بجانبه. كانوا قد أحاطوا المكان بأعشاب جافة، مثل عش.

قالت ماجي: «يجب أن أخبرك شيئاً».

كان لاروز قد جلب قطعتين متجمّدتين من المثلجات ليأكلاها في الخارج، من النوع الذي يمكن شطره إلى نصفين. أعطاها النصف، على الرغم من أنها لم تكن تحب نكهة الموز.

«لماذا لا يبقى لدينا إلا هذا النوع دائماً؟».

«لأنكِ لا تحبينه».

قالت ماجي: «نعم، هذا صحيح».

لعقت النكهة الزائفة وراقبت لاروز. كانت رموشه طويلة جداً ومكتملة وتلقي ظلالاً على وجنتيه. لكن لم يكن فتى فاتناً، وإنما لطيفاً وعادياً.

«سأفعل أي شيء لأحظى برموش مثلك».

«قالت جوزيت وسنو إنهما ستفعلان أي شيء لتحظيا برموش مثلي أيضاً. لماذا لا تسحبنها وتلصقنها على أعينكن؟ لا يهمني هذا».

قالت ماجي: «نعم، حسناً. لقد حاولت أمي الانتحار».

عضَّ لاروز على قطعة الجليد بنكهة الموز وشعر بألم بارد ينبثق بين عينيه. وضعت ماجي يدها على حذائه وتكلمت إلى وجهه مباشرة.

«كانت أمي واقفة على كرسي في الحظيرة، وهناك حبل حول عنقها. كانت ستشنق نفسها حتى الموت».

عبس لاروز على حذاء الركض الذي ينتعله. أكل قطعة أصغر من السابقة، ثم تناول الباقي، وأغلق عينيه حين شعر بالوجع داخل جبينه مجدداً. وضع العود في الكومة الأنيقة التي يحتفظ بها لبناء حصن لدمى الشخصيات المفضّلة لديه. وضعت ماجي عودها في كومته.

«هل يمكن أن تساعدني؟». ترقرقت دموع في عيني ماجي، ولكن مسحتها بتحريك جفنيها. رفعت ساقيها وأمسكت ركبتيها. طأطأت رأسها فتشابك شعرها فوق وجهها.

قال: «أعرف ما ينبغي فعله»، على الرغم من أنه لم يكن يعرف حقاً.

وضعت ماجي يدها على الأرض، ممدودة نحوه. مدَّ

لاروز يده بعد قليل إلى جيبه وأخرج حجراً رمادياً صغيراً، ووضعه في كفّها.

«ما هذا؟».

«مجرد حجر صغير».

«أنت تجمع حجارة دائماً. ماذا يمكن أن يفعل هذا الحجر؟». رمته من يدها.

«ينبغي أن نراقبها. يجب أن نمنعها!».

قال لاروز: «أعرف». فتح يدها وأعاد إليها الحجر. «إنه حجر مراقبة. ستعطيني الحجر إن كان ينبغي أن أراقبها. سأعطيك الحجر حين يحين دورك في مراقبتها».

فتحت يدها. كان الحجر بارداً آنذاك، ولكنه أزاح نصف العبء الملقى على عاتقها. كانت ماجي متعبة جداً من النشيج والتظاهر بالمرض، والتشنّج حتى تتقيأ مادة صفراء. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لجعل أمها تركّز عليها. بدا لاروز واثقاً تماماً بنفسه، ويعرف ما ينبغي فعله.

قالت ماجي: «لكنك مجرد طفل. كيف يمكن أن أثق بك؟».

قال لاروز: «لست أي طفل». انتظر، مستغرقاً في التفكير، ثم وثق بماجي وهمس في أذنها.

«حصلت على مساعدة من بعض الأرواح».

«نعم، صحيح». جعلها تضحك حتى أُصيب بالفواق.

رفعت رأسها وهزّت شعرها لتبعده عن وجهها. كانت جميلة جداً، بملامح وجهها الفاتنة، وأسنانها المنتظمة.

«هل تعد بأن تساعدني؟».

قال لاروز: «سيكون الأمر على ما يرام. أعرف ما ينبغي فعله».

قال ذلك بحزم، على الرغم من أنه لا يعرف تماماً ما يجب فعله باستثناء مراقبة نولا. كان سام إيغلبوي قد أخبره بأن يجلس ساكناً ويفتح ذهنه حين يواجه مشكلة ما. سيعود لاروز إلى عش الأعشاب ذلك المساء، بعد ذهاب ماجي، وسيركّز على المشكلة. سيسأل أولئك الناس الذين التقى بهم في الغابة، حتى إذا لم يكن بمقدوره رؤيتهم. سيكتشف حقيقة الوضع آنذاك.

استيقظ لاروز فزعاً بعد ليلتين. تسلّل إلى الحمام وأشعل الضوء، وأفرغ مياه المرحاض. عندما كان الماء يتدفق، فتح خزانة الأدوية، ووجد كل أنواع الأقراص هناك، أقراص في قوارير بلاستيكية صفراء. لم يعرف لاروز ما قد تستخدمه منها، ولكن قرّر أن يكتب أسماءها في الغد ويجعل ماجي تكتشف السامّ منها. كان بيتر يحلق بأداته الكهربائية عادة، ولكن يمتلك شفرة مزدوجة آمنة للمناسبات الخاصة. وجد علبتين من شفرات شارك المزدوجة خلف مزيل رائحة العرق. أخذ لاروز الشفرات، وجلبها إلى غرفته وخبأها تحت مجلاتٍ هزلية. وضع لاروز الشفرات داخل جيبه في اليوم التالي وخرج من المنزل. عثر على علبة قهوة قديمة وذهب إلى الغابة ليطمر الشفرات داخلها.

عندما كانت نولا في الخارج، دخل المطبخ وأخذ السكين الكبيرة. نزل في الليلة التالية على السلالم وأفرغ محتويات علبة صيد بيتر، وأزال منها تلك السكاكين الحادّة جداً الخاصّة بسلخ الجلود.

سألت نولا في اليوم الآتي: «أين سكيني؟».

لم يكن أحد يعرف، باستثناء لاروز، الذي لم يترك لها إلا سكاكين التقشير الكليلة. حفر حفرة بمجرفة نولا الصغيرة وطمر السكاكين، بعد أن غلّفها بقطعة خيش، إلى جانب علبة القهوة. كانت هناك قائمة تكبر باستمرار في رأسه.

عندما خرج الجميع، حمل لاروز سلماً من الألومنيوم إلى داخل المنزل وفتحه بجانب خزانة الأسلحة. صعد على الدرجات، وتحسّس سطح الخزانة بيده، وعثر باللمس على المكان الذي أخفى فيه بيتر المفتاح. أخرجه من خلف قطعة زخرفة صغيرة، ثم نزل السلّم، وفتح باب الخزانة. كانت كل الأسلحة التي ملأها بيتر بالذخيرة مثبّتة في حجيرات صغيرة.

فعل لاروز ما قد تعلّمه من بيتر. أخرج مسدساً عيار 22 وأمسك الماسورة بيده اليسرى، والمقبض باليمنى. سحب المغلاق إلى الخلف والأسفل، وقوّس يده اليمنى ليمسك كل رصاصة تخرج منه. عثر على ثلاثة خراطيش في الداخل. كانت ثلاثة دائماً، وفقاً لقاعدة بيتر. إذا لم تستطع القتل بثلاث رصاصات، ينبغي ألا تطلق النار من بندقية. وضع لاروز كل خرطوشة بحرص على مسند، ثم

حرّك المغلاق إلى الأمام والخلف عدّة مرات، وحدّق إلى داخل الحجرة ليتوثق من أنها خالية، وأعاد ريمنغتون إلى حيث كان بالضبط. كرّر لاوز فعلته تلك مع كل الأسلحة الأخرى، عمل بحرص شديد مع السلاح الذي يفضّله بيتر. أغلق لاروز الخزانة، وصعد السلالم مجدداً ليعيد المفتاح إلى مكانه. وضع الذخيرة في مرطبان زجاجي، صامد للماء في حال أراد نبش الخراطيش، والأعيرة النارية، والرصاصات من أجل استخدامها مجدداً. توثّق من أنه قد وضع الأسلحة بالترتيب السابق ذاته، ولم يترك بصمات على الزجاج. خرج ليطمر المرطبان في أحد أماكن الحفر التي اعتاد العمل فيها. انتابه شعور غامر بالرضا.

رمى المبيدات الحشرية وسم الفئران بعيداً، واستبدل فيتامينات بالأقراص التي قالت ماجي إن نولا قد تتناول جرعات زائدة منها. أبعد كل الحبال عن المنزل، بعد أن عثر على عدد كبير منها، هنا وهناك، وفي مخبأ بيتر. وضعها لاروز في أكياس وألقاها في مؤخرة الشاحنة الصغيرة حين عرف أن بيتر يستعد للذهاب إلى مطمر النفايات. أثناء قيامه بذلك، رمى أيضاً زوجاً من الأحذية القاسية، التي تكرهها ماجي.

بعد أسبوع، استيقظ مجدداً وهو يفكّر في الفرن. هل كان يعمل على الغاز أو الكهرباء؟ وكيف يمكن أن يعمل بالتحديد إذا وضعت رأسك داخله لتقتل نفسك؟ بدا الخطر هناك ضئيلاً، ولكن يا للهول! المبيّض! سامٌّ، صحيح؟ لماذا لم يفكر في ذلك؟

انسلَّ لاروز من السرير وتسلّل إلى غرفة الغسيل. سكب قارورة الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين في المغسلة ووضع العلبة الفارغة في القمامة. عاد إلى الفراش ونام بعمق.

كانت ماجي تعاني من اضطرابات النوم. حاولت أن تجد أمها في مدارس كبيرة بصفوف لا تنتهي، أو حتى على طرق متشعّبة، وبلدات تمتد عبر عوالم مختلفة. كانت تستيقظ فزعة حين ترى أمها محتجزة خلف باب موصد بإحكام، أو ضائعة على طريق مفقود، أو تتجوّل في مدينة معتمة. قضت ماجي ساعات في إحدى الليالي في عضّ أظافرها وخدشها لإزالة الطلاء عنها. كان وجهها في صباح اليوم التالي مغطًّى بقشور خضراء صغيرة. عندما نزلت إلى الأسفل لتناول الإفطار، أزالت أمها قشرة خضراء عن وجهها ونظرت إليها.

«ما هذا؟».

بدلاً من أن تبتعد من دون أن ترد، أو تغضب لأن والدتها تجرأت على لمس وجهها وطرح سؤال عليها، قالت ماجي ببساطة: «طلاء أظافر».

تلقت نولا الإجابة العادية وغير التهكمية برحابة صدر، فقد أحبّت ماجي من كل قطع قلبها الممزق آنذاك. استدارت نولا إلى لوح التقطيع وبدأت تشريح البطاطا بسكين اللحم. كانت هناك أشياء تختفي من المكان، وهي تفقدها هنا وهناك، أو تنفد فجأة، ولا تشتري أخرى جديدة، أو تنسى ذلك تماماً. لكن تلك الأشياء لم تكن هامة كما

يبدو أن أشخاصاً آخرين يظنون. لم تكن ضرورية، أو حتى أساسية في الواقع.

* * *

سار هوليس نعساً إلى المازدا الخضراء المغبرة، ذات الرفراف المخلوع والباب المحطم، التي اشتراها بست مئة دولار، في كل يوم بعد الفجر الرمادي أو الصبح الأزرق. حملت تلك المركبة هوليس، وسنو، وجوزيت، وكوتشي إلى المدرسة في أيام الأسبوع، في حين نقلته إلى أول تدريباته مع الحرس الوطني في العطلات. اتفق مع مايك على برنامج انتساب متأخر، تأجيل التدريب القتالي. كان سيداوم في المدرسة، ويتدرّب في العطلة مرة شهرياً طوال عام. بعد التخرّج. سيخضع إلى تدريب القتال الأساسي والفردي المتقدّم، ثم سيلتحق بعمله مع الحرس، قد يكون مهندساً حربياً. لم يكن واثقاً تماماً بذلك، وافترض أنه سيدّخر بعض المال من أجل الانتقال، على الرغم من أنه لم يكن يرغب في ذلك. كان سعيداً على الفراش القابل للنفخ، وعلى الرغم من أن مؤخرته قد لمست الأرض تقريباً في الليل، فإنه أحبَّ ركن النوم الخاص به. أراد أن يعيش مع آل آيرون بعد التخرّج، وربما إلى الأبد. إلى جانب كل شيء آخر، كان هوليس جائعاً دائماً، وإيمالاين والفتاتان يطبخن وجبات كبيرة ولذيذة من اليخنة الغنية باللحوم، ويحضّرن كثيراً من الذرة وحساء البطاطا، والبسكويت المنزلي. هناك أيضاً شرارة الاهتمام بجوزيت المشتعلة

منذ وقت طويل. لقد ساعدته، حقاً، بحل واجباته الصيفية وحتى كتابة معظم أوراقه. كان هو الشخص الذي قد مال فوق كتفها ليحدّق إلى ثقتها بنفسها أثناء قيامها بالطباعة. بات شعوره نحوها مثل جمرة متقدة، أو أكثر من ذلك في الواقع؛ نار مستعرة أحياناً.

أول يوم في المدرسة. ارتدى هوليس ثيابه وذهب إلى المطبخ، حيث ظنَّ أن ذلك اليوم سيكون، ربما، هو المنشود. ربما سيكشف عن حبه الجنوني الميؤوس منه لجوزيت الرائعة والمجنونة والميؤوس منها.

كانت تضع الحبوب في الطبق دائماً حين يدخل الغرفة.

«مرحباً».

«مرحباً».

كانت قوية، وتقفز عالياً لتسدّد رمية كرة طائرة بارعة، وتقوم بتمريرات متقنة. كان بمقدورها وضع ألف طبقة صوتية فوق تلك التحية الصباحية، وكذلك هوليس. قال ظل كلمة مرحباً منها: «أنا في داخلك!». لم يكونا يقولان أكثر من مرحباً إلا نادراً، ولكن طريقة قولها تبقى مع كلٍّ منهما طوال اليوم. كانت «مرحباً» تلك مثل ضوء ملاحة يمكن أن يومض بقوة إذا أبعدت جوزيت بصرها عن رقائق الذرة التي تنزل على طبقها.

تخيّل هوليس نظرةً تجعل التوتّر والإثارة لا يحتملان، إذا حدث ما يريد. لكن ربما لا يُفترض أن يحدث ذلك؛

لأن أسـرة صالحـة قـد تبنّتـه، وينبغـي ألا ينتهـك حرمـة ابنـة المنـزل. مـن كان أصغر سناً؟ أمسـك طبـق رقائـق الـذرة وعـاد إلـى غرفـة الفتيـة، وانتظـر حتـى نادتهـم الفتيـات عندمـا حـان وقـت الذهـاب إلـى المدرسـة.

استيقظت إيمالايـن في صباح ذلـك اليـوم متوتّـرة، وتتنفّس بصعوبـة. متـى؟ سـألت اللحـاف المزيّـن بالنجـوم والمعلّـق علـى الجـدار، ثـم أجابـت نفسـها. الآن. كان يُفتـرض أن يعـود لاروز إلـى منـزل رافيتـش، ولكـن عندمـا لمسـت إيمالايـن شـعره البنـي الكثيـف، أدركـت الأمـر. كان ينبغـي وضـع حـدٍّ لذلـك، وقـد حـان الوقـت آنـذاك. اتصلـت برقـم منـزل رافيتـش مـن خلـف بـاب غرفـة نومهـا المغلـق، ورد بيتـر.

قالت: «لم أعد أطيق هذا الأمر».

شـعر بيتـر بقلبـه ينقبـض بقـوة. انتظـر، ولكـن الأمـر أثقـل الجانـب الهـشَّ مـن صـدره.

«يا إلهي، أرجوك يا إيمالاين».

«لـم يعـد بمقـدوري فعـل هـذا. لا يفتـرض أن يسـتمر إلـى الأبـد، أليس كذلـك؟». بـدأ صوتهـا يرتعش. تمالكت نفسـها، ووقفـت مشـدودة القامـة، ودفعـت شـعرها خلـف أذنيهـا.

قـال بيتـر وهـو يتحـرّك جانبيـاً لينظـر إلـى خـارج النافـذة: «اسـمعي، بـدأ الـدوام فـي المدرسـة الآن. سيتحسـن الوضـع».

«لقد سجّلته هنا، مع هنود آخرين».

كانـت نـولا قـد اسـتيقظت سـابقاً، وهـي موجـودة خـارج

المنـزل وتعمـل علـى إصـلاح قـن الدجـاج القديـم، وطلائـه. شـاهد ذراعيهـا النحيلتيـن تتحـرّكان إلـى الأمـام والخلـف.

«أرجـو أن تسـمحي لنـا بالاسـتمرار وقتـاً أطـول قليـلاً». توقـف بيتـر. كاد أن يتوسّـل إليهـا مـن أجـل لاروز، وعـرف أن ذلـك سيجعله يغضـب، وأنـه سيكون بغيضـاً في تلـك الحـال.

قـال: «باتـت نـولا أفضـل كثيـراً، وقـد نسـت دسـتي أخيـراً. إنهـا، آه، تتكيّـف مـع الوضـع، وتقـوم بطـلاء قـن الدجـاج حاليـاً».

أثـار هـذا التفصيـل اهتمـام إيمالايـن. طـلاء قـن دجـاج؟ لمـاذا يعـدُّ ذلـك تحسّـناً كبيـراً؟

قالـت إيمالايـن: «انقضـت ثلاثـة أعـوام تقريبـاً، ولـم تتكلـم معـي أبـداً. نحـن أختـان. إنهـا تتصـرّف مثـل قريبـة بعيـدة، لا أخـت مقرّبـة. إنهـا أختـي ولكـن لا تتحـدّث معـي، وهـذا ليـس منصفـاً، حقـاً. سـأقوم بتسـجيله هنـا، فـي مدرسـة المحميـة، حيـث يـدرس كل أفـراد أسـرته. سـيبقى لاروز معنـا منـذ الآن».

قـال بيتـر: «أوه يـا إيمالايـن»، بطريقـة فظّـة جعلـت المـرأة تنتبـه إلـى مـا تقولـه؛ لأنهـا تحترمـه كثيـراً، فهـو رجـل صالـح، ولـم يـؤذِ أحـداً أبـداً. كانـت تثـق بطيبـة بيتـر ومتأكـدة مـن أنـه قـد سـاند لانـدرو فـي الأيـام الخوالـي بالسـير معـه علـى دربـه وإرشـاد صديقـه علـى طـول المسـار الصحيـح لنوعيـة حيـاة بيتـر.

قـال بيتر بحـرص: «أفهـم هـذا». كان ينبغي أن يحتفظ برباطـة جأشـه. عـرف أنـه يجـب ألا يصعّـد الموقـف، أو ينفعـل كثيـراً. «لمـاذا لا تبقيـه معكـم بضعـة أيـام إضافيـة؟ سـأشرح الأمـر لنـولا».

قالت إيمالاين: «لن تفهم».

«لا».

قالت إيمالاين: «على كل حال، سأستردّه فقد حان الوقت».

خرجت من غرفة النوم وتكلمت إلى الآخرين، الذين كانوا جاهزين تقريباً: أخبرتهم أنها ستأخذ لاروز إلى مدرستهم.

أخبرت لاروز بسرور: «ستذهب إلى المدرسة مع شقيقتيك». مفاجأة!

نقل بصره من سنو إلى جوزيت، اللتين اتسعت أعينهما برسالة صامتة، أمي تقول. عاد إلى غرفة الفتية ليرتدي ثيابه. كانوا يتكلمون في المطبخ آنذاك، والأمور تسير على هذا النحو دائماً. على الرغم من أن لاروز اعتاد الذهاب إلى حيث يفترض أن يكون، وفعل ما ينبغي عليه القيام به، إلا أنهم أدهشوه أحياناً بتلك المفاجآت الكبيرة.

همس: «كان بمقدورك أن تخبريني، قبل دقيقة على الأقل».

ارتدى سروال جينز جديداً، وقميصاً نظيفاً. شمَّ جوربيه من الأمس، ثم رماهما على الأرض، وأخرج زوجاً من كومة جوارب كوتشي.

وقف بيتر ذاهلاً، والهاتف يطنُّ في يده، وبصره مثبّت على شكل امرأة في الخارج تدهن قن دجاج ببقايا طلاء أبيض دبق. على الرغم من أنها لا تتكلم مع إيمالاين، فإن زوجته صارت بحال أفضل، كما ظن، ربما. قد يظن

الرجال أن النساء يصرن أفضل إذا أقمن علاقة معهم، ولكن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً. وضعت يدها عليه قبل بضع ليالٍ، وداعبته من دون أن تقول كلمة غريبة واحدة، وأقاما علاقة بسكينة مطلقة. شعر أنه قد عاد إلى جسده، وأنه لا يستطيع أن يسكن نفسه من دونها. كان يتمتع بقوقعة سلافية قاسية وقلب طيب ورقيق، قد أولاه عناية بالغة قبل نولا. لم يكن هناك أحد آخر يلجأ إليه باستثناء هذه المرأة الوحيدة ـ قد يكرهها أحياناً، ولكن سيذهب إلى الجحيم من أجلها، وسيفعل أي شيء لإنقاذها.

حاول إجراء ذلك الحديث بعد يومين.

«أنا لا أحبها فحسب يا بيتر، إطلاقاً؛ لأنها حقيرة تزعم أنها صالحة».

«لماذا تقولين هذا؟».

كان بيتر قد قرأ مقالات في بعض المجلات التي تزوّدك بالأسئلة التي ينبغي طرحها حين تريد تغيير طريقة تفكيرك في شخص آخر، أو ترغب في المناورة.

سأل مجدداً: «لماذا؟»، ثم تجرأ على قول: «إنها أختك، ويمكنك المحاولة».

«حسناً، سأخبرك بالسبب الذي يمنعني من المحاولة. سلوكها متسلّط ومتعجرف مثل مدير برنامج. تقول شيئاً مثل: «خذي يا إيمالاين». تبدو متكلّفة؛ كأنها جالسة خلف طاولتها. بلا-بلا-بلا. يمكنني الإصغاء. أستمع

ويـداي مطويتـان ورأسـي مائـل. هـل تعـرف؟ تضـع إيمالايـن قنـاع الاسـتماع خاصتهـا، وتحكـم عليـك مـن خلفـه».

كانـا فـي الخـارج، عنـد حافـة السـاحة. نزعـت نـولا سـاق عشـبة ووضعـت طرفهـا فـي فمهـا. ضاقـت عيناهـا وحدّقـت إلـى الأفـق؛ ذلـك الخـط عنـد نهايـة حقـول الـذرة، بيـن المسـاحات الشاسـعة مـن الأشـجار.

أمالـت رأسـها فـي كلا الاتجاهيـن للتوكيـد علـى مـا تقولـه، يمينـاً ويسـاراً. بـدا أنهـا تكـوّن رأيـاً مـا.

رمت ساق العشبة بعيداً.

«أوه، أظـن أن بمقـدوري فعـل هـذا، أن أتحـدث معهـا، إن أعـادت لاروز».

نظر بيتر إلى الأرض، محاولاً إخفاء أمله.

قالت نولا: «مضت أربعة أيام، وقد فهمت الأمر، حقاً».

«لم أقل شيئاً أبداً».

«لكن أنا أفهم الأمر».

أومأ بيتر، متشجعاً.

«أعنـي، هـذا خطـأ، لكننـي أفهـم الأمـر. إنهـا تبقيـه لديهـا رهينـة؛ لأنهـا تريـد أن تثيـر انتباهـي. تريـد منـي أن أقـول شـيئاً مثـل: أوه، إيمالايـن، كيـف حالـك، كيـف مشـروعك، وصفقتـك الكبيـرة، وهـذا وذاك، وبنتيـك اللتيـن تحبهمـا ماجـي كثيـراً؟ كـم أنـت كريمـة يـا إيمالايـن. يـا لـك مـن امـرأة تحتـرم التقاليـد كثيـراً وتمنـح ابنهـا إلـى رجـل أبيـض وأخـت بيضـاء تقريبـاً وبائسـة

جـداً. إنهـا تشـبه أمهـا كثيـراً، مـارن تلـك التـي كانـت تحتفـظ بالأفاعـي. لـم ينـسَ النـاس أمرهـا بعـد، ولـن ينسـوا هـذه أبـداً أيضـاً. سـتكون إيمالايـن آيـرون واديـاكاليـت القويـة والطيبـة، أوجيما-إكـوي، المـرأة التـي تلتـزم إلـى الأبـد بذلـك الرجـل الهـام لانـدرو، وحتـى تدافـع عنـه وتقـوّم سـلوكه ... أقـول فحسـب إننـي قـد أقتلـه مـن أجلـك. أرى وجهـك حيـن تقطـع الحطـب. سـأقتله مـن أجلـك إن لـم يكـن مـن أجـل لاروز. لقـد نجحـت خطتهمـا الغريبـة؛ لأننـي أفضـل حـالاً الآن».

شكّك بيتر بذلك الأمر، ولكن لم يقل شيئاً.

«ولن يقتل أحدٌ ذلك الأحمق الضخم؛ فهو طويل جداً».

تمتـم بيتـر: «طولـه سـت أقـدام وثـلاث بوصـات فقـط، أمـا أنـا فطولـي سـت أقـدام».

«آمـل ألا يكـون ابننـا بذلـك الطـول. أتمنـى ألا يتحـول لاروز إلـى وحـش قاتـل».

قال بيتر: لقد انقضى بعض الوقت الآن».

قالـت نـولا: «نعـم، انقضـت أعـوام، أليـس كذلـك؟». ارتفعـت شـفتها العليـا قليـلاً بتلـك السـخرية الصغيـرة، التـي تجعـل قشـعريرة إثـارة تسـري فـي بيتـر أحيانـاً.

قال: «تعالي».

«لمـاذا؟». نزعـت سـاق عشـبة أخـرى ووضعتهـا بيـن شـفتيها. كانـت ماجـي قـد ذهبـت إلـى منـزل آل آيـرون، كالمعتـاد، وهمـا بمفردهمـا.

أخـرج بيتـر سـاق العشـبة مـن فمهـا وداعـب وجنتهـا بهـا بلطـف. بقيـت سـاكنة. مـدَّ يـده نحـو وجههـا. أومـأت إلـى المنـزل، فحملهـا باتجـاه الحظيـرة.

قالت: «ليس هناك».

حملهـا إلـى هنـاك بـأي حـال. تجـاوزا الثيـاب النسـائية المعلّقـة علـى حبـال، والبـرّاد الخـردة، والكرسـي الأخضـر، والمقصـورات الفارغـة. وضـع بعـض أكـوام القـش فـي الحجـرة الأخيـرة، ومـدَّ قماشـاً مشـمّعاً فوقهـا. شـمّا تلـك الرائحـة المميـزة التـي تعبـق بجـدران حظيـرة قديمـة حيـث أكلـت حيوانـاتٌ طعامهـا، وتغوّطـت، وتنفّسـت؛ تلـك الحظيرة النظيفـة المملـوءة قشـاً وأشـعة الشـمس.

نظرت نـولا مـن فـوق كتفـه، نحـو عارضة خشـب السنديان السـوداء. لاحظـت أن الحبـل اختفـى، لـم يعـد موجـوداً.

ولمـاذا لا تسـتطيع رؤيـة السـكينة والهـدوء فـي ذلـك بـأي حـال؟ لمـاذا ينبغـي أن تفكـر بـكل الموتـى، وقـد تجـد نفسـها فـي أحـد الأيـام الجميلـة بينهـم، تطيـر فـي نـور سـاطع؟ لـن تفعـل هـذا. لقـد اختفـى الحبـل! كيـف؟ لا تسـألي. لا، لا، طبعـاً. ليـس الآن. أخبرهـا لاروز عـن مـدى حاجتـه إليهـا. ماجـي تراقبهـا، وهـي تشـعر بذلـك. بـات لديهـا حيـاة جديـدة. مـع ذلـك، يجـب أن تفكـر فيهـا أحيانـاً، قليـلاً. ليـس هـذا خطـأ، أليـس كذلـك؟ أن تتعثـر دائمـاً وتنهـض علـى الـدوام علـى تيـارات هادئـة مـن هـواء دافـئ تحرّكهـا أجسـاد الأحيـاء. لـم يكـن هنـاك خطـأ فـي أن تستسـلم إلـى تلـك الغيبوبـة، أو الفـراغ.

لـم يكـن هنـاك خطـب فـي وجـود قواسـم مشـتركة مـع الغبـار أكثـر ممـا تشـاطره مـع زوجهـا، مـع بيتـر؟

قالـت نـولا عبـر الهاتـف: «ظننـت أن بمقـدوري الاتصـال. إنـه يـوم ماطـر، وكنـت أتسـاءل فقـط عـن حـال لاروز ...».

ثـم سـمعت لاروز يضحـك فـي الخلفيـة. ربمـا تولّـت إحـدى الفتاتيـن الـردَّ علـى الهاتـف، إنمـا ليـس إيمالايـن. لـم يكـن بمقـدور صـوت نـولا أن يخـرج مـن حنجرتهـا فـي تلـك الحـال. وضعـت السـمّاعة، ومـرّرت يدهـا فـوق عينيهـا.

«هل أنت بخير؟».

دخلـت ماجـي المطبـخ. «أمـي، أنـتِ تحدّقيـن إلـى الهاتـف. هـل أجريـت اتصـالاً هاتفيـاً؟».

كانـت ماجـي لا تـزال تحتفـظ بالحجـر الـذي قـد دفعـه لاروز إلـى يدهـا حيـن غـادر، وتضعـه علـى الطاولـة بجانـب سـريرها. لـم ترغـب فـي إبقائـه هنـاك، أو فـي أي مـكان. كانـت تحمـل عـبء مسـؤولية نـولا علـى عاتقهـا بمفردهـا، وقـد أتعبهـا ذلـك.

«لا توجد مكالمة».

احتضنت نولا ماجي. كانت تعانقها بقوة، وتعرف ذلك.

قالت: «عزيزتي، لاروز محتجز ضد إرادته».

احتضنـت ماجـي والدتهـا بقـوة أكبـر. «أعنـي، مـاذا يمكـن أن أقـول؟».

قالت نولا: «آه، أنت تزدادين قوة».

ضحكت ماجي بمرح. «حسناً، وأنت أيضاً. أنت تضغطين عليّ!».

«لن يسمحوا له بالعودة إليّ. إنه ابني الوحيد. هل أنا مجنونة جداً يا ماجي؟ هل أعاني من خطب ما؟ أهذا هو السبب؟ أنا أحبّه كثيراً، ولا شيء آخر في حياتي».

«لا شيء آخر. حسناً». ابتعدت ماجي عنها، وتكلمت بصوت هادئ ورصين.

«أبي يحبك، وأنا أحبك يا أمي. نحن لديك».

حدّقت نولا إليها، ثم أمعنت النظر إلى الأمام، كأن ماجي واقفة عند نهاية نفق طويل. ربما كان لاروز أو شخص آخر هناك؛ لأنها لم تتعرّف على ابنتها في تلك اللحظة. وضعت يدها على وجه ماجي بطريقة لطيفة أخافت الفتاة، ولكنها لم تتحرّك من مكانها، وبقيت رابطة الجأش.

«هل تعرفين ما تحتاجين إليه؟». تكلمت ماجي بصوت خافت ونبرة عادية. «الجو بارد نوعاً ما وماطر. تحتاجين إلى شوكولاتة ساخنة».

«يجب أن أتكلم إلى إيمالاين».

«الشوكولاتة الساخنة أولاً، مع القشدة».

أومأت نولا بحذر. «ليس لدينا قشدة».

«حسناً إذاً، خطمي».

قالت نولا: «لاروز يحب الخطمي».

قالت ماجي: «وأنا كذلك».

قالت نولا: «لا بأس».

سكبت ماجي الحليب والكاكاو الساخن فوق الخطمي، وسمعت أمها تضغط على أزرار الهاتف، ثم تغلق السماعة مجدداً. دخلت نولا المطبخ وجلست مع ماجي.

«إنه ساخن حقاً، لا ...».

لكن نولا كانت قد تجرّعت كمية منه. اتسعت عيناها حين مرّ الكاكاو الساخن على سقف فمها وتابع طريقه نزولاً وهو يرسم خطاً لاذعاً. قفزت ماجي من مكانها، وسكبت بعض الحليب البارد في كأس. شربت نولا رشفة باردة وتنهّدت، ثم أغلقت عينيها ووضعت يدها فوق فمها.

صكّت ماجي أسنانها لتحبس الكلمات بداخلها. لم تقل إنها آسفة، ولكنها شعرت بالأسف فعلاً. كانت آسفة لأنه ليس بمقدورها القيام بالصواب؛ لا يمكنها فعل ما ينبغي فعله مع والدتها؛ آسفة لأنها لا تستطيع إصلاح الأمر. شعرت بالأسف، أحياناً؛ لأنها قد وجدت أمها في الحظيرة؛ الأسف لأنها قد أنقذتها؛ الأسف الشديد لأنها فكّرت في ذلك. شعرت بالأسف لأنها نكدة؛ الأسف لأنها غير ممتنة لكل لحظة من حياة والدتها؛ الأسف لأن لاروز هو المفضّل لدى أمها، على الرغم من أنه عزيزٌ على ماجي أيضاً. شعرت بالأسف لأنها فكّرت في مدى أسفها وإضاعة وقتها على كل مشاعر الأسف تلك. لم

تشعر ماجي بالأسف أبداً قبل تلك الحادثة مع والدتها. تمنّت بعمق أن تعود إلى ما كانت عليه من قبل.

ذهبت ماجي للعثور على سنو وجوزيت. كانت الشقيقتان قد بدأتا الدراسة، في حين ستنتظر ماجي حتى الاثنين. سيكون بمقدورها، على الأقل، زيارتهما في المنزل ورؤيتهما، إضافة إلى لاروز. وجدت الفتاتين في الخارج، في حين راح لاروز إلى البلدة مع إيمالاين، كما قالتا. أبدت استعدادها لمساعدتهما بذلك الشيء الذي تقومان به. كانتا قد انتزعتا الحشائش، أو أعشاب الساحة، بالكامل، وبدا أنهما أنجزتا أمراً صعباً ومجهداً. كانت الفتاتان قد نصبتا شبكة كرة طائرة قديمة. ساعدتهما ماجي في رسم حدودٍ برتقالية اللون على التراب والأعشاب المقصوصة، وبات الملعب جاهزاً. رمين الكرة إلى بعضهن أثناء حديثهن. كانت ماجي قد مارست الرياضة في صالة مغلقة من قبل، ولكن جوزيت علّمتها طريقة ضرب الكرة، والتصدّي لها. اتخذت سنو موقعها، وتدربن على إرسال الكرة إلى الطرف الآخر.

قالت جوزيت: «لا تهتمي كثيراً بضرب الكرة من تحت مستوى الكتف. راقبي».

حرّكت جوزيت قدمها اليسرى خطوة إلى الأمام، وأعادت مرفقها الأيمن إلى الخلف؛ كأنها تكاد تطلق سهماً. ربتت على الكرة الناعمة والمنتفخة والمتسخة بيدها أربع مرات، ثم رمتها عالياً فوق رأسها. عندما سقطت

نحوها، وثبت في مكانها وضربتها بكفّ يدها. طارت الكرة على مسار مقوّس بسرعة فوق الشبكة، وارتدت عن الأرض في مكان غير متوقع إطلاقاً.

«ممتاز!».

قالت سنو: «إنها حركتها المميزة».

«أريد أن أتعلّمها».

قالت جوزيت بعد أن حاولت ماجي ضرب الكرة من نقطة الإرسال: «يا إلهي!».

أخفقت ماجي ست مرات، وعندما ضربت الكرة بوهن أثناء نزولها، لم تصل حتى إلى الشبكة.

«ينبغي أن تنفّذي تمارين الضغط إذا أردت بعض القوة».

صرخت سنو: «انزلي إلى الأرض، ونفّذي عشرة تمارين».

أنجزت ماجي أربعةً.

قالت سنو: «تحتاج هذه الفتاة إلى بعض القوة العضلية».

«نعم، تحتاجين إلى بعض القوة في الذراعين». تحسّست جوزيت ذراع ماجي.

خرج كوتشي إلى هناك.

«هل تقضين وقتاً خاصاً بالفتيات؟». سخر منهن، وتراجع خطوة إلى الخلف في بقعة خالية من الأعشاب متظاهراً بأنه يضرب الكرة من نقطة الإرسال. عندما استدار

ليمشي مبتعداً عنهن، ضربت سنو الكرة نحو قفا رأسه. شعر بالألم بالتأكيد، ولكنه تابع المشي فحسب. كان يجهّز نفسه للعب كرة القدم.

قالت سنو: «نقطتان».

دفعت جوزيت الكرة إلى الأعلى بإصبع قدمها، ووضعتها تحت ذراعها.

قالت لماجي: «نقطتان لضرب رأس كوتشي، ونقطة واحدة لإصابته فقط».

قالت ماجي: «أريد تحقيق نقطتين. أرني تلك الضربة مجدداً».

في المنزل، توثّقت ماجي من أن والدتها تأخذ قسطاً من النوم، وانتظرت عند باب غرفة النوم المفتوح قليلاً حتى رأت حركة طفيفة، ثم خرجت إلى المرأب. وجدت الباب الكبير مفتوحاً، والهواء يتلاعب ببعض الأوراق على الأرض. كان والدها قد رفع غطاء محرك الشاحنة الصغيرة، ويقوم بتغيير الزيت ومرشحات الهواء، وإفراغ الرواسب التي تشبه الوحل.

قالت ماجي: «مرحباً، هل يمكنني تغيير مدرستي؟».

قال والدها: «لا»، ولكن الراشدين يرفضون دائماً قبل أن يسألوا عن السبب.

سأل: «لماذا؟ بسبب لاروز؟».

«ينبغي أن أذهب إلى مدرسة أخي نفسها، أليس كذلك؟ هناك أسباب أخرى أيضاً. الأولاد في مدرستي يكرهونني».

قال بيتر: «هذا سخيف»، على الرغم من أنه يعرف أنه أمر جدّي.

«هناك تلك الفتاة المدعوة بريلين الأكبر مني بعام واحد، وشقيقها في صف لاروز القديم، وشقيقها الآخر جيسون، الأكبر سناً. تلك الأسرة كلها تكرهني، إضافة إلى أصدقائهم».

«لم تقولي شيئاً أبداً من قبل».

هزّت ماجي كتفيها. «كان بمقدوري تحمّل الأمر، لهذا السبب لم أتكلم. لكن أفضّل تغيير المدرسة».

«إذاً تريدين الذهاب إلى ثانوية المحمية؟». ضحك. «الوضع أسوأ هناك».

«أبي، لديهم مزيد من النشاطات بعد انتهاء الدراسة الآن. بلوتو بلدة ميتة، وولايتنا فقيرة جداً. تعرف أنهم سيندمجون على الأرجح مع مؤسسة أخرى، وسنقضي ساعة إضافية على متن الحافلة».

كان ما قالته صحيحاً على الأغلب، ولكن بيتر لم يكن يحب التفكير بتلك الطريقة، على الرغم من أنه يفكر بها أصلاً.

تحصل المحمية على أموال من الحكومة الاتحادية والملهى أيضاً.

مسح بيتر يديه بخرقة حمراء قديمة وأغلق غطاء

المحرك. نظر إلى الأسفل نحو ماجي، النحيلة وضامرة العضلات، ولاحظ نظرتها الحادّة.

«أين سمعت هذا؟».

«سمعته منك يا أبي».

«هل قلت إن ولايتنا فقيرة؟ لن أقول هذا. أضف إلى ذلك أن الملهى مثقل بالديون».

«قلت إن المزارعين في هذا الجزء من الولاية ليس لديهم أي أموال. قلت إن هناك أموالاً أكثر في المحمية هذه الأيام. قلت ...».

«لا بأس. هذا ليس صحيحاً في الواقع. كنت، كما تعرفين يا عزيزتي، محبطاً».

«يقول الراشدون ذلك دائماً حين ينفعلون».

«أصبحتِ خبيرة الآن بشؤون الراشدين».

عرفت ماجي أن الوقت قد حان لتغيير الاستراتيجية.

«يمكنني الذهاب إلى هناك بفضل أمي، ومكانة السلالة التي ننحدر منها. و، كما ترى، أريد الذهاب إلى الثانوية مع جوزيت وسنو، والانتساب إلى فريقهما».

«لكنك تكرهين الرياضة».

«ليس بعد الآن، فأنا أحب كرة الطائرة».

«ليست هذه رياضة، حقاً».

«لا يفهم الراشدون الأمر أحياناً. يتذكّرون كرة الطائرة على أنها تسلية عند الشواء في الحديقة الخلفية، أو شيئاً تفعله في صالة رياضية. ليست لديهم فكرة عن مدى قوة وروعة الرياضة حالياً، وكيف تشترك الفتيات فيها». قرّرت ماجي أن تغير الموضوع مع والدها مجدداً.

«يبدو أن إيمالاين لا تُبقي لاروز معها طوال الوقت».

«حقاً؟».

«إذا ذهب إلى مدرستهم، سيحدث ذلك فرقاً، ويبرم تسوية من نوعٍ ما. إذا كان ذلك هو الاتفاق، ينبغي ألا أكون خارجه. يجب أن أذهب إلى هناك، وأن تكون كل أسرته في مدرسة واحدة».

«هناك أولاد مشاكسون في تلك المدرسة. شرب، ممنوعات؟».

«الممنوعات في كل مكان. ثمَّ تذكّر؟ أنا منبوذة أصلاً، ومكروهة كثيراً».

ضحك بيتر آنذاك. لم يكن بمقدور ماجي أن تتظاهر حتى بالشفقة على نفسها. لم يكن هناك أنين بداخلها. كان فخوراً بها، وهي تعرف ذلك.

«أووه يا أبي، بالله عليك! تتمتع سنو وجوزيت بقيم تقليدية وكل تلك الأمور. هما تلميذتان، وستكونان سنداً لي، إضافة إلى أخيهما الأكبر هوليس. وهناك كوتشي أيضاً، أعني ويلارد. يجب أن نكون جميعاً معاً يا أبي. سأساعد لاروز فعلاً».

تابع بيتر مسح يديه. تشرّبت الشقوق في كفّه والتغضّنات في مفاصله الزيت حتى بدت يداه مثل رسمٍ عتيقٍ ليدين متعبتين. استقرت عيناه الزرقاوان والمرهقتان على ماجي. كان يعرف ابنته، وتذكّر اجتماعاته مع المعلمين طوال سنين. كان المدرّسون مخطئين، إذ لم تكن تعاني من أي اضطراب، وإنما مفعمة بالحيوية. كانت جريئة جداً على نحو لا يوافق توقعاتهم البليدة عن الفتيات. إذاً؟! هل يمكن أن تصير الأمور أسوأ؟ قد يكون رأيها سديداً. كان إبقاء لاروز نوعاً من اختبار المحاولة الأخيرة بالنسبة إلى إيمالاين. قد يساعد ذهاب أبناء كلتا الأسرتين إلى المدرسة عينها إيمالاين على التخلّص من أزمتها، وأن يكون هناك توازن مجدداً. بغض النظر عمّا حدث، كانت سنو وجوزيت قد صارتا مثل أختين بالنسبة إلى ماجي. كن بنات خالة، وصرن بنات خالة وأخوات. خطر في باله أن تلك أول مرة منذ حادثة دستي تريد فيها ماجي شيئاً حقاً، وتطلب مساعدته. لذا وافق، وقال إنه سيحاول إقناع نولا.

* * *

«رومي العجوز. إنه يرسل تلميحات مجدداً. انظري؟».

راقب الأب ترافيس الكتلة الرمادية لرأس المتكلم. كانوا جالسين في الخارج تحت أشعة شمس صباح أحد أيام سبتمبر في ديد كستر.

اشتكى روميو: «لا يفترض أن يكون الجو حاراً إلى هذا الحد».

قالت بافي: «هذه هي الحال الآن».

هسّ روميو بحنق. كان الجميع يردّدون «هذه هي الحال الآن»، كأنه قول مأثور. سيقولون تلك العبارة ويرفعون يدهم قليلاً، للتخلّص من الإحراج كما يؤكدون. سيقولونها حين يشعرون بالكسل ولا يرغبون في إنهاء عمل ما، أو أثناء مشاهدة الأخبار على الأغلب.

قال روميو: «ليست الحال كما يفترض أن تكون».

لم يلحظ الأب ترافيس تلك الجملة. كان يتعرّق فحسب، ويتحمّل الطقس كما يبدو أثناء تناوله الشاي المثلج الذي حضّرته بافي. كان قد دخل الليلة الماضية في دوامة الطاقة، والثقب الأسود، والصمت. قبل الصرخات، وجد نفسه فجأة مع إيمالاين، وجسداهما يتحرّكان، دبقين من العرق. حرّك الأب ترافيس الكأس الباردة على جبينه.

حدّق روميو إلى التلفاز، وأومأ.

«هناك دليل عن وجود أسلحة كيميائية. لقد عرضوا بعض الرسوم البيانية. صور استطلاع رمادية مبهمة من أقمار اصطناعية».

تمتم: «إنهم يجمعون أركان قضية ما».

أمال الأب ترافيس رأسه ونظر جانبياً إلى الأشكال الظاهرة على الشاشة. في 9/ 11 كان قد شاهد البرجين ينهاران، وفكّر آنذاك: «لقد تعلّموا الدرس». بعد ذلك، مراراً وتكراراً، رأى نفسه يسقط إلى الأسفل في أحلامه

مع الآخرين، وجسده يختلج من تسارع كتلة المبنى. شاهد الأخبار، وبدّل القنوات. بدا أن انفجار الثكنة لم يحدث أبداً، إذ لم يربط أحد بين الحادثتين. ماذا كانت الصلة بينهما؟ كان التفكير في ذلك مؤلماً. شعر بأنه يتداعى من الداخل. في إحدى ليالي سبتمبر ذاك، كان قد خرج من العربة، وشرب قارورة من شراب الشعير المخمّر قد أرسلها له صديق قديم من مشاة البحرية. جعله ذلك يلزم الفراش في صباح اليوم الآتي، مريضاً أول مرة في تاريخه كقس. بدا أن ذلك هو الفعل الصائب الذي ينبغي القيام به.

قال روميو: «مرحباً يا أبتي. هل يمكن أن أسألك شيئاً؟».

«لا».

«لماذا توقفت عن محاولة تغيير دیانتي؟».

بدت تلك فرصة سانحة ليقول الأب ترافيس شيئاً مهيناً قليلاً، وأن يتظاهرا بأنها مجرد دعابة مع أنهما يعرفان أنها ليست كذلك.

قال الأب ترافيس: «لم أرغب في أن أضطر إلى تعميدك».

«لماذا؟».

«كنت سأضطر إلى أن أكون كفيلك، وأعد بالوقوف بينك وبين الشيطان. لكن لا توجد مساحة، أو مكان، يمكنني الوقوف فيه».

قال روميو متباهياً: «هاها! لا مكان تقف فيه! بيني وبين الشيطان!».

عرف الأب ترافيس أن تلك الملاحظة ستلازمه وقتاً طويلاً، وأن روميو سيكرّرها أمام كل شخص يراه في أروقة المستشفى. كان الأب ترافيس يعرف ذلك، ويمعن التفكير عادة فيما يقوله لروميو. لكن بدا أنه يواجه مشكلة آنذاك، ولم يعد بمقدوره الجلوس ساكناً أكثر من ذلك. أدرك أنه يجب أن يغادر ديد كستر، ويخرج من أي مكان آخر، أو حتى من جلده.

«يجب أن أذهب».

«هل ستذهب بسبب شيء قلته؟». كان روميو يمزح، لكن الأمر كان يتعلّق دائماً بشيء يقوله. أمسك ذراع القس. «انتظر. ماذا يمكن أن تقول لفتى سينضم إلى الحرس الوطني؟».

«أي فتى؟». جلس الأب ترافيس.

«ابني هوليس، الذي يعيش مع لاندرو وإيمالاين، كما تعرف».

«سأقول إنه سيتعلم مجموعة مفيدة من المهارات، ويخرج من هذه القوقعة بعض الوقت ...».

«... ماذا تعني بأن يخرج من هذه القوقعة؟».

«سيذهب إلى معسكر غرافتون، أو بسمارك، أو مواقع تدريب جيمستاون، بناءً على ما سيرغب بفعله».

«لن يشارك في الحرب إذاً؟».

شعر الأب ترافيس بالدهشة، وازداد اهتماماً بالموضوع.

«لا أظن أنه تم استدعاء الحرس يوماً لخوض غمار حرب ما. على الرغم من أن ليندون باينسن جونسون كاد أن يفعل ذلك أثناء حرب فيتنام، صحيح؟ لكن أراد إقرار تشريع بشأن ذلك، واختبار إرادة الشعب».

«الذي لم يوافق على الأمر».

قال الأب ترافيس، مستغرقاً في التفكير: «نعم، وأنا واثق بأن البنتاغون تعلّم من ذلك».

«إذا دفع بوش الحرس إلى ...». توقف الأب ترافيس. كان سيصوّت لذلك الرئيس؛ لأن والده كان رئيساً محترماً وحصيفاً. لقد فهم بوش الأب أن إنهاء الحرب، مثل الزواج، أكثر صعوبة من الشروع فيها.

تجرّع روميو الشاي المثلّج الصحي، وربت الأب ترافيس على كتفه حين نهض ليغادر المكان.

* * *

توجد مدرسة تايكواندو بالتأكيد تقريباً في البلدات الصغيرة والمحميات، حتى إذا لم يكن يسكنها كوريون أو يزورونها. كان المعلّم الكبير مو يونغ يون من فارغو قد فرض الانضباط في كل أرجاء تلك المنطقة. درس الأب ترافيس في تكساس مع المعلّم الكبير كين بونغ يم، وحصل على حزامه الأسود من الدرجة الثالثة قبل الالتحاق

بمعهد اللاهوت. بعد بضعة أعوام من الاستقرار في عمله ذاك، حصل على إذن من معلّميه وافتتح دوجو في الصالة الرياضية الخاصة بمدرسة الأبرشية. كان قد تعلّم أنه لن يكون بمقدوره الاحتفاظ بمهاراته إن لم يدرّب أشخاصاً آخرين عليها. أجرى ترتيبات مع عدّة مدارس ميسورة أرسلت له بزات خاصة باللعبة ومنحته أحزمة ملونة. حلّت تلك التدريبات الرياضية محل صفوف التعليم الديني أيام الأحد، في حين بات يوزّع نشراتٍ مطبوعةٍ عن تعاليم الكنيسة ومعتقداتها. شعر بالرضا أثناء التمرّن على تلك الحركات والإشراف على التدريبات، وصراخ الأرقام بالكورية أثناء قيام التلاميذ بلكم الهواء بقوة.

أثناء الدروس، انتظرت إيمالاين لاروز على كرسي برتقالي أمام ساعة رملية ملطخة بالقهوة. أحضرت شيئاً خاصاً بالعمل معها دائماً، تركت الحاسوب المحمول مفتوحاً أو عملت على كومة من الأوراق. وضعت كل شيء جانباً أحياناً، وحدّقت إلى الصف، وابتسمت قليلاً، ثم تمالكت نفسها مجدداً. بعد الدرس، وجد الأب ترافيس دائماً بضع كلمات يقولها بشأن لاروز. هو يحرز تقدّماً، على سبيل المثال.

أمالت إيمالاين رأسها إلى الجانب، ورفعت حاجبها.

قال الأب ترافيس: «إنه يصير أقوى».

«إنه بخير، أليس كذلك؟».

«يبلي حسناً».

أمسـك لاروز يدهـا. كان بصـر لاروز ثابتـاً علـى الأب ترافيـس.

«أبقيته معي هذه المرة».

أومأ الأب ترافيس، وحاول ألا يفكّر بشأن نولا آنذاك.

سألت إيمالاين، على نحو غير متوقع: «كيف حالك؟».

لا يتلقّـى القساوسـة مثـل ذلـك السـؤال، أو ليـس بالطريقـة التـي طرحتـه. رفـع حاجبيـه، وضحـك، فظهـرت فقاعـات مـن فمـه، ربمـا بطريقـة مخيفـة.

قال، فجأة: «لا تسألي».

«لمَ لا؟».

«لأن».

نبـض قلبـه حيويـة، وخفـق علـى نحـو سـخيف بيـن ضلوعـه. وضـع يـده علـى صـدره لتهدئته.

قالت إيمالاين: «هناك شيء يزعجك».

«لا، أنا بخير».

قالت إيمالاين: «حقاً؟ لأنك تبدو مشوّش الذهن».

«لا، حقاً. آسف، أنا بخير».

كانت حيلته واهية، وقد ندم عليها.

استـدارت إيمالايـن مبتعـدة عنـه، وسـارت مـع لاروز وهمـا

يمسكان أيدي بعضهما. تباطأت أفكارها. لماذا طرحت ذلك السؤال؟ لماذا استدارت بعيداً حين تفادى الأمر وردَّ عليها بجواب تافه؟ كان ذلك بالضبط ما يفترض أن يفعله القساوسة. إبقاء شخصياتهم ضمن نطاق عملهم، وتحمّل ما جعلهم الرب يتحمّلونه من دون شكوى. هل هناك قس لا يشعر بأنه بخير؟ من يعرف هذا؟

راقبهما الأب ترافيس يغادران. كان قد فكّر في مشاعره تجاه إيمالاين. لم يكن الأمر يتعلق بالعهد الذي قطعه على نفسه، وإنما بأسرتها، وهي ذاتها ولاندرو، وحقيقة أنه قدّم نصائح لهما، وزوّجهما، وعمّد أطفالهما. وثقوا به في كل شيء، ولكنه كان إنساناً في الواقع. كن لطيفاً مع الجميع لتنقذهم كلهم.

شكراً أيها القديس بولس. الزواج أفضل من التحرّق، وهذا يسفع فعلاً. لكنها الوحيدة التي قد أريدها يوماً، وهي متزوجة أصلاً. إذاً سيعذّبني ذلك الشغف! أخبر نفسه بأن تعيش مع ذلك الألم.

لقد سألته عن حاله، وقالت إنه يبدو منزعجاً. كان مثيراً فعلاً للشفقة أن يجعل مثل ذلك السؤال العادي والملاحظة البسيطة قلبه يخفق بسرعة.

أطفأ الأب ترافيس أضواء الصالة الرياضية. كان دوره قد حان للقيام بنسك القربان المقدّس. أغلق الباب بالقفل ومشى إلى الكنيسة، ودخل القبو الجانبي. سار عبر قاعة الطعام المعتمة نحو الضوء الخافت في بيت الدرج. كان

باباي بانكس يغالب النعاس على المقعد الخشبي، وفزع حين لمس الأب ترافيس كتفه. سار متثاقلاً وهو يتثاءب، واعتمر قبعته عند الباب، وألقى تحية الوداع من هناك. جلس الأب ترافيس على إحدى الوسائد الرغوية الوثيرة التي قد اشتراها من أجل الأشخاص الذين يحافظون على استمرارية تلك العبادة 7/ 24. ثم صمَتَت العتمة، والقناطر، ونيران الشموع، وأفكاره. لكن شعر أولاً بأن يديه ترتعشان، وصدره يرتفع، وأنفاسه تضيق. وضع يده على صدره وأغلق عينيه.

قال: «افتح».

واجه متاعب دائماً في الإفصاح عن مكنونات قلبه، وقد وجد نفسه عاجزاً مجدداً تلك الليلة. كان قلباً خشبياً مؤمناً داخل قضبان حديدية مغلقة. قماش خشن عسكري، وزمام صدئ. خزائن مطبخ مغلقة بالغراء. وعاء خبز القربان. طاولة. خزانة منفصلة. كان ينبغي أن يدق أسافين بين الأبواب، ويزيل الأغطية. شعر بخيبة أمل دائماً من ذلك الديكور الداخلي الباهت والمخيف. كان إيجاد مكان يلقى فيه قلبه ترحيباً عملاً مرهقاً من الناحية الذهنية. تطلّب الأمر بعض التنظيف، والترتيب. اضطر إلى إزالة الغبار، والتخلّص من بعض الخردة القديمة لإيجاد مساحة إضافية. كان ذلك مملاً جداً، ولكنه عمل على المشروع حتى جذب كل أفراد أسرة إيمالاين إليه، وبات بمقدوره إغلاقه، مرهقاً، بوجود إيمالاين في الوسط وبأمان منه.

ركبت إيمالاين ولاروز السيارة وانطلقا على الطريق إلى المنزل. يقول الأطفال ما يجول في خاطرهم دائماً أثناء قيادة الراشدين للمركبة.

«لماذا نقلتني إلى مدرسة أخرى؟».

«هل تحب الآنسة شل؟».

«نعم، طبعاً، لكن كيف لا أزال معك؟».

«تعني أنك لم تذهب إلى بيتر؟».

«ونولا وماجي. كيف؟».

قالت إيمالاين بحرص: «لأنني؛ لأنني أريد إبقاءك مع أسرتنا، معنا الآن. أشتاق إليك كثيراً». رمقت لاروز بنظرة سريعة.

«أبوك، وإخوتك، وأختاك، يفتقدونك كثيراً. هم يعرفون أنك ستبقى معي».

كان يحدّق إلى خارج النافذة الأمامية، وفمه مفتوح قليلاً، ذاهلاً.

استغرق الأمر لحظة، وبدا أنه يفكّر فيما ينبغي قوله.

قال: «لقد وافقت على هذا التبادل. لا مانع لديّ، ولكن الأمر قائم منذ وقت طويل. المشكلة أن نولا ستكون حزينة جداً. قد تلقى حتفها إذا شعرت بأسى عميق، كما أخبرتني ماجي. أضف إلى ذلك أنني وماجي نحب الوضع الراهن». وضع إصبعين معاً، كما تفعل جوزيت. «نجعل أمها تتابع

حياتها حين لا يكون بمقدورها الخروج من السرير أو فعل أشياء أخرى».

صدم كل ما قاله لاروز إيمالاين. فكّرت أنه قد بات رجلاً صغيراً، وصار راشداً.

«لهذا ينبغي أن أعود يا أمي. أحب السيدة شل، وهي ليست صعبة المراس. لكن يجب أن أعود إلى أسرة دستي».

«هل تتذكّره، دستي؟».

«لا يزال صديقي يا أمي. أنا أرعى أسرته في غيابه أيضاً. لذا هل يمكن أن أعود؟».

«حقاً يا بني؟».

فكّرت أن من الأفضل لها أن توقف السيارة وتتقيأ. شعرت بوخزة في قلبها فجأة؛ لأن ابنها تذكّر دستي، وتكلم عنه على نحو بديهي، وأبدى ذلك المستوى من المسؤولية. كان العبء ثقيلاً جداً عليه، ولكن بدا أنه يتحمّله.

«نعم يا أمي، لقد فات الأوان للتراجع الآن».

أوقفت السيارة فعلاً، ووضعت وجهها بين يديها، وشعرت بأنها تكاد تبكي. على كل حال، لم تنتحب أبداً. كان ذلك عمل لاندرو، الذي يبكي عن كليهما. جرّبت إيمالاين أن تنتحب، وحاولت أن تنفّس عمّا بداخلها لتشعر بالارتياح، ولكنها كانت إيمالاين.

ربت لاروز على ذراعها، وعنقها.

قال: «لا بأس يا أمي، ستبلين حسناً. إذا تابعت حياتك ستشعرين بتحسّن، خطوة بعد أخرى، ويوماً إثر آخر».

كان لاروز معتاداً على مشاعر القنوط لدى الأمهات، وقد تفوّه بالكلمات التي يستخدمها بيتر مع نولا.

* * *

اصطحب لاندرو ابنه بالسيارة إلى منزل رافيتش. لاحظ أن تغيير الروتين قد جعل لاروز قلقاً، وأن العودة إلى الترتيب القديم هو الحل الأمثل. مع ذلك، واجه لاندرو مشكلة في السماح بذهاب لاروز. احتضن ابنه قبل أن يخرج من السيارة حاملاً حقيبته على كتفه.

تمتم لاندرو: «كل شيء بخير».

لم يكن بخير، ولن يكون أبداً، ولكن ربما هناك خيوط رفيعة من الخير.

راقب لاندرو لاروز أثناء صعوده على الدرجات. كانت ماجي عند الباب تقفز في مكانها. اندفع لاروز إلى الداخل مباشرة. لم تلوّح ماجي أو نولا لوداع لاندرو من قبل، أو تعبّرا عن شكرهما له. بدا ضرورياً أن يكون خفياً بالنسبة إليهما، لكن ليس لابنه. دفع لاروز رأسه عبر الباب إلى الخارج في اللحظة الأخيرة ولوّح مودّعاً.

الأشياء الصغيرة التي تشغل بالك. ابتسامة باهتة من لاندرو.

تمتم وهو يغادر المكان وينطلق مبتعداً: «سيكون بخير». كانت تلك عبارة يكرّرها مثل تعويذة حين لا تكون الأمور بخير. جعلته يشعر بتحسّن بعد انقضاء بعض الوقت، ونجحت في تحقيق الهدف المنشود آنذاك.

وضعت ماجي كومة الدفاتر المدرسية الجديدة في حجرها. كانت جالسة في مقعد الراكب الأمامي، ولاروز في المقعد الخلفي، في حين تقلّهما نولا بالسيارة إلى المدرسة؛ لأن مسار الحافلة لا يمر قربهم. كانوا يسيرون في السنة الماضية إلى منزل آيرون، الواقع على حدود المحمية تقريباً، ويركبون الحافلة من هناك مع أولادهم. لكن الحافلة لم تعد تتوقف عندهم؛ لأن هوليس اشترى سيارة. تمنّت ماجي أن يقتني هوليس مركبة أكبر لتستطيع الذهاب مع لاروز فيها. شعرت بالتوتر، فقد كانت تجلس بجانب والدتها التي تقود السيارة بسرعة خمسة وستين ميلاً في الساعة، وحاولت أن تضبط إيقاع تنفّسها، ثم أطلقت زفيراً حين انتهى الخطر. كانت قد طوّرت أفكاراً تحفيزية منذ وجدت أمها في الحظيرة، إذا حبست أنفاسها حين تقترب سيارات في الاتجاه المعاكس، لن تغيّر أمها اتجاه مركبتها وتقتلهم جميعاً. إذا حبست ماجي أنفاسها وقتاً أطول، قد تنحرف نولا بالسيارة، ولكن ستنجو ولاروز من الحادثة بأعجوبة. كانت كل القرطاسية المدرسية في السيارة آنذاك، ووالدتها سعيدة جداً بعد شراء أعداد كافية من أقلام التخطيط، ورزم من الأوراق، واللصاقات، وحتى مرآة سيتم تثبيتها بمغناطيس على الوجه الداخلي لباب خزانتها، لذا

شعرت ماجي بأن خطر جريمة الانتحار منخفض جداً، لكنها واظبت على حبس أنفاسها.

كانت ماجي تشعر بالدوار بحلول وقت توقفهما عند مدخل المدرسة. هسّت الأبواب أثناء فتحها، وسمعت الأولاد يتكلمون. ذهب لاروز في اتجاه، في حين سلكت اتجاهاً آخر. قامت جوزيت وسنو بإلقاء قطعة نقدية لتحديد من منهما ستكون مشرفة اليوم الأول. لم يكن يحظى بذلك الشرف إلا التلاميذ الذي يحصلون على معدّلٍ عالٍ، ويكون بمقدورهم التأخر تلقائياً عن الالتحاق بصفوفهم؛ لأنهم يرافقون الطلاب الجُدد في جولة على المدرسة، ويذهبون إلى كل قاعة دراسية للتوثق من عثور التلاميذ على قاعاتهم.

فازت سنو. كانت واقفة بشموخ وهدوء عند المدخل، مرتدية كنزة وردية داكنة من دون ردنين فوق قميص بنفسجي، وتنتظر حاملةً برامج كل الصفوف، إضافة إلى قفل لخزانة ماجي.

قالت: «لا تلطخيه بالعرق». ظنّت ماجي أنها تبدو عصبية، لذا أمالت رأسها وكشّرت.

قالت سنو لفتى يبدو متكلّفاً بقرطين في أذنيه ووشوم على جسده: «مرحباً أيها الفتى. أعرّفك إلى أختي الصغيرة».

قالت لفتى يرتدي سروالاً عريضاً، وسترة فضفاضة،

وقميص هوترز يبدو غير ملائم له: «مرحباً يا شون، أعرّفك إلى أختي. شون، ينبغي أن تتخلّص من هذا القميص».

قال شون: «أعرف».

قالت سنو لصبي أنيق، بحاجبين كثّين، وشفتين منتفختين، ويشبه ظهيراً ربعياً في كرة القدم الأمريكية: «مرحباً يا وايلون، أعرّفك إلى أختي الصغيرة. أنتما في الصف نفسه».

مدَّ يده ليصافحها، على نحو رسمي.

قال: «سعيد جداً بلقائك».

ضحكت فتاة خلفه. «ابتعد عنها يا وايلون!». كانت بطول سنو، وجفناها زرقاوان داكنان، وشعرها يصل إلى خصرها، وترتدي بلوزة وجينزاً ضيقاً.

«هذه دياموند». سارت الفتيات الثلاث إلى أول صف ستحضره ماجي. كانت حصة علم الفيزياء التي يدرّسها السيد هوسل، وهو شاب نحيل جداً ويداه حمراوان.

همست دياموند: «نظنُّ أنه ربما فجَّر نفسه، في حادثة كيميائية. لا أحد يعرف حقاً».

قالت سنو: «إنه غامض».

تركنَ ماجي وحدها، فدخلت القاعة وجلست على كرسي. استقرت الأنظار على ماجي، وشعرت بذلك، وأعجبها الأمر. لم يكن أحد يعرفها، أو يكرهها. العبء،

انـزاح ذلـك العـبء عـن كاهلهـا، وتخلّصـت مـن مسـؤولية لا تطاق. صـارت نـولا خـارج نطاق سيطرتها طـوال النهـار، ولا يمكنهـا فعـل شـيء بشـأنها. لـم تكـن هنـاك طريقـة لإيقـاف أمهـا، أو معرفـة مـا يحـدث معهـا. ولاروز بأمـان أيضـاً فـي صفّـه، لـذا لـن يجـد نـولا ميتـة ويبقـى خائفـاً طـوال حياتـه. ابتسـمت ماجي حيـن نطقـت اسـمها أمـام الصـف، وابتسـمت حيـن تمتمـوا الاسـم. لـم تكـن تمتمـة تضمـر سـوءاً، وإنمـا بقصـد تبـادل المعلومـات. ابتسـمت حيـن عرّفهـا المعلّـم إلـى نفسـه، وابتسـمت حيـن حـرّك التلاميـذ أقدامهـم. ابتسـمت حيـن نظـرت إلـى الأسـفل نحـو دفترهـا الجديـد أثنـاء مراجعتـه دروس ذلـك اليـوم، وتذكيـره لهـم أن قواعـده تتضمـن عـدم وضـع تبـرّج فـي قاعـة الدراسـة. أبعـدت فتاتـان عـدّة المسـكرة الخاصـة بهمـا عـن الأنظـار. ابتسـمت ماجي على نحـو غامـض للسيد هاسـل حيـن أخبرهـا بمـا ينبغـي أن تجلبـه إلـى الصـف. فزعـت حيـن لاحـظ ابتسـامتها، وظنّـت أنهـا قـد تبـدو غريبـة بعـض الشـيء، أو غيـر ملائمـة. لكـن تلاميـذ الصـف بـدؤوا التمتمـة، لـذا تابـع الحديـث فـي محاولـة لإثـارة اهتمامهـم بقوانيـن الحركـة.

القوى

كانت تدريبات الفريق ستقام يوم الأحد.

صرخت جوزيت من الشاحنة الصغيرة: «هيا بنا». كانت سنو خلف عجلة القيادة. قفزت ماجي إلى الكرسي الجانبي في الخلف. انطلقن بالسيارة إلى المدرسة وأوقفنها بجانب

مدخل الصالة الرياضية. كانت القاعة ضخمة وتضم ثلاثة ملاعب مع شباك منصوبة على عوارض فولاذية بحيث يمكن إقامة عدّة مباريات مختلفة في الوقت عينه.

صفّفت الفتيات الثماني عشرة اللواتي أردن الالتحاق بالفريق شعورهن على شكل ذيل حصان عالٍ على قفا رؤوسهن، ووضعن عُصبات رأس مطاطية من كل لون. كان بعضهن هنديات، وبدت أخريات شبه هنديات، في حين بدا غيرهن بيضاوات. كشّرت دياموند لماجي، وقفزت بحماس بطولها البالغ ست أقدام، وتبرّجها الكامل، منفعلة، وهي تمضغ العلكة. تدلّى شعر فتاة أخرى، على الرغم من أنها عقدته عالياً بإحكام، حتى خصرها تقريباً. كانت إحدى المنتسبات لجمعية الهنود الحمر، واسمها ريجينا سايلور. كان طول سنو خمس أقدام وعشر بوصات، وتسريحة ذيل الحصان الخاصة بها طويلة أيضاً إلى منتصف ظهرها. قرّرت ماجي أن تجعل شعرها طويلاً. كانت دياموند قوية العضلات وأميرة جمعية الهنود الحمر، وساقاها مرنتين جداً مثل نابض. قرّرت ماجي أن تتدرّب أكثر. كان المدرّب رجلاً صغير القد، وريانا، وبشوشاً، ربما هندياً أبيض، ويضع قلادة من الخرز، وشعره الرقيق مصفّف على شكل ذيل حصان. تبين أنه يُدعى السيد ديوك.

حثَّ المدرب ديوك الفتيات على البدء بتمرينات الإحماء. كوّنت جوزيت فريقاً مع ماجي، وسنو مع دياموند. نظرت أميرة جمعية الهنود الحمر، المدهشة فعلاً

بوجنتيها الفاتنتين وضفيرتيها الفرنسيتين المعقدتين، إلى ماجي بازدراء وعدم اهتمام، وقالت: «من هذه؟».

قالت جوزيت: «إنها أختي، وهندية أيضاً».

وزّعهما المدرب إلى مجموعتين تحملان الرقمين واحد واثنان، من أجل التدريب. حظيت جوزيت وسنو بالرقم اثنين. حاولت ماجي الوقوف في بقعة تمكّنها من الانضمام إلى الفريق الثاني، ولكن حظها جعلها في مجموعة الرقم واحد. كانت في الفريق نفسه مع دياموند والأميرة، وبدا أنهما تعرفان أفضل مكانين لهما، واتخذتا موقعهما مباشرة. مرّرت دياموند الكرة إلى ماجي، وقالت: «اضربي من نقطة الإرسال!».

جفَّ حلق ماجي. ضربت الكرة على الأرض، لم ترتد على نحو ملتوٍ كما حدث في الحديقة. عادت الكرة إلى يدها؛ كأنها أحبتها. رمت الكرة عالياً.

«انتظري».

لم يكن المدرب قد نفخ صافرته.

زقزق: «لا بأس».

رمت ماجي الكرة عالياً مجدداً، وضربتها لتستقر في الشبكة. لكن الأخريات صفقن وجهّزن أنفسهن ثانية. صار وجهها ساخناً، ولكن بدا أن لا أحد يهتم بذلك. نفّذت الإرسال الثاني بنجاح، وردّته الأميرة. هيأت جوزيت الكرة، وتطاولت ساقا سنو في الهواء، وتركت الكرة تمر

إلى ماجي كما فعلت في التمرين. لم يكن هناك وقت لتنزلق تحتها، لذا ضربتها ماجي بقبضتها، ما جعلها ترتفع عالياً، وتتحرّك في الهواء. ضربت دياموند الكرة بقوة ولكن جوزيت كانت موجودة هناك ووثبت مع فتاة أخرى شقراء، التي مرّرت الكرة إلى سنو، فضربتها مجدداً نحو ماجي.

صرخت: «رافيتش!».

أنقذتها ماجي مجدداً بقفزة كاميكازي.

صرخت أميرة جمعية الهنود: «مرحى». نفذت فتاة أخرى ضربة البداية، وضربت الأميرة الكرة بقوة لتتجاوز ذراعي سنو المرفوعتين وترتطم مباشرة ببقعة على الصالة الرياضية من دون أن يستطيع أحد الوصول إليها.

«ضربة حاسمة!».

لم يكن بمقدور ماجي تنفيذ ضربة البداية أو القفز، أو ضرب الكرة بقوة من وضعية القرفصاء. لم تكن رشيقة، لكنها ذهبت إلى حيث توجد الكرة، في أي مكان، وضربتها إلى الأعلى. قفزت أحياناً، وانخفضت في أحيان أخرى، ووثبت لتضربها فوق الرؤوس، أو إلى الخلف، إذا أرسلتها إحدى أعضاء الفريق إلى خارج حدود الملعب. كان تمركزها جيداً، وتمريراتها مقبولة. تخلّت عن كل شيء ـ كل قلق، وكل تشنج، وكل خوف ـ وحرّرت نفسها بضع ساعات، وجعلت المدرب يضحك، وأثارت إعجاب الفريق باستعادتها الكرة بطريقة هزلية.

قالت جوزيت، حين اكتشفن أنها ستنضم إلى الفريق الثاني: «لا بأس، قد تجلسين على مقاعد البدلاء كثيراً في البداية. لا تقلقي. قد تمضين وقتاً أطول في التدريبات، ولكن نحن بحاجة إليك».

«كنت انتحارية هناك!».

ضحكت سنو. كن في السيارة في طريق عودتهن، ولم ترَ أيٌّ منهن وجه ماجي يتجمّد لدى سماع تلك الكلمة، أو عينيها تفقدان التركيز. وجدت نفسها فجأة في الحظيرة، أمها تقف عالياً في شعاع من الضوء. أزيز. عادت بسرعة إلى السيارة. كانت خائفة من شعورها بالارتياح والسعادة، وأن يجعل ذلك أمها تشعر بالتعاسة. راقبت الطريق قلقة، في حين تبادلت الشقيقتان أطراف الحديث. كانت سنو تقود بسرعة، ولكن مع ذلك، أرادت أن تصل إلى المنزل في أقرب وقت ممكن.

* * *

كان لدى راندال صديقٌ ورث رخصة استخراج حجارة لصنع الغلايين من مقلع في داكوتا الجنوبية حيث تنتشر تلك الصخور. قدّم ذلك الصديق حجر غليون مجاناً إلى راندال، الذي منحه إلى لاندرو، الذي صنع غلايين منه. لكن كان ذلك غليوناً لأسرة لاندرو، وقد أخذوا جميعاً غلايين إلى الكوخ التقليدي كلما ذهبوا إلى هناك. عاملوا غلايين الفتية مثل أشخاص، وقد حصل كل الأولاد على تلك الغلايين في عمر مبكر، لكنهم لم يدخّنوا بها حتى

كبروا. كان لاروز آخر فتى من دون غليون، لذا بدأ لاندرو صنع واحد له. استخدم منشاراً كهربائياً، ثم مبرداً على الحجر الأحمر لتشكيله. استعمل لاحقاً مقشطاً، ومبارد ناعمة، ومبرداً أصغر حجماً من أجل تقويس التجويف. سيستخدم ورق الزجاج بدرجات خشونة مختلفة، وأخيراً قطعة قماشية، ثم سيلمع التجويف براحتي يديه وأصابعه بضعة أسابيع. ستجعل يداه الملطختان بالزيت اللون داكناً. كان غليوناً بسيطاً، ولم يصدق لاندرو أن الغلايين ينبغي أن تُصنع على شكل رأس نسر، أو قندس، أو دبّ، أو مخلب صقر، أو ماعز جبلية، أو سلحفاة، أو حلزون، أو حصان، كما قد رأى. كان يفترض أن تكون أدوات بسيطة لاستخدامها في الابتهال بتواضع.

شعر لاندرو بأن صُنع غليون يشبه نوعاً من الابتهال، التضرّع متعدد المهام. كان يجلب غالباً تجويف غليون للعمل عليه حين يجلس مع مرضاه أثناء قيامه بالإجراءات المعتادة معهم، وانتظار نتائج التحاليل، ومشاهدة التلفاز في ردهة المستشفى أو المنزل.

أحضر في ذلك اليوم الغليون للعمل عليه عند أوتي وباب. تولّى العناية بنظافة أوتي أولاً، وساعده على الاغتسال مع حماية مكان الناسور الذي لا يزال يتعافى آنذاك. غسل لاندرو كلب باب أيضاً؛ لأن ذلك سيجعلها سعيدة. كانت باب تزور ابنتهما في فارغو. اقترب أوتي على كرسيه المتحرّك من التلفاز، ووجّه نحوه جهاز

التحكّم ضعيف المدّخرات، وبدّل القنوات أثناء قيام لاندرو بتحضير شطائر لهما، من دون شيء كثير العصارة. قال أوتي أحياناً إنه يشتهي برتقالة إلى درجة أنه يرغب في البكاء من أجل واحدة. كان يتّبع حمية منخفضة السوائل. وجد أوتي برنامج الطهي الذي يحبه، وتناولا الطعام أثناء مشاهدة السكاكين اللامعة، والتقطيع السريع، وأزيز القدور، والتذوق. لكن أوتي كان لا يزال مرهقاً من غسيل الكُلى في اليوم السابق، ولم يستطع إنهاء شطيرته، ولم يتمكن حتى البرنامج من إثارة اهتمامه. أراد أن يتكلم، فأطفأ الجهاز وسأل عن حال لاندرو، بصوت واهن وخافت.

قال لاندرو لأوتو، الذي ابتسم له بعينين ذابلتين: «أظن أنني يجب أن أقول إن الوضع كله مستقر الآن، ولكن تباً!». كان لاندرو يحمل تجويف الغليون بيديه، ولم يستطع تمالك نفسه.

قال: «يجب ألا أتفوّه بمثل هذا الكلام أثناء العمل على هذا الغليون. يقول راندال إنه قد يشعر بالإهانة. يُفترض أن تتم معاملة الغليون مثل جد أو جدة».

قال أوتي: «تحمّل الأمر أكثر مما يطيق. لن يشعر غليون الجد بالانزعاج. الأجداد يتعاطفون. أضف إلى ذلك أن هذا ليس شيئاً مبجلاً بعد، ليس قبل أن تتم مباركته».

قال لاندرو: «صحيح».

قال أوتي: «تحدّث كما تشاء».

قال لاندرو لأوتي: «آسف، أواجه صعوبة في تجاوز الأمر أحياناً».

عرف أوتي أن لاندرو قد ينهار في أي لحظة.

«كنت أتساءل فحسب».

حاول أوتي أن يغير الموضوع.

«متى التقيت أنت وإيمالاين أول مرة؟».

فاجأ نفسه. ربما لم يكن شيئاً عادياً أن يسأل رجل رجلاً آخر عن ذلك. كانوا قد أفرغوه من السوائل مثل مرحاض، وبدا الاحتضار ببطء مملاً جداً.

«إذاً؟».

قال لاندرو: «في جنازة. حدث ذلك في جنازة عمها إيديبوي، أثناء إلقاء النظرة الأخيرة عليه حين كان جثمانه مسجّى بأبهى حلّة له. وقفت إيمالاين وتكلمت عنه، وتذكّرت أشياء عنه: مثل حيوان الراكون الذي دجّنه وجثم على رأسه مثل قبعة. كيف جعل الأطفال أثقالاً في تمريناته، ورفعهم عالياً بذراعيه ثم أنزلهم إلى الأسفل. النعلين البلاستيكيين الأخضرين. تلك الأشياء التي جعلته يبدو مفعماً بالحياة».

«أتذكر إيديبوي».

قال لاندرو: «كان الناس يبتسمون ويومئون من ذكريات إيمالاين كما تبتسم وتومئ الآن. كان إيديبوي يشرب شليتز

في الصباح، ولم يشرب إطلاقاً في أي وقت آخر. تلك القمصان من هاواي. كيف اعتاد أن يصيح ياباداباادوو في نهاية الدعابات. رأيت إيمالاين وفكّرت أنه إذا كان بمقدور امرأة إثارة تلك الصور الذهنية في وقت الحزن وجعل الناس يبتسمون، ستكون بالتأكيد شخصاً جيداً. إضافة إلى جمالها».

قال أوتي: «بالتأكيد. أنا واثق بأن الوليمة كانت جيدة من أجل إيديبوي».

«سلطة بطاطا، وأصداف من المعكرونة. طعام شهي. أكلنا معاً بالطبع، ثم غادرتُ المكان. كنت أعمل موظفاً في المناوبة الليلية في غراند فوركس. حصلت على عنوانها وكتبت لها كل ليلة على ورق النُّزل 6. احتفَظَتْ بكل رسائلي».

«كتبت إلى باب أيضاً! ماذا قلت في رسائلك؟».

كان لاندرو يبتسم آنذاك.

«أنني سأموت من أجلها، وآكل التراب، وأمشي في الصحراء الملتهبة؛ ذلك النوع من الأشياء. ربما قلت إنني قد أشرب ماء حوض استحمامها، ولكن كنت آمل ألا أفعل ذلك».

كان أوتي لا يزال يبدو مترقباً، لذا تابع لاندرو.

«حسناً، تعرف هذه الأمور. اختبرنا علاقتنا، كما أظن. لا، بدا الأمر أن أحدنا قد توارى في الآخر بعض الوقت، اختفى عن العالم العادي. لأكون صادقاً، تناولنا كثيراً من المشروبات، وقليلاً من الممنوعات، بعض الوقت، ثم

أقلعنا عن ذلك. أردنا طفلاً، ثم ولدت سنو نحيلة ما جعلنا نعتمد على بعضنا لنتوثق من بقاء ابنتنا حية. كانت إيمالاين في المدرسة، وقد نجحنا. جاء هوليس في ذلك الوقت، ثم ولدت جوزيت. ثمانية أرطال! عدنا إلى هنا والتزمنا بالتقاليد، وقرّرنا عدم الشرب نهائياً، وطلب البركة لأسرتنا. تعمّقنا في الأمر بعد ذلك، وتزوجنا بالطريقة التقليدية أمام الأولاد، ثم عقد الأب ترافيس قراننا بعد ذلك. أنجبنا كوتشي، ثم لاروز، وأدى شيء جيد إلى آخر حتى ...».

قال أوتي: «لا تتجاوز تلك النقطة. لقد حالفك الحظ مع إيمالاين، ولكن ربما لم يكن الأمر يتعلق بالحظ فقط. أنت إنسان طيب أيضاً».

كان أوتي قد استعاد بعضاً من عافيته أثناء قيام لاندرو بسرد القصة، لكنه شعر بموجة قوية من التعب تغمره آنذاك. فجأة، غطَّ في النوم، وخرج صفير من بين شفتيه. ثبّت لاندرو وسادة سفر حول عنق أوتي حتى يستطيع النوم مرتاحاً في كرسيه. أثار ذلك الحديث أشجان الماضي في لاندرو، فقد مضى وقت طويل منذ فكّر فيما كان عليه الوضع مع إيمالاين في البداية. بدا أن الذكرى بحد ذاتها، آنذاك، تؤلمه وتسعده في الوقت عينه.

كان يعيش في غفلته حتى تعرّف إلى إيمالاين، ويبدو نائماً على قدميه أثناء قيامه بآلاف الأشياء. من ثمَّ هزّته بعنف، وعندما تجرأ على النظر إلى عينيها، رأى أنهما مستيقظان معاً. بدأت تسكن جوارحه، وانتابته مشاعر كثيرة،

وراودتـه أفـكار غريبـة. إذا تركتـه، سـيصير أعمـى، وأصـم، وينسـى كيـف يتكلـم ويتنفّـس. عندمـا يتجـادلان، يتحـوّل إلـى هـواء، وتبـدأ ذرّاتـه، وجزيئاتـه، أو أيـاً تكـن المـادة التـي يتكـوّن منهـا، بالتفـكّك، ويشـعر بـأن جسـده يفقـد صلابتـه. كيـف تفعـل ذلـك؟ عندمـا تتـرك السـرير أحيانـاً فـي الليـل ويكـون شـبه مسـتيقظ، لا يسـتطيع الحـراك. يتطـاول بنيـان الخـوف داخلـه، وتغمـره مشـاعر الذعـر، والقلـق، والبـؤس التـي لا تهـدأ إلا حيـن يحسّ بحركتهـا بجانبـه مجـدداً. لـو أن إيمالايـن لـم تبادلـه المحبـة بالقـوة نفسـها، لمـات فـي اختبـار الوقـوع فـي الحـب. كان الأمـر سيشـبه الـولادة فـي كهـف، والتنشـئة علـى أنـه ابـن ذئـب أو قـرد، مـع قـارورة مربوطـة بسـلك علـى أنهـا أمـه. كان ذلـك الشـعور أقـوى مـن أن يحتملـه.

فكّـر لانـدرو فـي علـب الفتنانيـل الموجـودة فـي درج خزانـة الحمـام، الخاصـة بتسـكين آلام أوتـي المبرحـة.

قال لاندرو في قرارة نفسه: «لا تفعل هذا».

شـدَّ قبضتـه علـى تجويـف الغليـون وشـاهد مفاصلـه تبيـض حتـى تراجعـت الرغبـة، الرغبـة، الرغبـة درجـة واحـدة، ووصـل إلـى تلـك اللحظـة الخطـرة التـي قـد يظـن فيهـا أنـه قـد قهـر تلـك الرغبـة، ولكـن مـع بقـاء ذلـك الجـزء المخـادع مـن نفسـه قـادراً علـى تجـاوز تلـك القناعـة. كان الخـوف، أو الرغبـة، أو الخجـل، الـذي يحبـس أنفاسـه يترسّـب داخلـه. لقـد أُصيـب بمشـاعر وكبحهـا جسـده مثـل فيـروس حـي. لكـن يسـتطيع التخلّـص منهـا، والذهـاب إلـى النـوم مجـدداً، والعثـور علـى

الأمـان في النسيان الـذي يفرضـه علـى نفسـه. وضـع الحجـر علـى جبينـه حتـى شـعر بالأمـان. سـحب نفسـاً عميقـاً بعـد أن هـدأ ذلـك الشـيء المزعـج بداخلـه، وتكلـم بهمـس.

أخبر تلك الرغبة: «ابقي هناك الآن. دعيني وشأني».

أمسـك لانـدرو بحجـر الغليـون بمحبـة. كان يمثّـل دمـاء الأسلاف، الذيـن أنجبوا إيمالايـن وأولاده إلى هـذا العالـم الزائـل.

* * *

أعـادت ماجـي لاروز مشـياً إلـى إخوتـه وأخواتـه لقضـاء عطلـة أسـبوعية فـي أكتوبـر. كانـت الأوراق المتلألئـة قـد سـقطت بسـرعة فـي الليلـة السـابقة، والتصـق بعضهـا بأسـفل حذاءيهمـا. بقيـت ماجـي فـي منـزل آيـرون لإنجـاز الفـروض المنزليـة مـع الفتاتيـن، وتلقيهـا دعـوة لمشـاركتهما فـي جلسـة تجميـل. كانـت جوزيـت وسـنو سـتحوّلان مطبخهمـا إلـى عالـم مريـح للعنايـة ببشـرتهما والالتـزام بحميتهمـا الغذائيـة.

يمكـن الحصـول علـى المـواد الضروريـة للتجميـل مـن خزانـة المـؤن والثلاجـة. سـكر للوجـه، وملـح لتقشـير جلـد القدميـن، وقرفـة وعسـل للشـفتين. يسـتطعن وضـع بيـاض البيـض علـى الوجـه لشـد البشـرة، وشـرائح خيـار علـى العينيـن للتخفيـف مـن السـواد، وغسـل الشـعر بالليمـون، ثـم ترطيبـه بالمايونيـز. قـرّرن أن يفعلـن ذلـك أولاً.

وضعـت سـنو مرطبـان مايونيـز علـى الطاولـة إلـى جانـب لفافـة مـن بلاسـتيك التغليـف الشـفاف، ثـم سـكبت ربـع كـوب

من الزيت في وعاء. جلست ماجي على كرسي مطبخ، وقد وضعت منشفة فوق كتفيها، ودلكت سنو المايونيز وزيت الكانولا على قمة رأس ماجي، ثم دهنته على كل خصلات شعرها. أرادت ماجي أن تضحك. كانت الرائحة مزعجة، ولكن تدليك سنو جعلها تشعر بالارتياح والانتعاش. أغلقت عينيها وزمّت شفتيها، وأدركت أن الضحك سيبدو غريباً آنذاك. لفّت سنو بلاستيك التغليف حول رأس ماجي عدّة مرات، وطوت الشعر بداخله بإحكام، ثم شدّت منشفة بقوة فوقه على شكل عمامة.

«يمكنك الذهاب الآن والجلوس على كرسي أبي، وستطبّق جوزيت علاج كيس الشاي المثلّج على عينيك، والتقشير بالملح على قدميك. بعد ذلك، ستقوم جوزيت بمعالجة شعري بالمايونيز، ثم ستضع قناع بياض البيض على وجهي».

قالت إيمالاين حين شاهدت الفتيات يضعن بياض البيض على وجوههن، ووجه لاروز: «أريد واحداً أيضاً». استلقين على الأريكة، أو على مناشف على الأرضية، واستمعن إلى المذياع في انتظار أن يجف البيض. عندما جفَّ القناع، بدأ يشدّ جلودهن.

«هل تشعرين به؟».

قالت ماجي: «نعم»، وعيناها مغلقتان تحت كيسي شاي ليبتون المثلجين.

قالت جوزيت بعد لحظة: «مؤلم قليلاً».

«هذا لأنه ينشّط الكولاجين لديك».

جلست إيمالاين. «هل يمكنني نزعه؟».

أبعدت ماجي كيسي الشاي عن عينيها. «قناعي جاف».

قالت جوزيت: «أوه! لا تبتسمي». لكنها ضحكت. كان بياض البيض الجاف على وجه سنو قد تشقّق وظهرت عليه شبكة من الخطوط الرفيعة.

«انزعيه!».

غسلن بياض البيض عن وجوههن وعبّرن عن إعجابهن بنعومة بشرة بعضهن. فككن العمامة، وغسلن شعرها، ولكن لم يستطعن إزالة المايونيز عنه. نظرت ماجي إلى المرآة ورأت أن الشاي قد ترك علامات مخطّطة مثل راكون حول عينيها. اتقدت عيناها ضمن البقع كأنها مصابة بالحمّى، وبدت مريضة على نحو غريب. تفحّصت الملمس النهائي الناعم على وجنتيها.

قالت إيمالاين: «واو! وجهي جاف جداً. أشعر بأن جلدي سيتشقّق».

قال لاروز: «أنا أيضاً».

حدّقت إلى المرآة وبدأت فرك زيت أولاي على جبينها.

«العناية بالأظافر الآن!».

أحضرت جوزيت صينية أدوات طلاء الأظافر.

قالـت إيمالايـن للفتيـات: «سـأذهب إلـى البلـدة لجلـب كوتشـي. أنجـزن فروضكـن المنزليـة. وقنـاع بيـاض البيـض هـذا؟ أظـن أننـي صـرت أكبـر بعشـر سـنين». كان جلدهـا لا يـزال مشـدوداً وملمسـه غريبـاً.

قال لاروز: «سأذهب معك».

قالـت جوزيـت فجـأة، وهـي تنحنـي لتعانـق لاروز: «أنـت مـن الأيـام الخوالـي، ولديـك روح عريقـة».

قال لاروز: «لديّ بياض بيض فقط».

«هـل تعرفـن مـا قالـه؟ أيتهـا الفتيـات، أتعرفـن مـا قالـه؟ قـال إننـا كنـا نسـرد القصـص فـي الأيـام الخوالـي بـدلاً مـن مشـاهدة التلفـاز».

قالت إيمالاين: «هيا».

«لا، حقاً، قال ذلك!».

«أعني هيا بنا، لنذهب».

ركبـت ماجـي وسـنو فـي السـيارة، وذهبتـا فـي جولـة إلـى البلـدة. أرادتـا شـراء قرفـة لتجميـل الشـفتين، والحصـول علـى مزيـد مـن غسـول الشـعر.

قالت سنو: «تفوح منا رائحةٌ مثل شطائر مقرفة».

«فكرة مَن كانت، المايونيز؟».

«فكرتي».

«حقاً؟».

«إنها فكرة جوزيت في الواقع، ولكنها حسّاسة، كما تعرفين».

لم تكن ماجي تظن أن جوزيت هي الحسّاسة.

قالت ماجي: «أمي حسّاسة»، وتمنّت لو أنها لم تتفوّه بذلك. على كل حال، كانت كلتاهما تجلس على المقعد الخلفي في السيارة، حيث لا تستطيع إيمالاين سماعهما. التزمت سنو الصمت، ولكن ماجي عرفت أنها تفكّر فيما ينبغي أن تقوله. تكلمت سنو بعد انقضاء بعض الوقت.

«أمك، إنها بخير. أعني، إنها تبلي حسناً، ألا تظنين هذا، نظراً لما حدث؟».

قالت ماجي: «التعامل صعب مع أمي. توقفت عن قضم طلاء أظافرها الجديد، الأزرق الفاتح جداً».

لم تخبرها سنو كيف تعاملت وجوزيت مع المزاج الحاد الذي أظهرته نولا في تلك الأعوام الأولى. قالت إن جوزيت أحبت الطريقة التي تزرع بها نولا الورود.

قالت ماجي: «هي ماهرة في هذا».

كان لثناء سنو على شيء فعلته والدتها تأثير غريب على ماجي. شعرت بأن معدتها تطفو داخل جسدها، ولكن بدا أن هناك وخزة غيرة في دماغها. نظرت إلى سنو، وتذكّرت طريقتها الأنيقة في الإمساك بشعرها الذي تفوح منه رائحة المايونيز، وانحناء كتفيها قليلاً، وقميصها المقلّم. أرادت من سنو أن تفهم الأمر.

قالـت ماجـي: «أمـي لا تحبنـي فـي الواقـع. هـي تحـب لاروز».

اقترب حاجبا سنو من بعضهما، وتباعدت شفتاها قليلاً، وحدّقت إلى وجه ماجي. عندما كادت ماجي تفتح فمها، لتقول شيئاً قاسياً، أو تطلق شتيمة لتوقف ما رأت أنه قد يتحول في عيني سنو إلى شفقة، مدّت سنو ذراعها حول كتفي ماجي وقالت: «أوه، تباً أيتها الفتاة الصغيرة. يجب أن نبقى معاً. انظري».

أمالـت رأسـها نحـو المقعـد الأمامـي، وغضّنـت وجههـا لتشـير إلـى لاروز وإيمالايـن.

قالـت سـنو: «لـم يعـد حتـى يطلـب الجلـوس فـي المقعـد الأمامـي. خمّنـي مـن يجلـس فـي المقعـد الخلفـي كلمـا حظيـت أمـي بوقـت مـع لاروز؟».

تأتـأت ماجـي، كأن هديـة غيـر متوقعـة قـد وُضعـت بيـن يديهـا.

«لم أعرف إطلاقاً».

قالـت سـنو: «إنهـا إحـدى حقائـق الحيـاة. نذكّرهـا بالأمـر طـوال الوقـت، ولكنهـا لا ترغـب فـي أن تقتنـع. هوليـس وكوتشـي يبقيـان مـع بعضهمـا. ونحـن لدينـا بعضنـا، أنـا وجوزيـت. مهـلاً ...».

جذبت ماجي نحوها بطريقة هزلية.

«لدينا أنت أيضاً».

بعد أن غادروا، بدأت جوزيت جمع بقايا مواد التجميل بجانب الدرج الأمامي لمنزلهم. كان باقي الساحة رطباً، لكن ذلك الجزء يبقى جافاً بسبب امتداد قسم من السطح فوقه. ربما لم يكن أفضل مكان لزراعة شيء فيه بسبب ذلك، ولكن أرادت القيام بالأمر. لم يكن والداها يهتمان بالبستنة، أو تزيين المنزل، ويركّزان على الجانب الإنساني من الأمور، طبي، اجتماعي، خيري، وكل تلك الأشياء. لكن في العام الماضي، كلما ذهبت جوزيت لتجلب لاروز، رأت كيف تعتني نولا بالورود، التي تتفتّح في كل أسبوع أو نحو ذلك. لم تكن مجرد ورود عادية، ولم تعرف جوزيت أسماءها، وقد تفتّحت واحدة بعد أخرى، طوال الصيف وحتى الخريف. كان بين تلك النباتات قطيفة وبتونيا، اللتين تعرفهما. كانت نولا تزرع خَضراوات أيضاً خلف منزلها، وهناك كرمة معترشة تسلّقت أسلاك قن الدجاج. كانت صفوف النباتات مفصولة بدروبٍ مغطاة بالقش، حيث ينقر الدجاج بحثاً عن الطعام. بدا المنظر كله لوحة جميلة بالنسبة إلى جوزيت. طبعاً، كانت نولا تعمل بدوام جزئي فقط، وليست مثل والدتها بأي حال، التي لا تنتهي واجباتها. قرّرت جوزيت أن تأخذ الأمر على عاتقها.

كانت قد أحضرت بذوراً وبعض الزهور المخملية الصغيرة من متجر البقالة بالأمس، التي وجدتها في علبة كُتب عليها «مجاناً». كانت الرؤية الخاصة بها تركّز على وجود بقع ملونة من الورود بجانب باب منزلهم بدلاً من دراجة هوائية خردة وسكوتر صدئ لا يمكن لأحد

استخدامه على طريق مفروش بالحصى. سحبت تلك الأشياء إلى طرف الغابة.

لم يكن التراب هناك مماثلاً لذاك الموجود عند منزل ماجي، ولكنه مملوء حجارة صغيرة رمادية اللون، التي قد حوّلها الماء إلى شيء يشبه الصابون.

«التراب تراب، صحيح؟».

جلست جوزيت على كعبيها.

غرست البذور في التراب، وأخرجت الزهور المخملية بحذر من أصصها البلاستيكية المشقّقة. وضعت كل واحدة منها برفق في حفرة ونخلت التراب الرمادي الذي جلبته من تحت المزراب فوق الجذور. سقت كل شيء، وغسلت النباتات تقريباً حتى تعلّمت سكب وشل من الدلو فوقها. مالت إلى الخلف على كعبيها مجدداً.

«تفتّحي أيتها الورود الصغيرة، وأزهري».

أحبّت شذاها، وعبيرها ودفأها. سمعت سيارة هوليس من بعيد، قادمة باتجاه المنزل. كان المحرّك يقرقر أثناء صعوده على التلة الصغيرة. توقف بعد وقت قصير في الممر، وخرج من المركبة.

قال: «مرحباً».

ردّت: «مرحباً».

«ما هذا؟».

قالت جوزيت: «أوه، بعض أعمال البستنة فحسب. ظننت أنها ستجعل المكان أكثر جمالاً».

أعجبه كل شيء فيها. أثنى على الورود المخملية، ولم يخبرها أن أول موجة صقيع ستقتلها كلها، وأنها لن تنمو مجدداً في العام الثاني، أو أنه لا طائل من زراعة البذور في الخريف. لكن تساءل لماذا لا تعرف ذلك؟ لماذا لم تجمع تلك القطع من المعرفة في حياتها؟ كان الهواء أكثر دفئاً، ولكن مصير النباتات مغزلية الشكل بأوراقها المصفرّة آنذاك بدا محتّماً.

قال حين نفضت ثيابها ووقفت ونظرت إليه: «إذاً؟».

«هل تعني ماذا يوجد للأكل؟».

«هل لا يزال لدينا حساء؟».

سارا إلى الداخل وبحثا في الثلاجة، ورفعا أغطية قدور الفرن، وعثرا على قطع البسكويت المخبأة، وبقايا الخبز المحضّر منزلياً. فاحت من جوزيت رائحة قوية جعلت هوليس يشعر بالجوع. حاول تحضير شطيرة، لكن لم يكن هناك أي مايونيز. حمّصت جوزيت بعض الخبز في المقلاة الحديدية، وجلسا معاً لتناول الطعام.

رشَّ هوليس ملعقة سكر على قطعته من الخبز، وحاولت جوزيت أن تدردش معه.

«وعاء السكر القديم هذا، هل تعرفه؟ إنه موجود في هذا المنزل منذ القدم. استخدمه جد جدي الأكبر من الأيام الخوالي لحفظ مفتاح فيه».

على الرغم من أن هوليس يعرف السكّريّة الخالية من المقابض، فإنه لم يقل شيئاً. تابعت جوزيت الحديث.

«إنه شيء من لاروز الأولى، التي عاشت هنا حين كان المكان لا يزال مملوءاً أكواخاً. كل ما لدينا منها هو هذه السكّريّة، كما أظن، إلى جانب بعض الرسائل والوثائق، التي تحتفظ بها جدّتي».

«تاريخ أسرتك عريق، هه».

نظرت جوزيت إلى هوليس، وتذكّرت ما قد قالته سنو عن مشاعره نحوها، بسبب طريقة قوله ذلك؛ بصوت معسول، وتحديقه إليها بطريقة رزينة وغريبة، بدت مربكة آنذاك. انتابها إحساس غامر بشأن تلك اللحظة الفارقة، فصرخت ما جعله يقفز من مكانه.

«لكل أسرة تاريخ خاص بها! تباً. عد إلى المستقبل يا رجل».

بدأت تضحك مما ظنّت أنه دردشة ودّية، في حين نظر هو إليها باستغراب.

قصة قديمة 1

كان كبار السن محتشدين في الغرفة على مقاعد قابلة للطي وكراسي متحرّكة. كانت جدّة لاروز التي تحمل الاسم نفسه، أو لاروز الرابعة، تقلي الخبز منزلي الصنع. رفعت كل قرص ذهبي من العجين من السمن ووضعته

على ورق تنشيف. وضعت إيمالاين القطع المربّعة على أطباق وأعطت كل واحد منها إلى أحد المسنين. جلب الفتى لاروز الزبدة، وحلوى الخوخ، ثم رتّب أكواب القهوة: كوب الكلية القبلية، وكوب أب-شيت كريك، وكوب الملهى القديم، وكوب الملهى الجديد بصور الفاكهة. كانت القهوة من آلة التحضير لا تزال تقطر إلى القدر الزجاجي، ولاروز يراقبها، وينتظر قليلاً قبل أن يضع كأساً أخرى. حدّقت مالفرن سانغريت إليه، وأومأت كلما فعل شيئاً.

همست: «أوه، ذلك الفتى، ذلك الفتى. إنه رائع. ربما، بالمحصلة، تفوّقت إيمالاين على لاندرو».

قالت السيدة بيس: «اخرسي أيتها السيدة العجوز».

لم تكن السنوات القليلة الأخيرة والسعيدة مع سام إيغلبوي قد خفّفت من حدّة مزاج مالفرن. راقبت السيدة بيس أثناء إخراج الخبز المقلي من السمن، وحاوت ألا تقول شيئاً بشأن تقنيتها. مع ذلك، خرجت كلمات أخرى من فمها.

«هل صنعت تلك الحلوى بنفسك، أم حضّرتها ابنتك؟».

قالت إيمالاين: «عملنا عليها معاً».

«لماذا لا تعيشين مع أمك؟ هل هو، لاندرو، ضد هذا؟ لماذا لا تعيش أمك في منزلها؟».

قالت السيدة بيس: «سألتني عن ذلك مئة مرة،

وأخبرتـك أنني أحـب مـا اعتـدت عليـه، مثـل العيـش هنـا، بمفـردي باسـتثنائك أنـتِ وفمـك اللعيـن».

اقتربـت إغناشـيا علـى كرسـيها المتحـرّك، مـع أسـطوانة الأوكسـجين.

قالت مالفرن: «ليحمي الله الملكة».

قالـت إغناشـيا: «هاهـا»، ورفعـت يدهـا الصغيـرة نحـو لاروز وتظاهـرت بأنهـا تريـد أن تصفعـه. تـورّد وجـه إغناشـيا مثـل شـابة يافعـة حيـن قـرّرت أن تبتسـم.

قالـت لـلاروز: «لـديّ قصـة جيـدة مـن أجلـك. تذكّـرت كل الأجـزاء فـي منتصـف الليـل. سـمعت هـذه القصـة مـن جدتـي، أيضـاً، ربمـا حيـن كنـت فـي مثـل عمـرك. انقضـى وقـت طويـل، وقـد نسـيت كل مـا يتعلـق بهـذه القصـة حتـى تلـك الليلـة».

قالت مالفرن وهي تزم شفتيها غيرة: «لنسمعك تسردينها إذاً».

قالت إغناشيا وهي تحرّك يدها قليلاً: «لا يمكنني هذا».

«لـمَ لا؟». مالـت مالفـرن نحوهـا، وضاقـت عيناهـا حيـن نظـرت إليهـا.

اعتدلت إغناشيا في جلستها، ورفعت ذقنها لتلقينهم الدرس.

«ليس هناك ثلج على الأرض، ولم تنم الزواحف بعد».

قالـت مالفـرن: «أوووه، تبديـن مثـل هنديـةٍ مـن أيـام زمـان». اتقـدت عيناهـا خبثـاً. لـم يكـن هنـاك شـيء أسـوأ مـن قيـام عجـوز أخـرى بمقاطعتـك أثنـاء تقليـد مبجّـل.

قالت السيدة وبيد: «تعرفين أننا ننتظر فعلاً حتى يتغلغل الثلج عميقاً في الأرض».

قالت مالفرن، غاضبة آنذاك: «أعرف هذا حقاً. أنا من تذكّر تلك القاعدة أصلاً، وإغناشيا هي التي حاولت خرقها. الكائنات التي يمكن أن تنقل قصصنا إلى أدنى مستوى من الأرض، إلى الأسود تحت الماء والأفاعي الضخمة وكل المخلوقات الشريرة الأخرى، ينبغي أن تتجمّد في الأرض، في سباتها».

قالت إيمالاين: «لا تزال لدينا قطعة من الخبز المقلي».

قالت إغناشيا وهي تزم شفتيها الغاضبتين تجاه مالفرن: «دعيها تتناولها، تلك المرأة التي تسرد القصص في غير موسمها».

قالت مالفرن: «غاوين ميمويتش. دعينا نقدّمها إلى المرأة التي حاولت سرقة أزواجي، الستة جميعاً، واحداً بعد الآخر. حاولت اختطاف آباء أولادي بإلقاء ترهاتها عليهم! يا للعار!».

«لم يروا أبداً شيئاً لم يرغبوا في رؤيته». همهمت إغناشيا بصوت مكتوم. «كنت لئيمة جداً وأخفتهم كثيراً. لم يستطيعوا تحمّلك، وتقاطروا نحوي».

«جيوانيمو!».

«لا تنعتيني بالكذب. رائحتك عفنة!».

قسمت إيمالاين قطعة الخبز المقلي شطرين ودهنتهما

بالزبدة والحلوى، ووضعت قطعة في يد كل امرأة. قضمت الغريمتان قطعتين صغيرتين، عابستين ومكفهرتين، وبدا أنهما قد تلينان في تلك اللحظة. ثم قالت مالفرن فجأة.

«جيوانيمو! جين! تفوح من سروالك الداخلي رائحة بشعة! حمقاء كريهة، أنت، في هذا العمر. هذا مشين!».

رمت إغناشيا قطعة الخبز المدهونة بالزبدة على مالفرن فحطّت على صدرها، نظرت إلى الأسفل ونخرت.

قال سام إيغلبوي: «دعيني أساعدك يا عزيزتي». رفع قطعة الخبز عنها، ثم بصق على منديله ومسح مكانها برفق. تظاهرت مالفرن بأنها تضرب يديه لإبعادهما عنها.

رمى سام تلقائياً الخبز المحمص في فمه.

«أكل سام طعام الرجل الأبيض!». مالت السيدة وبيد بحماس نحو مالفرن. «لا بد أنه يحبك كثيراً، هه؟».

قالت إغناشيا: «الرجل الذي يقوم بهذا يمكن أن يفعل أي شيء. أعرف هذا». التوى وجهها حين غمزت.

* * *

قال روميو، ذاهلاً تقريباً من الانفعال: «مناوبة ليلية؟ نعم، كما أظن ... أنا واثق. سأكون هناك. سعيد حقاً بتلك الساعات».

كان وجه ستيرلينغ تشانس مدوراً، ومتعباً، وجليلاً. بدت يداه هادئتين بين أكوام الأوراق على مكتبه.

«أنت تبلي حسناً في عملك هنا يا روميو. لا نرى هذا دائماً. نحن لا ننظف ونصلح الأشياء فقط، كما تعرف، وإنما نمثّل نوعاً من القوة الإرشادية أيضاً. إذا لم نؤدِّ عملنا، لا يستطيع أحد إنجاز شيء لمعالجة الناس، صحيح؟».

حتى ذلك الوقت، كان روميو قد عبث بمولد احتياطي وزاد سرعته فحسب، وشغّل سيارة الإسعاف من دون مفتاح. بحث خلسة في خزائن الملفات، وحتى في أحد المكاتب، حين نسيت بعض الممرضات مفاتيحهن، وضغط على مضخة تنفّس خاصة بطفل يعاني من الربو أثناء انقطاع التيار الكهربائي. وضع ملصقات على النوافذ، وبدّل المصابيح التالفة، ونظّف المراحيض، وأخرج الشعر من الحمامات. فعل كل ذلك من دون أن يُطلق شتيمة واحدة يمكن سماعها خارج حرم رأسه.

قال ستيرلينغ تشانس، بوقار: «أنت مؤدب». ذلك يؤخذ بالحسبان أيضاً.

عندما خرج روميو من مكتب الصيانة، اتسعت توقعاته.

لم يكن سيبقى وحيداً، في المنزل وفي الليل، وهو شيء يؤرقه فعلاً، وإنما سيكون المشرف عليه نعساً بالتأكيد في المستشفى. ظنَّ أن القواعد ستلين. أثناء الأسبوع الأول من العمل، وجد أنه محق في ذلك. سمع روميو أحاديث في كل مكان حوله، على امتداد كل تلك الساعات، وبدا أن الأقاويل تهيمن على المناوبة الليلية. لم تكن أقاويل سخيفة، كما يحدث في دار المسنين، وإنما معلومات قيّمة.

ينبغـي أن يتكلـم المـرء فـي ذلـك الوقـت ليبقـى مسـتيقظاً، وينبغـي أن يتحـرك فـي المـكان ليبقـى متيقّظـاً أيضـاً، لـذا قـد يستطيع روميو القيام ببعض الأعمال. واصل سلوكه الخانع ذاك ليكـون بمقـدوره الاقتـراب مـن الأحاديـث، قـد يكـون أي منهـا مفيـداً. جعـل الجميـع يـراه يقـوم بتلميـع الأرضيـة وهـو جـاثٍ علـى يديـه وركبتيـه.

قال أحدهم له: «ينبغي أن نجلب آلةً لتلميع الأرضيات».

ردَّ: «شكراً لك، لكن هناك معايير ألتزم بها».

كان لـدى فريـق الإسـعاف طاولـة نزهـات خـارج بـاب مرأبهـم. كانـت قضايـا حيـاة ومـوت تشـغل أذهانهـم طبعـاً، ولكـن حقـاً، يـا لهـم مـن أشـخاص مهمليـن! اضطـر روميـو إلـى التقـاط قصاصـات الـورق التـي يرمونهـا أرضـاً، وأعقـاب لفائـف التبـغ بالطبـع، وأغلفـة قطـع الحلـوى والشـطائر الباقيـة مـن غدائهـم. فعـل ذلـك حتـى بعـد غيـاب الشـمس، أثنـاء جلوسـهم تحـت الكشّـافات، ثـم تخلّـص مـن تلـك المـواد ببـطء شـديد. عمـل علـى فتـح كل قطعـة مـن تلـك النفايـات قبـل أن يضعهـا بهـدوء فـي سـلّة المهمـلات. وضـع روميـو نفسـه قـرب فريـق الإسـعاف، وبجانـب غرفـة الطـوارئ، وفـي أي مـكان يسـتطيع فيـه الاقتـراب مـن المسـعفين المناوبيـن أو الممرضيـن الذيـن قـد يمتلكـون معلومـة يتناقلونهـا بينهـم، أو حتـى الأطبـاء أنفسـهم. تـوارى بيـن قطـع أثـاث المستشـفى حامـلاً أدواتـه معدنيـة اللـون، وارتـدى كنـزة بقبـة عاليـة لإخفـاء الجماجـم الزرقـاء والسـوداء علـى عنقـه. كان سـرواله الجينـز

رمادياً مثل ماء متسخ، ونسوياً على الأرجح، لكنه لم يكن يهتم بذلك. لم يسرد قصصاً عن نفسه، ولكن شجّع آخرين على فعل ذلك، وبقي غامضاً بكل طريقة ممكنة. انتعل حذاءً رياضياً مطاطياً أسود وجده مرمياً على قارعة الطريق. كان يدخل في الصباح، أثناء عودته إلى المنزل وهو يشعر بدوار في رأسه، إلى معتزل إعاقته ويفرغ جيوبه من الأوراق، ورق ملحوظات عليه خربشات، وقصاصات أخرجها من النفايات، وحتى نسخ من بضع ملفات نسيها آخرون في تلك الليلة. كان يضع ملحوظاته في أكوام، ويحتفظ بعلبة أخرى من المسامير الصغيرة الملونة في جيبه، ويواصل تثبيت ما يعدّه مهماً على لوح جص في جداره المهترئ.

عرف روميو من تلك الأحاديث القصيرة أن هناك نوعاً من المرض تبدو فيه ثملاً، ولكن يتبين أن جسدك لا يحتوي على كحول. أدّى تناول الطعام من حافة سكين حادة إلى استدعاء الإسعاف لبافي شيلدز. ولد طفل بشعر يغطي كل جسده. ولد طفل آخر ممسكاً قطعة نقدية ابتلعتها أمه سابقاً. كان لدى الرجل العجوز بايوس ولد يتعاطى الممنوعات، وقد سرق ذلك الابن مال أبيه، ما جعلهم ينقلونه إلى قسم الإسعاف. استخدمت سيدة حاول أن يتذكّر اسمها حجارة مدوّرة من البحيرة لتنظيف جسدها. استنشق أحد أفراد القبيلة، عامل تركيب أسقف، عدّة أظافر إلى داخل رئتيه ولم يسمح للأطباء بإخراجها. كانت كمية الملح كبيرة في كل شيء، وفيه الهواء. تجمّدت فتاة

صغيرة حتى شارفت على الموت؛ لأنها لم تستطع العودة إلى المنزل حيث فقدت والدتها وعيها. على الرغم من إعلان وفاتها في موقع العثور عليها، فإن طبيباً أنعشها وعمل على تدفئة جسدها ما أعادها من عالم الأرواح. باتت تلك الفتاة تعرف أشياء، مثل ذلك الفتى لاروز. مات مراهق بسبب البرد بعد أن نام تحت شرفة منزل والده، وعلى الرغم من أنهم حاولوا إنقاذه، فإنهم لم يستطيعوا إعادته إلى الحياة. ضاعت امرأة عجوز حين أخرجت القمامة من بيتها، ولكن لم تتجمّد في ذلك الطقس؛ لأنها طمرت نفسها تحت الثلج.

لكن مهلاً. مسح روميو الأروقة إلى باب مكتب مدير النقل، حيث يقوم أفراد فريق الإسعاف أحياناً ببعض الأعمال الورقية، أو يتكلمون مع بعضهم. سمع اسم لاروز، فشعر بالتوتر، واقترب منهم، وحبس أنفاسه محاولاً سماع الكلمات.

قال أحدهم: «ليس الفخذ».

«واثق؟».

«ليس ذلك أيضاً».

«في أي يوم حدث هذا؟».

«الأربعاء؟ الثلاثاء؟».

«لا يمكنك خداعي».

ثم بدآ الحديث عن الجزرة مجدداً.

ركّز روميو تفكيره على ما حدث في العمل أثناء العطلة الأسبوعية، وحاول أن يتذكّر. عندما اضطر إلى التحرك من مكانه، كتب بسرعة ما قد سمعه على صفحة ممزقة من مجلة في غرفة الانتظار. كان يضع كل ما يجده في حافظة أوراق أخرجها من القمامة. احتمالات، وإمكانيات لا حدود لها. شعر بالفخر من طريقة ترتيبه لتلك الحقائق.

* * *

تسلّلت ماجي إلى غرفة لاروز وتكوّرت على طرف سريره.

تقول ماجي: «أظن أن الأمور بخير، وأنها أكثر سعادة».

«وأنا أيضاً. إنها لا تحضّر ذلك الكعك».

«وقد تعمل في وظيفة مع أبي لدى سينكس. سمعتهما يقولان هذا».

«ينبغي أن تعامليها بلطف».

جاء صوت ماجي همساً: «هل تقول ... هل تقول إنها أرادت أن تشنق نفسها لأنني لم أكن لطيفة معها؟».

«بالطبع لا. لكنك كنتِ كذلك».

«كنت حقيرة، أنا حقيرة. هذا ما ينعتون به فتيات مثلي. ليس الآن، أعني في تلك المدرسة. توجد فتيات لئيمات جداً هناك. لكن ذلك سيحدث».

نهض لاروز. «لا، أنت قوية، وينبغي أن تكوني كذلك».

«دعني أريك القوة».

تقفز من مكانها، وتثب على الفراش، وتضربه بوسادته. يمسك بها ويتعاركان على السرير، ثم يسقطان إلى الأسفل. يتوقفان عن الضحك حين يرتطم جسداهما بقوة على الأرضية. تنادي نولا عليهما، ولكن ماجي تخرج من الباب إلى غرفتها بسرعة مثل خيال.

يُفتح باب الوالدين قليلاً، ويصعد صوت نولا من الردهة في الأسفل.

يقول لاروز من سريره: «سقطت بعض الكتب. كل شيء بخير يا أمي. يمكنك النوم الآن. سأبقى هادئاً».

«ماجي؟».

تردُّ من غرفتها، متظاهرة بأنها نعسة ونكدة المزاج: «ماذا؟ أمي؟». يسود الهدوء. تفكّر ماجي في لاروز حين تحاول أن تنام. تفكّر فيه كل ليلة؛ لأنه يجعلها تهدأ. إنه عزيز عليها، وكنزها، ولا تعرف حقاً ما تكنّه له، ما يجعلها تحبه.

يظهر فجأة هناك، إلى جانب سريرها، ويضع إصبعه على شفتيها. لم يفعل ذلك أبداً من قبل.

تستدير نحوه.

يقول: «أريد أن أسألك شيئاً».

«لا بأس».

«من هم هؤلاء الفتية، في المدرسة الأخرى؟ أولئك الذين أمسكوا بك، وفعلوا أشياء لا ترغبين بها؟».

تنظر إلى ذراعي لاروز الفتيتين والنحيلتين وشعره الكثيف، الذي يبدو أنه لن يتساقط يوماً. يجعلها سؤاله تشعر بالغثيان. تظنُّ أنها قد تجاوزت الأمر، ولكن يتبين أن هناك بركة من الوجع داخل جسدها، وتنزُّ الآن من مساماتها، وتكوّن طبقة رقيقة عليها. هل هذه دموع؟ تمسح وجهها. تباً! لا يزال الأمر يؤلمها. وهم يتذكرون، هؤلاء الفتيان. قال بوغي لها العام الماضي، ببراءة زائفة: «مرحباً يا رافيتش، هل لا تزالين ترغبين بذلك؟ هل لا تزالين تريدينه مثل السابق؟».

تخبره: «تايلر فيدار، وكورتينز بيس، وبراد موريزي، وجيسون «بوغي» وايلدستراند».

يقول لاروز: «أظن أنني قد رأيت هؤلاء الفتية».

«هناك أيضاً شقيقة وايلدستراند، بريلين، وهي أكبر مني بعام واحد. إنها حقيرة، وتتظاهر بأنها جذّابة، وتضع كثيراً من مساحيق التبرّج. تنتف شعر حاجبيها ليصيرا قوسين. أكرهها. أنا سعيدة جداً لأننا غيرنا المدرسة. اعتادت أن تنظر إليّ بازدراء، وترفع إصبعها نحوي. من دون أن أفعل شيئاً! أعرف أن بوغي قال شيئاً لها، وأخبر بريلين أنها غلطتي».

يقول لاروز: «لم أنسَ أبداً ما قلته تلك الليلة».

لـم ينـس؟ شـعرت بالمخـاط يجـف عليهـا، وأصابعهـم اللعينـة تتحـرّك علـى جلدهـا. «هـل تتذكّـر؟ مـاذا قلـت؟».

«هل يستطيع قدّيس أن يقتل؟».

«قدّيس؟».

«كنت تشيرين إليّ، على الرغم من أنني لست قديساً».

«لاروز، أوه تباً. لم أقصد أنك يجب أن تقتل».

«لا تقلقي، لن أقتلهم حرفياً، ولكن نعم، صرت أقوى الآن».

تقول: «لا، لست كذلك. أرجوك!».

«تايلر مصارع في المدرسة الثانوية الآن. كورتينز أخرق وبطـيء ولكـن ضخـم الجسـد. بـراد موريـزي يلعـب كـرة القـدم. بوغـي قـاسٍ، وذكـي جـداً».

«إنهـا النهايـة. انتهـى الأمـر! لـم يعـد الأمـر يضايقنـي. أضـف إلـى ذلـك أنهـم قسـاة جـداً، وحمقـى وضيعيـن. عدنـي بـأن تدعهـم وشـأنهم».

«لا تقلقـي». أبقـى لاروز صوتـه خافتـاً، ومتواضعـاً. «تعرفيـن أنني أتـدرب مع الأب ترافيس، وقـد حصلت على حزامـي الأخضـر الآن».

«يا إلهي، لا تحاول فعل أي شيء!».

«صه!».

يختفي.

اصطحب بيتر نولا إلى وظيفته في سينكس، وبدأت العمل بجانبه بضعة أيام في الأسبوع. تولّت أمر الصندوق، وملء الرفوف والثلاجات بالبضاعة، وحافظت على نظافة الحمامات. لم يكن هناك غرض واحد في غير مكانه، وكل اللصاقات ظاهرة للعيان. لمعت آلة تحضير القهوة مثل مذبح. أثناء عملها، تبدّدت حصّة نولا اليومية من الأسى إلى آلاف القطع الصغيرة، أكواب إبريق القشدة، تغليف قصبات الشرب، وتعديل وضعية قطع الحلوى، والعناية بآلة العصير وصينية عرض الكعك المحلّى. حدّقت وقتاً طويلاً أحياناً إلى مشواة السجق، التي تتحرّك باستمرار، حتى تلمع قطرات ذهبية من الدهن على فطائر لحم العجل. قرأت في أحيان أخرى المكوّنات الموجودة في أكياس الوجبات الخفيفة. عندما عدّت مكاشط الجليد أو استبدلت مقياس ضغط الإطارات أو أمعنت النظر إلى مكان المجلات، بدا أن ترتيب تلك الأشياء الصغيرة في الحياة يجعلها تسيطر على نفسها، ربما على مستوى جزيئي على الأقل؛ لأنها قد جُبلت بكل تلك الخردة، أليس كذلك؟ شرائح اللحم، التي مضغتها في السيارة في رحلة العودة إلى المنزل، والأكواب الرقيقة المصنوعة من مواد كيميائية والمملوءة حليب بالفانيلا من آلة تحضيرٍ خاصةٍ بها. تسكب لنفسها كمية كبيرة في كوب ضخم كل صباح وترتشف منه طوال اليوم، يصير المذاق تفهاً، والحموضة الجافة واضحة.

ثـم بـدأ بيتـر يشـرب الحليـب مـن محطـة الوقـود أيضـاً. ضحـكا معـاً مـن تعوّدهمـا علـى ذلـك الشـراب. خرجـت الضحكـة مـن حلـق نـولا، قاسـية وفظّـة، وتلاشـت حيـن ارتطمـت بصـدر بيتـر. رأتهـا نـولا، ووضعـت رأسـها فـي تلـك الليلـة هنـاك وأغلقـت عينيهـا.

* * *

كان وابـل بـارد ينهمـر، لكـن مـن دون حـدوث صقيـع أو سـقوط ثلـج بعـد. ضربـت قطـرات كبيـرة وجـه نـولا أثنـاء عودتهـا إلـى المنـزل بعـد ظهـر أحـد الأيـام. كان لاروز فـي الأعلى، وبـاب غرفتـه مفتـوح قليـلاً. عندما مشـت نـولا بجانب البـاب سـمعته يتكلـم، أو بالأحـرى يجـري حديثـاً. كان يتكلـم غالبـاً أثنـاء اللعـب فـي عالـم الشـخصيات الشـهيرة، ويسـتخدم ليغـو، وقطعـاً مكعّبـة، ومغانـط، ومجموعـة أدوات رياضيـة، وتينكرتويـز، وبراغـي مهملـة وقطعـاً معدنيـة غريبـة، وحتـى علـب زبـدة وبسـكويت، لتشـييد قلعـة معقّـدة الشـكل. كان أفـراد تحالفـاتٍ يغيّرهـا ويبدّلهـا بيديـه يهاجمـون، أو يدافعـون، عـن ذلـك الصـرح السـحري حيـن يلعـب بتلـك المخلوقـات البلاسـتيكية التـي قـد وجدهـا فـي دلـو دمـى دسـتي أو تـم إهداؤهـا إليـه. تيتراهلمـون، فونتـرو، غريـن مينيـس، لايتيننـغ، مـودر، سـيكر، ماكسـميليونز، وارثـوج، سـيميترون، إكـس أور، تـور، هيكـي، وماسـتر.

كان خجـولاً بشـأن ألعابـه، ولا يلعـب أبـداً بوجـود النـاس حولـه، ويغلـق البـاب عـادة بإحـكام، ويتكلـم بهمـس أحيانـاً.

لكن لاروز بدا منشغلاً تماماً في ذلك اليوم بالدراما المبتكرة أمامه، ولم يسمع نولا تقترب، أو يشعر بها تصغي إليه.

«دعونا نوحّد جهودنا ونتغلّب على الديناصور».

«لا يمكن أن ترغمني على هذا!».

«أكرّر».

«مركب البلازما يحمينا. نحن بأمان».

«أخرج إكس أور! بسرعة! إنه يضعف!».

«وضعه تريكيراتوس بين فكّيه!».

«حركة جيدة يا هيكي. أحبها ماستر».

«لا تستخدم تلك الدمية يا دستي».

«فقد قواه بالأمس، ويتعافى في حجرته».

«سيوقف غرين مينيس الغزو!».

«لقد بدأت الدورة، وينبغي أن نكمل الكون».

«ماكسميليونز، خذ ماكسميليونز».

«نعم، أنت سيكر. اضغط على مفتاح الاختبار».

«ثم انفجارات الفم. بخخخخخ! زيززززز! والاشتباك الصامت للبلاستيك المقولب».

استندت نولا إلى الجدار بجانب الباب المفتوح. كان وجهها هادئاً، وعيناها حزينتين، وقد تحركت شفتاها ببطء؛ كأنها تكرّر اسماً أو ابتهالاً.

سمعت كل شيء، وبدا ذلك قتالاً ملحمياً بين النور والظلام، وأشكال تنتقل عبر مادة الوقت، وشخصيات تخرّب المكان. الاحتشاد وإعادة التجمّع، وأشكال مخلوقات مجهولة تندمج تماماً مع تلك المعروفة. اندماج عوالم ببعضها، وانهيار الأبعاد كما نعرفها، وفَتيَان يلعبان.

في اليوم التالي، رشّت نولا بنزيناً على خشب عفن وبيانات ضريبية وحسابات مصرفية تحتفظ بها منذ عشرة أعوام ووضعتها آنذاك في حفرة لتحرقها. كان نهاراً مشمساً، ومعتدلاً، وهادئاً. رمت ورقة مشتعلة في الحفرة، وراقبت النار تحرق ما فيها. عندما استعر اللهيب، دفعت الكرسي الأخضر إليها.

قالت بصوتٍ عالٍ: «انتهى كل ذلك».

كلما بقيت بمفردها، ملأت الدموع عينيها. لم يساعدها أي دواء، وحتى لاروز لم يكن مفيداً في البداية. لكن بعد الاستماع إليه يلعب مع دستي بالأمس، استيقظت ذلك الصباح وخرجت من السرير قبل أن تعرف أنها ستفعل ذلك. لم تكن تشعر بذلك الكرب الذي يجعلها تلزم فراشها، ويثقل كاهلها عادة. اضطربت ذاتها القديمة في وقت لاحق من ذلك الصباح، ثم عدّل شيء غير معروف، داخلي، نفسه. شعرت بأنها لم تعد وحيدة؛ كأن العالمين الداخلي والخارجي قد تراصفا، خاصة بعد سماع ما تفعله شخصيات الألعاب تلك؛ لأن الصلة بين الحقائق، في عالمي الأحياء والموتى، بدت واضحة للجميع. كان ذلك العبور موجوداً فعلاً، وقد ذهب

لاروز إلى هناك أيضاً. لم تكن مجنونة بالمحصلة، وإنما أكثر وعياً لما يجري حولها، مثل لاروز تماماً، ومثل كل شخص يقول ذلك. كان أمراً مميزاً. بدا أنه يقوم بشيء جيد من أجلها حين يلعب مع ابنها من المملكة الأخرى.

برزت خططٌ في ذهنها. ستجلب دجاجاً أفضل مما لديها، ولن يقتصر الأمر على النوع العادي القديم. ستكون من أنواع باريد روك، ووايندوت، وأوربنغتون، وبعض الدجاج البولندي ذي الرأس المغطّى بالريش. ستجعل الحديقة أكبر، وأفضل. كان لديهم أصلاً ذلك الكلب البشع الذي لا يتركها وشأنها، وحصان عجوز جميل. هناك ورود، وشجيرات، وحيوانات، وكلها جيدة آنذاك، ونحل بعد أن صار النحيل مفيداً، ومعالف للطيور. فكّرت في الإمساك بقطط برية، ولكن ماذا ستفعل بها بعد ذلك؟ لا. ستدعها تصطاد الفئران، وإبقاء الحظيرة بأمان. بقرة، وربما اثنتان، للحليب فقط. كانت تكره الأغنام. لا نعاج ولا ماعز. أرانب، ربما، في أقفاص خاصة بها، وستفترض أن بيتر سيمسك واحداً بين الفينة والأخرى ويذبحه لتحضير العشاء. ستجعله يسلخه أيضاً، ويقطعه إلى أجزاء صغيرة. ستقليه، بالتأكيد، ولكن مهلاً، عيناه! عينان كبيرتان وذابلتان! هذا كثير جداً عليها؛ كثير وسابق لأوانه. إذا استطاعت أكل أرنب، ستأكل قطاً. إذا كان بمقدورك أكل قط، يمكن أن تأكل كلباً. هكذا تجري الأمور، واحداً بعد الآخر. لا، ستجلب دجاجاً فقط، كما فكّرت أثناء تحديقها إلى ألسنة اللهب. بدا أن ذلك هو كل الموت الذي يمكن أن تتحمّله.

نصحت نفسها أن تتريّث قليلاً، إذ بات لديها وقت تعيشه آنذاك. نظرت حولها، وخلفها، ونحو الأحراج.

همست: «هل ترى؟ لقد أحرقت الكرسي».

الدعاء بالخير

التهنئة والمباركة ... الدعاء بالخير ... ويلوياهي، ويناهي. تزخر الأوجيبوا بكلمات لوصف كل شيء. كانت تلك هي أغنية روميو لفتح الأقفال. غنّى بصوت منخفض أثناء محاولة فتح خزانة ملفات في المستشفى بمشبك أوراق.

فكّر أن ذلك رائع حقاً، وأن مثل تلك المعلومات القيمة تعدُّ آمنة لدى حمايتها بقفل رخيص الثمن يمكن فتحه بسهولة، أو يستطيع العثور على مفتاح له إن أراد ذلك، أو كسره بواسطة منشار. لكن لديه وقت ورغبة لفتح ذلك القفل، حتى لا يلحظ أحد ما فعله.

عبث روميو طوال عشر دقائق كاملة بالجزء الداخلي للقفل، ودندن وهمس بأغنيته الخاصة بفتح الأقفال حتى تمكن من الإمساك بالمزلاج وتحريك قطعة ميكانيكية بداخله.

قلّب بإصبعه الخبيرة الملفات داخل الخزانة وأخرج نسخة من ملفٍ سيكون الحصول عليه صعباً بخلاف ذلك؛ لأن الأصلي موجود على الأغلب في مقر الشرطة القبلية، الذي لا يستطيع دخولها إلا في حال توقيفه. بدت تلك الثقة التي اكتسبها من تعافيه من الكحول غريبة حتى عليه. فكّر أن الجميع يحبون تلك الأمور المتعلّقة بالتعافي،

أثناء إخراج الورقة التي يحتاج إليها وإعادة الملف إلى مكانه تحسباً لقيام أحد بإلقاء نظرة عليه، على الرغم من أن أحداً لن يفعل ذلك؛ لأنه يتعلّق بقضية مأساوية جرى فتح تحقيق بشأنها وإغلاقه بعد ذلك.

وضع الوثيقة في كيس قماشي أسود رقيق، وهو شيء مجاني أيضاً قد حصل عليه من مؤتمر أمن القبيلة، حيث شاهد ضباط شرطة يستخدمون أدوات من وزارة الأمن الوطني لتكبيل بعضهم بالأصفاد على الأرض. كان في العلبة عشرة أكياس مغلقة من شرائح المعكرونة منتهية الصلاحية، من النوع تَفِهَ الطعم. حصل أيضاً على ثلاث علب لبن بنكهة العنبية من ثلاجة الموظفين في المستشفى. توجّه روميو إلى المدرسة الكاثوليكية بحثاً عن بقايا طعام الغداء، حالفه الحظ هناك. إذا استطاع العثور على مصدرٍ للبروتين لإكمال المعكرونة، وربما جزرة ذابلة أو اثنتين، سيحضّر حساء شهياً. ستكون بصلة واحدة إضافةً مرحباً بها!

يجلب روميو بعض شرائح الخيار الذابلة وفتات الدجاج المطبوخ والجاف، الذي سيجعله الحساء طرياً. لم يكن هناك خطأ بشأن الخيار المسلوق. يعود إلى المنزل، ويشغّل تلفازه وموقد الطهي. يشعر بالارتياح في بيته، ويغسل الطنجرة الصغيرة في مغسلة الحمام. يفتح ثلاث علب من شرائح المعكرونة، ويغمرها بالماء ويضيف إليها بعض التوابل، ويقشّر الخيار، ثم يقطعه بالاستناد إلى إبهامه. خلفه، تركّز «سي إن إن» كما يبدو على الكعكة الصفراء.

يغني:

كعكة صفراء

ويوهيوه ويوهيوه

كعكة صفراء

كعكة صفراء

اجعلي أسنان الحلويات تؤلمني.

ثـم يتذكّـر كل الكعـكات الصفـراء التـي قـد التهمهـا فـي ولائـم الجنـازات، مـع تلـك الطبقـة الرقيقـة مـن الشـوكولاتة فـي دوائـر رفيعـة دائمـاً، مـا جعلـه يرغـب فـي الحصـول علـى واحـدة. يجلـس أمـام التلفـاز، وتعـود بـه الذاكـرة إلـى الأيـام التـي ذهـب فيهـا لزيـارة السـيدة بيس قبـل وقـت طويـل، وتناولـه قطعـاً مـن الكعـك مـن يـدي إيمالايـن الصغيـرة. لـو أنـه أعلـن حبـه لهـا مـرةً واحـدةً حيـن كبـرا، هـل كان ذلـك سيشـكّل فرقـاً؟ هـل كانـت ستخرج معـه، لا مـع لانـدرو؟ ازداد بُعدهـا عنـه كل عـام، خاصـة ضمـن عصبتهمـا. لـم يكـن يهتـم بأمـر القبيلـة، آنـذاك، فيمـا يخـص أمـر العلاقـة مـع النسـاء، وظـنَّ أن الابتعـاد عنهـن أفضـل لـه. قهقهـة. لقـد تعلّـم كلمـة قهقهـة فـي العمـل. حظـي بفرصـة فـي الأيـام الخوالـي، حيـن كان يعـدُّ ذكيـاً، أثنـاء انتقـال الكعـك علـى طبـق صغيـر مزيّـن بالـورود مـن يديهـا إلـى يديـه. لا يـزال يتـذوّق الطعـم، وتذكّـر تلـك المغرفـة الذائبـة مـن الفانيـلا التـي تندمـج مـع قطعـة الحلويـات. يحـب الإحسـاس بتشـرّب محبّتهـا إلـى قلبـه المسـامي. ليـس شـخصاً مرموقـاً، ولكنـه يعيـش فقـط علـى تلـك الذكـرى الجميلـة.

يفكّر فجأة أثناء التحديق إلى جدار التحرّي أنه ينبغي ألا يكتفي بما حدث مع لاندرو، وإنما يجب أن يفعل المزيد، وربما ينجز شيئاً ملموساً. أنا لست مجرد منبوذ لا قيمة له، وينبغي أن يعرف الناس هذا.

هسّت شرائح المعكرونة، وغلت المياه. شغل روميو نفسه بإنقاذ عشائه. جهّز ملعقته، التي كانت ملعقة طهي معدنية ثقيلة وقديمة من المدرسة الحكومية. استخدم خرقة لحمل الطنجرة، وأبعد الحساء عن النار ووضعه على منشفة مطوية على الأرض بجانب كرسيه. ركّز روميو اهتمامه على الأخبار بانتظار أن يبرد الحساء، واكتشف أنها تعرض المزيد عن يورانيوم الكعكة الصفراء. أي إيطالي؟ استخبارات عسكرية. ماذا؟ بدا واضحاً أن صدّام اشترى كمية من اليورانيوم من النيجر، ولم يعد هناك شيء يمكن إخفاؤه، إذ إن مسحوق الكعكة الصفراء يستخدم في صناعة الأسلحة النووية. ثم ظهر ماكين، فأعاد روميو الملعقة إلى مكانها. يقول ماكين إن صدّام خطر واضح وداهم، وإن سعيه للحصول على أسلحة الدمار الشامل يبدّد أي شك لديه بأن الرئيس العراقي يمكن أن يستخدمها.

أومأ روميو وبدأ تناول شرائح المعكرونة أثناء استماعه إلى تلك الكلمات. لقد عانى ماكين ونجا، وهو يعرف ما يتكلم عنه. يحب روميو نطق ذلك الاسم، راعي البقر. لن يضع ماكين الشباب الأمريكيين على طريق الأذى من دون سبب وجيه. أمال روميو الطنجرة الدافئة، وشرب الرواسب الباقية في الحساء.

يبقى الملف الذي حصل عليه بمشقّة في كيس مؤتمر الأمن القبلي، ويتذكّره روميو قبل أن يغفو ويراوده حلم ما. يسحب الكيس إلى فراشه ويشعل المصباح بجانب السرير. يخرج الورقة ويلقي نظرة إلى تقرير المحقق عن الحادثة التي وقعت قبل ثلاثة أعوام تقريباً، على بعد عشرات الأمتار فقط من خط الحدود داخل المحمية. يزيغ بصره، ويستطيع بالكاد تمييز الحروف. يعرف ما يعنيه ذلك على كل حال، ويعرف ما جرى من الأحاديث التي قد ثبّتها في قصاصات على لوحه، ويمكنه رؤية ما حدث، إن أراد ذلك، في ذهنه. لكن لا يرغب في ذلك، ومَن قد يرغب؟ يدفع جانباً الوثيقة، والكيس الأسود، والمسؤولية التي قد ألقاها على عاتقه. يبتعد عن حقيقة أن بلاده تكاد تخوض حرباً. ثم فجأة، يفهم الأمر أثناء غفوة قبل أن يراوده أي حلم.

هناك شيء لا يجرؤون على قوله، ويبدو مثل شريان سباتي لا فخذ، ويتضمن أكثر من تلك الأنفاق والكعكات. كوندوليزا، عيناها تلمعان حين تقول كلمة رقص؛ كأنها تعني الرقص مع الإرهابيين. صورة صدام يرقص أثناء تدمير البرجين التوأمين. يعرفون شيئاً لا يخبرونه للعامة؛ لأنهم لا يريدون نشر الذعر. يعرف ماكين حقيقة الأمر، وهو يظنُّ بالتأكيد أن البرجين مجرد بداية. توجد حقيقة دامغة خلف كل الأجزاء الصغيرة من الحقيقة المزعومة، التي قد تؤدي إلى انهيار سوق الأسهم. لكن ماذا إن كانت هذه الحقيقة مجرد فقاعة؟ ماذا إن لم يكن هناك شيء باستثناء الغرور أو المال أو غرض دنيوي خلف الحقيقة؟

يستطيع روميو رؤية الفوضى التي تحدث حين تكون السلع من كل الأنواع سيئة ويضطر الناس إلى استخدامها بسرعة، في المقصف كمية غريبة من الكرفس وكثير من الحلوى، في العيادة أدوية مفيدة جداً ولكن تفقد قوتها بعد شهر معين. ماذا إن؟

ماذا إن كان هناك تاريخ صلاحية على كومة من الأغراض الخاصة بالحرب؟

الانفصال

يضع الأب ترافيس رأسه على وسادة محشوة ببولستر قاسٍ في سريره المفرد، ويحاول أن ينام، تحت بيندلتون صوفي، وبطانية تشيف جوزيف فيروزية اللون، التي حصل عليها من أسرة آيرون حين بارك عهود زواج لاندرو وإيمالاين، ولكنه يستسلم. يفتح عينيه ويحدّق إلى الظلمة الحالكة التي يبدو أنها ترتفع وتنخفض في الغرفة.

يحاول أن يصلّي من دون زخارف سلطوية، أو خطوط تواصل خاصة مع الرب. لقد تعرّف إلى أوصاف عديدة لربه وينبغي عليه أن يبحث جيداً في القائمة ليعثر على المطلوب. أولاً، هناك حامي طفولته، الرب الرحيم. ثم هناك مساحة خاوية لم يفكّر فيها بالرب، حين درّب جسده على خدمة بلاده. فكّر مجدداً بالرب على أنه قوة مهيبة مجهولة سمحت لقنبلة بالقضاء على حياة أصدقائه، ولكن

منحت شاباً يافعاً قوةً كبيرة لإنقاذ ترافيس. بعد ذلك، كان هناك الرب الذي تكلم في إحدى الليالي عن الرحمة، وخلق الكائنات من ماء، وإشعاع التنوير. تلقى دعوة إلى مؤتمر حضره الخالدون، الذين تكلموا إليه وزيّنوا ذراعيه بشرائط ملونة. أزَّ القرمزي والأزرق وتمزّق الأصفر، وظهر بريق في الغرفة. ذلك هو الألم في ألمانيا الغربية. لكنه كان في مكان آخر، من وقت إلى آخر، يشاهد جسداً مألوفاً على ملاءات بيضاء. أوه، لا بد أنك قس. بدا واثقاً أنه قد سمع تلك الكلمات من فم إله، في المستشفى، ولكن أدرك لاحقاً أن والدته ربما قالت هذا أثناء صلاتها بجانبه قبل أن يعود إلى الحياة، وقبل أن يشعر بألم مبرّح رتيب وممل ويومي.

هل هناك إله بولندي؟ إله السجق والفطائر. إله باطني، ومتبصّر، ويسكن الأرض، ويتولّى الأمور دائماً بالطريقة الصعبة. إله والديه، اللذين قد تركاه معه بعد وقت قصير من تعيينه قساً. بعد أن شاهداه يعود إلى الحياة، شعرا أنهما يمكن أن يرحلا آنذاك، كما خمّن؛ لأنهما أصيبا بسكتة دماغية وداء عضال، وغادرا هذا العالم.

يقول لنفسه مجدداً إنه يجب أن يتوقف عن اختلاق آلهة، وأن يتخيّلها كما يتخيل إنسان إلهاً. وجّه صلواتك إلى العدم، أو إلى قوةٍ مادية، أو مجرّدة، أو حيادية؛ قوةٍ سامية مفيدة على الدوام. تكلم إلى قوة لا سبيل إلى معرفتها، الخالق المقدّس لكل أشكال الحياة. يغفو الأب

ترافيس أخيراً أثناء تفكيره بكل الأشجار، وكل الطيور، وكل الجبال، وكل الأنهار، وكل البحار، وكل المحبة، وكل الآلهة، وكل أزهار البراعم التي تسقط حين تهب الريح، ثم غبار العالم يرتفع في دوامة ويسقط على الأرض، والسكون على المياه قبل أن يبدأ ذلك كله.

يفزع الأب ترافيس، ويتقلّب في سريره، ثم يضع رأسه بين يديه.

يظنُّ أن الأمر انتهى.

في الصباح، سيتلقى مكالمة من الموقر فلوريان سورينو، نيافة الأسقف سورينو، الذي سيخبر الأب ترافيس ما يعرفه أصلاً.

* * *

لا يزال الأربعة المخيفون يلتقون، ولكنهم باتوا مخيفين حقاً آنذاك. يجتمعون في مرأب تايلر، ولديهم غيتار كهربائي آخر للمنافسة مع الآلة القديمة. صار صخبهم أعلى، وهم يدخّنون أعشاباً، ويشربون الجعة، ويتشاطرون لفائف التبغ، ويتحدثون. لديهم حبيبات، ولكن خليلة بوغي فقط تسمح له بفعل كل ما يريد. يخبرهم كل شيء عن ذلك، في حين يحتفظ الفتية الآخرون بقصصهم في رؤوسهم. لم ينسوا ماجي، ولكن الأمر بات مختلفاً معها. لقد تغلّبت عليهم! كانوا يحترمونها في ذلك الوقت. عندما يفكّرون بشأنها الآن، سيرغبون بالتفوق عليها، وإظهار ما

لديهم. صاروا كباراً في حين بقيت صغيرة، وفقاً لذلك المعيار. لكنها متقلّبة المزاج وسريعة، وباتت ركلاتها آنذاك نوعاً من الأسطورة. سيكون على بوغي الخضوع لعملية جراحية، وقد فكّر والداه في إرسال فواتير الطبيب إلى بيتر ونولا رافيتش. لكن بوغي لم يرغب في أن يعرف الجميع ما حدث. أيضاً، باتت أسرة ماجي مرتبطة آنذاك مع آل آيرون من المحمية، ولدى ماجي أختان هنديتان خطيرتان هما جوزيت وسنو. صار الأربعة المخيفون أكثر وعياً. نعم، تذهب هؤلاء الفتيات إلى مدرسة أخرى، ولكن يستطعن المجيء مع حشدٍ منهم، والتربّص بهم في كمين، ولن تكون تلك مشكلة، ولكن هناك الإخوة الأكبر سناً، كوتشي والآخر الذي يعمل في البناء، هوليس قوي البنية. فكّر بومر في الأمر، وأدرك أن ماجي خارج متناول أيديهم إلا إن فعلوا شيئاً بهذا الشأن. لم يتكلموا عنها إلا في بعض الأوقات، بأصوات خافتة، متسائلين إن كانت قد أخبرت أحداً عمّا قد فعلوه.

«لم يتجاوز الأمر الحد، على كل حال».

«لا شيء مهماً حقاً. لم نتجاوز، كما تعرف، الحد هناك».

«بالتأكيد. لم يتم تجاوز الحد، أليس كذلك؟».

«يا رجل، نحن بالكاد لمسناها. لقد جُنّت من دون سبب وجيه!».

«هـل يمكـن أن تتوقفـوا عـن هـذا أيهـا الشـباب؟ حـدث ذلـك منـذ وقـت طويـل. لا أحـد يتذكّـر، ولا أحـد يهتـم».

يقـول بوغـي: «علـى كل حـال، هـي أرادت ذلـك ولا تـزال تريـده».

يلتـزم الفتيـة الآخـرون الصمـت، مسـتغرقين فـي التفكيـر فـي هـذه الجملـة الأخيـرة. يومئـون جميعـاً، باسـتثناء بـراد، الـذي يحـدّق إلـى الخـواء؛ كأنـه لا يسـمعهم. لقـد سـمع بالتأكيـد مـا قالـوه، ولكنـه مسـيحي، ولا يبـدو ذلـك ملائمـاً علـى الإطـلاق.

«صـد. لكمـة. ركلـة جانبيـة. طعنـة سـكين. صـد. ركلـة، ضربـة. ركلـة سـريعة. صـد. صـد». تفكّـر إيمالايـن أنـه فتـى مسـكين؛ لأن لاروز ورث أنـف لانـدرو تمامـاً، الـذي يبـدو ملائمـاً لراشـد لكنـه كبيـر جـداً علـى وجـه ولـد. مـع ذلـك يبقـى فتـى وسـيماً. وتلـك الرمـوش، مـن لانـدرو أيضـاً، ولكنهـا فـي غيـر محلهـا مجـدداً. حاجبـان معبّـران. ينبغـي ألا تضـع شـقيقتاه مسـتحضرات تجميـل علـى وجهـه، ولكنهمـا تفعـلان ذلـك. كبـر عامـاً ولـن يسـمح لهمـا بهـذا. ربمـا ينبغـي أن توقفهمـا إيمالايـن الآن.

يقف الأب ترافيس بجانبها، وتنهض عن كرسيها.

لـم يكـن سـيتحدث عـن الأمـر، وإنمـا سـيدلي بإعـلان بسـيط. قـدّاس الأحـد القـادم، أو الـذي يليـه. لكـن

«سيتم نقلي».

«سترحل».

«نعم».

بصرها ثابت تماماً عليه.

«متى؟».

«سأساعد القس الآتي بضعة شهور. سأغادر بعد ذلك».

«أين؟».

«لا أعرف تحديداً بعد».

يضحك بصعوبة، ويتمتم شيئاً عن نوع جديد من العمل.

تستدير إيمالاين بعيداً عنه، وعندما تواجهه مجدداً، يتوتّر الأب ترافيس حين يرى أنها قد تبكي. بدا صعباً تحديد ذلك؛ لأنها تتكلم في الوقت نفسه الذي تترقرق فيه دموعها وتتلاشى من دون أن تسيل خارج عينيها. يعرف الأب ترافيس أن إيمالاين لا تبكي إلا نادراً. عندما بكت في ذلك اليوم الفظيع في مكتبه، بدا أن روحاً دخيلةً عليها تتسلّل بهدوء منها، وأن نشيج لاندرو ودموعه تحجبها عنه. تحاول أن تتكلم ولكن الكلمات تخرج من دون ترابط، ما يجعله يفقد توازنه. بدت منطقية دائماً سابقاً حتى أثناء انفعالها. تبعد إيمالاين شعرها عن وجهها، وتحرّك حاجبيها، وتعض شفتيها، وتحاول كبت الكلمات، من ثم تتفوه هراء. يصغي الأب ترافيس باهتمام، محاولاً أن يفهم، ولكنه متأثر بمشاعرها. تتوقف.

«أنا أهذر! أعاني مشكلة في فهم هذا. كنت دائماً هنا، وقد فعلت الكثير. القساوسة يفرّون من هنا، ولكن أنت بقيت، والناس يحبوّنك ...».

تنظر إلى الأسفل نحو المناديل المكوّرة في يدها، ولا تعرف كيف انتقلت الكتلة من محفظتها إلى هناك، وتشعر بالدهشة من موجة اللغة تلك التي تدفقت منها، ومما تقوله فعلاً؟

«ماذا قُلتْ؟».

يقول الأب ترافيس: «لا أعرف، ولكنني وقعت في حبك».

تجلس من دون حراك على الكرسي البلاستيكي.

خلفهما، لا يزال لاروز يؤدي تمريناته، ويلكم الهواء بقوة متزايدة، لذا لا يسمع شيئاً. يختفي كل شخص آخر غيرهما، ولا أحد يرى القس يجثو أمامها، ويقدم لها الوشاح الأبيض الكبير الذي يحتفظ به لحالات الطوارئ خارج مكتبه. تضع إيمالاين قطعة القماش المربعة البيضاء على وجهها، وترفعها إلى صدغيها، وتبكي تحتها. ليس هناك شك الآن. هي تبكي حقاً تحت الوشاح. ينتظر الأب ترافيس إشارة ما، وهذا ما بدأ فعله حين كان جندياً. هذا ما يفعله منذ صار قساً. يجثو، وينتظر إشارة، التي تأتي إليه تلقائياً الآن وبالكاد يميّزها. يركّز على ألا يتراجع أو يعتذر عمّا قاله تواً. يترك الأمر كله بيد إيمالاين.

تقول إيمالاين من تحت قطعة القماش: «هذا ليس منصفاً».

لا يزال لاروز يقاتل أعداء غير مرئيين، ويركل كيس التدريب بقوة تجعله يتحرّك ويدور. هذه من أجل تايلر، ثم كورتينز بيس، وركلة قاسية أخرى ضد براد. يدور لاروز ليركل بوغي، ويتراجعون إلى الخلف من قوة هجومه. يسقطون ذاهلين،

يتكـورون ألمـاً علـى البسـاط، ويحاولـون أن يتلمّسـوا طريقهـم بعيـداً عنـه. يتسلّل شـخص مـا مـن الخلف، ولكـن لاروز يسـتطيع أن يـرى وراءه! ضـرب. ركل. تنطفـئ الأنـوار.

* * *

كيـف يكتشـف فتـى يبلـغ مـن العمـر ثمانيـة أعـوام المـكان الـذي يقضـي فيـه طـلاب المدرسـة الثانويـة وقتهـم؟ البيـض؟ فـي بلـدة خـارج المحميـة؟ هنـاك طريـق عـام طويـل بينهـم، والوصـول إليهـم مرهـق مثـل اجتيـاز وادٍ عميـق. يسـأل غوتشـي، ولكـن شـقيقه لا يعـرف مـن هـم علـى الإطـلاق. يسـأل جوزيـت، ولكـن لا تهتـم حتـى بالـرد عليـه. أو، هـل هنـاك سـبب مـا يجعلهـا ترفـع حاجبيهـا؟ يفعـل سـنو الأمـر نفسـه. يرفعـان حواجبهمـا معـاً، ويحدّقـان إليـه بطريقـة مخيفـة؛ كأنهمـا قـد تجمّـدا، حتـى يخـرج مـن الغرفـة.

يسأل هوليس.

«هؤلاء الحمقى؟ لماذا؟».

ليس لدى لاروز إجابة.

«هل فعل أحد هؤلاء الفتية شيئاً لك؟».

«لا».

«يبدو أن شيئاً قد حدث».

«لا».

«هيا تكلم، يمكن أن تخبرني».

«لم يحدث شيء».

«لماذا تسأل إذاً؟».

«تساءلت فحسب».

«لا بأس، لم يحدث شيء إذاً. ليس هناك شيء ينبغي أن تعرفه عن هؤلاء الفتية باستثناء أن عليك تفاديهم».

«بالتأكيد».

«هذا ما أعنيه تماماً». يراقب هوليس لاروز عن كثب حين يخرج من غرفة نومهما. يبدو غريباً أن يسأل فتى صغير عن هؤلاء الفتية، عن كورتينز ذلك الأحمق الذي حاول استدراج سنو حين طلب منها أن تخرج معه في نزهة في شاحنته الصدئة. أو بوغي ذلك اللئيم الكاره للهنود الذي مشى بجانب وايلون بعد أن هزموا فريق بلوتو في كرة القدم ووصفه بالأخرق، فضحك وايلون وضربه بقوة، ما جعل بوغي يصرخ طلباً للعون من أصدقائه، ويقول: «إنه يسلخ فروة رأسي! ذلك الأحمق يسلخ فروة رأسي!»، ولأنه قد يقتل بوغي ويذهب إلى السجن، تركه وايلون يذهب في حال سبيله وركب سيارته.

إلى آخر القائمة. كان تايلر، أو ربما بوغي، أحد هؤلاء الفتيان الذين نعتوا جوزيت مرة بأنها هندية حمراء، ما جعلها تنوي قتله، أو قتلهما، أو أياً منهما، ولكن هوليس يريد فعل ذلك أولاً.

* * *

كان صدُّ الكرة أو استعادتها من أي مكان يتعلّق بطريقة القفز، وأمراً حاسماً إن لم تكوني طويلة.

هذا ما قاله المدرب ديوك لماجي.

خارج الحظيرة، خطّط بيتر إحدى دعامات الإسطبل بالطباشير. في البداية، تعلّق الأمر بالارتفاع الذي يمكنها القفز إليه، ومد ذراعيها إلى الأعلى، ووصول أصابعها فوق شبكة خيالية ببضع بوصات. لكن استطاعت تحقيق تقدّم ضئيل كل أسبوع، وقد لاحظ المدرب ديوك ذلك.

قال بعد التدريب: «مرحباً رافيتش، تعالي إلى هنا. لقد تطاولت قفزتك بضع بوصات. هل تتمرنين؟».

أخبرته عن العمود المخطّط بالطباشير. أعطاها تعليمات بشأن تدريبات القفز.

أرته طريقة الجثو، والقفز، والتقدم خطوة للوثب، وحركة ضرب الكرة اللولبية المفضّلة لديه. خفق قلب المدرب ديوك انفعالاً، وقد أعجبه أن تعمل الفتيات على تحسين مهاراتهن. شعر المدرب ديوك بسعادة غامرة؛ لأن ماجي وضعت تلك الأهداف الشخصية نصب عينيها، وحسّنت قفزتها لتعوّض عن الطول، فاتصل بوالديها في تلك الليلة.

ردَّ بيتر، وشعر بمعدته تنكمش حين عرّف المدرب بنفسه، وظنَّ أن ماجي ستُطرد من الفريق. لكن لا، كانت تلك مكالمة رائعة، وأول مكالمة جيدة بشأن ماجي يتلقاها والداها على الإطلاق.

تـم إعفاؤهـا مـن ترتيـب الطاولـة كل ليلـة آنـذاك بعـد المدرسـة. تولّـى بيتـر ولاروز إعـداد المائـدة فـي حيـن تخـرج ماجـي إلـى الحظيـرة لتنفيـذ تمريناتهـا وقفزاتهـا. جلـس الكلـب فـي المدخـل مركّـزاً علـى وثبهـا إلـى الأعلـى. في البدايـة كان صعبـاً عليهـا أن تقفز خمـس دقائـق، ثـم عشـر، ثـم خمـس عشـرة، وعشـرون. حـلَّ الظـلام باكـراً، فأشـعلت ضـوء الحظيـرة ودلّكـت سـاقيها. شـعرت بالبـرد، فارتـدت كنـزة ذات قلنسـوة وسـروالاً رياضيـاً للحفـاظ علـى دفء قدميهـا، حتـى لا تصابـا بتشـنّجات. باتـت عضلاتهـا قويـة ورشـيقة، وقـد بذلـت جهـداً فـي التدريـب، ركـض وقفـز إلـى ارتفـاع وثبتهـا لضـرب الكـرة نحـو الكلـب، الـذي تفـادى الكـرة بهـدوء.

مـرة، عندمـا قفـزت نحـو الكلـب، فكّـرت أنـه إذا كان بحوزتهـا سـكين حـادة كفايـة عنـد ذلـك الارتفـاع الـذي يمكنهـا الوصـول إليـه، يمكـن أن تصـل إلـى الحبـل وتقطعـه. تسـقط والدتهـا وهـي تغرغـر، فتركلهـا ماجـي بيـأس. رأت ماجـي كل ذلـك، ثـم سـمعت نـداء أمهـا.

«أطفئـي ضـوء الحظيـرة، وتعالـي إلـى هنـا. تعالـي الآن يـا ماجـي. حـان وقـت العشـاء، وطعامـك يبـرد».

قصة قديمة 2

قالـت إغناشـيا، بعـد أن أزالـت أول طبقـة مـن الثلـج الرقيـق الغطـاء بيـن الأحيـاء والأمـوات: «ميونزهـا، ميونزهـا»، قبـل وقـت طويـل. حـدث ذلـك قبـل بدايـة الوقـت. فـي تلـك الأيـام،

كان بمقدور كل شيء أن يتكلم وقد امتلك الناس قوى خارقة. في ذلك الوقت، كان هناك رجل يعيش في الغابة مع زوجته وابنيه الصغيرين. عاشوا بهدوء وقناعة، وتدبّروا أمورهم بما تيسّر لديهم. لكن الرجل لاحظ بعد ذلك أنه عندما يستعد للخروج من الكوخ، كانت زوجته ترتدي فستانها الأبيض، وتتزيّن بالريش، وتضع قرطيها العظميين، وكل أشيائها الجميلة. ظنَّ أول مرة أنها تجهّز نفسها له، ولكن عندما عاد حاملاً اللحم على مزلجته، رأى أنها ترتدي ثيابها القديمة مجدداً، ما جعله يشعر بالغيرة. في المرة التالية التي جهّز فيها نفسه للخروج إلى الصيد، ارتدت أفضل ما لديها بالطريقة نفسها. لكنه عاد في تلك المرة، وتوارى عن الأنظار، وعندما تركت ولديهما في الكوخ وخرجت إلى الغابة، بأبهى ملابسها، تبعها في الخفاء.

تتسلّق زوجة هذا الرجل شجرة. يراقبها. تضرب الشجرة ثلاث مرات، فيخرج منها ثعبان، كبير. نعم، ثعبان كبير. تبدأ الزوجة والثعبان التودّد إلى بعضهما في الأعلى. يرى الرجل زوجته والثعبان معاً، ويا للهول، هي تحب الثعبان أكثر مما أحبّت زوجها يوماً.

«لا تتحدّثي بالسوء!».

«أوه، اصمتي يا مالفرن».

عبست المرأتان بوجه بعضهما، وفي النهاية أمالت مالفرين رأسها نحو لاروز، وقامت ببعض الحركات بشفتيها، التي فهمتها إغناشيا.

«انظـري، لاروز هنـا، يريـد الثعبـان والمـرأة أن يمسـكا يـدي بعضهمـا، ولكـن ليس للثعبان أيدٍ. يريـدان أن يقبلا بعضهمـا، ولكن ليـس للثعبـان شـفاه. اضطـرا أن يلتفّـا حـول بعضهمـا فحسـب».

حرّكـت إغناشـيا ذراعيهـا حـول بعضهمـا ليعـرف لاروز كيـف يمكـن أن يحـدث هـذا.

يسأل لاروز: «ما نوع هذه القصة؟».

تقول إغناشيا: «مبجّلة».

«لااااا-بأسسسـس ...». لقـد تعلّـم لاروز نطـق الكلمـة بتشـكيك فتـى في الثامنـة مـن عمـره مـن فتيـان يبلغـون الثامنـة مـن أعمارهـم.

قالـت مالفـرن: «أعـرف هـذه القصـة. إنهـا قصـة مخيفـة، ولا تعـد حكايـة جيـدة يمكـن سـردها لفتـى يافـع».

قالـت إغناشـيا: «ربمـا، لكنهـا قصـة الوجـود. يسـتطيع هـذا الفتـى معرفتهـا، فهـو شـجاع كفايـة».

تابعت سرد القصة.

شـعر الرجـل بغيـرة كبيـرة مـن الثعبـان. ذهـب فـي اليـوم التالـي للصيـد، وعندمـا عـاد أخبـر زوجتـه أنـه قـد قتـل دبـاً، وطلـب منهـا أن تخـرج وتحضـر اللحـم. عندمـا غـادرت، ارتـدى تنـورة وذهـب إلـى حيـث يعيـش الأفعـوان، وضـرب الشـجرة ثـلاث مـرات، فخـرج الثعبـان مـن مكمنـه. طعـن الرجـل الزاحـف برمحـه، وقتلـه. جلـب الثعبـان إلـى كوخـه، وقطعـه إلـى أجـزاء، وحضّـر حسـاء منـه.

«حساء ثعبان؟».

«نعم يا بني».

«هل كانوا يتناولون حساء الثعبان في الأيام الغابرة؟».

عبست النساء العجائز على بعضهن.

قالت إغناشيا إن الأطفال لم تكن لديهم أجهزة تلفاز في الأيام الخوالي. كانوا يصمتون ويستمعون إلى القصص ولا يقاطعونها.

قالت مالفرن إن ذلك سؤالٌ وجيهٌ، وإنها ستردُّ عليه.

قالت: «تناولوا حساء الثعبان تلك المرة فقط».

قال لاروز: «لا بأس. أعني، كان ينبغي أن أسأل، فهذا أمر غير معتاد».

تابعت إغناشيا سرد القصة: «عندما عادت المرأة أخيراً، قالت إنه لا يوجد دب ميت في المكان الذي أخبرها بأن تذهب إليه. لم يكن هناك لحم، أو أي شيء آخر، على الرغم من أنها قد بحثت جيداً. أخبرها زوجها ألا تقلق؛ لأنه قد حضّر الحساء».

قال لاروز: «مهلاً. حضّر حساءً من الثعبان الذي ...».

قالت إغناشيا: «تحبه، نعم».

«هذا مثل ...».

قالت مالفرن: «مغزى القصة».

«هل أكلته؟». حدّق لاروز إليهن، متألماً.

أومأت إغناشيا.

قال لاروز: «أوه، هذا سيئ جداً».

* * *

قال أوتي في السيارة: «هذه ليست حياة طبيعية، ولكنه شيء لا مفر منه».

قال لاندرو: «غسيل الكُلى صعب جداً على الناس، ولكن أنت تتدبّر أمرك جيداً».

«لم أكن لألتزم به لولا باب».

«هي تحبك».

كان لاندرو يعرف أن الناس الذين يعانون مرضاً عضالاً ينكفئون على أنفسهم ويشاهدون التلفاز، أو يتطرّقون إلى الموضوع مباشرة على نحو مفاجئ. كان التعامل مع الكتومين منهم أكثر سهولة من الباقين. لكن أوتي يطرح تلك الأسئلة، ويشعر بسعادة كبيرة تغمره ما جعل ممكناً، تقريباً، إبلاغه الحقيقة.

قال لاندرو: «نحن متحابان. الأمور الجيدة تدوم، بالنسبة إليّ على الأقل».

قال أوتي: «أفهم هذا».

«أنا مثلك يا أوتي. ربما كنت سأستسلم لولاها. لكن الأمر ليس متبادلاً». ضحك، ولكنها كانت ضحكة مهموم.

إيمالايـن لـن تدفـن نفسـها حيـة إذا مـات، وسـتتابع حياتهـا مـن أجـل الأولاد، ومـن أجلهـا أيضـاً. كانـت الأمـور الجيـدة موضـع تسـاؤل كذلـك، فقـد بنـت إيمالايـن جـداراً عاليـاً، كمـا ظـنَّ لانـدرو. تصـوّره فـي مخيّلتـه آجـر ولكـن هنـاك فجـوات علـى الأقـل، وربمـا نوافـذ. مـدّت كلتـا يديهـا عبرهـا أحيانـاً، مفتوحتيـن، وأمسـك لانـدرو بهمـا بسـرعة مـن ذلـك الجانـب المنعـزل. فهـم أن الجـدار لـومٌ عمّـا قـد حـدث، ولـم يفهـم مـا تعنيـه حيـن قالـت إنـه نائـم. كانـت عينـاه مفتوحتيـن، وهـو يقـود السـيارة، ثـم يوقفهـا فـي ممـر أوتـي.

أوصـل لانـدرو أوتـي إلـى المنـزل وجلـس بجانـب النافـذة، حيـث وضعـت بـاب معلفـاً للطيـور. خـرج لانـدرو ومـلأ الوعـاء الفـارغ، وسـمع صـوت الشـتاء فـي صـراخ طيـور القرقـف. بعـد أن ركـب السـيارة، فكّـر فـي حبّتـي الأوكسـيكودون فـي جيبـه، اللتيـن حصـل عليهمـا مـن وصفـة جديـدة لأوتـي. حبتـان فقـط. أخرجهمـا مـن هنـاك، ولكـن لـم يتناولهمـا. قـاد السـيارة إلـى المنـزل. هـل كانـت تلـك ليلـة ينبغـي أن يقـلَّ فيهـا أحـداً إلـى مـكان مـا؟ لا. نـزع حبـة واحـدة مـن غلافهـا، وبلعهـا. واحـدة فقـط، ولا تعـد شـيئاً مهمـاً، وبالـكاد سـتجعله يرتـاح.

تقـاوم وتتحمّـل وتصمـد، وترهـق نفسـك أثنـاء ذلـك. لـم يتنـاول شـيئاً مـن تلـك المـواد طـوال أعـوام، ولكـن أخيـراً، حسـناً، هـذا الصيـف، أدى تدهـور صحـة مرضـاه وقضـاؤه وقتـاً طويـلاً فـي انتظـار لمسـة إيمالايـن إلـى انهيـار معنوياتـه. يعـرف أن ذلـك مجـرد عـذر، وأن عليـه أن يكـون أقـوى. كان قـد أنجـز

طقس درب الصليب في الربيع الماضي، وتساءل عن سبب اهتمامه الكبير بعذاب المسيح؛ لأن يسوع قد عانى من دون وجود مهدئات. رأى إيمالاين تعاني أثناء إنجاب أولادهما من دون مسكّنات. أرادت بعض العقاقير لتخفيف الألم، ولكن الحظ لم يحالفها إلا أثناء ولادة جوزيت. مرتان، لم يكن طبيبا التخدير المؤهلان والموثوقان موجودين في مستشفى مخلّص العالم. لم ترغب في أن تشعر بألم في العمود الفقري، أو إجراء تخدير موضعي فوق الجافية، أو أن تصاب بصداع دائم. قالت إن الألم يطغى على كل شيء آخر من دون تخدير. عندما ذهبت لزيارة صديقاتٍ في قسم الولادة، جعلت رائحة المكان ضغطها يرتفع كثيراً، ويديها ترتعشان. شعرت بدوار، وجلست في مكانها. كانت تلك ذاكرة فعلية. قالت إن الأمر يستحق العناء، كما تؤكد كل النساء دائماً.

ربما ظنَّ يسوع ذلك أيضاً، كما فكّر لاندرو حين مشى نحو المنزل. أو ربما نظر إلى الحمقى البائسين الذين أنقذهم، مثل لاندرو، ولا يستطيعون تحمّل الألم وقال: «لماذا؟».

عقد لاندرو العزم على رمي الحبة الأخرى في المرحاض. سمع صرخات، وعندما دخل عبر الباب، رأى سنو وجوزيت تضربان بعضهما بالأيدي، وتتعاركان. على الأقل لم تكونا تركلان أو تشدّان شعر بعضهما. نزع حذاءه وتدخّل بينهما.

أمسك كل فتاة من معصمها، ولكنهما مدّتا يديهما حوله لتضربا بعضهما. هدأتا أخيراً، وسحبتا ذراعيهما عابستين، ووافقتا على التكلم من زاويتين متقابلتين من الغرفة. مدّت جوزيت شفتها السفلية، وعقدت ذراعيها، وهزّت قدمها. ضمّت سنو ركبتيها نحوها ونظرت إلى أظافرها البرتقالية اللامعة.

قال لاندرو: «ما المشكلة؟».

«تقول سنو إنني أحب هوليس».

قالت سنو: «حسناً، هو يحبك».

«إذاً؟».

«إنه أخي، وهذا شيء مقزّز».

أعادت جوزيت ذراعها إلى الخلف وشدّت قبضتها. كان هناك وجه مرسوم على يدها، وشفتان حيث يلتقي إبهامها مع سبابتها الملتوية، وأنف وعينان أيضاً. رفعت سنو ذراعها وجمعت كفّها على شكل قبضة. ظهر وجه أيضاً على يدها. صكّت أسنانها وبالكاد حرّكت شفتيها.

«ليس هناك حمض نووي مشترك بينكما. ترعرعتما معاً ولا يزال معجباً بك، رأس أشعث، رائحة فم كريهة، ثياب داخلية قديمة رمادية في الغسيل، إنها معجزة».

قالت جوزيت بوقار كبير: «لا أترك إطلاقاً ثيابي الداخلية ليراها الآخرون، وهي ليست رمادية».

قال لاندرو: «توقفا». كان يشعر بدوار خفيف.

استعادت جوزيت رباطة جأشها.

قالت: «أظن أن بمقدورنا أن نتحدث عن هذا مثل راشدين ناضجين؟».

قال لاندرو: «لا يوجد إلا واحد في هذه الغرفة».

قالت جوزيت: «في المقام الأول، أعرف أن هوليس يحبني، لكن الأمر ليس كما تظنين».

قال لاندرو: «سأفقد صوابي».

قالت جوزيت: «لأنني لا أبادله الشعور نفسه. من يعرف، قد أكون مثلية».

قالت سنو: «كأنك تعرفين معنى هذا».

تمتم قلب لاندرو: «مثلية؟».

قالت جوزيت: «أنتم لا تعرفونني حق المعرفة».

قالت سنو: «لا بأس، لا أحد يعرفك. أنت غامضة جداً».

قالت جوزيت لقبضتها المكوّرة: «أنتِ تعرفينني. يمكن أن أخبرك كل شيء!».

قالت قبضتها المتسخة: «أحبك كما أنت».

قال لاندرو: «اخرجا من هنا. أنتما تصيبانني بالجنون. أريد أن أحضّر لنفسي بعض القهوة، وأقرأ صحيفتي».

قفزت جوزيت وسنو معاً، مثل فريق مجدداً: «كما تفعل دائماً! يمكن توقع تصرفاتك. لماذا لا تغير عادتك؟

تشرب الشاي؟ تقرأ مجلة هزلية! هيا يا أبي، يمكن أن تكون مبدعاً!».

عرفتا أن بمقدورهما جعله يضحك، وعندما فعل هاجمتاه، وقفزتا عليه، وتظاهرتا بأنهما سترميانه أرضاً. سقط بملء إرادته، وانكمش مستسلماً لهما، رافعاً يديه في الهواء.

همهمت سنو: «الرحمة! إنه يطلب الرحمة! لا تُظهري أي رحمة»، وبدأت تتظاهر بضربه، ما جعله يتراجع إلى الخلف ممسكاً بطنه، وضاحكاً حتى تركته الفتاتان على الأرض.

«لا بأس يا أبي، حاول أن تتمالك نفسك. اخرج في جولة، أو اقرأ صحيفة مملوءة بإعلانات توظيف، أو شاهد أخباراً مملة. لا تخبرنا فقط عن كل شيء مملّ يحدث في المنطقة. سنذهب لتحضير تلك القهوة التي تحب أن تسرف في تناولها. سنطهو أيضاً. لدينا بعض اللحم لصنع كرات، وشرائح معكرونة، وحساء فطر. ستملأ بطنك».

استرخى لاندرو في كرسيه، وشعر بألم في ظهره من حمل أوتي، ونقله، وغسله، وإعادته إلى مقعده. هدأ الألم، وتباطأت نبضات قلبه. لم يكن يمانع أي شيء آنذاك. كانت تلك أول مرة منذ وقت طويل يتكاسل فيها، ويسمح للفتاتين بمصارعته. شعر بارتياح، وسعادة تقريباً، ولم يكن بحاجة إلى الحبة الأخرى، ولكن بعد أن قدّمت سنو له فنجاناً من القهوة، أحسَّ بأصابعه تُخرجها من جيبه، ثم سقطت من بين أنامله على الأرض. حاول شخص ما أن يسحقها بكعبه، ولكن الكعب كان في جورب والحبة مغلّفة بمادة قاسية، ما جعلها

تقاوم حتى مشى لاندرو إلى المدخل، وجلب حذاءه، وحوّل ذلك الشيء إلى مسحوق. مع ذلك، بقيت كمية بيضاء صغيرة على البلاط، التي يمكنه تنشّقها إذا جثم بوضعية اليوغا، ووضع أنفه على الأرض. لكن كيف سيبدو الأمر للفتاتين، جلس مجدداً وفرك قدمه على المسحوق حتى تلاشى في الأرضية، ما سيجعل الرجل اليائس مضطراً إلى وضع أنفه على الجورب بعد تكويره، وشم بقايا المسحوق بشهيق قوي، وسيكون آمناً، نعم آمناً؛ لأن لاندرو قد نقل هذه العملية إلى مستوى جديد تماماً حتى بالنسبة إلى نفسه.

* * *

أنهى لاروز تدريباته في أحد الأيام. كان قد دوّن أسماء أسر المخيفين، وضيّق نطاق البحث عن مواقعهم المحتملة من سجل هاتفي. كذب مجدداً، وطلب أن يركب السيارة مع بيتر، الذي أوصله إلى بلوتو لزيارة صديق له هناك، ولكن لاروز ترك منزله بعد ساعة. كانت البلدة صغيرة، وبعض المساحات خالية آنذاك من المنازل التي قد انهارت سابقاً، وبدت خاوية على عروشها. لم يكن العثور على بضعة بيوت صعباً بالمحصلة، ولكنه كان يبحث عن المنزل مع المرأب الذي قد وصفته ماجي سابقاً. عندما رأى مرأب فيدار، ونظر إلى الداخل عبر النافذة، عرف أنه المكان المقصود. دخل عبر الباب الجانبي، ولكن لم يجد أحداً هناك، لذا قرّر الانتظار. غطَّ في النوم على الأريكة المكسورة، وعندما فتح عينيه، وجد أن تايلر يهزّه.

سدّد لاروز قبضته نحوه، لقد كان يحلم بذلك.

«أووه!». تراجع تايلر إلى الخلف، مندهشاً، وهو يفرك ذقنه. «لماذا فعلت ذلك؟».

يثب لاروز عن الأريكة. يعرف أنهم جميعاً هناك. يتخيّل حركات يدي ماجي، ويسمع صوت الأب ترافيس في الصف: «زعيق! صراخ!» لبث الذعر في قلب العدو.

أصدر لاروز صرخته الحربية المكتومة: «كياب!»، ثم واحدة أخرى، بثقة أكبر بالنفس. وقفة استعداد! خفق قلبه بقوة، واشتدَّ نبضه.

«لماذا تفعل هذا؟». استدار تايلر إلى الآخرين. «لقد ضربني!».

«من أجل ماجي!».

يفتح بوغي علبة جعة. «ماجي!». يتغضن وجهه كراهية. إنه الأسوأ بينهم، وبراد موريزي هو الأضخم، ولكنه ليس لئيماً على الإطلاق، باستثناء ما يتعلق بكرة القدم. يلتزم ذلك الفتى بمجموعة قواعد أخلاقية الآن، بسبب يسوع وكرة القدم، ولا يؤذي الناس إلا في كرة القدم. كروتينز يشعر بالارتباك فحسب.

«ما اسمك أيها الفتى الصغير؟».

يثب لاروز على ظهر كورتينز، ويمسك قميصه، ويحاول أن يشد قبضته حول عنقه ليخنقه.

«أبعدوه عني!».

يصفع بوغي لاروز بقوة، فجأة وعمداً، ويجعله يبتعد عن كورتينز ويسقط على ظهره. عندما يرتطم لاروز بالأرض بعنف، يرتدُّ من جسده، وتنضغط رئتاه حتى تتوقفا عن العمل. إنه يطفو في الأعلى، وينظر إلى الأسفل نحو نفسه مستغرباً.

ينحني براد فوق لاروز، مهتماً. «لماذا فعلت هذا يا بوغي؟ إنه، كما يبدو، لا يتنفس».

يطفو لاروز، ويراقب المشهد ليرى إن كان سيسحب نفساً. حرية، وإمكانية الطفو، وراحة. أوه نعم، ينبغي أن يسحب ذلك النفس قبل أن يجري له براد تنفّساً اصطناعياً. عندما يملأ رئتيه بالهواء، يعود لاروز إلى جسده بنفخة رقيقة. يستلقي ساكناً حتى يتوثّق من أنه بخير. ينهض، وينفض الغبار عن سرواله، ويمسك حقيبته، ثم يغادر. يريد أن يمشي إلى المنزل، ولكن براد موريزي يصرُّ على إيصاله بالسيارة. لا يقولان كلمة واحدة حتى يصلا ممر آل رافيتش.

يقول براد: «كانت طريقة دفاعك عن أختك رائعة».

يستدير لاروز ويخمش أنف براد بيده، ويجعله ينزف، ثم يخرج من السيارة.

يصرخ براد وهو يغادر المكان، ويمسح وجهه: «ينبغي أن تمارس كرة القدم يوماً ما». يدخل لاروز المنزل، ويصعد على السلالم إلى غرفته. يريد أن يكون بمفرده، فقد حدث شيء ما.

* * *

هنـاك خمـس لاروز. أولاً لاروز التـي سـمّمت ماكينـون، وذهبـت إلـى مدرسـة الأبرشية، وتزوجـت ولفريـد، وعلّمـت أولادهـا شـكل الكـرة الأرضيـة، وسـافرت فـي أرجـاء العالـم بوصفهـا عظاماً مسـروقة. ثانياً، ابنتهـا لاروز، التي ذهبـت إلـى كارليزلـي. أُصيبـت لاروز تلـك بالسـل مثـل والدتهـا، وقاومتـه مثـل لاروز الأولـى مـراراً. عاشـت حيـاة طويلـة كفايـة لتصيـر أمـاً لـلاروز الثالثـة، التـي ذهبـت إلـى فـورت توتـن وأنجبـت لاروز الرابعـة، التي باتـت أخيـراً والـدة إيمالايـن، وهـي معلّمـة روميـو ولانـدرو. صـارت لاروز الرابعـة جـدّة لاروز الأخيـر أيضـاً، الـذي منحـه والـداه إلـى أسـرة رافيتـش مقابـل الابـن الـذي قـد لقـي حتفـه فـي حادثـة مؤسـفة.

* * *

تمتّـع كل لاروز هـؤلاء بالقـدرة على الطيران فـوق الأرض. يسـتطيعون الطفـو سـاعات أثنـاء إنشـاد الأغانـي الملائمـة وقرع نغماتهـا على الطبـول. تنتظر تلـك الأغانـي فـي الأوراق، تائهـة تقريبـاً، ولكـن نغمـات إيقـاع المـاء لا تضيـع أبـداً. تُنسـب تلـك القـدرة علـى الطيـران إلـى لاروز الأولـى، التـي علّمتهـا والدتهـا القيـام بذلـك حيـن كان اسـمها لا يـزال ميـراج، والتـي تعلّمـت بدورهـا مـن والدهـا؛ المعالـج التقليـدي، الـذي طافـت روحـه أرجـاء العالـم فـي 1798 وعـادت لتخبر أتباعـه الطبّاليـن الذاهليـن أن لا فائـدة ممـا يجـري؛ لأن البيـض يغطّـون الأرض مثـل القمـل.

قصة قديمة 3

«ما الذي يجعله طيب المذاق؟»، هذا ما سألته زوجة الرجل.

قال الزوج: «دم زوجك الثعبان. لقد حوّلته إلى مرق».

استشاطت المرأة غضباً وركضت إلى الشجرة حيث يعيش ثعبانها. دقت ثلاث مرات، ولكنه لم يخرج، فعرفت أنه قد قُتل. أثناء غيابها، قام زوجها بتهريب الولدين الصغيرين إلى البرية، من أجل سلامتهما.

قال لاروز: «لا يبدو هذا آمناً جداً».

لم تُجب إغناشيا تلك المرة، وتابعت سرد القصة.

عندما عادت المرأة مسرعة، بتر زوجها رأسها، الذي ارتفع في الهواء ليطير إلى السماء.

سأل لاروز: «كيف يستطيع فعل هذا؟».

قالت إغناشيا: «في تلك الأيام الغابرة، تذكّر، قبل أن توجد هذه الأرض، امتلك هؤلاء الناس كل أنواع القوى. كان بمقدورهم التحدث مع أي شيء، وفهم إجاباته».

قال لاروز: «أعني كيف استطاع قطع رأسها».

لكن إغناشيا قرّرت أن تتجاهل كل الأسئلة.

قالت إغناشيا: «بعد انقضاء بعض الوقت، فتح رأس المرأة عينيه».

قال لاروز: «هذا مخيف، مع فائق الاحترام لك».

سأل الرأس الطبق عن مكان وجود ولديها، وسألت كل المقتنيات في الكوخ، ولكن لم يخبروها. أخبرها حجر في نهاية المطاف أن زوجها قد أخفى الولدين في الأرض، وأنهما يهربان تحت سطحها آنذاك. قال الحجر إنه قد منحهما أربعة أشياء: القوة لصنع نهر، ونار، وجبل، وغابةٍ من الأشواك.

بدأ الرأس ملاحقة هذين الولدين. صرخ: «يا بنيَّ، انتظراني! أنتما تجعلانني أبكي بهجركما لي!».

كان صوت إغناشيا مزعجاً ومداهناً. بدا لاروز مذعوراً ولكنه مال مقترباً منها.

قال: «مخيف فعلاً، تابعي».

كان الفتى الصغير يركب على ظهر شقيقه الكبير، الذي أخبر الأخ الأصغر بأن الرأس ليس أمهما حقاً. قال الشقيق الصغير: «بلى إنه كذلك! بلى إنه كذلك!».

صرخ الرأس: «يا ولديَّ، يا ولديَّ العزيزين، لا تتركاني خلفكما. أتوسل إليكما!».

أراد الأخ الأصغر أن يعودا إلى أمهما، ولكن الأخ الأكبر أمسك قطعة من الحطب الجاف ورماها خلفه، ثم صرخ: «لتشتعل النار! كبيرة وواسعة النطاق»، فاندلع حريق هائل. لكن الرأس تابع الجري عبر النار وبدأ يقترب منهما.

رمى الفتى شوكة، وانبثقت في الحال غابة من الأشجار الشائكة، التي أوقفت في تلك المرة الرأس عن

ملاحقتهما. لكن الرأس نادى أخ الثعبان، الزاحف الكبير، فمرَّ ذلك الحيوان عبر تلك الأشجار الشائكة ومهد طريقاً أمامه. استطاع الرأس الاقتراب منهما مجدداً.

رمى الأخ حجراً فانبثق جبل ضخم، لكن ذلك الرأس المتدحرج جلب قندساً بأسنان حديدية ليحفر نفقاً في الجبل، وتابع ملاحقة الولدين.

شعر الولدان بإرهاق شديد آنذاك، فسكب الأخ الأكبر بعض الماء لصنع نهر. حصل خطأ ما ولم يتدفق خلفهما، وإنما أمامهما، ووجدا نفسيهما محاصرين هناك.

أومأ لاروز، مشدوهاً بالقصة.

لكن الزاحف الكبير أشفق عليهما وجعلهما يركبان على ظهره. عبرا النهر، وعندما وصل الرأس المتدحرج إلى الماء، توسّل إليه أن يحمله إلى الجانب الآخر. سمح الزاحف الكبير للرأس بالركوب على ظهره، ولكن ألقاه في منتصف الطريق.

قال الزاحف الكبير: «سيكون اسمك الحفش، وهكذا تحوّل الرأس إلى أول حفش».

سأل لاروز: «ما هو الحفش؟».

قالت إغناشيا: «إنه نوع بشع من الأسماك. كانت تلك الأسماك بمثابة الجاموس لقومنا مرة. لا تزال موجودة في البحيرات والأنهار الشمالية الكبيرة».

قال لاروز: «حسناً، هذه هي النهاية إذاً؟».

«لا، تجوّل هذان الولدان في الأرض، وبالمصادفة تخلّف الأخ الصغير في الطريق. وجد نفسه وحيداً تماماً».

قال الفتى الصغير: «ينبغي أن أتحوّل إلى ذئب الآن».

قال لاروز: «هذا مثير للاهتمام، أن يصبح ذئباً فحسب».

عندما وجده شقيقه الكبير، مشى الاثنان معاً. صار ذلك الأخ الكبير مخلوقاً يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة، يُعرف في بعض الأماكن باسم ويشكيتشاهك، وفي أخرى نانابوزهو، ويحمل أسماء أخرى أيضاً. كان أحمق تقريباً، ولكن حكيماً جداً أيضاً، وبقي شقيقه الصغير الذئب إلى جانبه دائماً. أوجد أول الأقوام، أنيشينابيج، الذين يعدّون أول البشر.

قال لاروز: «هه. ما العبرة الأخلاقية من هذه القصة إذاً؟».

«أخلاقية؟ قصصنا لا تتضمن شيئاً مماثلاً!».

نفخت إغناشيا وجنتيها انزعاجاً.

قالت مالفرن، منزعجة أيضاً: «يدعونها حكاية أصل».

قالت إغناشيا: «مثل، هه، مثل سفر التكوين. لكنْ هناك أحداث كثيرة تقع، وفيها فأر مسك صغير يصنع الأرض».

قالت مالفرن: «ونانابوزهو خاصتنا مثل يسوع لديهم».

قالت إغناشيا: «أحب يسوع نوعاً ما، ولكنني لا أتمالك نفسي دائماً».

«إذاً الرأس المتدحرج مثل أمه؛ مريم؟ وهذه القصة كلها مثل أول حكاية في الكتاب المقدّس؟».

«يمكنك قول هذا».

«إذاً مريم مثل الرأس المتدحرج».

قالت إغناشيا: «رأس متدحرج آثم».

قال لاروز: «نحن بخير. مع ذلك، عندما يطاردك شيء على هذا النحو، ويكاد يقبض عليك، وربما يرميك أرضاً، سيفزعك الأمر كثيراً».

قالت إغناشيا وهي تسحب نفساً طويلاً من أسطوانة الأوكسجين: «إنها عن كونك ملاحقاً. نحن مُطاردون في هذه الحياة. يظن الكاثوليك أن الشياطين، أو الخطيئة الأصلية، تطاردنا. في الحقيقة، تلاحقنا أشياء حدثت لنا في هذه الحياة».

قالت مالفرن: «هذا يدعى صدمة».

قالت إغناشيا: «شكراً لك. يلاحقنا ما نفعله للآخرين، وما يفعلونه لنا بالمقابل. ننظر إلى الخلف دائماً، أو نقلق بشأن القادم. نعيش هذه اللحظة القصيرة فقط. ياه، لقد مضت!».

«ما الذي انقضى؟».

«الآن، يا للهول! مضى مجدداً».

ضحكت إغناشيا ومالفرن حتى شهقت إغناشيا طلباً للهواء. «يا إلهي! يا للهول!».

«ما الذي انقضى؟».

«الآن».

ضحك لاروز: «يا للهول! انقضى بسرعة».

ثم، على نحو غير متوقع، ماتت إغناشيا. رمقتهم بنظرة متّقدة، ومدّت ساقيها، وسقط رأسها إلى الخلف، واسترخى فكّها. مالت مالفرن نحوها وتحسّست النبض على عنقها بيد ممرضة خبيرة. نظرت مالفرن جانباً، عابسة، منتظرة، وأبعدت يدها أخيراً عن حلق إغناشيا، ثم رفعت فكّها، وأنزلت جفنيها المرتفعين. أمسكت يد إغناشيا بعد ذلك.

قالت مالفرن: «أمسك يدها الأخرى. إنها تبدأ رحلتها الأخرى الآن. تذكّر كل ما قلته يا لاروز. ستكون هذه مهمتك يوماً ما».

تكلمت مالفرن إلى إغناشيا، وأخبرتها عن الاتجاهات، وكيف تخطو أولى خطواتها، وكيف تنظر إلى الغرب، وأين تجد الطريق، وألا تزعج نفسها باصطحاب أحد معها. قالت إن الجميع، وفيهم مالفرن نفسها، أحبّوا إغناشيا كثيراً، على الرغم من أنهم لم يخبروها ذلك. أمسكا يدي إغناشيا وقتاً طويلاً، بهدوء، حتى تلاشى الدفء منهما. مع ذلك، شعر لاروز بوجودها في الغرفة.

قالت مالفرن: «ستبقى هنا بعض الوقت. سأجلب أصدقاءها ليتمكنوا من توديعها أيضاً. اذهب إلى المنزل الآن».

وضع لاروز يد إغناشيا على مسند كرسيها، ثم ارتدى معطفه، وخرج من الباب، ووصل إلى الردهة. مشى عبر الستارة الهوائية، ثم الباب الأمامي المزدوج، إلى الهواء

البارد إلى درجة التجمّد تقريباً. كان يُفترض أن يلتقي أمه في المدرسة، لذا سار على الطريق المفروش بالحصى وتجاوز الرصيف غير واضح المعالم. تدفق البرد حوله وتسلّل عبر فتحة عنق سترته. شعر بلسعة في أذنيه، ولكنه لم يضع قلنسوته. حرّك أصابعه، ودفعهما في جيبيه. انتابته أحاسيس عديدة في جسده لم يستطع أن يشعر بها كلها في الوقت نفسه، وتلاشى كل واحد منها، حين شعر بها، في لحظة ما في الماضي.

* * *

كان الرسم البياني على جدار روميو يتخذ شكله النهائي ببطء، مع تحريك معلومات إلى الأمام وأخرى إلى الخلف. كان تلفاز روميو قد فقد صوته، ولكن ذلك لم يعد مهماً. راقب فقط حركة الشفاه وقرأ شريط العناوين. بدا ذلك أفضل؛ لأن أصواتهم، وتركيزهم على كلمات معينة، قد يشوّشان تفكيره. أدرك أنه لا يزال يحب كلمتي كعكة صفراء، والمكان المجهول الذي تأتي منه. النيجر! لكن كانوا قد تجاوزوا ذلك آنذاك. مع انقضاء أكتوبر المشمس وحلول نوفمبر الحالك والبارد والخالي من الأوراق، صار الحديث عن أسلحة الدمار الشامل مرعباً.

أوه أرجوك! يعيش الجميع في داكوتا الشمالية قرب سلاح دمار شامل. على الطريق العام، لا يوجد شيء يميز مكان وجود صواريخ جاهزة للإطلاق في مكمنها تحت الأرض إلا ساحة مفروشة بالحصى وسياج مغلق بسلسلة

حديدية. تتجاوز المكان، متسائلاً عمّن يوجد هناك، عميقاً ومنعزلاً، ومعتوهاً بالطبع، يحدّق إلى شاشة كما يفعل روميو آنذاك، إلى فم كوندوليزا رايس، ويعرف، كما يعرف روميو فقط، أن تلك امرأة جائعة تسيطر بصرامة على شهيتها للطعام. كانت تلك امرأة أكثر ذكاءً من أيٍّ من الرجال حولها، وتتلاعب بهم بيديها النحيلتين مثل عيدان أكل على بيانو. كان حتى تشيني المخضرم بأسنانه الكريهة والمخيفة - لا بد أنه يمتلك الملايين، لذا لماذا لا يحصل على أسنان جديدة؟ - حتى تشيني نفسه أسيرها ذهنياً. لم يعرف ذلك، ولكن هذه هي الحقيقة. لمعت عيناها، وبدا فمها أحمر بلون الدم الداكن. لم تكن لديها مشاعر تجاه أي رجل، وبدا أنها تفترسهم. تكلمت عن قضبان، وأسلحة دخانية.

أُعجب روميو بها.

من بينهم جميعاً، كانت الأذكى والأكثر مهابة. هل كانوا يعرفون ذلك؟

أفرغ كل ما حصل عليه من صينية المقهى من جيوبه. فتّشها بدقة آنذاك، ووضع جانباً الأقراص الزرقاء الصغيرة، والأقراص البيضاء الكبيرة، والأقراص الوردية البيضاوية. كان واثقاً تماماً بوجود دليل آخر مخفي في القصة التي قد سمعها ذلك المساء عن طريقة النزف حتى الموت من جروح سطحية فقط. بدا ذلك منسجماً مع النتائج نوعاً ما. مسمار. تثبيت. سيربط خيطاً بين العبارة والمعنى الموافق

لهـا. سيتناول الأقراص كلهـا، ثـم سينتقي الأفضل. كان شيئاً جميـلاً، مثل مشروع فنـي، ذلـك الشـيء الـذي يقـوم بـه.

* * *

تلـحُّ ماجـي علـى والدتهـا أن تعلّمهـا قيـادة السيارة فـي الطريـق إلـى المدرسـة، وقـد اعتـادت نـولا علـى ذلـك. كل صباح، بعد أن يغادر والدهـا، تخرج ماجي وتشغّل الجيب. ترتـدي نـولا معطفاً سميكاً وطويـلاً فوق ثوبهـا، وتضع قدميها الحافيتيـن في حـذاء بيتر المصنوع مـن اللباد. تحمـل قهوتهـا فـي وعـاء حافـظٍ للحـرارة فـي يدهـا، وتجلـس بارتيـاح فـي مقعد الراكـب. يستقر لاروز على المقعد الخلفي. في جولـة نصـف السـاعة، تكـون مهمـة نـولا إصـدار تعليقـات مشـجعة وتبديـل قنـوات المذيـاع، والعثور على محطات تبث تراتيـل دينيـة. لغـة منمّقـة، وموسيقى ريفيـة هادئـة، وتقاريـر زراعيـة. يجعـل ذلـك نـولا تستيقظ تمامـاً، ويحرّرهـا مـن الشـبكة اللزجة للمسكّنات التي تتناولهـا. يبعث المذيـاع والفوضـى المألوفـة التـي يبثهـا السـعادة فـي عقـل ماجـي؛ لأن والدتهـا مربوطـة بحـزام الأمـان بجانبهـا ولاروز بأمـان فـي الخلـف، ولأنهـا تتولّـى زمـام المسـؤولية، مـا يجعلهـا تشـعر بارتيـاح كبيـر. تدنـدن وتنقر بأصابعهـا على المقـود. عبر الثلـج، عبر الجليـد الأسـود، والأمطـار البـاردة الزلقـة، كانـت ماجي سـائقة تتوخّـى الحـرص وتتمتـع بثقـة كاملـة بالنفـس.

عندمـا وصلـت إلـى سـاحة المدرسـة، قبّلتهـا والدتهـا برقّـة، ثـم دارت حـول السـيارة لتجلـس خلـف المقـود وتعـود إلـى

المنزل. راقبتها ماجي تذهب، وراقبت لاروز يذهب، ثم سارت إلى مدخل المدرسة، ونثرت شعرها بأصابعها، وألقت التحية على فتيات عديدات. اتصلت بالمنزل أحياناً، من مكتب المدرسة، لتسمع صوت أمها فحسب. من ناحية، كانت ماجي آنذاك ابنة رزينة، وعطوفة، وتبالغ في حماية أفراد أسرتها، تتكيّف ببطء مع الخوف الخامد بشأن ضعف والدتها. من ناحية أخرى، كانت لا تزال شخصية غريبة الأطوار.

شخصية ثقيلة الظل إنما منضبطة.

كانت جذابة مثل العارضة شيريل تيغس باستثناء أن شعرها داكن، وعينيها ذهبيتان أو سوداوان، وباستثناء ظهور ازدراء كبير أحياناً في نظرتها الحادّة. جعلت من دراسة الفتيان هوايتها المفضّلة. حركة رؤوسهم، ومشاعر قلوبهم، ولغة أجسادهم؟ لم ترغب في أن تكون رفيقة واحد منهم، ولكن أدركت أنها يمكن أن تسيطر على أحدهم. ربما كل واحد من المخيفين الأربعة، الذين ستلاحقهم، وتسحق قلوبهم، وتأكلها على الغداء على الرغم من أنها تحاول أن تكون نباتية؛ لأن ذلك جيد للجلد. أبدت تشدّداً تجاه نفسها.

تجاوز وايلون الضخم كل ذلك بطريقة ما. وقف بجانب خزانتها وراقبها تتبادل مجموعة من الكتب، كتب دروس صباحية مع أخرى بعد الظهر.

«هل أنت بخير هنا؟ هل يزعجك أحد؟».

اندهشت من قيامه بطرح ذلك السؤال عليها، وعدّته أمراً غريباً. لكنها ردّت بالإيجاب، على الرغم من أن أحداً لم يكن يزعجها على الإطلاق.

ركّزت ملامح وايلون عليها بنحو مثير للاهتمام. كانت قسماته تشبه وجه ألفيس، الذي تعرفه ماجي لأن سنو تحب في الواقع تلك الموسيقى القديمة. كان ضخم الجسم وعريض المنكبين، وجلده ناعم فوق عضلات مفتولة للاعب كرة قدم. بدت يداه بريئتين، ومعبّرتين، ومثل يدي معلّم تقريباً. كانت تسريحة شعره القصيرة الملائمة لممارسة كرة القدم في الصيف قد تحوّلت إلى غطاء رأس كثيف وأجعد من شعر يشبه الفراء. كان أطول من جوزيت، لكنه ليس بطول سنو. حدّقت ماجي إلى شعره بإمعان، ثم قرّرت أنه يعجبها، كثيراً.

ظهرت نظرة كئيبة على وجه وايلون.

قال أخيراً: «من؟».

«ماذا؟».

«من أزعجك؟».

قالت ماجي: «لم يكونوا أولاداً هنا، وإنما في مدرستي القديمة».

أومأ بجدّية، من دون أن يتكلم. ترك وجهه يعبّر عما يجول في خاطره، وخفض حاجبيه لجعلها تعرف أنه ينتظر المزيد. أحبّت ماجي ذلك أيضاً.

«هناك بعض الفتية، الذين يدعون أنفسهم الأربعة المخيفين؟».

حرّك وايلون فكه جانبياً وظهرت أسنانه واضحة، وعضَّ شفته السفلية. أمال رأسه إلى الجانب وحدّق إليها بعينيه الذابلتين.

تشدّق: «أوه، نعم، أعرف هؤلاء الفتيان».

قالت ماجي بابتسامة ارتياح واسعة: «أزعجني هؤلاء الفتية حقاً، خاصة بوغي. هل تريد أن تسير معي إلى الصف؟».

تمايل وايلون قليلاً أثناء المشي؛ كأن عليه أن يشدَّ جسده الثقيل إلى الأعلى بعد كل خطوة يخطوها. سارت ماجي بجانبه، متوترة كثيراً، والناس ينظرون إليهما، وقد جعلته السعادة يتورّد خجلاً.

كلما ذهبت نولا وبيتر إلى اجتماع الآباء والمعلّمين في مدرسة ماجي في بلوتو، يواجهان الأمر نفسه: عدم اهتمام بالفروض المنزلية، وإثارة مشكلات في القاعة الصفية، والتثاؤب، وكتابة كلمات بذيئة في الحمامات. على كل حال، كانت نتائج الاختبارات ممتازة دائماً، وذلك يعني أنها ذكية كفاية لتغير سلوكها، إن أرادت ذلك. بدا واضحاً أنها تفعل كل ذلك عمداً، كما قال مدرّسوها. كان بيتر يغادر صف ماجي ذاهلاً دائماً، في حين تلتزم نولا الصمت، وتمسك ذراعه أثناء تحريك شفتيها. كانا يسيران

متثاقلين في الرواق. بعد أن بدأ لاروز الدراسة في بلوتو، على كل حال، تغاضى معلّموه باستمرار عن تصرفات ماجي المضطربة.

آه، لاروز! قد لا يكون تلميذاً، وإنما عاملاً، فهو هادئ ومؤدب جداً. محترم، ودمث، ولطيف، وخجول قليلاً. تلك الأهداب! يا له من فتى رائع! حالم أحياناً، وبارع فيما يقوم به! يستطيع رسم أي شيء يريده، والغناء من دون التزام باللحن، ولكن بطريقة جميلة. إنه موهبة تظهر على أفضل نحو ممكن مع ألحان جوني كاش، الفتى بالأسود. تكلم معلّموه بمحبّة عنه، وأنه يجعل كل شيء يستحق العناء. عرفوا أن المدرّسين يقصدون التعامل مع ماجي بتلك العبارة، وكيف أن الصراع من أجل روحها يستحق الجهد الذي يبذلونه مع لاروز.

قد تكون الأمور مختلفة آنذاك بعد أن صارت ماجي في الصف التاسع، وتتمتع بمزيد من الحرية. بات كل أفراد أسرتها الأخرى - هوليس، وسنو، وجوزيت، وويلارد، ولاروز - في مدرستها الجديدة أيضاً.

أكل كلٌّ من بيتر ونولا قطعة بسكويت لا طعم لها من أطباق موضوعة في الردهة. ارتشفا قهوة لاذعة أثناء انتظار أن ينتهي أول معلّم من الوالدين قبلهما. دخلا قاعة الصف في النهاية.

قالت جيرماين ميلر، معلّمة اللغة الإنجليزية: «إذا كانت تحاول النجاح هنا بدخول الصفوف فقط، لن يكون هذا خياراً ملائماً».

قال معلّم الدراسات الاجتماعية: «أبذل قصارى جهدي حتى لا ترسب؛ لأنني أعرف أنها ذكية».

هزَّ كال دورفمان رأسه فوق علامات الرياضيات: «لو أنها تنجز فروضها المنزلية فحسب!».

شرحت نولا أن ماجي تنجز فرض الرياضيات كل ليلة. قال بيتر إنه قد حاول التوثّق من ذلك، ولكنها تبدي استقلالية كبيرة آنذاك. نظر الثلاثة إلى بعضهم بعضاً بانزعاج. تنهّد المعلّم وقال إن ماجي لا تسلّم واجبها المنزلي على الأرجح؛ لأنها تفتقر إلى مهارات تنظيمية. أخبرهما بأنه سيوقف تدريس الصف كل يوم منذ ذلك الوقت فصاعداً حتى تسلّمه ورقة الفرض المنزلي.

سمعا الأمر نفسه من كل المعلّمين، باستثناء العلوم. ارتسمت ابتسامة باهتة على وجه السيد هوسل حين عرّفا نفسيهما. تكلم آنذاك عن مدى اجتهاد ابنتهما، وكيف ينبغي أن يكونا فخورين جداً بمهاراتها الاستنتاجية، وذهنها المنطقي، وانضباطها في تسليم أوراقها، وجودة عملها على مشروعات جماعية. أبدت اهتماماً كبيراً بقوانين الحركة، على سبيل المثال، وأظهرت مهارة كبيرة في سرعة الحساب.

فغرت نولا فمها، وتورّد بيتر خجلاً. بات السيد هوسل أكثر حيوية.

صرخ: «إنها بارعة جداً في وصف الطيف الكهرومغناطيسي».

«نحن والدا ماجي رافيتش». ذكّرا السيد هوسل.

حكَّ مدرّس العلوم يديه، ودفع نظارته إلى الأعلى، وتابع. «أتمنى لو أن هناك مزيداً من التلاميذ مثل ماجي فيما يخص المشاركة في الصف. ما يعجبني أنها شجاعة، ولا تخاف ارتكاب الأخطاء. هذا غير معتاد بالنسبة إلى فتاة يافعة - تخاف مَن في عمرها من سخرية الآخرين منها - تعرفان هذا العمر!». قال السيد هوسل، مستغرقاً في أفكاره: «لكن ماجي تستوعب الأفكار، وتقدّم شيئاً للنقاش. في أي لحظة محدّدة تصير العطالة قوة دافعة؟ هل يمكننا قياس تلك اللحظة؟ إنها تفهم كل شيء».

كرّر مجدداً تلك الكلمات الذهبية: ينبغي أن تكونا فخورين جداً بابنتكما.

ثم عرض عليهما علامتها الممتازة.

خرج بيتر ونولا مبتسمين من قاعة تدريس السيد هوسل. تجاوزا ساحة وقوف المركبات ممسكين يدي بعضهما، مستغرقين في التفكير بتلك التناقضات.

قال بيتر: «أخيراً، مدرّس أثنى عليها».

«كان حقاً ...».

أحجمت نولا.

«كان يتكلم عن ماجي فعلاً، أليس كذلك؟».

ردَّ بيتر: «ربما تُظهر نفسها الحقيقية له فقط في المدرسة. إنها تثق بهوسل كما تثق بنا. أرى كل تلك الأمور فيها، الشجاعة، كما تعرفين؟ الانضباط. لقد فتح هذا المدرّس

باباً لها. لا أفهم يا عزيزتي، ولكن السماء هي الحد مع هذه التجربة! لطالما تمتّعت بذلك بداخلها، أليس كذلك؟ امتلكت تلك الصفة دائماً».

«لم نكن مخطئين».

ضغطت نولا على يده بقوة أكبر. ركبا السيارة وانطلقا إلى المنزل، صامتين، ونولا تمسك بركبة بيتر.

عندما توقفا في الممر، فتحت ماجي الباب، ولوّحت لهما وأظهرت ابتسامة بشوشة على وجهها. عادةً، كانت تحيتها المرحة بعد اجتماع الآباء والمدرّسين محاولة لتخفيف البؤس الذي تعرف أنه قد حلَّ بوالدها. لم تكن تهتم، حتى ذلك العام، إن شعرت نولا بأي ألم بسببها، ولكن الأمر تغير آنذاك. أرادت أن تتفادى الإضرار بمعنويات والدتها، ولم ترغب في إشعال شرارة انتكاسة قد تصيبها. عندما لم يكونا في المنزل، حضّرت حساء ذيل الثور والخضار، إضافة إلى الخبز المقلي الصغير الذي علّمتها جوزيت طريقة صنعه. أحبّت ماجي، أو تظاهرت على الأقل بأنها تحب، تحضير الحساء والخبز المقلي. سرق لاروز بهدوء بعضاً منه حين تركته ليبرد، ونقل قطعاً ساخنة مشبعة بالزيت من العجين المقلي من يد إلى أخرى. طاردته ماجي في أرجاء المطبخ. ضحكت نولا على ذلك، دائخة. لا بد أن بيتر كان يشعر بالدوار أيضاً، ولكن شيئاً في ذلك المشهد أثار الانزعاج. بدا أن الاثنين يقدّمان عرضاً أمام نولا يتضمن لمحة دافئة عن مناوشات عادية بين الأخ

وأختـه. نظـرا إلـى والدتهمـا، مـن وقـت إلـى آخـر، ليتوثّقـا مـن أنهـا سـعيدة.

فـي عطلـة ذلـك الأسـبوع، أرادت نـولا أن تخبـز كعكـة تحمـل اسـم ابنتهـا، احتفالاً بعلامـة ماجـي الممتازة في العلوم. أخبرتهـا ماجـي بـأن تنـاول الكعكـة سـيصيبها بالإسـهال.

قالت نولا: «لكنك تحبين الكعكة».

«أمي، أريد إسعادك، ولكن من دون كعكة».

كانـت ماجـي قـد قـرأت عـن سـلوك الوسـواس القهـري فـي إحـدى المجـلات فـي المكتبـة، وعقـدت العـزم علـى حمايـة والدتهـا مـن التوجّـه نحـو تعاطـي الممنوعـات، إضافـة إلـى أنهـا تكـره ذلـك النـوع مـن الحلـوى بسـبب كل تلـك الكعكات التـي تـم تحضيرهـا بعـد مقتـل دسـتي، ومجـيء لاروز إليهـم. كانـت الكعـكات تثير مشـاعر سـلبية، خاصـة تلـك التـي تحمـل أسـماء. لـم تكـن ترغـب بوجـود كعكـة فـي المنـزل.

«مـا رأيـك أن نشـاهد فيلمـاً قديمـاً، مـن الثمانينيـات مثـلاً، ونـأكل الفشـار؟».

بسـبب تخفيضـات الأسـعار فـي سـينكس، كان لديهـم أفـلام فيديـو كثيـرة لـم يشـاهدوها بعـد، أفـلام جميلـة مـن الأيـام الخوالـي، مثـل: «إجـازة فيريـس بيولـر»، و«سـت عشـرة شـمعة»، و«نـادي الإفطـار». تحدثـت ماجـي مـع نـولا عـن شـغفها بتلـك الأفـلام بوصفهـا مراهقـة، علـى الرغـم مـن أنهـا كانـت مـن وقـت ومـكان مختلفيـن حيـث الهواتـف الخلويـة

موجـودة فـي السـيارات فقـط وكبيـرة مثـل علـب الأحذيـة. نعـم، تكلمتـا، أو بالأحـرى تكلمـت نسـخة مـن ماجـي، كأنهـا مولـي رينغوالـد قـد تكيّفـت أخيـراً مـع تعقيـدات الحيـاة. وتكلمـت نـولا معهـا مثـل والـدة حريصـة ومحبّـة. دخـل بيتـر المنزل وشـاهدهما مسـترخيتين على الوسـائد، وقد اسـتغرقت إحداهمـا فـي النـوم فـي حيـن تبتسـم الأخـرى بلطـف.

جلس إلى جانب نولا، المبتسمة، وسأل: «ماذا يجري؟».

«ماذا تعني؟».

بقيت مبتسمة، ولم تنظر إليه. بدت مخيفة.

«ماذا تشاهدين؟».

أشار بيتر إلى الفيلم على الشاشة.

فتحـت نـولا فمهـا وهـزّت رأسـها، مفتونـة بحـوارٍ مـا بيـن مراهقتيـن. وضعـت رأسـها علـى كتفـه، وتحـرّكـت ماجـي علـى الوسـائد ودفعـت نفسـها نحـو أمهـا، وصـار الثلاثـة متلاصقيـن، وجالسـين هنـاك مثـل أشـخاص عادييـن.

فكّـر بيتـر أن ذلـك هـو السـبب. «ينتابنـي شـعور غريـب؛ لأن كل شـيء طبيعـي جـداً. أنـا الغريـب بينكمـا، والشـخص الوحيـد الـذي لا يفهـم أننـا سـنكون بخيـر الآن».

سـألت نـولا عندمـا انتهـى المشـهد الدرامـي علـى الشاشـة: «مـاذا كنـت تقـول؟».

قال بيتر: «لا شيء، هذا أنا فحسب».

الحروب

كان فتيان بلوتو فريق الكواكب، وصارت فتيات بلوتو السيدات الكواكب، واللونان المميزان لهن هما البنفسجي والأبيض، وتعويذتهن على شكل كوكب دائري بساقين وذراعين ووجه بشوش. حمل فريق المحمية اسم المحاربين، ولكن الفتيات لم يكن المحاربات، وإنما المحاربين أيضاً، واللونان الخاصان بهن هما الأزرق والذهبي. لم يرغبن في أن تصير إحداهن تعويذة، لذا جلبن درعاً قديمة عليها ريشتا نسر، وطبعن صورتها على لباسهن الموحد.

كانت قمصان كرة الطائرة مصنوعة من النايلون الذي يلتصق بالجسم، وطويلة الردنين حتى لا تترك الكرات التي تصطدم بأذرعهن سحجات عليها، على الرغم من بقاء آثار الكدمات ظاهرة عليهن طوال الوقت. ارتدين سراويل قصيرة ضيقة وواقيات ركبة.

جعلهن المدرب ديوك يلبسن عصائب ويسرّحن شعورهن على شكل ذيل الفرس؛ لأن الفتيات ينسين ويلمسن شعرهن بغض النظر عن درجة انضباطهن في الملعب. أحبّت الفتيات المدرب ديوك وتصفيفة ذيل الفرس. كانت المحاربين قد فزن في كل مباراة في الموسم باستثناء مباراتهن الأولى مع كواكب بلوتو. باتت الليالي أكثر برودة، وصارت نتيجتهن 1ـ8، التي أثارت حسد الجميع. كن سيلعبن في تلك الليلة ضد فريق بلوتو مجدداً، ومستعدّات للفوز.

قالت نولا: «لا أحب تسمية النقاط الحاسمة بالقاتلة. لا ينبغي أن يموت أي شيء».

أمسك بيتر يدها، وقال: «لا شيء يموت. إنها مجرد كلمة».

كانا جالسين على مقاعد طويلة ضيقة، ورُكَب أبوين خلفهما تلامس ظهريهما، في حين أن ركبهما تضغط على ظهري والدين أمامهما. كانت نولا قد وضعت شطائر في علبة معزولة حرارياً فيها جليد يحافظ على برودة مشروبات غازية داخلها. اشترت عنباً أخضر، على الرغم من كونه غالي الثمن في ذلك الوقت من العام. ساعدها بيتر في نزع معطفها، أو إبعاده عن كتفيها بأي حال، إذ لم يكن هناك مكان تضعه فيه ما جعلها تربط الردنين المنتفخين حول خصرها. كانت الصالة الرياضية خانقة، ولا يوجد فيها إلا مدرج واحد فقط، لذا جلس آباء الفريقين المتنافسين إلى جانب بعضهم. حاولوا تجميع أنفسهم وفقاً للفريق الذي قد جاؤوا لمؤازرته، ولكنهم اختلطوا عن غير قصد منهم.

أجرى الفريقان تمرينات الإحماء، ونفّذ أفرادهما حركات التمدد أولاً، ثم تدريباً قصيراً ومكثّفاً، تمرير الكرة والتصدّي لها، وضربها. قفزت كل لاعبة بعد ذلك وضربت الكرة من ارتفاع حدّده المدرّب. أخيراً، حظي كلا الفريقين بوقت على أرضية الملعب للتدرّب على ضرب الكرة من نقطة البداية. كانت استراتيجية المحاربين أن يبدين ضعيفات أمام فريق بلوتو، ويتظاهرن بالجدال فيما بينهنّ.

همّست جوزيت: «رافيتش، هل أنتِ منتبهة؟».

غمـزة لـم يرهـا الآخـرون. غضـبٌ متقـن مـن ماجـي. ضربـات كثيـرة بالكـرة. لا ابتسـامات بينهـن، ثـم اصطّفـت الفتيـات.

همسـت نـولا، المهووسـة دائمـاً بالمقارنـة بيـن ماجـي وزمـلاء صفهـا: «إنهـا صغيـرة جـداً».

«والكواكب يتمتّعن ...». لكن بيتر أحجم.

كان سـيقول بأجسـاد ضخمـة أو بنيـة قويـة. كـن فتيـات قويـات، وصلبـات، ومخيفـات. طلبـت ماجـي منهـن أن يحـذرن مـن بريليـن.

قالت نولا بصوت عال: «أراها. المسكرة الكثيفة!».

وضـع بيتـر ذراعـه حولهـا وتكلـم، بصـوت خافـت، فـي أذنهـا. «تتذكريـن؟ الأبويـن الآخريـن؟». لـم يكـن قـد رأى والـدي بريليـن منـذ بعـض الوقـت، ولكـن بـدا واثقـاً تمامـاً أنهمـا خلفـه.

«أوه!». أغلقت نولا زماماً خيالياً على فمها.

دخـل لانـدرو وإيماليـن، وعثـرا علـى مـكان يجلسـان فيـه، وأقحمـا نفسـيهما بيـن مجموعـة مـن آبـاء المحاربيـن. حيّـت «المحاربـون» الآبـاء أولاً، ثـم مدربهـن، ثـم سـلّمن علـى الفريـق المنافـس بلمـس الأيـدي عبـر الشـبكة وتمنيـن التوفيـق لـكل كوكـب. قالـت بريليـن لماجـي بابتسـامة عريضـة علـى وجههـا: «حظـاً سـعيداً، بالتوفيـق، حظـاً موفقـاً، أنـت أردت هـذا». مـرّت بسـرعة وهـي تنظـر إلـى الأمـام مباشـرة.

«هل سمعتن هذا؟».

كانت سنو خلف ماجي مباشرة.

«سمعنا ماذا؟».

فكّرت ماجي: «أنتِ أردت هذا». لقد أخبر بوغي شقيقته. تخلّصي من ذلك الشعور. اعتادت ماجي أن تفعل شيئاً مثل الاهتزاز قليلاً للتخلّص من شعور سيئ أو إخفاق ما. كانت رعشة لحظية غير مرئية تقريباً، وجوزيت تعرف بشأنها. اجتمع الفريق في دائرة، ووضعن أذرعهن حول بعضهن. وقف المدرب ديوك ممسكاً لوح كتابة صغيراً بيده. لوّحت يده الأخرى في الهواء مع كل جملة أعدّها بعناية. أخبرهن أن كرة الطائرة مجرد لعبة باستثناء أنها في ذلك الوقت تحديداً ليست كذلك. ذكّرهن بضرورة التنبّه، والتركيز، والتصرّف بشجاعة، وأن يعرفن متى يقضين وقتاً في التحضير لضربة حاسمة. طلب منهن الحفاظ على تركيزهن، وذكّرهن بأنهن أسرة، وأخوات، ومحاربات سيتغلبن على ذلك الفريق، ويحظين باحترام الجميع. قال: «توقفن عن التفكير بأي شيء آخر باستثناء كونكن هنا، الآن، واستخدمن أصواتكن. تحدّثن مع بعضكن عن الكرة، واضربن الأرض بأيديكن، وحافظن على الإيجابية».

كانت دياموند قائدة الفريق. نظرت إلى كل منهن بالدور، فنهضن بصمت ورفعت كل منهن ثلاثة أصابع في الهواء. ظنَّ الجميع أنهن يشرن إلى الثالوث الأقدس، ولكنها كانت حركتهن الخاصة التي تشير إلى المحاربين.

صرخـن بعـد ذلـك: «محاربيـن، محاربيـن، محاربيـن»، وقفـزن عاليـاً، وضربـن أيـدي بعضهـن.

كانـت جوزيـت أول مـن يضـرب الكـرة مـن نقطـة البدايـة. أحبّـت تلـك اللحظـة التـي يتخلّـص فيهـا الفريـق مـن حالـة الالتبـاس ويتحـوّل إلـى آلـة.

«اضربـي بقـوة يـا عزيزتـي!». كان ذلـك صـوت إيمالايـن متواريـاً آنـذاك بيـن أصـوات الآبـاء الآخريـن.

قفـزت جوزيـت وضربـت الكـرة بقـوة، ولكـن جوينـا، إحدى تـوأم بلانيت حمـراء الشعر صدّتهـا بذراعهـا. لـم تصب الهـدف، ولكـن إحـدى اللاعبـات اسـتطاعت تمريرهـا إلـى بريليـن، التـي ضربتهـا إلـى الطـرف الآخـر. رفعتهـا سنو عاليـاً بهـدوء، وهيأتهـا ديامونـد بتمريـرة دقيقـة بإصبعهـا إلـى ريجينـا، التي تسـتطيع إلقـاء الكـرة علـى عشـرة سـنتات، أي قطعـة نقديـة حقيقيـة. كـن قـد احتسـبن الأهـداف التـي تحرزهـا، ووضعـن عشـرين قطعـة نقديـة علـى الأرض. احتفظـت بـكل قطعـة أصابتهـا، وكسـبت عشـرين دولاراً.

حاولـت فتـاة شـقراء قليـلاً تدعـى كريسـتال، جميلـة، أن تصـدَّ ضربـة جوزيـت الآتيـة، ولكـن فشـلت. مضـى الأمـر علـى هـذا النحـو. نفّـذت جوزيـت سـت ضربـات مـن نقطـة البدايـة قبـل أن تطلـب الكواكـب وقتـاً مسـتقطعاً.

قـال المـدرب ديـوك: «سـيلعبن بقـوة الآن. ماجـي، أنـت سـلاحنا السـري حاليـاً. لـم يختبـروك مـن قبـل، لـذا كونـي

مستعدة. جوزيت، سيحاولن التصدّي لضربتك التالية مهما كلّف الأمر، لذا صعّبي المحاولة عليهن. ريجينا، إذا سنحت لك فرصة ...».

«لا تقلها أيها المدرب».

قالت دياموند: «نفّذي تلك الضربة».

«لندعوها هجوماً مفاجئاً باليد اليسرى، اتفقنا؟ وجميعكن، تذكّرن، التمريرة مفيدة مثل تسجيل النقطة».

لم تكن ماجي تظن هذا. تحصي نقاطها الحاسمة بعد كل مباراة على ورقة مثبّتة بشريط لاصق على جدار غرفة نومها. يحسبها المسؤولون عن تسجيل النقاط أيضاً، وإذا وصلت أي فتاة إلى الرقم 1000، تحصل على كأس ذهبية بارتفاع قدم. أرادت ماجي واحدةً، وعنواناً رئيساً في الصحيفة: فتاة الـ 1000 نقطة. كانت قد طوّرت قفزتها إلى ارتفاع راقصة الباليه وأتقنت تسجيل نقاط من ضربات خفيفة. استخدام أطراف أصابع القدمين، من دون جهد، وتغيير المسار الذي يحدث أحياناً بسرعة كبيرة وغير ضرورية. عرفت أن بمقدورها أن تسجّل من دون أن تتذكّر كيف وصلت الكرة إليها. كانت تشعر أحياناً بظلها وتفكّر بنقل ذلك الخيال من يدها إلى أرضية الملعب المنافس. عندما غيّرت مكانها إلى موقع ضارب الكرة في المقدمة، أراد الفريق الآخر دائماً أن يُظهر للفتاة الصغيرة ما لديه. أرادت ماجي، باعتراضها الكرة وقفزها العالي غير المتوقع، أن تريهم ما لديها.

توقفت جوزيت عن ضرب الكرة من نقطة البداية نتيجة الوقت المستقطع، كما خطّط مدرب الكواكب، وشعرت ماجي بالطاقة على الملعب تتغير. جثمت لاعبات فريق المحاربين، وتكلمن بحيوية مع بعضهن، وصرخن «مرري الكرة، مرري الكرة» حتى يتذكّرن استخدام أصواتهن. انتقلت بريلين إلى نقطة البداية. كتفان مشدودتان، وفك قوي، وعينان ثاقبتان، لم تنظر إلى ماجي أو يبدو عليها أنها تستهدفها، ولكن ماجي كانت مستعدة بأي حال. نفّذت بريلين الإرسال مرةً من فوقها، وأقسمت ماجي أن الكرة قد تذبذبت وغيّرت اتجاهها. تورّدت خجلاً، ولكن عرفت خدعة بريلين وأدركت أن بمقدورها التعامل معها. راقبت الكرة تأتي من فوق يد بريلين تلك المرة ورأت مكان نزولها. كانت ماجي هناك، ولكن الكرة لم تكن. سُجّلت عليهن نقطتان، وصارت النتيجة التعادل آنذاك. كان آباء الكواكب يصرخون، في حين أن والديها متوتران وصامتان. ارتعش جسد ماجي بأكمله وعادت خطوة إلى الوراء.

أبقت بصرها ثابتاً على الكرة، واستطاعت صدّها قرب الأرض تقريباً، لتذهب إلى جوزيت الجاثية على ركبتيها، التي استطاعت تمريرها إلى دياموند. لكن الكواكب أعادوا الكرة وبدأت سلسلة طويلة من التمريرات، والضربات القاسية، مع محاولات صد إعجازية، ومرور الكرة من فوق الشبكة، ما أثار تشجيعاً صاخباً من الآباء. قفزوا لاهثين، وصرخوا وأحدثوا جعجعة كبيرة. بحلول وقت فوز ريجينا أخيراً في المنافسة مع كريستال، كان الجميع في حال معنوية

جيدة، باستثناء كريستال، التي هسّت نحو ريجينا، مثل قطة نمشة مفزعة. استدارت ريجينا بعيداً عنها وقالت: «مخيف». اتخذت اللاعبات مواقعهن، وعلى الرغم من أن المحاربين حافظن على تقدمهن بست نقاط مقابل خمس، فإنهن كافحن بقوة من أجل ذلك. حالفهن الحظ في تلك الضربات، ما جعل بعض آباء الكواكب يتذمّرون من تلك الحال. فازت «المحاربون» في أول شوطين من المباراة، ثم انتفضت «الكواكب» وغيّر الحظ طريقه. انتصرن في الشوطين التاليين، ووصلت المباراة إلى الشوط الخامس والفاصل.

كانت معظم مباريات كرة الطائرة تنافسية وتحدث في أجواء اجتماعية، ويبذل الجميع قصارى جهدهم لإظهار روحهم الرياضية. كان المدرب ديوك قد أرسل إلى منزل كل لاعبة قائمة بالقواعد التي ينبغي أن توقعها مع والديها. لكن أثناء الشوط الرابع باتت الضربات أقوى، والنظرات أقسى، مع بعض صرخات السخرية، والتحية بضرب الكفّ عند تسجيل النقاط. بحلول الشوط الخامس، وصل شحن الذبذبات الكهربائية إلى حدّه الأقصى في الصالة الرياضية. كانت نولا تعرف والدي كل تلميذة في الفريقين. لم تكن هناك تمتمات لطيفة مثل «ضربة جميلة» حين يسجل الفريق المنافس نقطة، أو دعابة ودّية. صرخت نولا بقوة، ولكن أخفت سعادتها، بناءً على نصيحة كتيب إرشادات المدرب، حين ارتكب الفريق الآخر خطأ. حاولت ألا تعترض على الكرات التي تقع على الخط، وحاولت ألا تصرخ بصوتٍ عالٍ حين تظن أنها تعرف أفضل من اللاعبة

مكان سقوط الكرة. لقد حاولت، كما نصح المدرب، ألا تهين مباراة كرة الطائرة.

أكلت نولا حبة عنب. كان طعمها مخيباً للأمل، بقشرتها القاسية التفهة، ولبّها الكريه الرطب. جرّبت واحدة أخرى. لم تنفّذ ماجي ضربة البداية إطلاقاً، ولكن المدرب لم يغيّر موقعها. كانت هناك، في المكان نفسه على الدوام. كانت «المحاربون» قد خسرن أول نقطتين، وأدركن أن تلك الضربة ينبغي أن توقف زخم «الكواكب». الضغط! لماذا ماجي؟ صرخ بيتر مشجعاً، ولكن نولا التزمت الصمت. حدّقت بقوة إلى ابنتها، في محاولة لإسباغ الحظ عليها بتأثير المحبة.

ضربت ماجي الكرة إلى الشبكة. تجهّمت والدتها، ووضعت يديها في حجرها مثل قفازين خاليين.

صرخ والدا إحدى لاعبات الكواكب، اللذان كانت ركبهما القاسية على ظهر رافيتش، سعادة. أمسك بيتر نولا حين استدارت إلى الخلف، ووضع ذراعه حولها.

قال في شعرها: «لا تنشغلي بذلك يا عزيزتي».

بدا التركيز واضحاً على لاعبات المحاربين استعداداً للضربة الآتية. كان المدرب قد علّمهن أن يتنفّسن بعمق، ويركّزن، ويضرب كف بعضهن مع كل لعبة حتى إذا خسرن نقطة. استندت فلسفته إلى تطوير ما سمّاه دمج ذهنية الفريق، حيث تتصوّر كل لاعبة مكان وجود زميلاتها على

الأرضية وتتمتع بقوة الفريق بأكمله بداخلها. لكن نولا فقط أدركت أن ماجي في ورطة، وعلى خط النار بمفردها. جاشت تنهيدة قلق في صدر نولا، ولكنّ دفئاً وحماساً انتشرا عبر كتفي ماجي.

بدت ماجي صغيرة جداً وضعيفة، بجسدها الضئيل وساقيها النحيلتين، كأنها واقفة على أرضية الملعب بمفردها. جثمت، ومدّت ذراعيها. ضربت كريستال الكرة نحوها، وهيأت ماجي الكرة لضربة ريجينا اليسارية المفاجئة. نقطة. خرجت ضربة البداية التالية، من سنو، وردّت ذات الشعر الأحمر الأخرى الكرة إلى يسار ماجي، ولكن ماجي نقرتها بإصبعها من الأسفل فارتدت عالياً. ساعدت جوزيت دياموند، التي سدّدت ضربة سريعة. نقطة أخرى، وتعادل آخر. تقدّمت بريلين إلى نقطة البداية وبدا الغضب في عينيها المشاكستين. قرقرت معدة ماجي. ضربت بريلين الكرة مرتين على الأرضية، بهدوء وأعصاب باردة. أرسلت الكرة بضربة قوية نحو ماجي، وكان يفترض أن تمر من فوق رأسها وتستقر خلفها، ولكن ماجي عرفت حركة بريلين آنذاك، وقفزت على قدميها باندفاعة حيوية. تصدّت للكرة من فوق الشبكة، وأحرزت نقطة حاسمة.

كانت نولا واقفة طوال الوقت. وكز والدٌ بيتر، الذي حاول أن يجعلها تجلس.

صرخت في ذلك الصمت: «نقطة حاسمة! نقطة حاسمة! نقطة حاسمة!».

سمعت ماجي ذلك، وشعرت بشيء دافئ يغلّف قلبها. شدَّ بيتر ذراعه حول كتف نولا، وهمس في أذنها، ولكنها كانت في مكان آخر، والغريب أن ذلك جعله يشعر بارتياح كبير. لم يكن ذلك زائفاً أو وهمياً، أو يحمل معنى بين السطور. بدت تلك هي نولا التي يعرفها، لا صاحبة الوجه البشوش. كانت تلك هي الأسرة المفعمة بالحيوية، لا الأسرة التي تصطنع السعادة، من دون إثارة، أو غضب، أو أصوات عالية، أو ألم، وهي كلها أحاسيس يشعر بها وحده.

لم يكن وحيداً بالتأكيد؛ لأن نولا تتصرّف بجنون.

«اجعلها تجلس بحق السماء!». كانت تلك هي المرأة خلفهما.

سمعت نولا ذلك الأمر حين كانت حبة عنب داخل فمها. استدارت، وفتحت فمها لتعبّر عما يجول في خاطرها، ولكن الحبّة طارت منها، مثل كتلة مخاط-بصاق خضراء تماماً، وحطّت على أنف المرأة الكبير والوردي. سكون الصدمة. نهض الأب، وهو رجل مربوع يشبه الدب، بكتفين مائلتين، وشارب كثيف، ويعتمر قبعة سائق شاحنة مكتوب عليها رمال وحصى داكوتا. مدَّ ذراعيه ليدفع نولا إلى الأسفل، ولكن كانت قد أتقنت حركتها على الأب ترافيس، فانحنت إلى الأمام ودفعت صدرها إلى يديه، ما جعل سائق الشاحنة يصرخ دهشاً.

زعقت نولا: «أبعد يديك عني».

لـم يـر بيتـر إلا اليديـن. كان السـيد قبعـة سـائق الشـاحنة لا يـزال يمسـح العنب عـن وجههـا حيـن أطلـق بيتر قبضتـه. بـدا جيداً أن يطلـق العنان للغضـب، ولكـن نـدم فـوراً حيـن تكـوّر قبعـة سـائق الشـاحنة علـى نفسـه، ووضـع وجهـه بيـن يديـه. شـعرت نـولا، علـى كل حـال، بالسـعادة. توقفـت المبـاراة، ثـم اضطـر السـيد هوسـل القلـق إلـى إخـراج الآبـاء الأربعـة مـن المقاعـد. انسـلّت نـولا خلسـة إلـى الخـارج، متشـبثة بإحـكام بـذراع بيتـر. لـم يسـتطع أي منهمـا رؤيـة ابنتهمـا حيـن سـدّدت الكـرة إلـى بريليـن مباشـرة، أو يسـمع صافـرة إيقـاف اللعـب. ذاهلـة، تخلّـت بريليـن عـن موقعهـا وتلـوى وجههـا ألمـاً. كان أنفهـا ينـزف آنـذاك علـى الأرض.

رفـع الحكـم بطاقـة صفـراء، وخرجـت ماجـي علـى وقـع صيحـات استهجان أمهـات وآبـاء الكواكـب. لعبت الكواكـب، الغاضبـات آنـذاك، بطاقـةٍ متعطشـةٍ للانتقـام ولكـن فقـدن السـيطرة علـى أنفسـهن، وارتكبـن أخطـاء، وفقـدن كـرات سـهلة، وحاولـن إرسـال الكـرات إلـى الجانـب الآخـر مـن دون إعـداد جيـد، وخسـرن المبـاراة بفـارق ثمانـي نقـاط. ضربـت لاعبـات المحاربيـن كـف بعضهـن عاليـاً وخرجـن مـن المـكان بهـدوء. لـم يكـن الأمـر جيداً مثـل فـوز مسـتحق، ولكـن شـعرن أن شـيئاً خفيـاً وقويـاً قـد تدخـل لمصلحتهـن.

لـم يعرفـن مـا جـرى بدقـة، كمـا فكّـرت ماجـي، التـي احتفظـت بهدوئهـا عنـد رؤيـة دم بريليـن علـى الأرض.

عندمـا تمـت مرافقـة بيتـر ونـولا إلـى الخـارج، تبعهمـا

لاندرو وإيمالايـن. مشـى والـد بيريليـن البديـن، الـذي يشـعر بألـم فـي أنفـه، وزوجتـه القصيـرة بتسـريحة شـعرها التـي تشـبه الأميـر فاليانـت، إلـى شـاحنتهما. لـم يكـن هنـاك أحـد فـي موقـف السيارات للتوثّـق مـن عـدم دخـول الأبويـن فـي شـجار آخـر، ولكـن العـراك لـم يكـن مرجحـاً لـدى آل وايلدسـتراند، فـي حيـن شعر والـدا ماجي بالحـرج لـدى قيام مـدرّس العلـوم بمرافقتهمـا إلـى الخـارج. ركّـز السـيد هوسـل نظرتـه الثاقبـة عليهمـا، وأشـار معتـذراً بيديـه المشـققتين، ثـم اسـتدار مبتعـداً. كانـت نـولا تتنفّـس بعمـق وسـرعة.

«ماذا إن ألغى علامتها الممتازة بسببنا؟».

قالـت إيمالايـن لبيتـر: «يمكـن أن نعيـد ماجـي، إذا أردت اصطحـاب نـولا إلـى المنـزل».

لهثت نـولا: «لا، لا، اتركونـي وشـأني». ولكـن إيمالايـن لـم تتراجـع أو تغيـر تعبيـر وجههـا. علـى الرغـم مـن أن أسـنانها كانـت تصطـك، فـإن نـولا لـم تركـب السـيارة. كان الضبـاب قـد تجمّـد فـي الهـواء، وهـالات متلألئـة تتدلّـى مـن كل مصبـاح هالوجينـي، وتضـيء السـيارات، والزجـاج الأمامـي المغطـى بطبقـة مـن الجليـد، والإسـفلت اللامـع، بسـكينة مـن عالـم آخـر.

أومـأت إيمالايـن إلـى الشـاحنة المتوقفـة. والـدا بريليـن! ليـس مفروضـاً أن تذهـب السـيدة إلـى المباريـات، فقـد تـم إيقافهـا السـنة الماضيـة.

قبل أن تتمكن نولا من التحرّك، وضعت إيمالاين ذراعيها حولها ثم أفلتتها فجأة، ما جعل العناق ينتهي قبل أن تستجيب نولا له.

قال بيتر: «يجب أن نبقى هنا حتى تصل الفتيات إلى السيارتين».

قال لاندرو: «لم يكن خطأ ماجي. أطلق الحكم الصافرة حين كانت يدها لا تزال في الهواء».

حرّك الأربعة أقدامهم وفركوا أيديهم من البرد.

قال بيتر: «هيا بنا، سننتظر ماجي داخل السيارة». أقنع نولا بذلك، وسار معها إلى المركبة.

رمقت نولا إيمالاين بنظرة طويلة قبل أن تستدير مبتعدة عنها. كانت شيئاً مميزاً، تلك الطريقة التي عانقتها إيمالاين بها. لم تكن سيئة أو جيدة، ولم تعرف ماهية شعورها، الذي ربما كان عادياً.

مشت سنو وجوزيت مع ماجي إلى خارج الصالة الرياضية. تجاوزتهن بريلين، ولكنهن نظرن إليها شزراً فتابعت طريقها إلى شاحنة والديها.

«لماذا استهدفتك أنت؟».

«إنها من مدرستي القديمة. لقد ركلتُ شقيقها بوغي ركلة قوية».

سألت جوزيت: «لماذا؟».

نظرت ماجي إلى الأسفل نحو قدميها، وهزّت كتفيها.

قالت جوزيت: «أوه».

قالت ماجي: «أظن أنهم لا يزالون غاضبين».

قالت سنو: «حقاً؟ كانت تستهدفك».

راقبن الشاحنة، وبريلين فيها، تخرج من موقف السيارات.

«أوه يا إلهي! يا للهول!».

لحقت دياموند بهن.

«هل تعلمن أن والدكن ضرب أب بريلين؟ بصقت والدتكن على أمها».

قالت دياموند: «أنتم أسرة حادة المزاج».

قفزت ماجي إلى المقعد الخلفي في السيارة.

«أمي؟ أبي؟».

«ماجي؟».

قال بيتر: «مباراة جيدة».

* * *

قلّب الأب ترافيس كلمات إيمالاين في ذهنه.

غير منصف، ولا يلتزم بالقوانين. هل كان ذلك ما قالته حين تحدث إليها بعد صف التايكواندو؟ تخيّل أنها قد ردّت بتلك الكلمات نفسها، وبقيت معه ... لكن

إيمالايـن أعـادت منديلـه إليـه وغـادرت مـع لاروز. لـم يكـن وجههـا، علـى نحـو يثير الانتباه، متـورداً أو متجهّمـاً، أو يظهـر أي مشـاعر، أو إشـارة علـى أنهـا قـد تكلمـت خـارج نطـاق المألـوف. لـم تكـن قـد ردّت أيضـاً علـى كلامـه ذاك.

ماذا فعلت؟ لماذا قلت إنني أحبها؟

فـي كل مـرة طـرح فيهـا الأب ترافيـس هـذا السـؤال علـى نفسـه بعـد وقـت قصيـر مـن لقائهمـا، وجـد أنـه لا يـزال مبتهجـاً كثيـراً ولا يسـتطيع الـرد عليـه. لكـن مـع انقضـاء أسـبوع بعـد آخـر، وعـدم مجيئهـا إلـى الصـف، وإرسـالها أحـد الأخـوة أو الأخـوات الأكبـر سـناً مـع لاروز، بـدأ ينـدم علـى كلماتـه. شـرع يتسـاءل إن كان قـد قالهـا فعـلاً، أو أنهـا فهمتهـا، أو أنـه ربمـا يبكـي مـن أجـل سـبب آخـر.

عندمـا دخلـت سـنو مـع لاروز إلـى الصـف فـي إحـدى الليالـي، نـزل الأب ترافيـس إلـى هنـاك متثاقـلاً، وضغطـت قدمـاه علـى الأرضيـة، كأنـه سـيحصل علـى دعـم مـن تحـت الخشـب. التـوت ركبتـه، وتعثّـر، ولكـن اسـتعاد توازنـه وعلّـم الصـف بتركيـز شـديد. كان ذلـك مـا يحبـه بشـأن التايكوانـدو فـي المقـام الأول، لـم يكـن هنـاك مجـال لأي فكـرة باسـتثناء مـا سـيحدث آتيـاً.

بعـد أن صفـق الجميـع لـكل فـرد منهـم وأنهـى الـدرس، اقتـرب لاروز منـه. كان يحـب الفتـى، وشـجاعته وثقتـه بنفسـه، وعملـه الجـاد. علـى الرغـم مـن أنـه لـم يكـن يتمتـع بالموهبـة، فـإن لاروز تـدرّب بجـد أثنـاء التمرينـات وحفـظ مـا ينبغـي

فعلـه. لـم تكـن ركلاتـه ولكماتـه تتمتـع بالقـوة، وإنمـا مجـرد حـركات ينفّذهـا فـي الهـواء.

وقف لاروز أمام معلّمه، باستعداد.

«سيدي».

«نعم؟».

«خضت شجاراً، وخسرت».

«أنـا لا أعلّمـك لتتعـارك مـع أحـد، وأنـت تعـرف هـذا. أعلّمـك لتدافـع عـن نفسـك».

«حسناً يا سيدي، كنت أفعل هذا».

«إذاً كان أحـدٌ يـؤذي شـخصاً أضعـف منه، وأنـت حاولـت الدفـاع عـن ذلـك الشـخص الأضعـف؟».

«فعـل أحدهـم شيئاً لشـخص آخـر، لـذا ذهبـت إلـى هنـاك لأقاتـل الأشـرار».

«هـذا الشـيء السـيئ الـذي فعلـه أحدهـم؟ هـل حـدث فـي هـذا الوقـت؟».

«لا. قبل بضعة أعوام، كما أظن».

«هذا ليس دفاعاً إذاً، وإنما انتقاماً».

«قالت إن هذا ما يبدو عليه الانتقام».

«من؟».

لم يرد لاروز.

«لا بأس، يمكن أن أخمّن».

«فعل هؤلاء الشباب أشياء سيئة لها. ذهبت إلى مرأبهم، وضربت أحدهم، ولكن فتى آخر لكمني بقوة كادت توقف أنفاسي».

اصطحب الأب ترافيس لاروز إلى زاوية من الصالة الرياضية، حيث جلسا معاً على كومة من بُسط الأرضية.

«كم أعمار هؤلاء الفتية؟».

قال لاروز إنهم في الثانوية آنذاك، وإن براد، أووه، أحد هؤلاء الشباب قد أقلّه إلى المنزل بعد ذلك وأخبره أنه يجب أن يمارس كرة القدم.

«براد، هه؟ موريزي. أعرف هؤلاء الشبان. إذاً ذهبت لتضربهم جميعاً، وهذا شيء أخبرت الصف كله ألا يفعله. لقد خرقت القواعد، وينبغي أن آخذ حزامك».

طأطأ لاروز رأسه، وتدلّى شعره الأشعث إلى الأمام.

همس لاروز: «آذوها كثيراً».

سحب الأب ترافيس نفساً عميقاً وحبسه حتى يستطيع السيطرة على صوته.

قال: «قلت الحقيقة، لذا استعدت حزامك. ينبغي أن تخبرني كل شيء الآن».

قال لاروز: «لا أعرف بالتحديد، جعلوها تشعر أنها مثل حيوان واهن».

حاول الأب ترافيس ألا يشد قبضتي يديه بوضع إصبعين على أحد صدغيه وإغلاق عينيه. شعر بالغضب يغلي داخله.

«أيها الأب ترافيس؟».

قال الأب ترافيس وهو يفتح عينيه: «سأتحدث معهم. جملة أو اثنتين. لا قتال، هل تفهم؟».

قرّر وايلون، وهوليس، وكوتشي أن ينتقلوا بالسيارة إلى هوبدانس لتناول شطائر الهمبرغر في محطة للشاحنات. أحضروا جوارب وحجارة تحسباً لرؤية بوغي أو أيٍّ من أصدقائه. كانت الحجارة في علبة قفازات السيارة والجوارب محشوة في حامل الكأس. إذا ساءت الأمور، سيضعون الحجارة في الجوارب ويخرجون ويلوّحون بها. لكن في محطة الشاحنات كانت معظم المقصورات مملوءة بأشخاص كبار السن من الريف يتكلمون بأصوات عالية، وينتقون أطباق عشائهم بحرص من الوجبة الخاصة ذلك اليوم. تجاهل الفتية طاولة العروض ومنضدة السَّلَطة الصغيرة، وجلسوا في مقصورة خلفية. كانوا قد ساعدوا باب وأوتي في تنظيف مرأبهما، ولديهما مال في جيوبهم. عندما انتهوا من تناول نصف شطائرهم، دخل بوغي بمفرده، ولم يلحظ وجودهم. تجول في المكان قليلاً، وجلس أخيراً إلى النضد، ثم نزل عن الكرسي بعد أن حصل على طلبه. التهم الفتية باقي طعامهم، وأشاروا إلى الساقية، ووضعوا المال على الطاولة، وخرجوا من الباب.

كان بوغي يتكلم إلى طاهي الوجبات السريعة. جلسوا في سيارة هوليس ينتظرون خروجه.

بعد بضع دقائق، توقف الأب ترافيس بجانبهم في شاحنة الكنيسة البيضاء. رآهم حين خرج، وألقى التحية عليهم، ومشى إلى محطة الشاحنات. شاهدوه يجلس بجوار بوغي على كرسي بجانب النضد. عندما أراد بوغي أن يغادر، وضع الأب ترافيس يده برفق على كتفه النحيلة، فجلس الفتى مجدداً.

رأى الفتية ذلك بوضوح.

«ماذا يفعل؟».

«قد يكون بوغي حصل على عمل».

راقبا الاثنين عند النضد، وبوغي يتكلم ويلوّح بيديه، ثم يميل إلى الأمام حتى صار وجهه فعلياً في طبقه من البطاطا المقلية. بين الحين والآخر، استدار بوغي حول نفسه، وألقى نظرات خاطفة إلى كل جانب، كأن أحداً قد يصغي إليه، على الرغم من أن معظم الناس في المقصورات كانوا صُمّاً تقريباً، ويعدّلون قوة معيناتهم السمعية، ويستمتعون بقهوتهم. أخيراً، أعطى الأب ترافيس بعض القطع النقدية إلى أمين الصندوق وخرج الاثنان من محطة الشاحنات معاً. تململ بوغي، واقفاً بجانب الأب ترافيس، حتى اقترب كورتينز منهما. عندما ركب بوغي تلك السيارة، شغّل هوليس المحرك. كادوا يغادرون المكان حين تدخل

الأب ترافيس، ووقف في طريقهم، ووضع يده على غطاء المحرك المبعوج. أطفأ هوليس المحرك. جاء الأب ترافيس إلى جانب السائق، وأنزل هوليس النافذة. تراجع الأب ترافيس إلى الخلف، وأشار إليهم أن يخرجوا جميعاً من السيارة. فعلوا ذلك، ووقفوا مرتبكين، لا يرغبون في النظر إلى عينيه.

قال الأب ترافيس: «أعرف ما جرى، ولكن لا تفعلوا هذا».

رمقوا بعضهم بنظرات سريعة.

«لا يخاف بوغي الوعيد؛ لأن لا شيء لديه يخسره، لكنه لا يزال خطراً، لذا ينبغي عدم الاقتراب منه. طرده والداه، بعد أن فعل شيئاً لشقيقته. لم يعد لديه إلا صديق واحد فقط. أظن أنكم يجب أن تتركوا الأمر عند ذلك الحد. إذا قمتم بملاحقته، قد تُتهمون بالاعتداء، وسيبقى ذلك في سجلكم، وسيؤذيكم حين تقدمون طلب انتساب إلى الكلية».

لم يكن وايلون قد فكّر جدّياً في الانتساب إلى الكلية، وقد أفرحه أن القس يظن أن بمقدوره فعل هذا.

عندما قاد الأب ترافيس سيارته مبتعداً عن المكان، ركب الفتية سيارة هوليس، وتحدثوا بعض الوقت، ثم انطلقوا بحثاً عن بوغي وايلدستراند، ولكنه كان قد اختفى.

بعد أسبوعين، في يوم دافئ، سمع كوتشي عن الموقع الذي يتسكّع فيه بوغي، وذهب ورفيقاه إلى هناك. كان

المكان في نهاية طريق زراعي وعر، الذي تحوّل إلى مجرد درب موحل بعد أن تجاوزوا مستنقعاً هناك. وصلوا إلى منطقة كثيفة الأشجار وقال هوليس: «أليس هذا هو المكان الذي تعيش فيه معلّمة الروضة؟ السيدة سويت؟».

«عاشت هنا، كما هو معروف، في هذه المنطقة وهربت من البلدة في العام السابق».

لم يرد وايلون وكوتشي؛ لأنهما شاهدا المنزل. كان الباب مفتوحاً قليلاً، والنوافذ غير المكسورة مغلقة ببطانيات ملطخة بالأوساخ. كانت ثلاثة أكياس نفايات سوداء مجعدة مرمية على صخور قد ذاب عنها الثلج في الساحة. عندما تقدم الفتية بحرص إلى الأمام، شمّوا الرائحة وعرفوا أن الأكياس هي جيف كلاب متعفّنة مربوطة إلى نهايات سلاسل معدنية.

قال هوليس: «هذا سيئ. ينبغي ألا ندخل».

كان كوتشي ووايلون على الشرفة آنذاك، وصعد هوليس خلفهما أيضاً. عبقت روائح مواد كيميائية وعفونة الموت في الهواء. سحبوا قمصانهم فوق أنوفهم، ووقفوا في المدخل.

كان المكان مدمراً تماماً، وخزائن المطبخ محطّمة، ويوجد على كل سطح كومة من الأباريق البلاستيكية، والأنابيب المتشابكة، أو البلاستيك الذائب. تدّلت مواد لزجة متحجّرة من السقف والتصقت بقطع من ألواح جصّية متفحّمة. كانت على الأرضية الباردة أكوام من

الثياب الممزوجة بالطعام، والمختلطة بأطباق مكسورة، وعلب محطمة، وقوارير مهشّمة. تقدّموا بحذر عبر النفايات الموضوعة في أكياس أو المتناثرة في أرجاء المكان، وعلب البيتزا العتيقة التي تبدو مثل قطع من جلود الزواحف، والمواد اللزجة، والعظام النخرة، والبراز البشري. لم تكن هناك حركة عند الجدار المقابل لما يُفترض أن تكون غرفة المعيشة، ولكنّ إحساساً بوجود شيء حي انتاب هوليس، ما جعله يشعر بوخزة في عنقه. مزق وايلون بطانية عن أقرب نافذة. شاهدوا شخصين، أحدهما مغطى بالقمامة، ونائم على الأغلب. نهض الآخر مندهشاً، واستجمع طاقته، وأدركوا فوراً أنه بوغي.

طرفت عيناه مثل مصباح نيون في جمجمته الصفراء، في حين بدا فمه مثل حفرة سوداء. اشتدت قبضتاه وارتختا، وأشارت إحدى يديه إلى ذراعه المصابة بالجرب والتي تنزف دماً.

قال بوغي: «جئتم إلى هنا لقتلي».

قال هوليس: «لا».

قال وايلون: «سنغادر المكان الآن».

تراجع كوتشي خطوة إلى الخلف.

ضحك بوغي، ووجّه إليه ضربة جعلته يسقط أرضاً. حاول وايلون أن يبعد بوغي، ولكنه ازداد غضباً، وضرب وايلون برأسه، ثم لكم هوليس بقوة جعلته يسقط أيضاً،

لاهثاً في الأوساخ الزلقة. ركلهم بوغي وضربهم على نحو مخيف، وقد استطاعوا بالكاد الخروج من المنزل والوصول إلى السيارة. حدث كل ذلك بصمت شنيع. قاد هوليس السيارة إلى الوراء، وركض بوغي خلفهم بقفزات واسعة. رمى نفسه على غطاء المحرك، ووضع وجهه على نحو جنوني على النافذة الأمامية، وبرزت عيناه من محجريهما، وأخرج لسانه وحرّكه على نحو دائري على الزجاج. اضطر هوليس إلى قيادة السيارة إلى الأمام، والضغط على المكابح، ثم التراجع بسرعة لإبعاد بوغي عنهم، الذي مشى ببطء بعد أن ارتطم بالأرض بزاوية غريبة. نظر كوتشي إلى الخلف أثناء ابتعاد السيارة عن المكان، ورأى بوغي جاثماً، كأنه سيقفز خلفهم على يديه وقدميه مثل عفريتٍ من أحد الأفلام.

انطلقوا بالسيارة مسافة ميل تقريباً، ثم قال هوليس إن بوغي كان يُفترض أن يتخرّج الأول على الصف.

قال وايلون: «ربما سيحل ثانياً الآن».

قال كوتشي: «في المرتبة الثانية».

شغّل هوليس مسّاحتي النافذة الأمامية في محاولة لتنظيف الزجاج من بصاق بوغي. لكن لم يكن هناك سائل في وعاء المسّاحتين في سيارته، وتحول البصاق إلى شريط قذر.

قال وايلون: «مثل حشرة تماماً»، لكن لم يضحك أحد منهم.

* * *

اندلعت الحرب في مارس، وبدأ الأب ترافيس يشاهد الصدمة والرعب، ثم أغلق الجهاز. كان يرتعش من الداخل، ولم يستطع التفكير. أطفأ المصابيح، وجثا بجانب سريره، ووضع رأسه على قبضتيه المشدودتين. حاول أن يصلي ولكن جسده كان أسير غضب شائك وعارم. صار الجو في الغرفة خانقاً وامتلأ الهواء بطاقة متبدّلة. قفز من مكانه، وارتدى ثياب الجري، واندفع إلى حقل قرب المدرسة والمستشفى حيث يمكن أن يركض في دوائر كل الليل إن أراد. لم يكن حقلاً ضخماً، وقد أنجز بضع دورات فقط قبل أن يلاحظ الضوء في مكتب إيمالاين.

قال إنه لن يفعل ذلك، ولكن وجد نفسه يتجه إلى هناك. أخبر ذاته بأنه سيتوثّق من عدم وجودها هناك، أو أنها بأمان إن كانت موجودة. أخبر نفسه أنها إذا كانت هناك، وإذا لمحها، سيغادر فوراً. لكن عندما جاءت إلى باب المبنى الخالي، لم يغادر المكان. عندما تقدّم منها، عرف أنها تتوقع حضوره منذ تحدّثا آخر مرة. كان الجميع في منازلهم آنذاك يشاهدون الحرب، لذا بقي وإيمالاين بمفردهما.

مشت عائدة مباشرة إلى مكتبها ولحق بها. عندما صارا في الداخل، لم تغلق الباب. كان الضوء ساطعاً. جلست إلى مكتبها وأشارت إلى الكرسي الآخر.

لم يقولا شيئاً مدة خمس دقائق تقريباً، أو ينظرا إلى بعضهما. أصغى إلى أنفاسها واستمعت له يتنفس. تحرّك

قليلاً، ومال إلى الأمام. أفلتت منها تنهيدة صغيرة ومتوترة، بالكاد مسموعة.

كان استقبال البث في تلفاز روميو سيئاً جداً، وبدا واثقاً أنه لم تتم استشارة كوندوليزا بشأن طريقة عرض المشاهد الحربية. شاهد بعض النقاط الخضراء المضيئة، وبدت السماء متسخة. كان ولف بلتزر يكرّر كلمتي قصف عنيف، وقائمة من ثلاث مئة نوع من الأسلحة الدقيقة الموجهة إلى خنادق العدو الحصينة، الذي خرج أفراده يلوحون بملاءات بيضاء كيفما اتفق. كانت الفوضى عارمة باستثناء ربما ما حدث على تلك التلة. تكلموا باستمرار عن التلة حيث اجتمع قادة الاستخبارات العراقية، وكيف دمّروا تماماً تلك المقرات. دمّروا؟ باستخدام صواريخ، ومدفعية، ووجّهوا ضربة بعد أخرى: ما الذي بقي إذاً؟ استعملوا النابالم للقضاء على كل شيء حي أو قد يعيش هناك. ثم جاءت القوات البرية والعرض الضوئي. كانت الأخبار المطمئنة أنه لا توجد أضرار في المنازل، أو الممتلكات، أو حتى المباني، وأنهم دمّروا فقط دبابات وأسلحة أخرى عثروا عليها. قال شريط الأخبار العاجلة في أسفل الشاشة إن الناس يتعرّضون للضرب لإبعادهم عن السفارات الأمريكية في كل أرجاء العالم. فكّر روميو أن ذلك عديم الجدوى، إذ لا يمكن منع أشخاص مولعين بالحرب من فعل ما يرغبون في فعله. أضف إلى ذلك العامل الاقتصادي؛ إذ إن تلك العمليات الضخمة ستنتهي على الأرجح في الأسبوع التالي.

نظر روميو حول نفسه، إلى حياته، وعشائه. كان يأكل بقايا بيتزا أخذها من ثلاجة المستشفى، وقد جفَّ البيبروني فيها حتى صار مثل أقراص قاسية، والجبنة صلبة. لم تكن سيئة، ولكن روميو تمنّى لو أنه قد أحضر خضاراً من أجل تسهيل الهضم. كان حسابه المصرفي يضم رواتبه آنذاك، ولكن لم يرغب في الذهاب إلى المتجر. لم يكن يحب الشعور المرافق لدفع ثمن تلك الأشياء. لماذا كان يدّخر ذلك المال؟

المشهد نفسه، مراراً وتكراراً. لماذا يحتفظ بماله؟ قد ينتهي العالم إما هناك، أو هنا.

«لماذا الادخار؟».

لم يكن يعرف حقاً. كان المال يتزايد، وربما سيكون بمقدور هوليس أن ينظر في أحد الأيام إلى حسابه المصرفي الذي يحمل اسمه أيضاً ويقول شيئاً. ربما سيظن أن روميو لم يكن والداً أحمق بالمحصلة.

قال روميو إلى «سي إن إن»: «هذا هو الأمر. إنه الشخص الذي ادّخر المال لأجله. لهذا السبب آكل هذه الجبنة المتحجّرة وهذه البيتزا اليابسة. لهذا لا يخرج صوت من تلفازي».

اندلعت الحرب في منزل آيرون. صرخت جوزيت: «كاذبون، حقيرون، إنها حرب بسبب النفط اللعين!». كان هوليس في الخارج مع أصدقائه وعاد متأخراً، وربما ثملاً

قليـلاً. كان بيتـر فقـط يشـاهد الأخبـار فـي منـزل آل رافيتـش، وقـال إن لاروز ينبغـي ألا يـرى ذلـك، لـذا صعـدت نـو لا إلـى الأعلـى معـه. لـم تظهـر ماجـي اهتمامـاً بالموضـوع. وضـع الكلـب رأسـه عنـد سـاق بيتـر وأغلـق عينيـه تحـت يـد سـيده، كأنـه ذاهـل نتيجـة تلـك الأصـوات الرتيبـة.

فجـأة، دُفـع الكلـب جانبـاً، مـا جعلـه يـدور حـول نفسـه ثـم يجلـس ويطلـق أنينـاً مرتبـكاً. قلّـب بيتـر صفحـات دليـل الهاتـف الصغيـر، وضغـط أرقامـاً.

أجـاب الرجـل الـذي قـد ضربـه فـي مبـاراة كـرة طائـرة ماجـي، والـد بريليـن وبوغـي.

قال الصوت: «منزل وايلدستراند».

قـال بيتـر: «مرحبـاً، أنـا بيتـر رافيتـش. آسـف لأنني ضربتك، وآمـل أن تكـون ابنتـك بخيـر أيضـاً».

أغلق بيتر السماعة.

«لماذا أفعل هذا؟».

سـأل الكلـب. لمعـت عينـا الحيـوان السـوداوان والبنيتـان بتقدير كبيـر. بعـد بضـع لحظـات، رنَّ الهاتـف، ورفـع بيتـر السـماعة.

«أنا وايلدستراند. لـم أقصد أبداً أن ألمس زوجتك».

«أعرف هذا».

أغلـق وايدسـتراند السـماعة هـذه المـرة. تـرك بيتـر الكلـب يتحرك بحريـة، وأغلـق كل شـيء فـي الطابـق الأول، وتوثّـق مـن الأبـواب.

صرخ نحو الأعلى، لكنه لم يتلق رداً.

قال: «رحل دستي».

مال إلى الأمام، واستند الكلب إلى ذراعيه.

صعد بيتر السلالم ووجدهم، كل واحد منهم في سريره، ووجوههم ظاهرة للعيان في الضوء القادم من الردهة. كان لاروز كتلة ظليلة في السرير السفلي، ووجهه متوارٍ في الوسادة. رأى ماجي أيضاً، إضافة إلى أكوام من سراويل الجينز والثياب الداخلية على الأرض، إضافة إلى كتب، وأوراق، ودفاتر صغيرة، في حين تنتظم قوارير طلاء الأظافر بتنسيق ألوان قوس قزح في درجها. دخل الغرفة التي ينام فيها مع نولا، وتفوح منها رائحة الصابون وبعض الرطوبة. كانت نولا على ظهرها مثل ملكة حجرية في نعش، ولم تتحرّك حين استلقى على الفراش واسترخى بحرص. أدرك أن الجاذبية وثقله سيقرّبانها منه في الصباح، وسيستيقظ ليجدها نائمة بين ذراعيه.

* * *

حزمت إيمالاين حقيبتها لحضور مؤتمر في غراند فوركس. أخذت أشياء تكفيها ليلة واحدة فقط، ثياباً إضافية، وحقيبة تبرّجها، وحذاءً للمشي في حال أرادت التسوّق في مول كولومبيا. أثناء الرحلة إلى هناك، يمكن أن تستمع إلى الشرائط الموجودة في السيارة، لكن كل ألبوم أو مزيج منها يذكّرها بأوقات أخرى. لم تشغّل شيئاً، ولم تسبّب لنفسها

مشكلة التفكير في ذلك، أيضاً، كما تفعل دائماً في رحلات مشابهة. شغلت نفسها بالقيادة على الطريق. كانت الريح القادمة من الشمال الغربي جافة وقوية، وتهبُّ في موجات كبيرة مثل كثبانٍ على طول المصارف المائية، والثلج يهطل على الطريق. نظرت إيمالاين من وقت إلى آخر فقط إلى آثار الثلج التي تتلاشى باستمرار آنذاك، وأدركت أن السائق قد يُفتن بجمالها.

عندما وصلت غراند فوركس، قادت السيارة مباشرة إلى جامعة داكوتا الشمالية. ألقت محاضرتها، وتكلمت إلى عدّة زملاء، ثم اعتذرت منهم لتذهب إلى الفندق. كانت قد حجزت غرفة في مكان لطيف عبر النهر لن يقيم فيه على الأرجح أحدٌ من المشاركين في المؤتمر. قدّمت معلوماتها، ووقّعت على سجل الدخول، وصعدت إلى غرفتها. خلعت سترتها، وحذاءها، وجوربيها، واستلقت على السرير، ثم نهضت بسرعة. شعرت بالإرهاق فسحبت الأغطية فوقها واستلقت مجدداً، لا تزال مرتدية ثيابها. تكوّرت جانبياً وغفت حتى رنَّ الهاتف. تردّدت يدها حتى الرنّة الثالثة، ولكنها ردّت وأعطته رقم الغرفة.

سمحت له بالدخول وأغلقت الباب بحرص، ووقفا أمام بعضهما. كان يرتدي ثياباً مثل شخص عادي طبعاً. لم يتكلما، وبعد بعض الوقت مدّت يدها ولمست ذراع سترته، فخلعها. لمست قميصه، فنزعه أيضاً. كانت ندوبٌ تملأ صدره وتبدو أعمق عند أطرافها. انتظرت حتى لمس

كنزتهـا، ففكّـت الأزرار البيضـاء الصغيـرة. سـحب الكنـزة مـن فـوق كتفيهـا، وهزّتهمـا حتـى سـقطت إلـى الأرض. عندمـا حدث ذلـك، بـدا كل شـيء سـهلاً وانزلقا معـاً مثل الثلـج على طـول الطريـق، الـذي تسـاقط علـى سـطح الإسـفلت الأسـود.

❋ ❋ ❋

جـرى الإعـلان عـن التقـاط صـور أسـرية رخيصـة ذلـك الربيـع، صبـاح السـبت فـي موقـف السـيارات ألكـو. أصـرّت ماجـي، وقـال بيتـر إن الأمـر لا يسـتحق العنـاء؛ لأن لديهـم صـوراً كثيـرة، صـوراً مؤطّـرة موجـودة علـى الرفـوف.

قالت ماجي: «لكن لم يلتقطها مصور محترف».

أشار بيتر إلى صف الصور المدرسية.

«جميعنا يا أبي، في صورة واحدة. سيسعد ذلك أمي».

«إنها بخير، أليس كذلك؟».

«أرجوك يا أبي!».

تـردّد بيتـر. لـم يكونـوا قـد التقطـوا صـورة أسـرية منـذ حادثـة دسـتي. لـم يعـرف أيضـاً إن كانـت تلـك صـورة أسـرية سـيتم إخفاؤهـا عـن بيتـر ولانـدرو. كان ظهـور لاروز فـي الصـورة شـيئاً رمزيـاً طبعـاً. لقـد عمـل بيتـر علـى إبقـاء أشـياء مثـل تلـك طـي الكتمـان، لا تزعـم أيٌّ مـن الأسـرتين أن لاروز لهـا وحدهـا. أبـدى حرصـاً أكبـر منـذ اسـتعادت إيمالايـن لاروز مؤقتـاً. رفـض، ولكـن ماجـي حدّقـت إليـه مبتسـمة، مثـل ابنـة مثاليـة.

سأل بيتر نولا حين دخلت الغرفة: «هل ستجعلك صورة للأسرة كلها سعيدة؟».

«يجب أن نفعل ذلك!». مدّت ماجي ذراعيها لتعانق والدتها، التي احتضنتها.

«نعم! أحب أن تكون لنا صورة أسرية».

قال بيتر في قرارة نفسه إنه يحتاج إلى جعة.

أخيراً، كانت ماجي قد جعلته يتمتع بصفات متعدّدة: أبٌ متردّد، على الرغم من أنه صاحب مهارات متعدّدة. أبٌ مفسدٌ للمتعة، على الرغم من أنه يحب أن يتوثق من الحقائق بين الفينة والأخرى. أبٌ مهمل يضيع أشياء، على الرغم من أنه قد بدأ يفهم أن شخصاً آخر فقد توازنه منذ وقت طويل. ربما كان أباً بائس المشاعر؛ لأنه يفهم أن ماجي تعتني بنولا طوال الوقت، بطرق لا يستطيع تحديد ماهيتها بدقة. لم يعرف، أو يتذكّر، ما كانت تحبه سابقاً، على أي حال. لذا ربما كان الأب شارد الذهن، والأب البعيد عنهم؛ لأنه يحب تفادي الأسئلة. كان الأب الأفضل صديق للفتيان، على الرغم من أن لاروز هو الابن المفضّل لدى نولا. تعلّق قلبها به، ولاحق بصرها الشوكة التي يأكل بها، وظهره حين يغادر الغرفة.

فيما يخص تلك الصورة، على كل حال، ولجعل الجميع مسرورين، كان كل ما عليه فعله هو ارتداء أفضل قميص لديه والابتسام.

قالت ماجي: «أو ربما بذلة. هل لديك بذلة؟ سنرتدي جميعاً أفضل ثيابنا يا أبي. تحتاج إلى بذلة، وربطة عنق».

وجد بيتر بذلة وربطة عنق زفافه.

خرجت نولا في فستان بنفسجي مع مشبك فضي على الخصر. خفضت ماجي رأسها وحدّقت إلى والدتها. تحرّكت الأيونات المشحونة، واستدارت نولا حول نفسها، ثم عادت إلى غرفة نومهما. ماذا جرى تواً؟ تساءل بيتر. لن يرى ذلك الفستان بلون الخوخ مجدداً أبداً. كانت نولا ترتدي آنذاك بدلة نسائية بنية، وقميصاً أبيض، وحذاءً أسود. بدت مثل مضيفة طيران أو مرشحة رئاسية.

قال: «ستحصلين على صوتي».

قالت ماجي: «لن تكتمل هذه الثياب إلا مع القرطين الأخضرين اللامعين يا أمي. ووشاح!». استدارت نولا عائدة إلى غرفة النوم.

لم يكن لدى لاروز بذلة، وإنما قميص رسمي. صفّفت شعره إلى الخلف ببعض الماء. قالت نولا إنه يبدو فتى استثنائياً حقاً، وابتسم الجميع. كان لدى ماجي كنزة وصدرية من اللون نفسه، الوردي الداكن، وتنورة جلدية قصيرة ومثيرة، بلون قشر البيض. كانت تضع عصبة بيضاء، وتنتعل حذاءً من التسعينيات حصلت عليه من والدتها. شعر بيتر بالحيرة حين ارتدت ماجي ثياباً جعلته يتذكّر نولا في الجامعة، في تلك الأعوام التي لاحظ كل ما يتعلق بثيابها، وبها أيضاً.

قال حين نظر إليهم جميعاً: «أنا رجل محظوظ»، وقد عنى ذلك فعلاً.

نظرت نولا وماجي إليه بإمعان. لم تفهما غالباً ما كان يقوله آنذاك، ولكن أشاحتا بصرهما بعيداً عنه، متحفّظتين قليلاً مثل والدتين حنونتين.

مع الكمية الكافية من الشراب، نظر روميو إلى الأمور على أنها دراما تلفزيونية حيث يصير الانتقام عدالة، ورأى نفسه خارج ذاته، وسمع حتى الموسيقى، الخافتة أو الصاخبة. ورأى؟ كان بيتر مرتدياً حلّة بهيّة ليشارك في صورة بطولية، كما فكّر روميو. لكن رسالة مفزعة وصلته.

اقترب روميو من بيتر رافيتش، الذي شاهده في موقف السيارات ألكو. كان ينبغي عليه متابعة الجدال مع لاندرو في ذهنه من أجل مواصلة السير. مع ذلك، مع ذلك! لم يكن لاندرو قد تكلم مع روميو بشأن الأيام الغابرة، وبدا متغطرساً ولم يتنازل لمنح روميو إشارة على أنه يقدّر قليلاً فقط التضحية التي أقدم عليها، ومحاولة إنقاذ لاندرو، حتى ذلك اليوم. أضف إلى ذلك أنه كان يسرق هوليس وإيمالاين وكل ما ينبغي أن يكون مُلكاً لروميو. بدا أنه يفلت بفعلته تلك؛ لأنهم جميعاً يصدّقون لاندرو الكاذب، لاندرو المنقذ والرزين، لاندرو الذي يمكن أن يقترف أسوأ شيء ممكن ويبقى مع ذلك محبوباً لديهم. ينبغي أن يسقط لاندرو ذاك.

حاولت أن أحذّره، مراراً وتكراراً.

وقف روميو آنذاك أمام بيتر رافيتش.

«هل يمكن أن أتكلم معك؟».

يتذكّر بيتر روميو على نحو غامض، ولكن لا يعرف من أين تحديداً. لا يتذكّر روميو نفسه أنه قد اقترب مرة من بيتر حين كان يملأ سيارته بالوقود، وأنه احتال عليه حين عبس بشأن أرقام المضخة. أخبر بيتر أنه قد أضاع محفظته ويحتاج إلى عشرة دولارات من أجل الوقود لنقل جدّته إلى المستشفى. فتح بيتر محفظته المطوية وأعطاه خمسة دولارات. آنذاك، وقف روميو مائلاً في الظل، وأبعد بيتر عن أسرته.

يقول: «هذا شأن خاص».

يبدو شعر روميو الطويل مربوطاً في ضفيرة أنيقة، وقد فعل ذلك بنفسه؛ ضفيرة رطبة من الاغتسال خفية في أرض المخيم. لقد استفاد من الأشياء التي حصل عليها ويرتدي قميصاً من دون ردنين يبدو جديداً، وعليه نسر بلاستيكي ضخم، وبجانبه سلحفاة تحمل عصبة رأس هندية، وكلاهما يهربان من صائد أحلام. يوجد منديل أحمر متموّج حول عنقه. يشدُّ روميو خصلات شعره المتدلية حول وجهه. يبدو سرواله الجينز منخفضاً، ويصل بالكاد إلى وركيه. يتكلم بهدوء، على الرغم من أنه يتنحنح بعد كل بضع كلمات.

يقول: «اعتذر، لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة».

يقول بيتر: «يفترض أن أكون هناك».

«أنا صديق لاندرو».

«أوه؟».

«حسناً، لست صديقاً، كما سترى، ولكن صديق سابق قبل أن أكتشف ما كان لاندرو ينوي القيام به».

يتوقف روميو، ويشعر بالفخر من جملة «كما سترى»، التي وصفتها السيدة بيس مرة بأنها تشويقية. يتصنّع الأسى على وجهه، كأنه حزين لنقل الخبر عن شخصية لاندرو الخفية إلى شخص يثق به.

يستخدم روميو، في الواقع، جملة يعدّها ملهمة: «أعرف أنك تثق به».

«أنا ... نعم، بالتأكيد ... ماذا يجري». ينظر بيتر إلى أسرته، ويبتسم غير واثقٍ بما يحدث، ويلوح لتراه وجوههم التي يبدو أنها قد فقدت الصبر.

يقول روميو بنبرة رسمية: «أنا عامل في المستشفى. لهذا السبب، أسمع مصادفة ما يحدث فعلاً من وقت إلى آخر في الحياة الحقيقية».

يشعر بيتر بالاتجاه الذي تسلكه تلك المحادثة ويحاول استخلاص معلومات بسرعة. لكن روميو راوٍ بارع وقد حاز على اهتمامه بتلك القصة. يضع روميو يده على صدره.

يقول روميو: «أعتذر إن كان هذا سيجعلك تشعر

بالألـم مجـدداً، ولكـن لـم يخبـروك بالحقيقـة. وأشـعر أنـني ـ هـذا يعني نفسـي ـ بأنـك، بوصفـك والـداً، تسـتحق معرفـة الحقيقـة».

يصير كل شـيء آنـذاك بطيئاً أو حتى مشـلولاً، كأن الوقت قـد تخلّـى عـن عمله ولـم يعـد هنـاك إلا روميـو وبيتـر فقـط، وشـيء مفـزع مثـل جـرس فـي عقـل بيتـر.

يقول روميو: «في ذلك اليوم قبل ثلاثة أعوام».

«لا تتفوّه بترّهات».

انحنـى كتفـا روميـو، واتسـع صـدره، وتضخّـم عنقـه، وحكّتـه يـداه الثقيلتـان ليمسـك الوشـاح الأحمـر ويفـكّ عقدتـه لإخـراج الكلمـات مـن فمـه. هـذا الرجـل سـيئ، وينـوي الشـر هنـا. فـي الوقـت نفسـه، هـذا شـيء لا يسـع بيتـر إلا أنـه يعرفـه. إنـه أمـر قائـم سـواء سـمعه أو مشـى مبتعـداً عنـه. سـيكون موجـوداً خلـف العبـوس الـذي يعنـي «آسـف لإبلاغـك هـذا»، مـع تلـك العجرفـة الباديـة فـي سـلوك روميـو المداهـن.

يقـول روميـو، هادئـاً: «إنهـا ليسـت ترّهـات». توقّـع هـذا العنـاد مـن بيتـر، لـذا يتابـع ببطء أكبـر. «لانـدرو المسـكين». يتنهّـد روميـو. «يحـاول أن يـداوي نفسـه أحيانـاً، كمـا تعـرف؟ يبـدو أنـه حـاول حتـى ذلـك الوقـت. سـمعت الرجـال الذيـن كانـوا فـي فريـق الإسـعاف ذلـك اليـوم، واطلعـت علـى تقريـر الطبيـب الشـرعي».

«طبيب شرعي؟».

«نعم، ألم يخبرك أحد؟ ألم يطلعك أحد على ذلك التقرير؟ ربما غفلت عن ذلك؟».

خارت ساقا بيتر. لا. ربما تم وضعه في الأرشيف أو حرقه. لم يخطر ذلك على باله. صار ذلك الأمر الذي لا يمكن تصوّره، على الأقل، واضحاً. لقد رأى بيتر الشجرة حيث حدث الأمر. بدا كل شيء منطقياً على نحو لا يحتمل. لم يرغب في معرفة أية تفاصيل سابقاً. كانت يداه مكبلتين آنذاك، مع نولا التي أُصيبت بصدمة وماجي التي تشبّثت به كأنها تغرق. ثم ضربته، وأمسكت به بقوة. لم يكن هناك شيء يجعله ينظر إلى أوراق الوفاة، ولم يكن ذلك سيعيد ابنه إلى الحياة. كانت التقارير وثائق باردة، وهو يتعامل آنذاك مع الشعور الساخن بالحزن.

«إذاً، لا».

قال روميو بصوت خافت: «لديّ نسخة منه هنا»، ثم كرّر الجملة التي سمعها عبر التلفاز. «استطعت الحصول على ملف، ويمكن أن أخبرك بما يوجد فيه». صوت روميو موضوعي ومقنع. يعجبه مدى الذكاء الذي يظهر عليه، رأسه مثقوب ولكن عقله ذكي، بالمحصلة.

«يقول إن خرطوشة لاندرو لم تصب رأس دستي، أو قلبه، أو رئتيه، أو كبده، أو شريانه الأبهري، أو شريان فخذه، أو معدته. يقول إن دستي لم يمت من الرصاصة، وإنما نتيجة طعنة حادة من الغصن الذي كان يجلس عليه. جروح سطحية يا سيدي. نزف حتى الموت حين كان لاندرو

يحتجز زوجتك في المنزل. لا يقول التقرير هذا تحديداً، ولكن الرجال يشكّكون في أن تصرف لاندرو لم يكن ـ على نحو مأساوي ـ حكيماً. لو أن لاندرو لم يركض أو يُصب بالذعر، ولكن توقف ليعالج نزيف الفتى، واستفاد من معلومات الرعاية الشخصية التي يعرفها بالتأكيد، لكان قد أنقذ حياة دستي على الأرجح».

«و...». أضاف روميو تأثيراً آخر هنا. «... و، لو أن زوجتك استطاعت أن تركض إليه، ربما كانت ستنقذ الفتى».

يشعر بيتر بالورقة بين بيديه. يفتح الوثيقة، ويقرأ بسرعة الكتابة بخط اليد. لن يقرأ عقله العبارات في الجمل، على الرغم من أن الكلمات التي استخدمها روميو تبرز هنا وهناك. تسقط الورقة، فيلتقطها روميو ويحاول أن يعيدها بحذر إلى يد بيتر، إنما من دون أن يلقى استجابة، لذا يتراجع إلى الخلف. ذراع بيتر طويلة، وربما حان الوقت آنذاك ليتلقى روميو ضربة قوية.

عندما يحدّق بيتر إلى روميو، يبدو التأثر واضحاً على وجهه. يتغضّن جلد بيتر وتظهر خطوط فيه، ويصير بني اللون مثل مخطوطة عتيقة، ويبدو فجأة طاعناً في السن. يتراجع روميو خطوة أخرى إلى الخلف نتيجة ذلك الانطباع الخاص المذهل. تنادي ابنتا بيتر أباهما.

«أبي! إنه دورنا».

يغلـق بيتـر فمـه، ويركّـز عينيـه عليهـن. يتجـاوز روميـو ويذهـب ليقـف أمـام المصـوّر.

يقـف بيتـر عنـد نهايـة الممـر المـؤدي إلـى منزلـه، سـاكناً، ومتوازنـاً، ويـداه مسـترخيتان إلـى جانبيـه. لا يلـوّح إلـى السيارات القليلـة التـي تتجـاوزه، أو حتـى يراهـا؛ لأنهـا ليسـت سيارة لانـدرو. خلفـه، فـي الشـاحنة، يمكـن رؤيـة بندقيـة الصيـد فـي محفظتهـا الخاصـة عبـر النافـذة الخلفيـة. يرتـدي جينـزاً أزرق، وقميصـاً، وسـترته القديمـة المقلمـة باللونيـن الأحمـر والأسـود. رأسـه يطـن، ويسـمع هديـراً خافتـاً للدمـاء فـي أذنيـه. هـل تذكّـر أن يرفـع مسـمار أمـان البندقيـة؟ لقـد جلـب البندقيـة بسـرعة. نعـم لقـد فعـل، نعـم. يطـرح علـى نفسـه هـذا السـؤال كل ثـلاث دقائـق. عـرف جـزء منـه مـا سـيقوله روميـو، وكان بانتظـار ذلـك. لا يبـدو الأمـر خبـراً، وإنمـا إقـراراً. كل صـوت مضخّـم. يمشـي الكلـب متثاقـلاً بيـن الشـجيرات المتشـابكة. ينظـر بيتـر إلـى أشـجار البتـولا والحـور، ويـرى الأوراق تهتـز لامعـة. لا يتذكّـر صـوت ابنـه. لا يسـتطيع اسـتحضار لوحـة سـعيدة لـه فـي ذهنـه لا تكـون مجـرد صـورة. لكـن يـرى ابنـه فـي الأوراق، وحيـث كان قبـل أن يرقـد دسـتي بسـلام، ويرحـل مخلّفـاً صدمـة كبيـرة. يـرى الآن عينيـه مفتوحتيـن، وينـادي. إنـه خائـف. يضـرب بيتـر جانـب رأسـه، محـاولاً اسـتجلاب صـورة أخـرى. الأوقـات السـعيدة، لا صـورة عنهـا. الأوقـات الحقيقيـة. لمـاذا لـم يحفـظ تلـك اللحظـات؟

قلبه بارد مثل الحجر في هذه اللحظة، على كل حال.

يرفع ذراعه، ويلوّح لإيقاف لاندرو. لا يتحرك. يبدو واضحاً للاندرو أن لدى بيتر شيئاً يقوله، لذا يوقف السيارة ويخرج منها، قلقاً.

«ما الأمر؟».

يستدير بيتر، ويفتح الباب بجانب الراكب في الشاحنة.

يقول: «اركب».

يمتثل لاندرو.

يجلس بيتر على مقعد السائق، ويشغّل محرك المركبة، وينطلق بها.

«إلى أين سنذهب؟».

«الصيد».

يقول لاندرو: «لم يحن موسم الصيد بعد».

يقول بيتر: «بلى».

في طريقهما إلى أرض اتحادية، يبلغ بيتر لاندرو بكل ما قد أخبره به روميو في موقف السيارات ألكو. لا يجادل لاندرو تلك الحكاية؛ لأنه لا يعرف فعلاً ما جرى أثناء توالي تلك الصور المفاجئة، ولا يستطيع حتى أن يتذكّر. هل كان في مكانٍ عالٍ ذلك اليوم؟ لا، لا يظن هذا. لا، يعرف أنه لم يكن كذلك. لا. لكن هل هذا هام؟ إنه مذنب بكل الأحوال، فقد أطلق الرصاصة، ولو أنه استطاع إنقاذ الفتى ... وضع بيتر أصابعه متباعدة على وجهه، كأنه يرغب بأن

يجمع قطعاً منه معاً. تابعا الرحلة بصمت. بات جلد بيتر شاحباً مثل صخرة، ولكن يديه مسترخيتان ودافئتان على عجلة القيادة. انقضت أربعون دقيقة في ثوانٍ.

تمايلت الشاحنة على طريق قديم بين أشجار مقطوعة ووصلت إلى حافة تلة، وتوقفت في فسحة بين أحراج تنمو فيها أشجار جديدة. كانا قد اصطادا معاً، قبل عدّة أعوام، في ذلك المكان. كانت هناك بقعة مغطاة بالكلأ سابقاً، وقد جثم لاندرو فيها خلف شجرة على الحد الجنوبي، منتظراً، في حين اقترب بيتر نحوه من الشمال. اصطادا ظبياً رائعاً في ذلك اليوم.

خرجا من الشاحنة آنذاك، ومدّ بيتر يده إلى الداخل لجلب البندقية.

يقول بيتر، مشيراً نحو الطرف الجنوبي: «سأعثر على ذلك الموقع هناك». يومئ إلى الشمال، وينظر بهدوء إلى عيني لاندرو. «انزل من التلة نحوي. سأنتظرك».

يستدير لاندرو نحو التلة، ويشعر براحة تتغلغل بين ثناياه؛ لأن كل ذلك سينتهي قريباً. يحسن بيتر التسديد، وسيتلاشى كل شيء. لن يخفي حقيقته البائسة أكثر من ذلك. لن يكافح مع الوجود أو عدم الوجود. لن ينتظر أن تحبه إيمالاين مجدداً. على الرغم من أن الأولاد ... هل سيحرّرهم هذا؟ لا يظن أن بمقدوره مواصلة العيش، على أي حال، وأن يرى إلى الأبد ما يراه الآن ويعرف ما جرى في ذلك اليوم. تسارعت أفكاره. نعم. لدى بيتر منظار على

بندقيته. لن يسمع لاندرو حتى الرصاصة. لن يكون الموت شيئاً هاماً. يبدو مثل خدمة، تقريباً. يستغرق لاندرو وقتاً، ويمشي بهدوء مثل نائمٍ أثناء صعوده التلة. عندما يصل إلى منتصف الطريق نحو القمة، يخبر نفسه بأن عليه أن يستدير وينزل، ويبدأ آنذاك مواجهة المتاعب.

تكاد الرغبة غير المرحب بها بالحياة أن تعيق لاندرو حين يحدّق إلى الأسفل نحو الغابة حيث ينتظر بيتر. يرى شجرة البتولا، والطبقة الخضراء النضرة والجديدة. تهتز الأشجار متلألئة في الضوء. كان جدّه يحصل على النسغ من أشجار البتولا في الربيع، ويتناولون هم ذلك الشراب البارد، بطعم الحياة. كان يأكل اللحاء، أو الطبقة الداخلية منه، حين يشعر بالجوع أثناء وجود والديه في الخارج يتناولان الشراب. قريباً منه، يرى جذوعاً داكنة لأشجار سنديان يمكن أن يختبئ خلفها. لن تخترق رصاصة بيتر ذلك الخشب أبداً. بدأت الضفادع النقيق مجدداً أسفل تلك التلة تخبره أن يهرب. لكنه لا يركض. تكاد الدماء تجف في قلبه، وتبدو ذراعاه وقدماه شفافتين تقريباً. يلقي نظرة إلى الأسفل ليرى إن كان قد تعرض لإطلاق نار. يشعر بالكآبة والراحة معاً حين يدرك عدم وجود دماء. تخبر الأفكار لاندرو بأنه لا يزال بمقدوره الإفلات من محنته. يصير خارج نطاق البندقية، ويمكن أن يركض. لماذا، إذاً، يطأطئ رأسه ويمشي عائداً إلى أسفل التلة؟

هو عنيد، وغاضب، ولن يمنح بيتر ما يرضيه. بربابطة

جأش أدهشته، يأمر لاندرو ساقيه المرتعشتين بالمضيّ قدماً، وهما تتحرّكان فعلاً. طالما أنه يطأطئ رأسه نحو أسفل التلة، سيتبعه باقي جسده. يُبقي بصره على الأرض، ويرى نبات التريليوم، وثوماً، وشاي السبخة، وسنفورية، وعنب القطا، وفراولة برية. يتوقف لاندرو، ويقطف بعض الثمار، ويضعها في فمه. الطعم حلو جداً ويجعله يرغب في أن يسقط هناك تماماً، وأن يزحف نحو الأشجار الكثيفة، والأجمة المتشابكة. خطوة بعد أخرى. يئز الخوف في دمه. يتمتم: «اقتلني، أيها الغبي، اقتلني الآن»، محاولاً الاحتفاظ بذلك الغضب. يجرّب إنشاد أغنية موت مثل التي تكلم عنها كبار السن، ولكن حلقه يصرخ: «اقتلني، أيها الغبي، اقتلني الآن. أطلق الرصاصة، أطلق النار، أطلق النار الآن». لكن خطوة تتلو أخرى. يتعثر أحياناً، ثم ينهض مجدداً ويواصل السير.

* * *

عندما يغادر روميو موقف السيارات ألكو، يتساءل عمّا سيجري، بعد أن أفضى بما لديه آنذاك. كان كل كيانه مركّزاً على ذلك الهدف فقط.

يقول: «انتهى الأمر».

لقد أطلق شرارة الأحداث، التي لم يعد يسيطر عليها آنذاك.

«انتهى عملي هنا».

مـن سـأزور، ومـاذا سـأفعل؟ لا شـيء يبـدو مغريـاً. بعـد انخفـاض مسـتوى الأدرينالـيـن، سـيكون يومـاً عاديـاً، بعـد أن تبـدّدت كل الطاقـة فـي الهـواء علـى الرغـم مـن وجـود أشـعة الشـمس. ينبغـي أن ينـام روميـو قبـل العمـل. نـام سـاعتين فقـط فـي الليلـة السـابقة. لكـن يسـتطيع اللجـوء إلـى عـدّة خيـارات كيميائيـة للمضـي قدمـاً. لا يشـعر برغبـة فـي النـوم؛ لأنهـا سـاعات مصيريـة. لـو أنـه يسـتطيع فقـط أن يتكلـم مـع شـخص آخـر! لكـن كالمعتـاد، لا أحـد يرغـب فـي أن يقـوم روميـو بزيارتـه. كرسـيه الثميـن فـارغ في منزلـه الصغيـر، يمكنـه الذهـاب إلـى هنـاك. يسـتطيع ترتيـب بطانيـات النوافذ، وإشـعال الضـوء، وقـراءة الأخبـار القبليـة أو كتـاب أدبـي حصـل عليـه مـن قمامـة المستشـفى. يرمـي النـاس كتبـاً جيـدة هـذه الأيـام. نظريـاً. عندمـا يفتحهـا يكتشـف أنهـا ترّهـات دائمـاً.

إلى أين؟ إلى أين أيها الرجل؟

يبـدو اجتمـاع الإقـلاع عـن الكحـول مغريـاً. الوجهـة؟ يتذكر روميـو أن أفـراد المجموعـة تحدّثـوا عـن الخطـة التـي تتضمـن بحثـاً ونقـداً أخلاقيـاً جسـوراً، وهـو الموضـوع المفضّـل لـدى روميـو. يحـب الاسـتماع إلـى الانتقـادات الجديـدة لمواطنـي بـلاده كل أسبوع. تحتفـظ مهـارات الإصغـاء لـدى روميـو بـكل مـا تسـرده المجموعـة، وتثيـر تعليقاتـه الأخيـرة مرحـاً ودموعـاً. يبـدو تكلّـف تلـك الاجتماعـات ملائمـاً لـه، وهـي تحسّـن مزاجـه دائمـاً. لـذا سـيذهب إلـى هنـاك. يركـب فـي سـيارة إلـى أعلـى التلّـة، ويتسـكّع قليـلاً عنـد زاويـة الكنيسـة، ثـم ينـزل

الدرجات، ويمشي على طول الردهة إلى الغرفة المريحة المغطاة بسجاد قديم. يجد الكراسي في دائرة، بانتظارهم. لا أحد هناك بعد. يجلس روميو ويدرك أنه قد لا يمتلك الوسيلة لجعل مزاجه ملائماً لتحمّل انتقادات الزملاء. لديه شيء ما بالتأكيد، ولكنه تركه في الحمام ليستفيد منه بأمان فيما بعد، ويشعر بأنه محصّن حين يعود.

لم يظهر أحد حتى ذلك الوقت، ولا توجد قهوة في آلة تحضير ها.

تتسلّل أشعة الشمس إلى الداخل، وتفوح رائحة طهي استعداداً لجنازة ما في آخر الرواق. الأفضل تناول الطعام متأخراً. يصير الكرسي القاسي أكثر راحة مع تعزيز المناعة الكيميائية. أضف إلى ذلك أن هناك شماتة ستكتمل قريباً. يحاول روميو جعل التحقيق يصل إلى هدفه المنشود الآن. يفكّر فيما جرى، ويتذكّر كل كلمة وحوار، والشعور الذي انتابه في موقف السيارات ألكو. ستبقى تلك اللحظات مطبوعة في ذاكرته إلى الأبد، وسيستمتع بها بمفرده. يمعن التفكير في الارتباك الذي سيحصل بادئ الأمر، ثم الفزع، والدوار، واتخاذ القرار، ما سيعني عقاباً كبيراً سيناله لاندرو أخيراً. ربما الموت حتى، بسرعة أو ببطء، على الرغم من أنه لن يكون مرجحاً. وهل سيرغب في حدوث ذلك فعلاً؟ لقد حرّك المياه الراكدة، وهذا كل شيء.

«أنجزت عملي هنا».

يقول روميو بصوتٍ عال: «أحب هذا».

يميل إلى الخلف ويريح رأسه قليلاً على الذراعين المعقوفتين، ويمد ساقيه، وتبدو الحزينة منهما أقصر وأكثر هدوءاً الآن. هذه هي وضعية الرضا التي يتحدّث عنها الأب ترافيس حين يدخل إلى الاجتماع، ويجلس قبالة روميو، النائم على تلك الحال. أخيراً، يدعوه القس باسمه ويوقظه من سباته. كان يفترض أن يبدأ الاجتماع بعد عشر دقائق.

يقول الأب ترافيس: «أظن أننا سنكون نحن الاثنين فقط».

لا يستحق الأمر العناء.

يشعر روميو بالإحباط، لن تكون هناك تسلية.

يقول الأب ترافيس: «على العكس. إنها فرصة لنتكلم عن تقدّمك في البرنامج يا روميو».

يقول روميو: «يفترض أن أكون في مكان آخر».

يقول الأب ترافيس: «يفترض أن تكون هنا».

يتجاوزان التحيات المعتادة والإجراءات التنظيمية. يقرآن الخطوات بصوت عال. يقول الأب ترافيس: «هيا انهض».

«أنهض؟».

«أنت الخطيب اليوم».

«ليس لديّ شيء».

«لديك بالتأكيد».

يريد روميو أن يقول تباً لذلك، ولكن فمه يدهشه حين ينطق كلمات أخرى.

«لا بأس، سأبدأ».

يبدو أن فمه، ولسانه، وحباله الصوتية تعمل على نحو منفصل عنه في البداية. تهتز تفاحة آدم، وتتذبذب جمجمته، ويهتز صوته ارتعاشاً. ماذا يجري؟ يبدو المتكلم روميو مختلف، روميو داخلي. لقد نفّذ هذا الروميو البديل والمجهول انقلاباً، وسيطر على البنية التحتية لاتصالاته. هل تخونه تلك العقاقير؟ ماذا تناول مجدداً؟ ما هو شكل الحبة؟ يظن روميو أنها كانت بيضاء كبيرة وبيضاوية، ولكن هناك أيضاً بعض الأقراص الصفراء الأصغر حجماً. ربما يعاني من تأثيرات جانبية. يفزع روميو من الصمت حتى عندما يصير روميو الثاني فصيحاً، ويبدأ القيام ببعض الأمور التي يفعلها الناس عادة لأسباب معينة. يتفوه فم روميو الثاني ترّهات، ويعلو صوته شيئاً فشيئاً، حتى يفهم روميو الأول يائساً أن روميو الثاني قد قفز مثل ضفدع كل تلك المسافة إلى العتبة المبجّلة الموجودة في مكان ما خلف الثلاثة، وربما الأربعة، أو الخمسة، حيث يمكنك أن تخبر الرب وأي إنسان آخر بحقيقة أخطائك. تتكلم عن تأثيرات جانبية متداخلة. عند الأخذ بالحسبان الدوار، وألم المعدة، وسلس البول، وانقطاع النفس، وفشل كلوي محتمل، أين تكمن الحقيقة فعلاً؟ في هذه الأثناء، يشعر الأب ترافيس، وهو إنسان آخر وممثل الرب على الأرض، بالدهشة من كلمة روميو المفاجئة:

«لم أكن دائماً هذا الشخص الحقير أيها الأب ترافيس. سابقاً، كنت شخصاً محترماً. سابقاً، كنت أُعدُّ أذكى فتى في صفي، وصديقاً مقرّباً من لاندرو آيرون نفسه وكاتم أسراره حين كان لا يزال فتى عادياً. حدث هذا قبل أيامه العصيبة، حين كان جديداً في المدرسة الداخلية. تمتع لاندرو آنذاك بمنزلة نجم الروك، المستند دائماً إلى جدار متين. ثم أقنعني لاندرو بالهروب، وهي مغامرة فاشلة ستغير حياتي، إلى حدٍّ كبير...».

دموع، لا من أجل الحصول على تعاطف الآخرين واستخلاص معلومات منهم، وإنما تلك التي يذرفها المخنوق، أو البائس، أو المهموم. يصير صوته خشناً. «دمّر حياتي!». يحاول روميو السيطرة على روميو الثاني، ولكن الوقت قد فات لإيقافه. يندمجان معاً، ويواصل الحديث.

«في مغامرتنا المشتركة، وقع لاندرو فوقي من ارتفاعٍ عالٍ وكسر ذراعي وساقي، أنت تعرف القصة. الجميع يعرفون القصة. مصير لاندرو هو إلحاق الموت والأذى بالأشخاص من حوله، في حين يفلت بفعلته كما تخرج الشعرة من العجين. أو يذهب إلى إيمالاين. أعني، كانا في المدرسة. حدث ذلك بعد أن هربنا. قبضوا علينا، بعد أن اضطررنا للاستسلام. لقد عدت من المستشفى بجانب كامل محطّم، وذراعٍ بجبيرة كريهة الرائحة تسبّب الحكّة، وساق مثبّتة من الداخل، ومصابة بأضرار عصبية لا أزال أعاني منها حتى اليوم. أول شيء، رأيت لاندرو.

ناديته: «يا رجل! يا رجل!».

نظر إليّ مباشرة. ربما كان يشعر بالسوء بسبب ما فعله. لكن لا أسف! نظر نحوي مباشرة.

أيها الأب ترافيس، سقطت من العلياء في تلك اللحظة تحديداً. لا بسبب عظام ذراعي المحطّمة أو ساقي الحزينة، أو فقداني خلايا دماغية في تلك السقطة، أو لأنني مدمن غاضب سيفعل أي شيء لتلبية رغباته، على الرغم من أن هذا صحيح أيضاً. لكن أيها الأب ترافيس، ليس هذا هو السبب.

هل سمعت مرة عن القيلة السُّرّية؟ هل تعرف ما هو؟ إنه نوعٌ من التوأم الطفيلي. ليس له قلب، ويعتمد على قلب التوأم الآخر لتغذيته بالدم. يعيش عالة على الآخر ويتلاشى عادة قبل أن يعرف أحد أنه موجود. تلك هي الحال معي، كان لاندرو القلب النابض، وأنا التوأم الأضعف، وعندما لم يعد يعرفني توقفت دورتي الدموية. صرت شخصاً ميتاً أيها الأب ترافيس. كنت ميتاً من الداخل بعد تلك السنة الأولى حين لم يعد لاندرو يعرفني فجأة، أو يجيب على اتصالاتي فجأة، وبعد أن نبذني فجأة حين كنت بأمسِّ الحاجة إليه. أردت أن يهبَّ لمساعدتي ومنع الاسم المستعار من الالتصاق بي. تطلّب الأمر كل طاقتي للتخلّص من تلك الأسماء المستعارة. ضربت كريب على نحو مبرح ولاحقت ستوبر، وغرزت أنيابي في وينغ، ودافعت عن نفسي. بقيت روميو. فعلت هذا، لكن الأمر كلّفني كثيراً، ويمكن أن ترى ذلك الآن: أنا ما أنا عليه. لست شخصاً صالحاً، أو طالحاً».

يصغي الأب ترافيس، متأثّراً، وعيناه تنظران إلى الأسفل.

يقول روميو: «حسناً، ربما. قد أكون الشخص السيئ. لم أسامح كل تلك الأيام والسنين. لكن حين أرى لاندرو يعيش حياة عادية مع الفتاة التي جعلتني مميزاً، التي ربما أحبتني في وقت ما كما أحببتها، أشعر بأنني أكثر موتاً من ذي قبل. صرت شخصاً منبوذاً، ومجرد أنبوب تغذية، حقاً».

يفكّر الأب ترافيس أن روميو يحب إيمالاين أيضاً، وتجعله حقيقة أنه وصديقه المراوغ يتشاطران الشعور نفسه يرفع رأسه ويثبّت ناظريه على روميو. تترك إشارة الاهتمام الصغيرة تلك أثراً عميقاً لدى روميو.

تنكشف حقيقة لا يعرفها فعلاً.

«لقد وضعت الإشارة على لاندرو الآن أيها الأب ترافيس».

«ماذا تعني؟».

يفقد روميو تركيزه. ماذا يعني؟ وضع الإشارة. يتلعثم، تحت وطأة التأثيرات الجانبية لقول الحقيقة، في محاولته تجميع ما لديه بثقة مطلقة بشأن بيتر رافيتش. يتكلم بذلك النوع من الثقة. ينبغي أن يكون كلامه مقنعاً، وسلساً، ومؤثّراً. أوه، نعم. يتذكّر الآن. يتظاهر روميو بالبراءة.

«تعرف إذاً أن لاندرو آيرون قد عانى من انتكاسة في ذلك اليوم. نعم!». يرفع روميو يده، شاهداً. «نعرف أنه يكافح، ويقاوم، وأفهم أكثر من غيري هذا. ينبغي أن تعترف بذلك

أيها الأب ترافيس. أكره أكثر من أي شخص آخر حمل الأخبار السيئة. لكن، نعم، يتطلب الأمر شخصية قوية. حتى إذا كان لاندرو يتمتع بتلك الخصلة، التي أعرف أنه يمتلكها أيها الأب ترافيس؛ لأنني أعرف لاندرو جيداً، هناك أوقات أخرى مغايرة. حدث ذلك في أحد تلك الأوقات. أصابت رصاصته غصن شجرة، وكسرته، وأُصيب الفتى بشظية منها. لكن كانت جروحاً سطحية، وقد تعرّض إلى عددٍ منها، هنا وهنا وهنا. لم تصب أي من تلك الجروح عرقاً أو شرياناً رئيساً. سبب الموت هو الاستنزاف. على كل حال، لو أن لاندرو لم يهرب من الموقع لكان قد أوقف ذلك النزيف. لو أنه لم يوقف والدة الفتى، لاستطاعت الوصول إلى ابنها في وقت ملائم لإيقاف النزيف. ربما كان هذا الفتى حياً. نسخت نسخاً من تقرير الطبيب الشرعي، الذي يوضّح هذا، وقد وقّعته مايتي جورجي بنفسها، نعم، جورجي مايتي غير موجودة الآن، للأسف الشديد، وإلا يمكنها أن توضّح هذا الأمر بنفسها، كما أكّده الطبيب الشرعي في الولاية، الذي كان موجوداً في المنطقة وتم استدعاؤه لتولّي هذه القضية، لذا نعم. هذا محزن جداً ...».

شرد روميو قليلاً، ثم استعاد توازنه، وفتش في جيوبه وأخرج التقرير.

يمدُّ الأب ترافيس يده، ويأخذ الورقة. يقرأ التقرير، ويمسكه وقتاً طويلاً كفاية ليقرأه عدّة مرات. يرفع بصره عنه أخيراً لينظر إلى عيني روميو الناعستين.

«لا يقول ذلك».

تطرف عينا روميو.

«لا يقول ذلك».

يشدُّ روميو قامته على كرسيه، مطبقاً فمه.

يقول روميو بحزم: «هل اختلقت كل هذا أيها الأب ترافيس؟!».

«لا يقول ذلك يا روميو. الكلمات التي استخدمتها مكتوبة هنا، لكن ليس بالصيغة التي ذكرتها في قصتك. إنه لا يقول هذا فحسب».

«لا تأخذ هذا مني أرجوك! إنه الشيء الوحيد الذي أملكه!».

يحدّق بعناد إلى الأب ترافيس.

«أنت مخطئ!». يضرب ركبتيه. «مخطئ!».

يجمع روميو كل الأجزاء المبعثرة التي يتكوّن منها، أو كان جزءاً منها، ويضعها على الطاولة.

يقول بثقة: «أيها الأب ترافيس، لقد حصلت على كل كلمة من مصادر موثوقة. جمعت التقرير كاملاً من معلومات وصلتني من أشخاص كانوا هناك في ذلك اليوم، ذلك اليوم الرهيب. حتى إذا لم يكن التقرير يذكر ما أقوله حرفياً، إلا أنه يؤكّده. لم أرغب أصلاً في التوصّل إلى هذه النتائج».

«هـذه أشـياء غيـر مهمـة». يشـير الأب ترافيـس إلـى الورقـة. «إنهـا ليسـت هنـا».

«تلـك الكلمـات، تلـك الروابـط، تلـك الحقائـق. تبـدو ملائمـة ضمـن السـياق، شـيئاً فشـيئاً. اجتمعـت معـاً! إنهـا قصـة متكاملـة الأركان. وضعـت رسـوماً بيانيـة. حصلـت علـى علبـة مـن المسـامير الصغيـرة. كانـت المسـامير علـى جـداري، ولا تـزال هنـاك. رسـمت خطوطـاً بيـن كلمـات ثـم حذفـت ... هـل تعـرف تلـك الكلمـة؟ معنـى تلـك الكلمـة؟».

«نعم».

«ألا تحـب تلـك الكلمـة؟ ربطـت تلـك الأمـور بأخـرى حتـى اتضـح شـيء أكبـر».

«مـا الـذي تتكلـم عنـه؟ الحـذف لا يعنـي هـذا، وإنمـا المحـو».

«أو الربط معاً!».

«نعـم، كمـا يحـدث حيـن تثمـل، إذ تتلعثـم وتحـذف جـزءاً مـن كلمتـك».

يقـول روميـو: «حسـناً، ربمـا. حذفـت المعانـي بيـن النقـاط البـارزة. ربمـا فعلـت هـذا».

«وماذا بعد ذلك؟».

«ثـم، ثـم، حسـناً. كان بيتـر رافيتـش هنـاك فـي موقـف السـيارات ألكـو، حسـناً؟».

ينظر روميو إلى يديه، ويفرك معصميه، ويخبر الأب ترافيس بتفاصيل كل ما جرى مع بيتر رافيتش. لا يزال يتكلم حين ينهض الأب ترافيس. يتابع روميو الكلام بعد أن يغادر الأب ترافيس عبر الباب. يواصل الكلام مع وعاء القهوة الفارغ والكراسي المنتظرة، والجدران، وأشعة الشمس التي تصل إليه عبر نوافذ القبو، ومع روائح الطعام، واليدين، والركبتين، والهواء. يتابع الكلام لأنه عندما ينتهي لا يعرف ما سيحدث آتياً، وما ينتظره بأي حال في حياته، ولأنه لا يستطيع المغادرة مع ذلك المخاط وتلك الدموع التي تسيل على وجهه. يقف ليتبع الأب ترافيس، وهو لا يزال يتكلم. يصعد السلالم ويمشي على الممر الأوسط في الكنيسة، وهو يواصل الكلام، ذاهلاً تماماً عما يدور حوله. يخرج من الباب الأمامي للكنيسة.

من هناك، يستطيع الرؤية حتى التلة عبر الطريق الرئيسي في بلدة المحمية. في مكانه المرتفع وحالته الذهنية تلك، يرى ما يوجد داخل كل القلوب هناك. الألم في كل مكان، يتقد من داخل صدور أبناء قومه. إلى الغرب لا تزال قلوب الموتى نابضة، وتخفق بهدوء في نعوشها. تصرخ بضوء شاحب من الأرض. إلى الجنوب هناك الثور الذي قد اشترته القبيلة لأغراض سياحية. ذلك التجمّع البائس. قلوبهم تتقد أيضاً بتلك الرسالة المخيفة عن فنائهم. تجمّعهم روحاني الآن. يظنُّ روميو أنهم مثلنا، رمز المقاومة. مثلنا، يهيمون في الأرض على وجوههم ويصيرون بدينين. مثلنا، قلوبهم مرئية مثل مصابيح في الغبار. إلى الشرق، أيضاً، الفجر

المبجّل على كل الأرض، كل صباح من كل يوم، وهو واعد ومرهق. يشعر بتعب شديد، روميو. لأن بيتر سيقتل لاندرو طبعاً. رأى ذلك، وقد عرفه دائماً. لا يريد أن ينظر شمالاً؛ لأنه يدرك أنه يفكّر بطريقة معاكسة تنتمي فقط إلى عالم الأرواح، وهو المكان الذي ينتمي إليه، كما يبدو له، أو سيكون موقع رقوده.

يشعر روميو ذاك بارتياح شديد وثقة كبيرة بالنفس في تلك اللحظة، وتتملّكه تماماً فكرة موته، وأن يدفع نفسه بعنف على درجات الكنيسة الإسمنتية العشرين إلى الحافة السفلية.

* * *

قاد الأب ترافيس شاحنة الأبرشية المغلقة على طول الطريق عبر المقاطعة 27 وتوقف على الممر المؤدي إلى منزل آل رافيتش. كانت كورولا لاندرو واقفة عند أحد جانبي الممر، وشاحنة بيتر غير موجودة. خرجت نولا من الباب الأمامي ووقفت على الدرب الصغير المرصوف بالحجارة والمؤدي إلى الممر، وهي تضع يديها على وركيها، وتبرّجها كامل، وشعرها أشقر قليلاً، وثيابها فاتحة أنيقة. حدّقت إلى عينيه بلطف، كأنها لم تره أبداً من قبل.

«مرحباً؟ هل يمكنني مساعدتك؟».

«هل بيتر في المنزل؟».

«لا».

«يجب أن أتكلم معه حالاً».

رمقته نولا بنظرة متشككة، ونادت ماجي. خرجت الفتاة، مرتدية ثياباً أنيقة أيضاً.

«ما الأمر؟».

عرفت ماجي فوراً أن هناك خطباً ما؛ أن هناك شيئاً ليس على ما يرام مجدداً. لقد بذلت قصارى جهدها بشأن تلك الصورة الأسرية! لكن بدا واضحاً أن شيئاً قد حدث مع والدها. كان قد تصرّف على نحو غريب طوال رحلة العودة إلى المنزل، وظهر آنذاك القس العجوز شبيه فين ديزل.

«هل يمكن أن تخبريني إلى أين ذهب والدك؟».

قالت للأب ترافيس: «سأتوثق من هذا. أرجو أن تنتظر».

مشت ماجي في أرجاء المنزل مع تشغيل رادارها. كانت والدتها ترتّب كل شيء في المكان نفسه، وتستطيع ماجي دائماً أن تشعر بالاختلاف في أي غرفة، قبل حتى أن تراه.

عادت ماجي إلى الخارج.

«أخذ أفضل بندقية صيد لديه».

قال الأب ترافيس: «شكراً لك».

* * *

وصل وايلون بسيارته بعد أن غادر الأب ترافيس، وأطفأت ماجي رادارها، هناك في الممر، حيث التقى بها.

كانت قد طلبت منه مساعدتها في عملها في حقل الذرة. حرث بيتر الحقل في العام الماضي، لكن أعشاباً ضارّة نمت في التراب. دخلت المنزل، وارتدت ثياب العمل، ووضعت واقي شمس عيار 30، ثم خرجت مجدداً. سارا إلى الحقل معاً، وبدا نهاراً دافئاً. حمل كل منهما مجرفة سيبقيانها حادة باستخدام القطعة المعدنية الملتصقة على الجيب الخلفي في سرواليهما الجينز. كانت ماجي ترتدي سروالاً قصيراً، وبدت أسرع أو أقل اهتماماً بإزالة الأعشاب، لذا تقدّمت على وايلون، الذي ترك بعض تلك النبتات في التربة السوداء وحاول اللحاق بها. كان قميص ماجي الأبيض مربوطاً إلى بطنها، وساقاها النحيلتان متصلتين بجوربين سميكين، وحذاء ثقيل. أخفت قبعة رعاة بقر قديمة مصنوعة من القش وجهها، وتحرّكت شفتاها بأغنية جلبتها من ذاكرتها. وضع كل منهما قفازين قطنيين بنيين سميكين في جيبه الخلفي، ولكن عمل بالمجرفة بيديه العاريتين. تبعتهما رائحة النباتات الذابلة، والتربة، النفاذة والنقية، على طول الأرض. كان وايلون فخوراً بحذائه ـ جوردانز ـ الذي ينبغي ألا ينتعله في الحقل. اشتراه والده له، ولم يكن لديه مال كافٍ لذلك، وقد اضطر إلى التوقيع على شيء للحصول عليه، لكنه أراد أن يعلم الناس أن أسرة وايلون يمكنها إعالته. كان تراب ناعم يدخل إلى الحذاء، وقد حولّته قدماه المتعرّقتان إلى طين. واصل العمل بالمجرفة، وانتزاع الأعشاب، والمشي متثاقلاً خلف ماجي بحذائه الفاخر. فكّر في إحدى اللحظات في غسل الحذاء

لاحقاً بخرطوم ماء، أو ربما مسحه بقطعة قماشية رطبة، وعمّا إذا كان ذلك سيعرّضه للتلف، ولكن كل شيء تغير في اللحظة التالية.

نزعت ماجي قميصها الأبيض، وتابعت إزالة الأعشاب الضارة. جلدها شاحب بسبب وجود طبقة من الكريم، التي دهنت نفسها بها قبل التعرّض المحتمل للشمس. بشرتها خالية من العيوب، ولا يوجد فيها نقطة نمش، أو شامة، أو حتى لطخة، باستثناء البقعة الزرقاء على كتفها، التي يراها وايلون حين تستدير نحوه. تلك البقعة. يعرف بشأنها، فقد أخبرته عنها، ويشعر بوخزة في قلبه، كأنه تلقى طعنة بقلم رصاص حاد النصل. يضع يده على صدره، ثم يبعدها، وينظر حتى إلى أصابعه، ولكن لا يوجد دم. هي فقط، تعمل غافلة عنه بمجرفتها، وتميل أحياناً إلى الأمام لتقتلع بقوة شوكة عميقة الجذور.

يجلس وايلون بين الأخاديد، على تراب يسفعه الشمس. يستقر عنكبوت أسود صغير على ركبته، ويحدّق إليه بقوة. يبدو العنكبوت حزيناً، ثم يقفز مبتعداً. لا يتحرك وايلون. يفرك رأسه؛ كأنه يريد إعادة ترتيب أفكاره.

تقترب ماجي منه.

تقول: «انهض أيها الكسول. لا تدعني أعمل في كل هذا الحقل بمفردي».

يترك وايلون المجرفة على الأرض، وينهض، ويقف

أمامها. تحدّق إليه، وترتسم على فمها ابتسامة حظ سيئ، حظ جيد. هما الشخصان الوحيدان في الكون آنذاك، ولكن وايلون خجول جداً ليقول بصوتٍ عالٍ ما يهمس به حين يميل نحو عنقها.

استطاعت ماجي المرور عبر الأجمة، على الرغم من كثافة شجيراتها وتشابكها، ولكن وايلون بدا مثل عجل كبير ومشى متثاقلاً خلفها. كان شعره مسترسلاً، وعيناه واسعتين، وشفتاه ورديتين ولامعتين، وجلده داكناً ولامعاً نتيجة تعرّقه. وضعت أخيراً يدها على صدره لإيقافه.

قالت: «حسناً، هذا هو المكان، مكاني».

كانت شجرة سنديان قديمة وضخمة جداً، وقد قضت على كل النباتات حولها باستثناء الأعشاب الطويلة الشاحبة التي استلقيا عليها.

سأل وايلون: «هل تحبينني؟».

قالت ماجي: «لا».

«أنت تكذبين، هه. أنت تحبينني».

«قلت لا». ضحكت ماجي.

وضع يده حول وجهها ورفع ذقنها. كانت تفكّر في نقطتها الحاسمة في مباراة كرة الطائرة، لقد وصلت إلى رقم 200 في الموسم السابق. سيستغرق الأمر عدّة أعوام أخرى لتحرز 1000 نقطة.

«حسناً إذاً؟».

مالـت نحـوه وحـاول ألا يمسـكها، أو يعاملهـا علـى أنـه لا يسـتطيع الانتظـار، أو يندفـع نحوهـا. حـاول أن يكـون لبقـاً وهادئـاً، ولكنـه لـم يكـن يصـدّق الأمـر برمّتـه.

عـادت إلـى المنزل مع نفسـها. كانـت ماجي، وقـد دخلـت البومـة جسـدها، وباتـت تحـدّق بعينيهـا الذهبيتيـن.

* * *

أرغـم الأب ترافيـس نفسـه علـى قيـادة الشـاحنة المغلقـة إلـى الخلـف علـى ممـر رافيتـش مـن دون أن تكـون الرؤيـة واضحـة لديـه، وأن يحـرّك بهـدوء علبـة التـروس إلـى وضعيـة القيـادة الآليـة. ثـم انطلـق مسـرعاً إلـى منـزل لانـدرو، وقفـز مـن المركبـة، وطـرق البـاب. ظهـرت إيمالايـن، مثـل ظـل مـن خلـف الغربـال. حـاول ألا يرتـاح مـن نظرتهـا الهادئـة، ووجودهـا خلـف البـاب. دعتـه إلـى الدخـول، ففعـل. وقفـت قريبـة جـداً منـه. لا، كانـت مسـافة عاديـة. بـدت أي مسـافة قريبـة جـداً.

«ماذا يجري؟ هل الجميع بخير؟».

لـم يستطع الأب ترافيـس التفكيـر فـي طريقـة صـوغ كلماتـه عمّـا يطـنُّ فـي عقلـه.

«الجميـع بخيـر، إلا أننـي يجـب أن أعثـر علـى لانـدرو. إنـه ... روميـو ... لديـه تلـك الفكـرة أو النظريـة التـي قـام بجمـع أجزائهـا عـن أن لانـدرو، حسـناً، كان ثمـلاً حيـن قتـل ...».

قالت إيمالاين وقد تسمّرت في مكانها: «لا، لم يكن كذلك. روميو يختلق أكاذيب».

صمتت تماماً، وابتعدت خطوة عنه. زادت المسافة بينهما. أراد أن يقطعها، ويخطو نحوها، ولكن أحجم عن ذلك من أجل التركيز على لاندرو. عرفت إيمالاين ما يريده، فطوت ذراعيها وانكفأت على نفسها. كانت قطع من كينونتها قد تبعثرت، وتحاول لملمتها آنذاك. عادت في تلك اللحظة إلى الوجود على أنها شخص واحد مع والد أبنائها. لم تظهر عليها أي تعبيرات أثناء انتظارها.

قالت مجدداً: «روميو يختلق أكاذيب».

قال الأب ترافيس: «أعرف، لكنه يبدو مقنعاً. لقد أخبر بيتر».

نزلت ذراعا إيمالاين بهدوء إلى جانبيها.

«أين هما؟».

«أريد أن أعرف إلى أين قد يذهبان إن خرجا للصيد».

باتت عيناها خضراوين شاحبتين، بعد أن أدركت ما يجري آنذاك.

«أرض الدولة، غرباً».

أخبرته إيمالاين عن طريقة الوصول إلى هناك، ولكن لم تطلب أن ترافقه. وقفت هناك متماسكة ظاهرياً.

* * *

يظهر لاندرو أولاً أمام عين بيتر المجرّدة مثل حركة، أو بقعة بعيدة خضراء مشوشة حين يغادر الأجمة. ثم ينظر إلى لاندرو عبر منظار بندقيته ويراقبه. يدا بيتر باردتان وثابتتان؛ لأنهما يدا الرجل الآخر، الذي يتخيل القيام بهذا من دون أن يفعله حقاً؛ الرجل الذي يحطم جمجمة لاندرو إلى ألف قطعة مبعثرة. الرجل الآخر الذي حلم بما يفعله بيتر آنذاك.

لا يزال لاندرو بعيداً، ويتقدم بحرص على الدرب. يتوقف من وقت إلى آخر ويزيح غصناً عن طريقه، ما يمنح بيتر رؤية واضحة له. عندما يرى أن لاندرو لن يعيقه، يتذكّر بيتر السبب الذي يجعلهما صديقين. يرى شفتي لاندرو تتحرّكان، ويشعر بالسرور لأنه يصلّي. تبدو طريقة إنهاء الأمر صحيحة؛ كأنها اتفاقية موقعة من قبل الطرفين، ويشهد عليها الابنان. يقترب لاندرو كفاية منه لإطلاق الرصاصة التي ستصيب هدفها بالتأكيد. يدنو أكثر فأكثر، ويصل إلى حيث يريد. يضغط بيتر على الزناد بلطف وقلبه يكاد ينفجر. لا شيء. يعرف أن بندقيته مذخّرة؛ لأنه يبقيها كذلك دائماً. لم يفرّغها من الذخيرة أبداً ولا أحد يعرف أين يخفي المفتاح، يضع شعيرة التسديد على رأس لاندرو. يطلق النار. لا شيء. يرغم بيتر نفسه على الضغط على الزناد مجدداً، ولكن يده لا تطاوعه في تلك المرة. لن تفعل هذا. يملأ وجه لاندرو المنظار.

* * *

يخفض بيتر البندقية، ولكن يبقيها بجانبه. يراقب لاندرو الذي لا يزال يخطو متثاقلاً نحو موته. من مسافة إنسانية، الآن، يرى بيتر لاروز في مشية لاندرو الثابتة. أمر غريب، لم يلحظه من قبل. ثم يرى المزيد. يرى كل ما كان يمنع نفسه عن رؤيته. يرى شيئاً مقزّزاً يبرز من بين أشياء أخرى. فوسفور الأسى يستنفد أولئك الذين يحبهم. موجة صور تلمسه بسرعة، وهدوء، وتخترق تفكيره، كل الأشياء المفقودة، ثم كل الأشياء التائهة حقاً: الأسبرين، والسكاكين، والحبل، كل الأشياء المميتة في يدي نولا. والرصاصات القاتلة في يديه.

لاروز.

تملأ صورة يدي الفتى الصغيرتين القويتين بيتر آنذاك. تتقوّس تلك اليدان لاستقبال الرصاصات. تذخّر بندقيته، ثم تُخرج الذخيرة منها. والحبال، والسموم. تأخذها تلك اليدان من أماكنها وتتخلّص منها. سم الفئران المفقود، الإستركنين. لاروز ينقذه الآن، ينقذ كلا والديه.

حسناً، لاندرو. يخرج بيتر من القاتل. لا يحتاج لاندرو أي مساعدة ليموت. دعه يسير نحوه بمفرده. اتركه يمشي. سيكون بيتر الشخص الوحيد الذي يعرف أنه ضغط على الزناد. تغلّفه تلك المعرفة. هناك ألق في الهواء الجديد. يمشي بيتر إلى الحافة، ويركض، ويقفز، ويرمي البندقية مثل رمح نحو المياه المتلألئة تحت الشمس.

عندما تتحطّم، يشعر بلحظة فرح، ويرفع ذراعيه. يبقي

ذراعيه عالياً في انتظار طاقةٍ يظن أنها ستأتيه من الصفح. لا شيء يأتي. لا شيء يهبط من السماء العادية المشمسة والدافئة، باستثناء المعرفة نفسها. ضغط على الزناد. لم يحدث شيء. قَتَل لاندرو، لم يحدث شيء.

* * *

بعيداً، على الطريق العريض المغطى بالحصى، يرى الأب ترافيس الشكل الصغير يتحرك على طول الأخدود. عندما يتعرّف على لاندرو، يشعر بالتوتر البارد يغادر ذراعيه. ضعف، غريب جداً، لا يعرف ماهية شعوره، الذي يغمر جسده، من قلبه، ويعتصر أعصابه. يوقف السيارة ويطفئ المحرك. لا يزال قلبه يخفق، وأعصابه متحفّزة. مهما جرى، لاندرو هناك أمامه.

يطفو تنافرٌ على سطح تفكيره.

إلى جانب ارتياحه، هناك خيبة أمل غريبة مرتبطة بالأفكار العابرة التي مرّت في ذهنه، وتم رفضها، ولكن انبثقت مجدداً. أساساً، ماذا إن؟ ماذا إن كان لاندرو قد رحل ببساطة؟ ماذا إن، حسناً، لقي حتفه؟ لا بأس. ماذا إن كان لاندرو ميتاً؟ انسَ ما سيحدث لكل شخص آخر.

ماذا إن كان لاندرو ميتاً وإيمالاين تحتاجني الآن؟

ماذا إن لم يكن لاندرو موجوداً، وإنما إيمالاين فقط، ماذا إن؟

كانت هذه الأفكار قد راودته وغابت عنه طوال الطريق،

ولكـن الأب ترافيـس لـم يتفاعـل معهـا. كانـت رؤيـة لانـدرو، يمشـي علـى الطريـق، ويتقـدم متثاقـلاً نحـوه، قـد جعلـت تلـك الأفـكار أمـراً واقعـاً.

لـم يكـن قـد طلـب تلـك الأفـكار أصـلاً. بالتأكيـد، لقـد رفـض وقـاوم، ولكـن الأفـكار قـد جـاءت إلـى ذهنـه مـراراً وتكـراراً. شـدَّ يديـه علـى عجلـة القيـادة وخفـض رأسـه، وأغلـق عينيـه. كان كل شـيء بخيـر؛ لأن لانـدرو لا يـزال حيـاً، ولكـن تلـك الأفـكار تـدور فـي رأسـه.

«من أنت؟».

خاطـب الأب ترافيـس نفسـه بصـوت خافـت، بالهمـس. رفـع بصـره، ورأى أن لانـدرو لا يـزال يمشـي نحـوه، ويصيـر أكبـر فأكبـر.

قـال الأب ترافيـس للزجـاج الأمامـي: «لا يـزال بمقـدوري أن أدهسـه».

بعـد لحظـة يـأس، ومراقبـة الرجـل الضخـم يقتـرب ببطء منـه، شـعر ترافيـس بشـيء عنيـف ينبثـق مـن بقعـةٍ تحـت قلبـه. كان الصـوت المرافـق لـه غريبـاً، مثـل ابـن آوى، شـيئاً فـي حديقـة حيوانـات. لـم يتعرّف علـى ذلـك الصـوت حتـى تحـوّل إلـى نـوعٍ مـن الضحـك.

«يمكن أن أضغط دواسة الوقود!».

كان لا يـزال يضحـك حيـن وصـل لانـدرو إليـه. عندمـا فتـح لانـدرو بـاب الراكـب الجانبـي، ألقى الأب ترافيس نظـرة على وجهه

الكبير والحزين، الوجه ذاته الذي قد وصفه روميو، وقهقه وهو ينشج. ضرب يده على عجلة القيادة، وضحك وضحك.

أغلق لاندرو الباب، وتابع السير.

وصل إلى المنزل عند حلول الظلام تقريباً مع أسئلة لا تزال تقعقع في رأسه. هل حاول بيتر قتلي حقاً؟ أو كان يحاول بثَّ الذعر في نفسي؟ الأب ترافيس؟ هل كان ذلك كله مزحة، وما الحقيقة؟ كانت جوزيت قد بنت سياجاً معدنياً متهالكاً على طول ذلك الجانب من المنزل، وقد علقت قدمه فيه، وكاد يتعثر. إذاً ربما ظنّت إيمالاين، الجالسة إلى طاولة المطبخ، لحظة واحدة أنه ثمل، ولكن عندما دخل عرفت أنه يمشي بتثاقل فقط.

مهما تكن الأجوبة عن تلك الأسئلة المحيرة، لم يكن يهتم بها إطلاقاً. كانت الهموم تتساقط عن كاهله أثناء سيره إلى المنزل حتى شعر فجأة، عند البوابة، بأنه يكاد يرتفع عن الأرض، ثم خلع حذاءه عند الباب. ذهب مباشرة إليها، وانحنى فوقها، ووضع ذراعيه حول زوجته الجالسة على الكرسي. رفعت يدها وأمسكت ذراعه. كان ضوء المطبخ ساطعاً. أغلقت عينيها ومالت إلى الخلف. دفع ذقنه بلطف نحو قمة رأسها.

قالت: «رائحتك مثل البرية».

أبقت يدها على ذراعه. لم تكن تلك طريقة تعامل بها المرأة زوجها، وإنما قريباً لها يدخل من الباب. بدا ذلك بالكاد

شيئاً مهماً. لم تكن اليد على الذراع تمثّل زواجهما المشبع بالعواطف الجيّاشة، ووقت قصتهما القديمة في المحمية. أمسكت ذراعه فحسب. مال فوقها، حتى صار حاجباه على مسند الكرسي. لم يكن ذلك شيئاً يذكر، حين مقارنته بما فعلاه تلك المرة حين دفعا كرسياً تحت مقبض الباب في فندق رخيص؛ لأن القفل كان مكسوراً. اعتادا أن يفكرا أنهما ثنائي خاص، أو محظوظان. اعتادا القول إنهما واثقان بأن لا أحد غيرهما شعر بتلك السعادة من قبل، أو عرف الحب إلى ذلك الحد. اعتادا القول، سنكبر معاً. هل ستبقى تحبني حين أكبر ويتغضّن جلدي؟ سأحبك أكثر. ستكونين أحلى. مثل حبة زبيب، أو خوخ مجفّف. سنأكل خوخاً مجفّفاً معاً. تلك هي الطريقة التي اعتادا أن يتكلما بها. لكنهما كانا يتذوقان آنذاك الخوخ الأخضر، أليس كذلك؟ ماذا عني؟ هل ستحبينني؟ لا أعرف، هذا يعتمد على الجزء الذي سيذبل منك. تلك هي الطريقة التي اعتادا أن يتحدّثا بها.

شدَّ لاندرو قامته وجلب كأسين من الماء. جلس على كرسي آخر. شعرت إيمالاين بنوبة خوف ضمّت بين ثناياها فجأة ما قد يعدُّ، ربما، احتمالاً. تناولت شربة ماء وأغلقت عينيها. رأت مستنقعاً كثيفاً بالقصب، بقاعٍ طيني، مستنقعاً كثيفاً، وعميقاً وضحلاً في الوقت عينه. رأت البط تطفو في طريقها إلى مكان آخر. رأت نفسها، ولاندرو بجانبها. رأت كليهما يخوضان فيه معاً.

* * *

عندما عاد الأب ترافيس إلى حرم الكنيسة، بعد أن تحدّث مع بيتر رافيتش، وجعله يقرأ تقرير الطبيب الشرعي، وجد القس الجديد هناك. كان يرتدي عباءة كهنوت أنيقة من العصور الوسطى ويضع سلسلة مكان الحزام، وينتعل حذاء يبدو مثل خفّين. كان من تلك المرتبة المكوّنة حديثاً، وشاباً، ببشرة ناعمة، ووجنتين بلون زهر التفاح، وعينين زرقاوين لامعتين مثل وردة الذرة، وشعر حريري قصير جداً. بدا صوته مفزعاً، وحاد النبرة، ولكن يثير الاهتمام طوال الوقت.

قال القس الجديد: «أظن أنك الأب ترافيس». تورّدت وجنتاه حين عبس.

قال الأب ترافيس: «أظن أنني هو».

«أنا الأب ديك بوهنر».

فكّر الأب ترافيس: «أوه، لا!».

قال الأب بوهنر: «أنا بديلك».

قال الأب ترافيس: «ينبغي أن يكون اسمك ريتشارد هنا».

قال القس الجديد بحزم: «اسمي ديك».

قال الأب ترافيس: «بالتأكيد».

قال الأب بوهنر، متورداً وأكثر حزماً: «ستتغير الأمور هنا. كان ينبغي أن يبدأ قداس الأحد قبل عشر دقائق».

قال الأب ترافيس: «لقد تأخرتَ إذاً».

* * *

ذهب الأب ترافيس ليحزم أمتعته. كان قد جاء مع حقيبتي سامسونايت صلبتين. اكتشف أن أمتعته صارت أقل، بطريقة ما، أثناء توضيبها. بات لديه ما يملأ حقيبة واحدة فقط. كانت نقوده، أو ما بقي منها، في كيس خلف قرميدة يمكن تحريكها في السقف. نادى راندال لوفورنايس، الذي يذهب بالسيارة إلى فارغو كل أسبوع، ورتّب أن يذهب معه إلى هناك. قرّر الأب ترافيس أن يغادر القطار في إحدى البلدات التي يتوقف فيها، ويشتري تذكرة إمباير بلدرز إلى فارغو، مينابوليس، شيكاغو، ثم يتابع السفر شرقاً على متن القطار وجنوباً في الحافلة إلى جاكسونفيل، وكارولينا الشمالية، وكامب ليجون. كان سيمشي على الجادة بين أشجار النصب التذكاري، وسيزور الجدار المحطّم ويلمس الأسماء المنقوشة هناك.

عندما كان يطوي ثيابه، أدرك أنه لا يمتلك مالاً كثيراً بالمحصلة. رنَّ الهاتف، وتركه يرن، ثم قفز فجأة وأجاب ضاحكاً.

«أحد جنود الرب المفلسين هنا! ماذا يمكن أن أفعل من أجلك؟».

كان الشخص على الطرف الآخر من الخط هندياً ضحك معه، ثم أنهى المكالمة.

تحب امرأة لا يمكن أن تنالها أبداً، كما فكّر، وهو يعيد السماعة إلى مكانها. ينبغي أن يستوعب الأمر ويقبله. لكن دمه تمدّد وبدا أن قلبه جاهز للانفجار. جلس على السرير،

ووضع رأسه بين يديه. فكّر مجدداً في المال. نهض بعد قليل، ووقف ينظر بإمعان إلى مقتنياته القليلة الباقية على السرير. أمسك الكنزة التي طلب من إيمالاين أن تعطيه إياها، ووضعها على وجهه، ثم طواها في الحقيبة، التي أغلقها بعنف. كانت حقيبة حمراء داكنة وثقيلة.

التجمّع

المضي قدماً!

أرادت جوزيت وسنو إقامة حفل تخرّج وتقديم ثلاث كعكات كبيرة بمناسبة تخرّج هوليس. لهذا السبب، قرّرتا أنهما تحتاجان إلى ساحة وحديقة ورود. قالت معلّمة جوزيت التي تدرّسها الإنجليزية إن بمقدورها الحصول على نبات إبرة الراعي الموجودة في الصف، إبرة الراعي القرمزية. في ذلك اليوم، نقلت جوزيت غراساً من ورود الصف ونثرت بذور القطيفة، التي جمعها هوليس في الخريف السابق واحتفظ بها من أجلها. نثرت أيضاً بذور أعشاب في ملعب الكرة الطائرة الترابي. كانت سنو قد اشترت خرطوماً من أجل الصنبور الخارجي وحاولت سقاية النباتات، ولكن الشتلات دارت حول نفسها فحسب.

قال كوتشي وهو ينظر إلى ما تفعله بعين ناقدة: «أظن أنك ينبغي أن تحرثي التربة».

قالت جوزيت: «نحن صيادون وجامعو ثمار بطبيعتنا. الزراعة ليست من تقاليدنا».

قالت سنو: «خطأ. تاريخياً، زرعنا البطاطا، والفاصولياء، واليقطين. كان لدينا بذور وأشياء أخرى، وقد كنا أول من زرع الذرة».

قالت جوزيت بجدّية: «ندعوها ذرة بيضاء». توقفت قليلاً. «لم نعد نلتزم تقاليدنا إذاً».

قال كوتشي: «أسرتنا فقط تلتزم بها. كثير من الهنود لديهم حدائق. حتى جدّتي كان لديها حديقة، وهي موجودة هناك».

هبّت الريح على بقعة خضراء من الأعشاب. ربما كانت هناك أزهار، ولكن الفتاتين لم تعرفا الأوراق التي تبحثان عنها. نظرتا بكآبة إلى التربة المكشوفة.

«ربما يمكننا إخراج بعض البُّسط».

قالت جوزيت: «لا، أريد مرجاً أخضر. تباً. سأذهب وأتكلم مع ماجي. أمها ماهرة في هذا الأمر. أقل ما يمكننا فعله هو الحصول على مرج، صحيح؟».

قالت كوتشي: «يعرف أبي وأمي طريقة إنبات المرج».

قالت جوزيت ببعض الغرور: «ليس لديهما وقت، أو رغبة». كانت على تلك الحال دائماً مع كوتشي، الذي تمطره بكلماتها الفخمة، وفهمها للأمور. كان شقيقها الصغير، لذا مضت قدماً في محاضرتها.

«إنها ليست أولوية بالنسبة إليهما. على كل حال، إذا أردنا تقديم أطعمة مشوية في الهواء الطلق من أجل هوليس، لا يمكننا فعل هذا على ملعب كرة طائرة ترابي».

قال كوتشي وهو يراقبها تمشي بساقيها القويتين والقصيرتين: «أفهم هذا».

صرخ: «إلى اللقاء أيتها الأستاذة هيدبيوراس».

سلكت جوزيت الدرب الطويل، وسارت ميلاً على الطريق العام، ووصلت إلى ممر آل رافيتش. نبح الكلب ثلاث مرات، ثم تعرّف على جوزيت، وجاء للقائها، خافضاً رأسه، وملوّحاً بذيله. كانت ماجي هناك مع لاروز، في الخارج على العشب، جاثمين وحاملين أدوات. عندما شاهدا جوزيت، ألقيا الأدوات من أيديهما، وركض لاروز إليها.

قالت جوزيت: «مرحباً».

لم تزرهم أبداً من قبل، وإنما أوصلت لاروز إليهم فقط.

قالت ماجي وهي تحاول رسم ابتسامة على وجهها: «تفضّلي. لندخل إلى البيت، ونتناول المثلجات».

«في الواقع، أردت أن أسأل أمك عن طريقة زراعة المرج».

«لقد ذهبوا إلى البلدة. تفضلي، نحن جائعان».

تبعتهما جوزيت إلى داخل المنزل. لم تكن قد تجاوزت عتبة الباب من قبل. نظرت حولها، إلى البُّسط الحنطية، والأريكة الصفراء، والوسائد البنية والذهبية، الوثيرة والمرتّبة.

فكّرت أن ذلك هو المكان الذي يعيش فيه لاروز حياته الأخرى.

كانت هناك أشياء قديمة، ولامعة، وأثرية كما يبدو. أباريق بيضاء ثقيلة للحليب، وساعات خشبية مزخرفة، وأُطر صور. في إحدى الصور، جلس لاروز وماجي أمام بيتر ونولا. كانوا يرتدون ثياباً أنيقة ويبتسمون لا بتكلّف، وإنما على نحو طبيعي؛ كأنهم كانوا معاً دائماً. مرّرت جوزيت يدها فوق طرف طاولة لامعة. لاحظت أن كل قطعة أثاث خالية من الزخارف، أو ربما يوجد على سطحها شيء واحد تزييني. حصان زجاجي. مجموعة من العلب الخزفية الخضراء الباهتة، من أحجام مختلفة. كان هناك رفّ يحمل بعض الكتب المرتّبة وفقاً لماذا، اللون؟ بدا أنه قد تم انتقاؤها وترتيبها بعناية كبيرة. لم يكن هناك شيء على طاولة غرفة الطعام، ولا حتى منديل مائدة. لم ترَ على منضدة المطبخ قوارير أدوية أو أكياس خبز أو أدوات متناثرة على نحو عشوائي. بدا أنهم يحتفظون بكل شيء في الخزائن. فتحت ماجي باب خزانة، لجلب أكوازٍ من أجل المثلجات. رأت جوزيت مرطبانات تخزين شفافة تحتوي أشكالاً مختلفة من المعكرونة. بدا المنزل في الوهلة الأولى مثل مشهد سينمائي، أو إعلان في مجلة، ثم بدأ الأمر يثقل كاهلها. أخرجت ماجي علبة مثلجات من درج المجمّدة في الثلاجة. حدّقت جوزيت من فوق كتفها وشاهدت أكياس الخضار الخاصة بالمجمّدة مرتّبة وعليها لصاقات. صنعت ماجي أكوازاً من مثلجات

العلّيق، وأعطت لاروز واحداً منها. رتّبت الباقية في العلبة، وأعادتها إلى مكانها، ثم شطفت المغرفة بالماء ووضعتها في غسالة الأواني. كانت جوزيت تمسك كوزي مثلجات، واقفة في المطبخ، حين انتابها شعور غريب.

«هل يمكننا العودة إلى الخارج؟».

خرجوا عبر الباب الخلفي الزجاجي المنزلق، وجلسوا على كراسي قابلة للطيّ. رأت ماجي كومة من الهندباء الذابلة على العشب، ولاحظت أن الأدوات بأطراف معدنية متشعّبة.

«ماذا كنتما تفعلان؟».

قال لاروز: «ينبغي أن نقتلع مئة هندباء كل يوم».

قالت ماجي: «ليس كل يوم».

قال لاروز: «هذا ما يبدو».

«كم واحدة انتزعتم؟». شعرت جوزيت أن إدراكها بطيء، ولا تفهم الفكرة جيداً.

قالت ماجي: «أوه، ثمانٍ وسبعون حتى الآن».

«ماذا ستفعلان بعد ذلك؟».

هزّت كتفيها. «لا أدري. سنرميها في كومة الأعشاب الضارّة الكبيرة خلف الحظيرة، ثم سينمو مزيد منها في المرج. يستخدم بعض الناس السمّ للتخلص منها، ولكن أمي تترك الدجاج يخرج إلى هناك. هل يمكننا الذهاب إلى منزلكم؟».

قالت جوزيت: «أحب هذه النكهة. ألن يشعر والداك بالقلق؟».

قالت ماجي: «يمكن أن أترك لهما رسالة».

قالت جوزيت: «حسناً، لا أزال أرغب في معرفة طريقة زراعة المرج. كيف أصنع مرجاً؟».

قالت ماجي: «لا أعرف. كان المرج هنا دائماً».

قال لاروز: «لا تزرعي مرجاً. لن أقتلع الهندباء من مكانين».

«هل تريدان مساعدتنا في إقامة حفل؟ حفل تخرّج من أجل هوليس؟ كنت أفكّر في الشواء، ولهذا السبب أريد ذلك المرج».

قالت ماجي: «أتمنى لو أن بمقدوري نقل الموجود هنا؛ لأن لا أحد يستفيد منه».

قالت جوزيت: «أتمنى لو أن بمقدورنا استعارته».

لعقت الكوز الحلو، ثم أكلته حتى آخر قطعة صغيرة منه. كان المرج سميكاً وأخضر، ويبدو ناعماً، مثل بطانية. رأت جوزيت نفسها تلفّه قطعة بعد أخرى. كانت ستحمل المرج، الخفيف والرقيق، على كتفها. ستمدّه خلف منزل آل آيرون، وتفك شبكة كرة الطائرة، مؤقتاً على الأقل. سيمشي الناس حفاة على العشب الطري. سيكون هناك ... أوه، فوانيس ورقية. كل الألوان: مرجاني، أصفر، أزرق سماوي. أضواء صغيرة داخلها.

قالت لماجي: «ينبغي أن تنتظري والديك. تعالي لاحقاً. شكراً على الكوز. يجب أن أذهب».

لم يعجب ذلك ماجي، ولكن بعد أن غادرت جوزيت ذهبت إلى الفناء مع لاروز وداسا على الهندباء.

«لماذا يكره الناس الهندباء إلى هذا الحد؟».

قالت ماجي: «أنت تسأل دائماً عن هذا».

«ليس لديكِ إجابة جيدة».

قالت ماجي: «هذا لأنني لا أعرف بصراحة».

«الهندباء مبهجة، وقوية».

قالت ماجي، جالسة على كعبيها: «أعرف».

«دعينا نبدأ إضراباً».

«إضراب؟ تعني أن نتوقف».

«نعم».

أمسكت ماجي المذراتين اللتين يعملان بهما. رفعتهما ورمتهما بين الأحراج.

قالت، وهي تنفض الغبار عن يديها: «أظن أن تلك فكرة سديدة. دعنا نبدأ إضراباً!».

قال لاروز: «لنتوقف عن التظاهر بأننا راشدين».

عادت جوزيت إلى الطريق العام، وذهنها مشوش بصورة مرج رافيتش الذي يشبه البساط. رأت أعشاباً كثيرة بجانبها،

في الخنادق، وذلك الكلأ الجديد المنبثق من بين الحشائش الميتة. فكّرت في منزلها، حيث يمكنها وضع شيء وأخذه لاحقاً، ووالدتها التي تحثُّ الجميع على الترتيب، ولكن الرفوف تبقى على الرغم من هذا محمّلة بكومة من الكتب والأوراق، ومروحة من ريش نسر على قطعة قماش حمراء مستطيلة الشكل، وقواقع المحار، والمريمية، وحزم التبغ، وسلال الصفصاف الحمراء، والصور المؤطّرة، وعش طائر، وشجرة أرز صغيرة، وشخصيات ديزني.

قد يكون في الأمر مبالغة. مشت على طول القناة، ثم صعوداً إلى منزلها الرمادي البائس. توقفت، وتوثّقت من ورودها الصغيرة الشجاعة. لم تكن نباتات إبرة الراعي التي جلبتها من صفها قد ماتت بعد. شاهدت أزهار بنفسج بيضاء قد نقلتها من الغابة، وفيولا عطرية من علبة ورود جدّتها، وبعض النباتات الأرغوانية المتبرعمة التي تفوح منها رائحة شبيهة بالبصل، والثوم المعمّر. والساحة، أوه حسناً. لاحظت أن بعض الأعشاب الضارة تنمو فيها. ستواصل سقايتها. هناك منجل قديم في الظل، وآلة لجز الأعشاب تعمل بالوقود. كانت الهندباء في كل مكان، وهي خضراء، ونضرة جداً، وستدعها تنمو حتى تتشابك أوراقها، من ثم ستعمل على إزالتها أيضاً. ستزيل كل شيء، أومأت ونظرت حولها إلى أرجاء المكان وهي تبتسم. ستعمل على إيجاد بقع مختلفة الألوان بجانب الباب الأمامي. كان الناس سيأتون لتناول الحلوى، على كل حال، وقد حضّرت جيداً لذلك على الأقل. اشترت وسنو

الكعـكات بمالهمـا الخـاص. سـتكون إحداهـا بالشـوكولاتة وقـد خُـطَّ عليهـا بالكريمـة عبـارة «مبـروك التخـرّج»، مـع طبقة تزيين على شكل شهادة تحمل اسم هوليس. ستكون الثانيـة كعكـة صفـراء مزيّنـة بالشـوكولا وتحمـل الكتابـة نفسـها. ستقول الثالثـة: «امضِ قدمـاً!»، وسـتعلوها طبقـة تزيـين علـى شـكل بذلـة صحراويـة مموّهـة.

قالـت جوزيـت حيـن طلبـن الكعـكات: «بذلـة صحراويـة مموّهـة، هـل فهمـت؟».

قالت سنو: «أوه».

كانـت والدتهمـا ستذهب إلـى جـزّار فـي هوبدانـس، حيـث يمكـن الحصـول علـى القطـع الملائمـة للطهـي ببطء فـي أوعية تعمـل بالكهربـاء. أرسـلن لانـدرو لاسـتعارة مواقـد مـن أوتـي وبـاب وأقربـاء آخريـن. كان الخبـز المقلـي سـيأتي مـن الجـدة بيـس. كانـوا سـيحضّرون سـلطة ملفـوف بالمايونيـز، وسـلطة بطاطـا، فـي حيـن قـال هوليـس إنـه سـيجلب ثلجـاً ومبـرّدتيـن كبيرتيـن، إضافـة إلـى المشـروبات الغازيـة.

قالـت جوزيـت: «لا تخبـر أبـي، واجلـب بعـض المشـروبات الخاصـة بالحميـة أيضـاً».

تولّـى هوليـس أمـر التخطيـط آنـذاك، فقـد اكتشـف أمـر الحفـل قبـل أسـبوع واحـد فقـط. لقـد أخبـره أحـد أصدقائـه فـي المدرسـة بأنـه سـيأتي إليهـا.

«إلى ماذا؟».

«إلى حفلك».

«أي حفل؟».

«أووه، تباً. هل كانت مفاجأة يا رجل؟».

«لا أعرف».

تدخّلت سنو.

«كنا سنخبرك!».

«أو ربما نفاجئك!».

قالت جوزيت: «لم نحسم الأمر. لا نزال نتجادل بشأن ما ينبغي فعله».

قالت سنو: «يا إلهي! أنا سعيدة جداً لأنك عرفت بالأمر».

«كنا واثقتين بأن كوتشي سيفشي السر».

قال هوليس: «لا، لم أكن أعرف. حفل».

تولّى آنذاك التخطيط لباقي الأمور.

قال هوليس: «هل يمكنني، هل أستطيع ...؟».

«ماذا؟».

«دعوة أبي».

قالت سنو: «أوه يا إلهي، بالطبع».

قالت جوزيت: «اسمه موجود على القائمة أصلاً. لقد

أرسلنا له دعوة».

«هل صنعتما دعوات؟».

«طبعاً يا هوليس».

كانت جوزيت على سجيتها لحظة واحدة فقط، وبدت ذكية ومفعمة بالحيوية. ثم تذكّرت أنها ربما تحب هوليس. صار صوتها خافتاً، وأكثر دلعاً.

«نعم، نسخناها باستخدام الطابعة في مدرسة والدتي. إنها، كما تعرف، عادية جداً».

قالت سنو: «لا، ليست كذلك. جعلتها أنيقة فعلاً. استخدمت كل أنواع الخطوط المختلفة، وعبارة: يرجى الرد».

«هل يمكنني الحصول على واحدة؟».

قالت جوزيت: «بالتأكيد، يمكنك التوثّق منها. أظن أنني أنجزتها كما ينبغي».

قال هوليس: «ليس هذا ما قصدته. أريد واحدة لوضعها في إطار. سأثبّتها على جداري، حين يصير لديّ جدار، حيث سأستقر لاحقاً».

همَّ بالمغادرة.

قالت سنو: «أوه، ابقَ فحسب».

نظرت جوزيت إلى وجهه الرفيع، وحاولت أن تقول نعم بطريقة عادية، ولكن صوتها تحشرج في حلقها

فتحوّلت الكلمة إلى سعال. لماذا يحدث هذا لها، دائماً؟ تلك البهجة الكبيرة؟ ثم ذلك الانقباض المفاجئ؟ حاولت أن تضحك، ولكن ضحكتها علقت في أنفها، بسبب سعال متقطّع وبشع كما يحدث مع امرأة عجوز. هل يمكن أن يسوء الأمر؟ كانت سنو تنظر إليها بتعبير تمالكي نفسك. شعر هوليس بالحرج من أجلها، فحدّق إلى جانب الساحة. سحبت نفساً عميقاً. وقار. حفظ ماء الوجه.

«آسفة بشأن هذا. حساسية. يمكنك البقاء بالطبع».

ثم نظرت إلى هوليس مباشرة مجدداً، وشعرت بأن وجهها يفضح ما في قلبها. لو أنه لم يكن مؤدّباً، ويحاول أن يتظاهر بأنه لم يلحظ صفيرها، ولو أنه قد استدار إلى الخلف في الوقت الملائم ليرى النظرة على وجهها، لكان قد عرف. كان سيعرف بالتأكيد؛ لأن حبها يتدفق بقوة من عينيها. لكن كان لا يزال يحدّق إلى الساحة حين تجمّد تعبير وجهها، ثم تلاشى. كان يفكر: ربما أستطيع زراعة مزيد من النباتات هناك، في تلك البقع الجرداء. ربما ستحب ذلك.

* * *

أرادت جوزيت صنع ميدالية باستخدام خرز صغير ومصقول، ولكن كل ما استطاعت فعله حتى ذلك الوقت هو إنجاز حلقة من الخرز بحجم عشرة سنتات. كانت سنو تعمل على صنع خفّين، ولحاف، الذي ساعدت جدتها في خياطته بين الفينة والأخرى لترى فقط مدى تقدّم الأمر. كان لديهما لوح تعملان عليه، وأداة تقطيع حادّة مثل

شفرة، وكتيب بلاستيكي كبير عن قطع النسيج. بدا صُنع شرائط طويلة من القماش بضربة مشرط واحدة أمراً مثيراً للاهتمام. كانت السيدة بيس تفرز، جرياً على عادتها، ما يوجد في علب رسائلها وأوراقها. شعرت بالدهشة حين تلقّت ردّاً ودّياً جداً من الجمعية التاريخية، التي تغير اسمها ومقرها على امتداد السنين. كان رئيسها قد وعد بالنظر في قضية لاروز الأولى.

قالت سنو: «بسبب ذلك القانون، ينبغي على المتاحف أن تعيد لنا أشياءنا المبجّلة، صحيح؟ قبور وأراضي السكان الأصليين. لقد أعددت تقريراً عن ذلك».

قالت جوزيت وهي تثبّت خرزات صغيرة إلى غطاء مرطبان بإبرتها: «مروّع جداً». لم تكن تلك الكلمة في معجم مفردات سنو؛ لأنهما استخدمتا دائماً كلمات مثيرة للاهتمام، وكانتا معروفتين بهذا.

تمتمت جدّتهما: «أريد استعادتها. يمكن أن ترقد بسلام أسفل التلة مع أسرتها. سنصنع مشكاة خاصة بلاروز».

«أوه، لا. يجب أن أنزع هذا مجدداً».

استرخت جوزيت ووضعت يدها على الطاولة، بجانب علبة السيجار المملوءة بالخرز.

«كيف يمكن أن أفشل في هذا؟ أي نوع من الهنديات أنا؟».

شدّت قامتها، ووضعت جانباً قطعة البلاستيك والورق الشفاف مع الخرز المثبّت على نحو غير متساوٍ عليهما.

قالت سنو، وهي تسترجعها: «لا تفعلي هذا، ستفقدين الإبرة. ستجلس جدّتي عليها». أخذت سنو القطعة المطرّزة من شقيقتها، ونزعت الخرز عنها بطرف الإبرة، وبدأت تربطها بسرعة، وتضيف صفوفاً من حبات نحاسية وذهبية وخضراء اللون. هدأت جوزيت وراقبت الدائرة تكبر.

قالت بارتياح: «أنت ماهرة بأعمال الخرز. أحب أن أراقبك».

قالت سنو: «اخترت خرزاً يصعب التعامل معه من النوع الزجاجي آي 3 إس».

لمست جوزيت الدوائر التي أضافتها شقيقتها.

«متقنة تماماً، وتجعلني أبدو فاشلة».

دفعت سنو الحلقة نحوها، ولكن جوزيت ابتعدت فزعة.

«تابعي العمل! من فضلك!».

استعادت سنو الميدالية، التي باتت بحجم ربع دولار آنذاك.

بعد أن أنجزت بضع صفوف إضافية منها، ألقت نظرة على جوزيت وسألتها عن الشخص الذي ترغب في تقديم تلك الميدالية له. لم ترد جوزيت. طنّت آلة الخياطة حين وضعت السيدة بيس قدمها على الدواسة.

«أبي؟ كوتشي؟ لاروز؟».

قالت جوزيت لشقيقتها وهي تمد يدها: «شكراً جزيلاً. سآخذها الآن».

«أوه يا عزيزتي! لا بد أنها مفاجأة من أجلي». أبعدت

سنو الميدالية عن متناول جوزيت. «أنت أخت رائعة فعلاً! تصنعين هدية لي! هذا جميل. أنا لا أستحق هذا!».

صرخت جوزيت: «لا تستحقينها بالتأكيد، أعيديها إليّ!».

«هل هي من أجل هوليس؟».

انتزعت جوزيت الميدالية، التي وخزت إصبعها. بدأت تثبيت الخرز مجدداً، ثم ألقت الميدالية جانباً ووضعت إصبعها في فمها.

«هل ترين هذا؟ جعلتني أنزف عليها».

«أوه. دواء الحب القديم».

«دواء سيئ!».

رفعت السيدة بيس قدمها عن دواسة آلة الخياطة، وجذبت الخيط عبر السكين.

قالت: «لا يصح أن تريقي دم امرأة على مقتنيات رجل».

«مممم». حرّكت سنو حاجبيها نحو جوزيت. «ميغويتش لمشاركتي هذه الحكمة يا نوكوميس».

قالت جوزيت وهي تحرّك إبرتها بجهد يميناً ويساراً: «إذاً يا جدتي، كنت أظن أن دم الطمث فقط يمكن أن يؤذي. لكن هل يصح هذا على كل الدماء في أجسادنا الأنثوية؟».

«أوه، ماذا أعرف أنا؟». هزّت السيدة بيس كتفيها. «كنت معلّمة في مدارس البيض. تظهر قواعد تقليدية جديدة طوال الوقت. ستضحكين. يقول سام لمالفرن إنها يجب أن

ترتدي تنورة أثناء الشعائر لتعرف الأرواح أنها امرأة. تقول مالفرين إنها ستفعل هذا حين يرتدي فوطة أطفال، أو مئزراً لتعرف الأرواح أنه رجل. وأثناء ذلك، ينبغي على الرجال استخدام الأقواس والسهام مجدداً والمشي إلى كل مكان يرغبون في الذهاب إليه. تلك التقاليد؟ ينبغي أن تسألي الراحلة إغناشيا، ولكنها ذهبت إلى عالم الأرواح».

قالت السيدة بيس ذلك بحماس، ولوّحت بذراعها نحو النافذة؛ كأن إغناشيا في إجازة وتستمتع بوقتها هناك.

قالت سنو: «ميدالية من أجل هوليس إذاً. هل يعني هذا ...».

«أننا قد تكلمنا بشأن الأمر؟ لا. لكن ربما أريد فعل شيء خاص له. هل لديك مشكلة في هذا؟».

قالت سنو: «بالطبع لا. هاتها، سأساعد في تثبيت اللون التالي عليها».

مجدداً، سلّمت جوزيت عملها وراقبت شقيقتها الكبرى تشدُّ الخرز وتضيف قطعاً جديدة.

«هل يمكننا تشغيل فيلم يا جدتي؟».

«هل لديكما فيلم عن أحد هؤلاء الآليين؟».

قالت سنو: «نحن متحمّستان لهذا. وجدنا نسخة زهيدة الثمن من تيرميناتور».

صرخت السيدة بيس: «إنه يوم سعدي!».

قالت سنو: «إنه كلينت إيستوود، وهو يؤدي دوراً رائعاً».

«ليس بالنسبة إليّ. إنه مجرد آلي».

«أنت تحبين أرنولد أيضاً».

«يشارك أرنولد فيه أيضاً؟ سأعود».

«رائع!».

سردتا الحوار ولم تضطرا إلى رفع بصرهما لتشاهدا ما يجري، على الرغم من أنهما نظرتا إلى الشاشة عند عرض مشاهد مهمة، وشدّتا خيوطهما عبر كتلة الشمع المميزة بخطوط متقاطعة. كان الشمع يقوّي الخيط.

قالت سنو لجوزيت: «لا تنسي أن ترتكبي خطأ، كما تعرفين، لإبعاد الأرواح».

قالت جوزيت بخنوع: «الكمال للخالق وحده. هل تظنين أن النزيف على قطعة الخرز خطأ كافٍ؟ أو أنني جعلت صفّين من الخرز غير متماثلين؟».

فحصت سنو الميدالية.

قالت وهي تعيدها إليها: «أنتِ بحماية الخالق».

«هذا مريح حقاً». رفعت جوزيت إصبعيها. «أنا وجيزي مانيدو. نحن مثل هذه مجدداً».

قالت جدتهما: «لديّ سؤال يحيرني. مع أي زوج ستذهب إغناشيا الراحلة إلى أرض الأرواح؟».

قالت جوزيت: «لماذا ينبغي أن تختار أحد أزواجها، في حين يمكنها الانتقاء من بين أزواج سيدات أخريات كثيرات؟».

قالت سنو: «فضلاً عن أولئك غير المرتبطين أيضاً».

وافقت السيدة بيس: «لديها بعض الخيارات».

«ماذا عنك يا جدتي؟».

رمقت جوزيت وسنو بعضهما بنظرات ذات مغزى.

قالت السيدة بيس: «أوه، أنا. بقيت مخلصة لجدكما طوال حياتي».

التزمتا الصمت، بدافع الاحترام والشفقة في آنٍ معاً. لكن رغم هذا شعرت جوزيت بالفضول.

«لماذا بقيت مخلصة إلى هذا الحد؟».

«أوه، لم أكن صالحة جداً، لقد تعبت منهم فحسب. الرجال. إنهم مرهقون. ستكتشفان هذا بنفسيكما».

قالت سنو، التي لا تزال تحتفظ بقلنسوة صديقها المصارع الخائب معلقة في مؤخرة خزانتها: «نعرف هذا أصلاً».

في طريق عودتهما إلى المنزل، توقفت سنو وجوزيت لاصطحاب ماجي معهما. دخلت الفتيات إلى المطبخ وأخذن جزراً وتوابل وذهبن إلى غرفة نومهن حاملات وعاء. سحبت سنو مغلاق القفل الصغير عبر إطار الباب، وشعرن بأنهن في مكان خاص بهن. استقرّت على سريرها، رشيقة مثل ظبية، ومسّدت شعرها الطويل بأصابعها، وكوّرت نفسها حول ساقيها الطويلتين، وقضمت جزرة صغيرة.

«ممممم؟». كان فمها مملوءاً بالجزر، ولكن وجهها رزين.

رفعت ماجي بصرها إلى السقف. كانت سنو وجوزيت تتصرفان بغرابة في السيارة في طريقهن إلى هناك، ولم تكونا مرحتين أو مرتاحتين. كان هناك شيء يجري بينهما. تنحنحت جوزيت، ولكنها بدأت السعال ومالت فوق السرير، ثم ضحكت حتى توقفت نوبتها. كانت ترتدي جينزاً ضيقاً. قفزت من مكانها، ونزعت ثيابها، وارتدت كنزة فضفاضة. إذاً قد تكون الأمور بخير؟ لكن جوزيت تكلمت فجأة.

«ما الأمر يا ماجي، هل تفعلين ذلك الشيء مع وايلون؟».

قالت ماجي، مرتاحة بعد أن عرفت الأمر: «حسناً، نعم».

قالت سنو: «هل تقيمان علاقة كاملة، للتوثّق فحسب».

قالت سنو: «صحيح».

بدأت سنو وجوزيت تفقدان السيطرة.

«أوه يا إلهي! أيتها الفتاتان! توقفا!».

وضعت ماجي وسادة فوق رأسها وابتعدت عنهما. بعد لحظة، توقفت جوزيت عن الضحك وأبعدت الوسادة عنها.

«ليس هذا كل شيء أيضاً».

قالـت سـنو: «هيـا، ثقـي بنـا. هـل تعرفيـن مـا ينبغـي أن تفعليـه؟».

قالت ماجي: «بالطبع».

«نظرياً أم واقعياً؟».

«ماذا تقصدان؟».

«أنـا أتكلـم عـن أطبـاء، ووسـائل، وطـرق، ومنـع الحمـل وكل تلـك الأشـياء. هـل تعرفيـن كيـف تحصليـن عليهـا؟».

«بالطبع لا».

«أوه يا عزيزتي».

نظرت سنو وجوزيت إلى عيني بعضهما.

قالت جوزيت: «أولاً، سأتكلم وسنو مع وايلون قليلاً».

«لا!».

«حديـث ودي فقـط. ينبغـي أن يعـرف أننـا لـن نتركـه يخـرج رفقـة أختنـا إلا إن كان يعـرف مـا يفعلـه. ثـم يجـب أن ينتظـر، وسـنقرّر إلـى أيـن سـنذهب، أعنـي، ربمـا تذهبيـن إلى مستشـفى يسـوع المخلـص. هنـاك طبيبـة مختصـة ستشـرح لـك. هـي لا تريـد أن تصيـري أمـاً فـي المدرسـة الثانويـة. أضيفـي إلـى ذلـك، هـل تعرفيـن مـدى خطـورة ـ مـاذا قالـت ـ أن تقـوم فتـاة يافعـة بإنجـاب طفـل فـي غرفـة ولادة فـي نظـام رعايـة ريفـي؟ نعـم، هـذا مـا قالتـه. لكـن هـذه الطبيبـة إنهـا تأتـي وتذهـب. نعـرف

كيف نجعلك تقابلينها. هناك مستقبل ينبغي أن تفكري بشأنه يا ماجي، هل سمعت؟».

* * *

رتّب هوليس الكراسي، وأبعد معدّات زراعة المرج العشوائية، والمضارب البلاستيكية، وأشياء لا تنسجم مع المناسبة. تحرّك بسرعة ورشاقة، وفعل أي شيء أردنه. الحفل من أجله! مشى بنشاط، وتلقى الإرشادات. حفل تخرج. كان لا يزال يجهل ماهية شعوره، وبدا أن تجهّمه ونكده قد تراجعا كثيراً. ضبط نفسه يبتسم. كان موعد حفله في العطلة الأسبوعية التي تسبق التخرج في المدرسة، والجميع سيقيم حفله آنذاك، أو في الأسبوع التالي، والكل يقومون بجولاتهم في ذلك الوقت. كان حفل هوليس بعد ظهر يوم الأحد، في الوقت الملائم تماماً لحضور كل من سيشارك في حفل الليلة السابقة، وسيكونون بحاجة إلى حساء للتخلص من آثار الشراب، وإلى مزيد من الطعام، ولكنه لن يكون ذلك النوع من التجمّع الذي سيستمر طوال الليل. كانت صور متفوقي التخرج قد نُشرت في الصحيفة. عرف الجميع المنازل التي ستقام فيها حفلات. سيكون هناك عدد كبير جداً من الضيوف، ولم يكن أحد يعرف عددهم بالضبط. استعاروا حتى ذلك الوقت عشر قدور للطهي، وقد جلبت إيمالاين علبة من صلصة شواء ديف الشهيرة، التي انقضت مدة صلاحيتها.

«صلصة الشواء لا تفسد إطلاقاً، صحيح؟».

«أبداً!».

كان ديف الشهير بطلاً ثقافياً، ومتعهد شواء أوجيبوا ناجحاً، ولديه سلسلة منافذ بيع.

قامت إيمالاين بوصل قدور الطهي الكهربائية إلى كل مقبس متوافر في المطبخ، ووضعت القطع الكبيرة من لحم البقر داخلها، وغطّتها بالصلصة، وتركتها على نار هادئة طوال الليل. في يوم الحفل، استيقظ الجميع وشمّوا رائحة الشواء الطاغية. لم تكن، بأي حال، رائحةً ملائمة لإيقاظ النائمين، لذا فتحوا النوافذ. فصل لاندرو لحم الشواء باستخدام شوكتين وأبقاه في القدور. بحلول بعد الظهر، سيكون جاهزاً تماماً. كانت إيمالاين قد حضّرت آنذاك حساء كرات اللحم وجمّدته. سيقدّمون حساء اللحم، الذي يفضّله كبار السن.

كانت الأعشاب الضارّة، التي تم قصّها باستمرار، تشبه المرج آنذاك، وهناك مساحة مستوية، وأخرى ممهدة، ونوع غير مرغوب من الحشائش. جلبوا طاولات بلاستيكية قابلة للطيّ من مدرسة إيمالاين ووضعوها على حدود الساحة، إضافة إلى كراسي حدائق، ومقاعد خشبية، وأخرى مطوية. وضعوا تعريشة عند طرف الفناء، وقالت إيمالاين إنها استثمار. كانت أربع حفلات تخرّج أخرى ستقام لاحقاً، بالمحصلة، في الأعوام القادمة. وضعت جوزيت ملاءة باور رنجرز البالية الخاصة بكوتشي على مائدة الطعام، ثم أزالتها، وطوتها.

«ليست بهيجة».

قالت إيمالاين إن بمقدورهم استخدام ملاءتها الكبيرة المزينة بالورود.

تأثرت جوزيت بذلك كثيراً.

«لكن يا أمي، الناس سيريقون أشياء عليها، وستتعرّض ملاءتك المفضلة للتلف».

«سأغسلها جيداً بعد ذلك».

«لا، سأضع ملاءتك على طاولة البطاقات والهدايا».

طوت جوزيت ملاءة سرير والديها مرتين، ووضعتها على طاولة البطاقات. مدّت ملاءتها الحمراء القرمزية البسيطة على طاولة الطعام الطويلة والمستطيلة. لم تكن صلصة الشواء ستظهر عليها بسهولة. استخدموا ملاءة باور رنجرز لتغطية طاولة السَّلَطات. تراجعت جوزيت إلى الخلف، وأمالت رأسها إلى الجانب. كان للطاولات تأثير رائع، بوجودها هناك وتلك الأقمشة التي تغطيها تماماً وتخفي قوائمها. تخيّلت أين سيضعون الطعام. قدور الطهي الكهربائية على الطاولة البنفسجية، وشرائط طويلة متصلة بأسلاك أخرى تمتد إلى نوافذ المنزل، وتبقي اللحم دافئاً. سيتم تقديم الخبز بجانب اللحم في أوعية ألومنيوم كبيرة، ولا تزال الكعكات في أكياسها البلاستيكية لذا ستبقى طرية. كانت قد اشترت تلك المزوّدة بكمية أكبر قليلاً من بذور السمسم. كان هناك أيضاً سَلَطات أخرى

عاديـة، ومعكرونـة، وخـسّ، وسـلطة البطاطـا خاصتهـا غيـر المعروفـة تمامـاً.

قبـل يـوم مـن الحفل، طلبت جوزيت مـن هوليس وكوتشي تقشـير كيسـي بطاطـا زنـة كل منهمـا عشـرون رطـلاً. قطعتهـا إلـى قطـع بحجـم اللقمـة وسـلقتها، ولكـن لـم تجعلهـا طريـة جـداً. فـي الليـل، تركـت وعـاء البطاطـا الكبيـر يبـرد منقوعـاً فـي الزيـت، والخـل، والملـح، والفلفـل، وشـرائح البصـل. وضعتـه فـي القبـو، فـوق الغسـالة، وغطّتـه بمناديـل ورقيـة نظيفـة. رفعـت جوزيـت آنـذاك الغطـاء وجلبـت البطاطـا البـاردة إلـى الأعلـى. بحـرص، أضافـت إليـه المايونيـز مـع كميـة كافيـة مـن الخـردل لمنحـه ذلـك اللـون الذهبـي المميـز. لكـن مـن دون أن تكـون نكهـة الخـردل طاغيـة عليـه. قطعـت محتويـات مرطبانيـن مـن المخلـلات إلـى مكعّبـات، وأضافتهـا إلـى ذلـك المزيـج أيضـاً. كانـت سـنو قـد سـلقت اثنتـي عشـرة بيضـة، وغمرتهـا فـي مـاء بـارد حتـى لا يصيـر مُحُّهـا أخضـر اللـون. وضعتـا آنـذاك شـرائح البيـض فـوق السـطوح الصفـراء المقعّـرة لأوعيـة السَّـلَطة البلاسـتيكية الكبيـرة الخضـراء والبرتقاليـة والزرقـاء، ثـم رشّـتا فلفـلاً أحمـر حلـواً فوقهـا. سـحبت جوزيـت قطعـة بطاطـا بـارزة مـن الطبـق، وأكلتهـا. أومـأت إلـى وعـاء السـلطة بعبـوس وبـطء.

بعـد أن أخـرج الفتيـة مبـردات المشـروبات الغازيـة، المغطـاة بقطـع مـن الثلـج، والقـدر الكبيـر مـن الأرز البـري وعلبـة الـورق المقـوّى مـن الخبـز المقلـي، وبعـد فتـح قطـع

الحلوى بطعم العليق، ووضع السكاكين والملاعق والأشواك في أكواب قهوة، وبعد فتح الأكياس البلاستيكية من قطع الهمبرغر وتجهيزها، وجلب سلطة البطاطا، والأواني المغطاة بمناديل المائدة، أخرجت جوزيت وسنو الكعكات. تبين أنها جميلة جداً! كانت الحروف البارزة تبدو مقرمشة بسكر التزيين، وكعكة الشهادة مدوّرة تماماً عند الطرفين. بدا اللون الصحراوي في الكعكة الثالثة ملائماً تماماً، وقد جعلته جوزيت منسجماً مع بزة هوليس الرسمية من دون أن يعرف ذلك. لكن غيّرت الحروف، ونزعت منها «امضِ قدماً». لم تكن هناك كلمات على الكعكة؛ لأنه لا توجد كلمات.

كانت تتابع وحدات الحرس الوطني في داكوتا الشمالية: كتيبة الهندسة الحربية 142 قد عادت من العراق في منتصف ليل 27 أبريل. كانت واثقة تماماً بأنهم يتولّون مسؤولية تسيير دوريات على الطرق بحثاً عن عبوات ناسفة.

وضعت سنو وجوزيت كعكةً عند نهاية كل مائدة طعام، بجانب آنية من البنفسج الطازج. كانت هناك سكين كبيرة، ومناديل، وأطباق ورقية، وملعقة كبيرة لكل كعكة. تراجعتا خطوة إلى الخلف، ونظرتا إلى كل شيء. لم تكونا ستنزعان الأغلفة البلاستيكية عن الكعكات، أو تقطعانها، إلى أن يراهما الجميع، وبعد أداء أغنية الشرف، وقيام الجميع بإلقاء خطبهم، وتهنئة هوليس.

أوقف الضيوف سياراتهم على الممر الترابي، ثم الأعشاب، ثم المنطقة الخالية من العشب، ثم على طول الطريق الرئيسي. توافد طلاب المدرسة الثانوية؛ لأن الجميع يحبون هوليس ويعرفون أن أسرته ستقيم وليمة كبيرة، وسيقدّمون كميات كبيرة من الطعام. جاؤوا بعد أن وضعوا علب جعة في صناديق سياراتهم، وحملت الفتيات بطاقات تخرّج من أجل هوليس. وصلت السيدة وبيد ومالفرن، برفقة سام إيغلبوي بسيارته أولدزموبيل الكستنائية البطيئة. جاء زاك، خارج وقت العمل آنذاك. أقلّت باب أوتي، ومشى لاندرو بخطوات واسعة للمساعدة في إخراج كرسي أوتي المتحرّك من الصندوق وجعله يجلس عليه تحت العريشة في الساحة الخلفية، مع كبار السن، حيث يمكنهم رؤية ما يفعله الشباب.

قالت باب: «لا تضع أوتي قرب تلك الشابات الجميلات. سيحاولن اختطاف رجلي».

لمس أوتي يدها.

كان آباء الشباب يصلون تباعاً، وجاء إخوتهم وأخواتهم الأصغر سناً أيضاً، وخرجوا من السيارات ليتسابقوا نحو الوجبات الخفيفة. مشى بيتر، ونولا، وماجي إلى المنزل. صافح بيتر كل الموجودين، ثم جلب كرسياً قابلاً للطي من أجل نولا، وجلسوا معاً قرب العريشة، تحت الظل، عند طرف الساحة. ظهر الكلب بعد وقت قصير وجثم قربهم، ومال بازدياد نحو كاحل نولا حتى لمسه. كانت قد قرّرت

المجيء إلى الحفل، على الرغم من أن ذلك لم يكن يبدو منطقياً. كان هناك شخص آخر مع جسد نولا، وصوتها واسمها. بدأت تأكل طبقاً من اللحم بصلصة الشواء، والكلب يتحرّك حول كاحلها. مسح بيتر العرق عن صدغيه، وبدا أنه مصاب بالدوار. كان الوجود هناك مجهداً بالنسبة إليه، ولكن لاندرو دعاه، من دون أن يقول كلمة واحدة عمّا حدث. هل كان ذلك تقليداً خاصاً بلاندرو أو أنه يعني أن الحياة ينبغي أن تمضي قدماً؟ وضعت ماجي بطاقة التهنئة بالتخرّج مع صك بقيمة عشرين دولاراً في سلة هوليس، ثم وقفت خلف الطاولات لتساعد أختيها في توزيع الطعام. بعد قليل، رأت نولا الفتى الضخم الذي ساعدهم ببعض الأعمال أحياناً. وقف وايلون بجانب ابنتها، ومال نحوها، وقال شيئاً. رفعت ماجي بصرها إليه ووضعت الملعقة جانباً.

فكّرت نولا: «أرى ذلك، وأفهمه».

استوعبت ما يجول في نفسها وفهمت، بطرق ما، ابنتها.

وصل روميو فجأة إلى الحفل. ربما ركن سيارته في مكان بعيد على الطريق، أو جاء مع شخص آخر. جلس مع كبار السن. كان سام إيغلبوي يتكلم عن «المهمة أنجزت». قال روميو إن بوش بدا بحال رائعة في بذلة القفز المظلي، ثم تغير صوته. لقد ماتت إحدى الأمهات من قبيلة هوبي الهندية أولاً، هل هناك إقرار بالتضحية؟ التواضع؟

حدّق كبار السن إليه، وأومأوا.

قال روميو: «حرب مئة اليوم».

شعر بأنه يكاد يفقد وعيه فجأة. هذا غريب! نهض ومشى متثاقلاً إلى حافة الساحة ووقف ناظراً إلى الغابة الخضراء الكثيفة. فكّر أن ذلك هو بيتنا، الذي جئنا منه، في حين نعيش الآن حياة رغيدة، وفتياننا يقاتلون مرة أخرى من أجل ما كانت سابقاً راية العدو. لم يعودوا يبذلون جهداً لتفادي السخرية، أو الحصول على اللحم. بات لديهم آنذاك قدور تعمل بالكهرباء مملوءة به، إضافة إلى كل تلك الأطعمة الأخرى. هناك لاندرو، الذي كدت أقتله، لذا ينبغي أن أكون راضياً بذلك. وإيمالاين التي تعرف أنني كدت أتسبّب في قتل رجلها، التي لن تحبني أبداً. لكن هوليس، هوليس الذي كان أفضل ما لديّ وتركته يذهب من بين يديّ. إنه هناك، وقد بات رجلاً راشداً، في حين قضيت كل تلك الأيام حتى جاءني الإدراك أخيراً. عملي يؤثر إيجاباً عليّ، والألم في جسدي قد بدأ يخفت على نحو غريب أثناء تجوّلي في المكان؛ كأنني تعلّقت بأفكار خاطئة منذ سقط لاندرو فوقي، ولكن بدأت أصحّحها منذ ألقيت نفسي على درجات الكنيسة.

كان روميو قد نهض عن درجات الكنيسة، ووقف مثل شخص ميت ومشى بمفرده، من دون ألم، ومن دون عدو معروف قديم، إلى أسفل التلة. شُفيت الكدمات بانقضاء الأيام. لم تؤلمه كثيراً؛ لأنه كان لا يزال يحتفظ ببعض الأدوية، ولكن آنذاك؛ لا شيء. لم يعد يحتاج إلى كمية كبيرة منها،

ثـم لا شـيء منها تقريباً. شـيء صـادم، كأن عظامه تتحرّك ببطء، داخلـه، وتعـود إلـى مكانهـا. علـى امتـداد ثلاثيـن عامـاً مضـت، كان لانـدرو قـد تخلّـى عـن مسـاعدته علـى جسـر مينابوليـس، وقـد حطّـم الجانـب الأيمـن مـن جسـده حيـن سـقط عليـه بعنـف. قبـل أسـبوعين، رمـى روميـو نفسـه فـوق مجموعـة درجـات إسـمنتية، واسـتقر علـى جانبـه الأيسـر. ثـم نهـض واكتشـف أنهـا أعجوبـة، بـات كل شـيء فـي مكانـه. لـم يكـن هنـاك أحـد ليشـاهد مـا جـرى، أو ليشـفق عليـه، والمؤسـف أنـه لـم يكـن هنـاك أحـد بجانبـه ليتأثّـر بالحادثـة. لـم يقتلـه السـقوط بطريقـة مـا، وإنمـا عالجـه، وأعـاد كل شـيء إلـى مكانـه. كان ذلـك هـو شـعوره، وأن ترتيبـاً داخليـاً غامضـاً يجـري آنـذاك. بـات روميـو أكثـر هـدوءاً فـي المركـز، وبمقـدوره أن يتـوازن أثنـاء إغـلاق عينيـه، وهـي صفـة يتمتّـع بهـا متسـلق جبـال سـليم ومُعافـى.

لحقَـت بـه، خلـف كبـار السـن، مـن دون أن تنتبـه إلـى أن العجائـز أو أمهـا قـد لاحظـت مـا يفعلانـه، وأنهمـا مسـتغرقين تمامـاً فـي التركيـز علـى نفسـيهما. انسـلّت ماجـي مـع وايلـون إلـى الغابـة.

حصـل لاروز علـى ريشـة نسـر وقوقعـة محـار تحـوي أعشـاب مريميـة مكـوّرة بداخلهـا. تجـوّل فـي المـكان لتبخيـر الطعـام. وجّـه الدخـان المبجّـل فـوق أوعيـة الطهـي الكهربائيـة، والقـدور الخزفيـة، والكعـكات، والطـاولات، وسـلّة البطاقـات. ذهـب إلـى كبـار السـن، الذيـن دفعـوا الدخـان بأيديهـم فـوق رؤوسـهم، وكذلـك فعلـت شـقيقتاه وهوليـس. ثـم تحـوّلـت

المريميـة إلـى رمـاد. جلـب لاروز طبقـاً عليـه كميـة صغيـرة من كل نـوع من الطعـام، وحتى قطعـة مـن إحـدى الكعـكات، وحزمـة تبغ. ذهـب إلى طـرف السـاحة ودخـل بيـن الأشـجار، ووضـع الطبـق أرضـاً عنـد قاعـدة شـجرة بتـولا. وقـف بجانـب الشـجرة، محدّقـاً عبـر الأوراق الجديـدة إلـى البقعـة التـي قـد مـارس طقوسـه فيهـا، حيـث زاره دسـتي وكل الآخريـن. لـم يعـرف لاروز مـا ينبغـي أن يقولـه لهـم؛ إن كانـوا هنـاك. أوه، حسـناً، سـيعاملهم مثـل أشـخاص عادييـن.

قال بصوت هادئ: «أنتم مدعوون».

عندمـا عـاد، وجـد السـاحة حـول المنـزل مكتظـة بأشـخاص يتكلمـون، ويملـؤون أطباقهـم بالطعـام، ويضحكـون ويقهقهـون، مثـل، حسـناً، مجموعـة مـن الهنـود. كان عـدد كبيـر مـن النـاس يأكلـون، ولـم يعـد هنـاك أي كرسـي شـاغر، وقـد امتـلأت درجـات المدخـل الخلفـي، ثـم الأمامـي، بهـم أيضـاً. تـم وضـع مناشـف علـى سـطوح السـيارات حتـى لا تتلطـخ تنانيـر الفتيـات بالغبـار. وقـف النـاس يتكلمـون حامليـن أطباقهـم بأيديهـم، وقـد أكلـوا كل شـيء؛ لأن الطعـام كان شـهياً. قـال الجميـع ذلـك: «طعـام شـهي». جلـب النـاس أشـياء مختلفـة أيضـاً: أرغفـة خبـز، ورزمـاً مـن رقائـق البطاطـا، وكميـات مـن الصلصـة والبسـكويت.

عندمـا حـان وقـت الكعـكات، طلـب لانـدرو مـن هوليـس الاقتـراب منهـا. مشـى هوليـس آنـذاك عبـر الحشـد، ووصـل إلـى حافـة السـاحة، ووقـف أمـام روميـو.

قال روميو: «نعم؟».

أمسك هوليس ذراعه.

«أنا؟».

«تعال».

عندما سار هوليس مع روميو ليقف معه بجانب الكعكات، أدرك روميو ما يجري! كان مكتوباً في سجل حياته أنه سيمشي يوماً ما في الهواء. كان هناك، يكاد يطفو أمام ذلك التجمّع من البشر. مرَّ كل شيء أمامه ببطء، واستطاع رؤية كل تفصيل. القمصان مرفوعة الردنين، والفتيات في فساتين جميلة، صفراء ووردية. كان هناك، يتجاوزهم بجانب ابنه، بكل بساطة، من دون أن يتمايل أو يهتز. وقف أمام الطاولات، مشدود القامة من أعلى رأسه على أخمص قدميه، بجانب ولده، من دون حدبة. هل لاحظ الناس؟ لا بد أنهم لاحظوا، ولكن لم يعلق أحد منهم. غمر روميو شعور قوي بالموقف آنذاك. وقف راسخاً، وثابتاً تماماً هناك. كان يبتسم، ربما، وقد وضع يده على وجهه ليتوثّق من أن ذلك حقيقي.

عادةً، في مثل تلك اللحظة، كانوا يطلبون من الأب ترافيس أن يبتهل بدعاء من أجلهم. لم يكن أحد قد فكّر في دعوة القس الجديد. استاء الناس من تعيين قس يدعى الأب بوهنر. أين يمكن أن يذهب غير هذا المكان؟ ولا يمكن مخاطبة القس الجديد بالأب ديك؛ لأن ذلك ليس ملائماً.

وقفت إيمالاين على الجانب الآخر من هوليس. كان بصرها ثابتاً على لاندرو بطريقة عادية، ليس فيها شغف، ولكن من دون نفاد الصبر المرير المعتاد. لاحظت جوزيت ذلك.

غنّى لاندرو أغنية الشرف. كان صوته صافياً وجميلاً. كالمعتاد، بثَّ صوته الدفء في الناس. ثم طلب من روميو أن يقول بضع كلمات.

كان ما ينبغي فعله في تلك اللحظة هو الحديث من القلب. تجمّد روميو في مكانه. كان الناس يقولون دائماً تحدّث من القلب. ماذا يعني ذلك؟ أن يتكلم مما يعدّه قارورة محطّمة، أو حذاءً تالفاً، أو مضغة لحم رخيصة في صدره؟ أن يتكلم من أشجان آماله؟ حسناً إذاً، أوجز. طرفت عينا روميو خوفاً. مشى بتثاقل عدّة خطوات، ووضع يده على فكّه.

«هو ...». أومأ روميو إلى لاندرو.

«أنا ...». أومأ إلى هوليس.

قال روميو: «لم أكن أباً صالحاً، أنا، أو أملأ فراغ الأم. لا يكون لدى بعض الناس أي خيار أحياناً». بات صوته أقوى قليلاً.

قال روميو: «لا بديل عن التواضع؛ لأنني لا أعرف كيف أنجز الأمر كما ينبغي. أقول ما أراه فقط، وهذا ما أنا عليه. لذا عندما إيمالاين ...».

أمال روميو رأسه نحو إيمالاين.

«عندما أرادت إيمالاين ومعلّمتي القديمة، معلّمتي الشابة، هاها، السيدة بيس الموجودة هناك، وعندما أراد لاندرو ذلك، أخذوا ابني وتولوه بالرعاية. وهو أمامكم الآن، في يوم تخرّجه في المدرسة». كان صوت روميو يختنق، فأغلق عينيه.

«ليس لديّ الكثير لأقدمه، على المستوى الشخصي. يقول الناس إنني أحمق، وإن تلك مكرمة. لكنني اندهشت حين حظيت بعملٍ هذا العام، والمدهش أكثر أنني احتفظت به. لم أعد مهملاً، الآن، وقد ادّخرت بعض المال في المصرف».

مدَّ روميو يده إلى جيبه الخلفي، وأخرج دفتر صكوك بلاستيكي بني اللون. أمسك الدفتر بكلتا يديه، ومال على نحو شعائري. قدّم الدفتر إلى هوليس، الذي قبله متفاجئاً.

قال لهوليس: «فيه ثلاثة آلاف. لقد عانيت من شظف العيش، ولكن يمكنك أن تبدأ دراستك بهذا المبلغ. اترك الحرس الوطني يا بني».

تقدّم هوليس خطوة إلى الأمام، ووضع ذراعيه حول روميو، وعندما تعانق الاثنان، سمع روميو الناس يصفقون.

فكّر روميو، بعد أن انفضَّ العناق وتراجع إلى الخلف، أن تباً لي. كانت مشاعره تكاد تنفجر داخله.

قال روميو فجأة، بصوت عالٍ، وهو يفتح ذراعيه: «ستكون أمه فخورة جداً به».

كان هوليس ينظر إلى والده بتركيز.

«من هي؟».

«كاريزما بحرف ك، ولي بحرف ي. كاريزما لي».

«كاريزما لي؟ هذا مثل ...». كاد هوليس أن يقول اسم راقصة، أو غانية، ولكنه أحجم، مرتبكاً.

قال روميو: «نعم، فقدتها حين ذهبت لدراسة الدكتوراه في جامعة ميشيغان».

قالت جوزيت، وهي تلمس ذراع أمها: «لنأكل الكعك الآن. لا مزيد من الخطب».

«انتظري!».

تقدّم سام بهدوء إلى الأمام حاملاً ريشة نسر. كان ذيل نسر ذهبي بالغ، مزيناً من الأسفل بزغب يتدلّى إلى الأسفل.

همّست مالفرن: «أجمل ريشة أراها في حياتي». لوّح سام بتلك الريشة تحت أشعة الشمس، ثم رفعها نحو هوليس.

واجه سام هوليس وتضرّع بدعاء بالأوجيبوا. أسكت كل منهم الجميع. لم يسمع الأشخاص الذين يفهمون الأوجيبوا ما يقوله، ولكن سام كان يتكلم مع هوليس مباشرة. أصغى لاروز بانتباه شديد.

انتاب لاروز إحساسٌ بأنه مع أولئك الناس الآخرين

أثناء استماعه إلى ذلك الكلام، وأنهم قد خرجوا من الغابة. تجوّلوا هناك ووقفوا خلفه، وشعر بتعاطفهم وفضولهم. عندما اقتربوا منه، لاحظ لاروز أن ألوان الثياب التي يرتديها الأحياء أبهى وأزهى. لكن سمع بوضوح كل كلمة قالها الأشخاص الآخرون، على الرغم من أنها بدت كلها ثرثرة غير مفهومة. شاهدهم يتحرّكون معاً وبمفردهم، عابسين أو ضاحكين، في رقصة فرح بدأت وانتهت في اللحظة نفسها، ثم تحرّكوا مجدداً. خرج مزيد من هؤلاء الناس الشفافين من بين الأشجار ووقفوا مع الآخرين. أراد دستي بعض الكعك، وأخبره لاروز أن بمقدوره الحصول عليها، لذا مشى إلى هناك وأخذ قطعة منها. لم يلحظ أحد وجود دستي باستثناء الكلب، وربما أم دستي، التي استدارت باتجاهه وابتسمت بطريقة مرتبكة. قالت المرأة الغابرة التي تضع ريشة في قبعتها: «انتظر، سيجلبون رزمة وسيكون فيها عظامي العتيقة». مشت إغناشيا ببطء، ولكن من دون أوكسجين آنذاك. قالت امرأتان لا يتذكّرهما، بعاطفة جيّاشة: «ماجي تلك، انتبه لها». تكلم آخرون عن أن هوليس وجوزيت يكوّنان ثنائياً رائعاً، وكيف أن أوتي قد طلب منهم أن يقفوا بجانب البوابة في إحدى الليالي. كان سيذهب معهم قريباً. انظر إليه فحسب، فهو في طريقه إلينا. جلسوا على كراسي مصنوعة من الهواء وحرّكوا مراوح من أوراق شفافة أمام وجوههم. تكلموا كلتا اللغتين.

«نحن نحبك، لا تبكِ».

«الأسى يستنفد الوقت».

«تحلَّ بالصبر».

«الوقت بلسم الأسى».

قدّمت جوزيت أولى قطع الكعكة.

قال هوليس، وصوته مشحون بالعاطفة: «هذه أجمل كعكة على الإطلاق».

«انتظري! انتظري أغنية الكعكة!».

قالت جوزيت: «أوه، لا. أغنية الكعكة؟».

كان ذلك راندال، الذي جاء متأخراً، ولكن سار إلى المقدمة مباشرة ليقف مع لاندرو. كان يحمل طبلة صغيرة، ويرسم على وجهه ابتسامة كبيرة. بدأ راندال ولاندرو غناء أغنية عن حلاوة الكعكة، وأنها مملوءة حلواً مثل الحياة التي تنتظر هوليس، مثل الحب الذي يكنّه الجميع لهوليس، والحب الذي يشعر به هوليس تجاه قومه. كانت أغنية طويلة، وقد وقف هوليس هناك أمام الجميع، يشعر بأنه أحمق قليلاً، ممسكاً قطعة من الكعكة. كان يومئ بجدّية، ولكن يشعر بسعادة تغمره في تلك اللحظة، على الرغم من صعوبتها، وعذوبتها. بقي مبتسماً طوال وقت إنشاد الأغنية.

قالت جوزيت، وهي تسير حول الطاولة، لا تزال ممسكة بملعقة الكعكة: «على كل حال، يمكن أن تترك الحرس الوطني في الحال، صحيح؟».

قال، مندهشاً: «مستحيل، لقد وقّعت الأوراق».

«أوه، هوليس».

كانت جوزيت تحدّق إلى الأمام مباشرة، وواقفة بجانبه، وصوتها أنثوي مثل امرأة راشدة.

الكاتبة

لويز إردريتش كاتبة، لديها خمس عشرة رواية، إضافة إلى مجلد شعر، وكتب أطفال، وقصص قصيرة، وسيرة ذاتية عن الأمومة الباكرة. حازت روايتها المنزل الدائري The Round House الجائزة الوطنية للكتاب عن فئة الأدب القصصي. وحازت محنة الحمائم The Plague of Doves جائزة أنسفيلد ولف للكتاب، وظهرت في القائمة النهائية لجائزة البوليتزر، في حين حازت باكورة أعمالها الروائية دواء الحب Love Medicine الجائزة الوطنية لجمعية ناقدي الكتب. تلقّت إردريتش جائزة مكتبة الكونغرس في الأدب الأمريكي، وجائزة سول بيلو للإنجاز في مجال الأدب الأمريكي، وجائزة السلام من مكتبة دايتون. تعيش في مينيسوتا مع بناتها، وتمتلك بيرتشبارك للكتب، وهي مكتبة مستقلة صغيرة.